

أثر القواعد النحوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية في
" جواهر الأفكار لابن بدران "

The Effect of Syntactic and Rhetoric Rules in
Interpretive Choices in "Jewels Ideas of Ibn Badran"

إعداد الطالب : حسام خليل يوسف الخوار

الرقم الجامعي : 401220129

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الرؤوف زهدي

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم

جامعة الشرق الأوسط

أيار - 2015 م

قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	الغلاف
ب	التفويض
ج	قرار لجنة المناقشة
د	شكر وامتنان
هـ	الإهداء
و- ز	الملخص باللغة العربية
ح - ط	الملخص باللغة الإنجليزية
ي- ك - ل - م	قائمة المحتويات
الفصل الأول : الإطار العام للدراسة	
6-1	مقدمة الدراسة
7	مشكلة الدراسة وأسئلتها
7	أهداف الدراسة
7	أهمية الدراسة
7	حدود الدراسة
11-8	مصطلحات الدراسة
12	منهجية الدراسة
12	الطرق والإجراءات
13	نشأة النحو وتطوره
16-13	عوامل نشأة النحو
17-16	واضع علم النحو
20-17	تطور علم النحو
22-21	نشأة علم البلاغة

25-22	أطوار نشأة علم البلاغة
26-25	أقسام علم البلاغة
27	نشأة علم التفسير
34-27	مراحل التفسير
36-35	العلاقة بين النحو والبلاغة
43-37	العلاقة بين " النحو والبلاغة " والتفسير
47-43	ضوابط التفسير باللغة
48	نبذة عن حياة الإمام عبدالقادر أحمد بدران
50-49	طلبه للعلم ومشايخه
55-51	ثناء العلماء عليه وتلاميذه
57-55	مؤلفاته
58-57	مرضه ووفاته
59-58	التعريف بتفسير ابن بدران (جواهر الأفكار)
الفصل الثاني : الأدب النظري والدراسات السابقة	
80-60	الأدب النظري
83-81	الدراسات السابقة
84	ما يميز الدراسة
الفصل الثالث : الجانب التطبيقي والتحليلي للدراسة	
210-85	أولاً : أثر القواعد النحوية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران
100-85	المسألة الأولى: أثر الباء في توجيه المعنى في قوله - تعالى - ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾
108-101	المسألة الثانية: أثر اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ في توجيه المعنى في قوله - تعالى - ﴿الْمَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾

118-109	المسألة الثالثة: أثر دلالة ﴿ مِنْ ﴾ في تحريم الإسراف، أو في منع بذل المال كله، في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾
123-119	المسألة الرابعة: أثر دلالة (الذي والذين) على العهد والجنس في توجيه معنى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
138-124	المسألة الخامسة: أثر معنى (لعل) في توجيه معنى قوله - تعالى - : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
149-139	المسألة السادسة: أثر الخلاف في عود الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ على إعجاز القرآن والتحدي به.
165-150	المسألة السابعة: أثر الاستثناء المنقطع في تحديد أصل إبليس في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ۖ ﴾
188-166	المسألة الثامنة: أثر عود الضمير في تأويل حديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ " في توجيه معنى قوله - تعالى - : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾
201-189	المسألة التاسعة: أثر دلالة زمن الفعل في بيان استمرار جرائم اليهود في قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّ تَقَاتَلَتِ أُمَّيَّةَ اللهِ مِنْ قَبْلُ ﴾
210-202	المسألة العاشرة: أثر التعريف والتذكير في كلمة (حياة) في بيان استغراق تعلق اليهود بالدنيا في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
278-211	ثانياً: أثر القواعد البلاغية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران
233-211	المسألة الأولى: أثر الحقيقة والمجاز في مفهوم (المرض) في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾

243-234	المسألة الثانية: أثر الإسناد المجازي في تأويل قوله - تعالى - ﴿فَمَا رِيحَت تَجَرَّتُهُمْ﴾
252-244	المسألة الثالثة: أثر خروج كيف عن أصل دلالتها في توجيه معنى قوله - تعالى - : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾
265-253	المسألة الرابعة : أثر الكناية في توجيه معنى كلمة ﴿الرَّفَثُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾
278-266	المسألة الخامسة :أثر الحقيقة والمجاز في قوله - تعالى - : ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾
281-279	الخاتمة: النتائج والتوصيات
315-282	قائمة المراجع والمصادر

المقدمة:

إنَّ القرآنَ الكريمَ هو أصلُ العلومِ الشرعيةِ كُلِّها، وهو المعجزةُ الخالدةُ بنظمه وبيانه. وقد اقتضتِ حكمةُ الله - تعالى - أن يرسلَ رسله بلسانِ قومهم؛ ليلبَّغوا شريعته، قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:4]، وأرسلَ اللهُ خاتمةَ رسله في قومٍ عُرفوا بالفصاحة، والبلاغة ف جعل معجزته من جنسِ ما اشتهروا به، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

والله - تعالى - أنزلَ القرآنَ على نظم هو غايةُ الفصاحةِ عندهم على ما تعارفوه واعتادوه، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَشَرِيفٌ لِزَيْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [نزلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ ١٩٣ ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١٩٤ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ ١٩٥ ﴾] [الشعراء: 192- 195]؛ ليثبت للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم، عجزهم عن مجاراته في نظمه وبيانه، في وقت كانوا فيه يتفاخرون بلغتهم وفصاحتهم التي وصلت ذروتها في عهدهم. ولقد شرفَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - اللُّغةَ العربيَّةَ بأن جعلها لغة كتابه العزيز المحفوظ من كلِّ تحريفٍ وتغيير، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]؛ فسخرَ اللهُ لكتابه من يقوم على خدمته منذ عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى يوم الدين، فقد حظي بما لم يحظ به كتابٌ في القديم والحديث؛ لذا عكف العلماء على خدمته ببيان علومه، وأحكامه، وتفسير آياته، والوقوف على مكنوناته، وكل ما يتعلَّق به، حتى أصبحت المكتبة التفسيرية من أوسع المكتبات، وأكثرها إنتاجًا، وأعمقها فكرًا. قال النيسابوري (ت850هـ) في غرائب القرآن: " ولقد انتصب جمٌّ غفيرٌ، وجمع كثير من الصحابة، والتابعين ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، والأئمة المتقنين في كلِّ عصرٍ وحين؛ للخوض في نيار بحاره والكشف عن أستار أسرارهِ، والفحص عن غرائبهِ، والاطلاع على رغائبهِ نقلاً، وعقلاً، وأخذاً، واجتهاداً، فتباينت مطامح هماتهم، وتباعدت مواقع نياتهم، وتشعبت مسالك أقدامهم، وتفننت مقاطر أقلامهم

¹ الجُرْجَانِي، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ)، دَرْجُ الدَّرَجِ فِي تَفْسِيرِ الْآيِ وَالسُّورِ، تحقيق القسم الأول طلعت صلاح فرحان، القسم الثاني مُحَمَّدُ أَدِيبُ شُكُورٍ أَمِيرِي، دار الفكر - عمَّان، الأردن، ط1 1430، ج1، ص24.

فمن بين وجيز وأوجز، ومطنب ومُلغز، ومن مقتصر على حلّ الألفاظ، ومن ملاحظ مع ذلك حظ المعاني والبيان ونعم اللحاظ، فشكر الله - تعالى - مساعيهم، وصان عن إزراء القادح معاليهم " (1).

وقد تنوّعت خدمةُ المسلمين للقرآن وعنايتهم به، وفي سبيل هذه العناية نشأت علوم، وترعرعت علوم أخرى، ومن أشهرها: علم التفسير، وعلوم العربيّة بفروعها: النحو، والصرف، واللغة، والبلاغة. ولما كان من أسباب نشأة بعض العلوم خدمةُ القرآن الكريم، والمحافظةُ عليه، والعنايةُ به؛ فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ ثمةَ علاقةً بين كلّ هذه العلوم؛ إذ إنّها تشتمل في مضامينها على دراسة أي القرآن الكريم.

وبما أنّ علم التفسير معنيّ بمعاني القرآن، وألفاظه أفراداً وتركيباً؛ كان لا بدّ من وضع قواعد عامّة تضبط ألفاظه، وتراكيبه من اللحن، والتّحريف، والتّغيير، في وقت كان قد دخل اللحن في لسان العرب؛ لاختلاطهم بغيرهم من الأعاجم. فظهرت علوم شتى، منها: علم النّحو؛ ليضبط اللسان، ويحفظه من اللحن.

وقد عُني العلماء بعلم النّحو أيّما عناية، وسطّروه في كتب لا يعلم عددها إلا الله، منذ نشأته إلى يومنا هذا، وقد حظي علماء النّحو بالرّفعة، والمكانة، والإجلال على ما قدّموه من حفظ اللّغة العربيّة من اللحن والفساد، وقد سَطّرت ذكراهم بصحائف كُتبت بمداد التّبجيل والتّكريم. قال ابن شبرمة (ت144هـ): "إذا سرّك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيماً، فتعلم العربيّة؛ فإنّها تجريك على المنطق، وتدنيك من السّلطان" (2).

وكان لزاماً على من يريد أن يلجّ باب تفسير القرآن الكريم أن يكون عالماً بالعربيّة وعلومها؛ فأغنى هؤلاء المفسرون كتب التفسير بالأراء النّحويّة، واللّغويّة التي كان لها أثر بارز في فهم كلام الله، وفي توجيه النصّ القرآني، ويظهر ذلك جلياً في اختلاف آرائهم في بيانهم لمعاني القرآن الكريم.

¹ النيسابوري، نظام الدين الحسين بن مُحَمَّد الحسين القمي (ت850 هـ)، غرائبُ القرآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ ، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 1416 هـ، ج1، ص5.

² ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عيد الله بن مسلم (ت276 هـ)، عُيُونُ الأَخْبَارِ، شرحه وضبطه د. يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط3 1424 هـ، ج2، ص172.

وفي سياق التدليل على أهمية علم النحو؛ إذ لا غُنيّة عنه لفهم كتاب الله ، وسنّة رسوله - صلى الله عليه وسلم-، يقول ابن هشام (ت761 هـ)⁽¹⁾ في المغني: " فَإِنَّ أَوْلَى مَا تَقْتَرِحُهُ الْقِرَائِحِ وَأَعْلَى مَا تَجْنَحُ إِلَى تَحْصِيلِهِ الْجَوَانِحِ مَا يَتَيْسَّرُ بِهِ فَهَمُ كِتَابِ اللَّهِ الْمَنْزَلِ، وَيَتَضَحُّ بِهِ مَعْنَى حَدِيثِ نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ؛ فَإِنَّهُمَا الْوَسِيلَةُ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالذَّرِيعَةُ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ، وَالذَّنْبِيَّةِ وَأَصْلُ ذَلِكَ عِلْمُ الْإِعْرَابِ الْهَادِي إِلَى صَوْبِ الصَّوَابِ " (2).

وقد عُنِيَ علماءُ النَّحْوِ بالتفسير أيما عناية منذ بدايات نشأته، بل إنَّ المُنْتَبِعَ لجهودهم في تفسير القرآن الكريم يجدها أكثر من أن تُحصى قديماً وحديثاً؛ فهذا كتاب سيبويه باكورة التأليف النَّحْوِي نَجْدُهُ زَاخِراً في تفسير آي القرآن الكريم، من خلال التَّحْلِيلِ الفَنِّي لمعاني بعض آيات القرآن الكريم؛ فيكون بذلك قد وضع اللبنة الأولى للتفسير اللغوي للقرآن الذي أعلى بنيانه علماء التفسير والإعراب- فيما بعد - . ولقد أكثر سيبويه من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، ولم يكن ذلك عارضاً وإنما كان بقصدٍ منه؛ لبيان صحّة القاعدة النَّحْوِيَّة التي تبنّاها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان في كثيرٍ من الأحيان يقف موضحاً، ومحللاً ومستنبطاً. إذن لا بدّ من إمام المفسر بهذه العلوم إذ بها تُفهم نصوص الشريعة وآيات القرآن على ما أراد الله، وتُستنبط أحكامه الشَّرْعِيَّة التي يُتَعَبَّدُ بها.

ولم يقتصر الأمر على معرفة علم النحو في تفسير القرآن فحسب؛ بل إنَّ العلماء بيّنوا أهمية العناية بعلم البلاغة لمن أراد تفسير القرآن الكريم، حيث إنَّهم ربطوا بين القدرة على التصدي لعلم التفسير، والبراعة في علمي البيان والمعاني. وهذا ما أكده الرّمخسري (ت538 هـ) في الكشاف بقوله: " واللّغوي وإنْ علك اللّغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيءٍ من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التّفقير عنهما أزمنة " (3).

¹ هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو مُحَمَّد، جمال الدين، ابن هشام: من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. من تصانيفه (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) و (عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب). انظر: الزركلي، خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد ابن علي بن فارس (ت1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج4، ص146-147.

² ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد (ت761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1424هـ، ص13.

³ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو أحمد (ت538هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3 1407هـ، ج1، ص2.

وممّا سبق يظهر لنا مدى علاقة العربيّة بالتفسير لاسيّما في أهمّ علمين من علومها: النحو والبلاغة، وكيف أنّ العلماء ألقوا المؤلّفات، وصنّفوا المصنّفات؛ خدمةً للقرآن الكريم، وبيان معانيه ومراميه، يقول أبو حاتم الرّازي (ت 322 هـ) في كتاب الزينة: " ورأينا العلماء باللّغة العربيّة قد كفّوا النَّاسَ مؤونة هذا الشّأن، وأحكموا إحكاماً بيّناً لما دوتوه من أشعارِ الشّعراء، وألقوه من المصنّفات، ووصفوه من الصّفات في كلّ ما قدروا عليه، ممّا يحتاج النَّاس إلى استدراكه... وذلك كلّه لشدّة حاجة النَّاس إلى معرفة لغة العرب؛ ليصلوا به إلى ما ذكرنا من معاني القرآن الكريم، والألفاظ الغريبة فيه"⁽¹⁾.

ولا يخفى أنّ هذه اللّغة هي لغة القرآن، وقد حُفِظت بحفظ الله لكتابه؛ لذلك فإنّها ارتبطت بالقرآن بأوثق رباط؛ إذ إنّها لا تنفك عنه ألبيّة، ولا يمكن الخوض في غمار القرآن دون الإلمام بعلوم العربيّة وفنونها، وهذا ما أكّده الرّافعي (ت 1356 هـ)⁽²⁾ بقوله: " فإنّ هذه العربيّة لغة دين قائم على أصلٍ خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأوّلون والآخرون على إعجازه بفصاحته، إلّا من لا حقل له به من زنديق يتجاهل، أو جاهلٍ يتزندق"⁽³⁾. لذلك لا بدّ من فهم اللّغة العربيّة، ومعرفتها فهي شرط في فهم القرآن وتفسيره، إذ من المُحال فهمه، وتفسيره لغير عارف العربيّة؛ لأنّه لا شكّ سيقع في الزلل، والخطأ بل سيُحرّف الكَلِم عن مواضعه.

ومن هنا تظهر أهمية بيان أثر التوجيه النحوي في العلاقة القويّة بين المعنى النحوي (الإعراب)، والمعنى الدلالي في التفسير. فقضية العلاقة بين الجانب النحوي، والجانب التفسيري من المشكلات الدقيقة التي أحسّ بها اللّغويون، والمفسرون، والدّارسون لعلوم القرآن، بل إن الدّارسين لهذه المسألة يجدون العلماء يلحّون على العلاقة القويّة بين الإعراب والمعنى. كيف لا؟! والإعراب فرع المعنى.

¹ الرّازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت 322 هـ)، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربيّة، عارضه بأصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدّراسات والبحوث البيني، ط 1415 هـ، ص 134.

² هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكُتّاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، له (ديوان شعر)، و (تاريخ آداب العرب)، تالهما (إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة) و (تحت راية القرآن) و (رسائل الأحرار). انظر: الأعلام للزركلي 7 / 235.

³ الرّافعي، مصطفى صادق بن عبد الرّزاق (ت 1356 هـ)، تحت راية القرآن، المكتبة العصريّة - صيدا - بيروت، ط 1423 هـ، ص 16.

و لقد عُني عدد من الباحثين، و الدّارسين ببيان أثر القواعد النّحويّة، و البلاغيّة في توجيه معاني الآيات القرآنيّة في تفاسير القرآن الكريم القديمة، و الحديثة. و لم يقف الباحث - بعد التّحرّي و التّقصيّ - على دراسة، أو بحث تناولت دراسة أثر القواعد النّحويّة، و البلاغيّة في توجيه معاني الآيات القرآنيّة في تفسير كتاب "جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار" لعبد القادر بن أحمد بدران، فوق اختيار الباحث عليه؛ إذ يعدّ نفيسة من نفائس التفسير المتداولة بين خواصّ أهل العلم؛ فكان لهذا الكتاب من اسمه نصيب.

وسيقوم الباحث - بعد عون الله و توفيقه - على دراسة تفسير ابن بدران؛ لتجلية المنهج النّحوي والبلاغي في هذا التفسير.

وبعد تقرّي المادة النّحويّة والبلاغيّة في هذا التفسير، ودراستها دراسة متأنية، تبين للباحث أنّه يشتمل على مسائل، وتدقيقات، وتحقيقات نحويّة، وبلاغيّة تستحق الدّراسة والتّحليل؛ لاسيّما أنّ هذه المسائل، والتّطبيقات تُبرز أثر النّحو والبلاغة في توجيه المعنى، وهذا ما اعتمده ابن بدران - رحمه الله تعالى - في تفسيره غير مُقيّد، ولا مُلتزم مذهب عالم من العلماء، أو رأي مُفسّر من المُفسّرين، فتارة يأخذ برأي عالم في توجيه معنى آية، وتارة يردّ عليه في توجيه معنى آية أخرى؛ لذلك فإنّ اعتماده في تفسير الآيات بُني على التفسير بالمأثور، وما أجمعت عليه الأمة، آخذاً بأقوال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - والتابعين، فضلاً عن اللّغة العربيّة التي أفاد منها كثيراً في توجيه معنى الآيات القرآنيّة، معتمداً عليها في ترجيحاته التفسيريّة التي يراها صواباً، وحقاً في بيان مراد الله - جلّ شأنه - من الآية. غير أنّه يقول من خالفه من العلماء، والمفسّرين وإن كان الجمهور، على الرغم من نقله لكلام العلماء والمفسّرين قبله بتمامه، وكمالته في كثير من الأحيان. وقد وافته المنية - رحمه الله - قبل إتمام تفسيره، حيث وقف عند تفسير الآية (189) من سورة البقرة. ويقع الكتاب في (552) صفحة. و أسأل الله - في علاه - أن يُقيّض لهذا التفسير من طلبه العلم المجديّن من يشمّر عن ساعد الجدّ، و يبسط راحات العمل؛ ليتمّ إنجاز هذا السّفر العظيم، الذي سنُحقّق بإتمامه الفوائد العظيمة، و الفرائد الجليّة. إنّه مولى ذلك و القادر عليه. و أسأل الله - الذي تتمّ بفضل الصّالحات - أن يجعل لنا نصيباً من ذلك.

وقد عمّد الباحث في دراسته إلى بيان مدى اعتماد ابن بدران على القواعد النحويّة والبلاغيّة في توجيه معنى الآيات القرآنيّة، مُستفصياً لبعضها من غير حصرٍ لها، من خلال ذكر المسألة، وقول ابن بدران فيها، ثم بيان الخلاف بين العلماء في تلك المسألة، واستقراء أقوال العلماء مطيلاً النَّفس في ذلك، منتبهاً ترجيحاتهم، وتأويلاتهم، ثم مبيّناً القول الرَّاجح فيما يراه الباحث، ومدى موافقته لقول ابن بدران.

و قد وقع اختيار الباحث على عشر مسائل نحويّة، و خمس مسائل بلاغيّة، و لعلّ المسائل الأخرى تشقّ طريقها للبحث في مُقتبل الأيام، لينتفع بها الأنام.

و الله الموفِّق وهو الهادي إلى سواء السبيل

مشكلة الدراسة:

ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما مدى العلاقة بين علمي النحو والبلاغة والتفسير؟
2. ما تأثير القواعد النحوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية عند بعض علماء التفسير؟
3. ما القواعد النحوية والبلاغية التي تبناها ابن بدران في منهجه التفسيري؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تجلية العلاقة بين علمي النحو والبلاغة وبين علم التفسير من خلال:

1. إظهار أهمية النحو والبلاغة في التفسير، والعلاقة الوثيقة بينها.
2. إبراز أهم القواعد النحوية والبلاغية التي أفاد منها بعض المفسرين في اختياراتهم التفسيرية.
3. دراسة القواعد النحوية والبلاغية التي أفاد منها ابن بدران وبيان تأثيرها في اختياراته التفسيرية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في النقاط الآتية:

- الأولى: أنها تمثل أنموذجاً تطبيقياً لفهم النصوص عن طريق القواعد النحوية، والبلاغية المضطردة.
- الثانية: أنها تتناول تفسيراً متداولاً بين أهل العلم، يعتمد على النحو والبلاغة في تحليل النص القرآني. ولم يحظ بعناية أو دراسة سابقة من الجهة النحوية أو البلاغية، في حدود اطلاع الباحث.
- الثالثة: إثراء المكتبة العربية بدراسة علمية مُحكَّمة تتناول موضوعاً جديداً تفقر إليه.

حدود الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على تتبع القواعد النحوية والبلاغية في كتاب " جواهر الأفكار " لابن بدران

(1420هـ - 1999م)، مُبيِّنة أهميتها ودورها في توجيه المعنى في ذلك التفسير.

مصطلحات الدراسة:

القواعد:

عرفها السُّبُكِيُّ (ت 771هـ) بقوله:

" الأمر الكَلِّي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يُفهم أحكامها منها" (1).

وعرّفها الجُرْجَانِيُّ (ت 816هـ) (2) في التعريفات بقوله:

"هي قضيّة كَلِّيّة منطبقة على جميع جزئياتها" (3).

وعرّفها الكَفَوِيُّ (ت 1094هـ) بقوله:

"قضيّة كَلِّيّة من حيث اشتمالها بالقوّة على أحكام جزئيات موضوعها، وتسمى فروعاً،

واستخراجها منها تفرّيعاً كقولنا: كل إجماع حق" (4).

إذاً، فالتعريف الإجرائي للقاعدة النُحويّة هي:

مجموعة من الأحكام النُحويّة الكَلِّيّة، التي يتم تطبيقها على ما لا ينحصر من الأحكام

الجزئيّة.

¹ السُّبُكِيُّ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط1 1411هـ، ج1، ص11.

² هو علي بن مُحَمَّد بن علي، المعروف بالشريف الجُرْجَانِيُّ: فيلسوف. من كبار العلماء بالعربية. ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور سنة 789هـ فرّ الجُرْجَانِيُّ إلى سمرقند. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفاً، منها (التعريفات) و (شرح مواقف الإيجي) و (شرح كتاب الجعمني) في الهيئة. انظر: الأعلام للزركلي 5 / 7.

³ الجُرْجَانِيُّ، علي بن مُحَمَّد بن علي (ت816هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية - لبنان، ط1 1403هـ، ج1، ص171.

⁴ الكفوي، أيوب بن موسى (ت1094هـ)، الكلبيات معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة، تحقيق عدنان درويش - مُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، ص728.

النَّحْوُ:

عرّفه ابن جنّي (ت392هـ)⁽¹⁾ بقوله:

" انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره: كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلها في الفصاحة؛ فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذّب بعضهم عنها رُدّ به إليها"⁽²⁾.

وعرّفه ابن النّاطم (ت686هـ) بقوله:

" عبارة عن العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب، أعني أحكام الكلم في ذواتها، أو فيما يعرض لها بالتركيب؛ لتأدية أصل المعاني من الكيفيّة، والتقديم، والتأخير؛ ليُحْتَرَزَ بذلك عن الخطأ في فهم معاني كلامهم، وفي الحذو عليه "⁽³⁾.

وعرّفه الجرجاوي (ت905هـ) بقوله:

" علم بأصول يُعرَفُ بها أحوال أبنية الكلم إعراباً وبناءً "⁽⁴⁾.

إذاً، فالتعريف الإجرائي للنحو هو:

علم تُعرَفُ به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً.

¹ هو إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، صاحب التصانيف. لزم أبا علي الفارسي دهرًا، وسافر معه حتى برع وصنف، وسكن بغداد، وتخرج مع الكبار. وله: سرّ الصناعة، واللمع، والتصريف، والتلقين في النّحو، والتعاقب، والخصائص، والمقصود والممدود، وما يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ، وإعراب الحماسة. انظر: الذهبي، شمس الدّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3 1405هـ، ج17، ص17-18.

² ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت392هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1، ص35.

³ ابن النّاطم، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن الإمام جمال الدين مُحَمَّد بن مالك (ت686هـ)، شرح ابن النّاطم على ألفيّة ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان ط1 1420هـ، ص4.

⁴ الجرجاوي، زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد المعروف بالوقاد (ت905هـ)، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النّحو، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان ط1 1421هـ، ج1، ص11-12.

البلاغة:

عرّفها الجاحظ (ت255هـ)⁽¹⁾ بأنّها:

"إصابة المعنى والقصد إلى الحجة مع الإيجاز، ومعرفة الفصل من الوصل"⁽²⁾.

وعرّفها العسكري (ت395هـ) بقوله:

"كلّ ما تبّلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن"⁽³⁾.

وعرّفها السكاكي (ت626هـ)⁽⁴⁾ بقوله:

"هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوخية خواص التّركيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"⁽⁵⁾.

وعرّفه الكفوي (ت1094هـ) بقوله: "هي التّعبير عن المعنى الصّحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد، ولا انتقاص عنه في البيان"⁽⁶⁾.

إذاً، فالتعريف الإجرائي للبلاغة هو: إيصال المعنى المقصود إلى المتلقّي بألفاظ فصيحة من غير تطويل أو تقصير.

¹ هو العلامة، المتبحّر، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، المعتزلي، صاحب التصانيف. مات سنة خمس وخمسين ومئتين، كان من بحور العلم، وتصانيفه كثيرة جداً. قيل: لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنّه كان يكتري دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة، وكان باقعة في قوة الحفظ. انظر: سير أعلام النبلاء 526/11-527.

² الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت255هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ، ج4، ص151. وانظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت255هـ)، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2 1423هـ، ص295.

³ أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، الصناعتين، تحقيق علي محمّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت 1419هـ، ص10.

⁴ هو يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، سراج الدين: عالم بالعربية والأدب. مولده ووفاته بخوارزم. من كتبه "مفتاح العلوم - ط" و "رسالة في علم المناظرة - خ". انظر: الأعلام للزركلي 222/8.

⁵ السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمّد بن علي (ت626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2 1407هـ، ص415.

⁶ الكفوي، الكلبيّات، ص236.

التفسير:

عرّفه أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في مقدمة تفسيره بقوله:
" علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمّت لذلك " (1).

وعرّفه الجرجاني (ت 816هـ) في التعريفات بقوله:
" توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدلّ عليه دلالة ظاهرة (2).

وعرّفه ابن عاشور (ت 1393هـ) (3) بقوله:
" هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفاد منها باختصار أو توسّع " (4).
إذًا، فالتعريف الإجرائي للتفسير هو:

علم يبحث في بيان معاني ألفاظ القرآن الكريم وآياته؛ لمعرفة مراد الله، واستنباط أحكامه.

¹ أبو حيان الأندلسي، مُحمّد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي مُحمّد جميل، دار الفكر - بيروت، 1420هـ، ج1، ص26.

² التعريفات للجرجاني، ص63.

³ هو مُحمّد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، عُيّن (عام 1932) شيخاً للإسلام مالكيًا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، صدر منه عشرة أجزاء، و (الوقف وأثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتب كثيرًا في المجالات، وهو والد مُحمّد الفاضل. انظر: الأعلام للزركلي 174/6.

⁴ ابن عاشور، مُحمّد الطاهر بن مُحمّد (ت1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984، ج1، ص11.

منهجية الدراسة:

تتبع الباحث في دراسته هذه المنهج الوصفي التحليلي، حيث عمّد الباحث إلى عرض المسائل النحويّة والبلاغيّة التي أنثرت في الاختيارات التفسيرية، وقام بتحليلها تحليلاً علمياً منهجياً، وقد التزم حدود المنهج العلمي.

الطرق والإجراءات:

تقع الدراسة في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يحتوي على المقدمة، وتشمل مشكلة الدراسة، وأهدافها، وأهميتها، وحدودها، ومنهجيتها، والتعريف بالمصطلحات، ونشأة النحو، والبلاغة، والتفسير والعلاقة الوثيقة بينهما، ونبذة عن حياة المفسر.

الفصل الثاني:

 يحتوي على الأدب النظري والدراسات السابقة.

الفصل الثالث: يحتوي على المسائل والتطبيقات التي تُبرز أثر النحو والبلاغة في توجيه المعنى في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران.

نَشْأَةُ النَّحْوِ وَتَطَوُّرُهُ:

أَهْمِيَّةُ عِلْمِ النَّحْوِ:

يُعَدُّ علم النَّحْوِ مِنْ أَجْلِ العلومِ قَدْرًا، وَأَنْفَعَهَا أَثْرًا، وَصَدَقَ إِسْحَاقُ التَّهْرَوَانِيُّ إِذْ يَقُولُ:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلَكْنِ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا فَأَجَلُهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسُنِ⁽¹⁾

" وبه يسلم الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحرير، وهما موئل الدين وذخيرة المسلمين، فكان تدوينه عملاً مبرورًا، وسعيًا في سبيل الدين مشكورًا "⁽²⁾.

فالنَّحْوُ علم يَقْرَبُ الأفهامَ وَيحدِّدُ المعنى وَيبعدُ الإبهامَ، وبه تعرف مقاصد الكلام، قال ابن خلدون (ت808هـ)⁽³⁾ في مقدمته: " والذي يتحصَّلُ أَنَّ الأهمَّ المقدمَّ منها هو النَّحْوُ؛ إذ به يتبيَّنُ أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه يُجهَلُ أصل الإفادة "⁽⁴⁾.

عوامل نشأة علم النَّحْوِ:

ظَلَّتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ نَقِيَّةً سَلِيْمَةً مَحْفُوظَةً مِنْ كَلِّ سَائِبَةٍ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ، خَالِصَةً لِأَبْنَائِهَا يَتَحَدَّثُونَ بِهَا عَلَى سَجِيَّتِهِمْ وَسَلِيْقَتِهِمْ، فَبَقِيَتْ نَقِيَّةً صَافِيَةً لَمْ تَشْبُهْهَا سَائِبَةٌ، حَتَّى بَزَغَ فَجْرُ الإِسْلَامِ عَلَى

¹ عُيُونُ الْأَخْبَارِ لابن قتيبة 172/2-173.

² الطَّنْطَاوِيُّ، مُحَمَّدٌ كَيْبُشَةُ (ت 1379هـ)، نَشْأَةُ النَّحْوِ وَتَارِيخُ أَشْهُرِ النَّحَاةِ، تَحْقِيقُ أَبِي مُحَمَّدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، مَكْتَبَةُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الإِسْلَامِيِّ، ط 1426 هـ، ص 11.

³ هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاتة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برفوق. وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزَيَّ بِزَيِّ القضاة محتفظاً بزَيِّ بلاده. وعُزِلَ، وأُعيد. وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوقاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية. ولَمَّا رَحَلَ إِلَى الأندلس اهتَزَّ لَهُ سُلْطَانُهَا، وَأرْكَبَ خَاصَتَهُ لِتَلْقِيهِ، وَأَجْلَسَهُ فِي مَجْلِسِهِ. اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر - ط) في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع، ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية وغيرها. وختم (العبر) بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه، وسيرته، وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل، فتبسَّط فيه، وجعله ذيلًا للعبر، وسماه (التعريف بابن خلدون، مؤلف الكتاب، ورحلته غرباً وشرقاً - ط). انظر: الأعلام للزركلي 3/330.

⁴ ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد (ت808هـ)، مقدمته ابن خلدون، حَقَّقَ نصوصه وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب - دمشق، ط 1425 هـ، ج 2، ص 367.

جزيرة العرب وما حولها، وأخذ النَّاس يدخلون في دين الله أفواجًا فاختلفت العرب بالعجم في كلِّ مناحي الحياة وتصاهروا حتَّى أصبحوا شعبًا واحدًا. عندها بدأ اللَّحْن يتسرَّب إلى السنة متكلمي العربيَّة من العرب وغيرهم وبدأ يسمع اللَّحْن في التَّخاطب حتَّى أصبحت ظاهرة لافتة للأنظار تُنذِر بِشَرِّ يُعَكِّرُ صفو العربيَّة ونقاءها، قال أبو الطَّيِّب اللَّغوي (ت351هـ): "واعلم أنَّ أوَّل ما اختلَّ من كلام العرب فأحوج إلى التَّعَلُّم الإعراب؛ لأنَّ اللَّحْن ظهر في كلام الموالي والمتعرِّبين" (1).

فكان اللَّحْن هو الباعث الأوَّل على تدوين اللغة، وجمعها، وعلى استنباط قواعد النَّحو وتصنيفها(2).

عندها صاحت الأصوات وانتفضت الأقلام، وسالت الأحبار نصرة للغة العربيَّة؛ لحفظها، وصونها والتَّصدِّي لعلاج ما يشوبها؛ فقعدوا القواعد وليس ذلك إلَّا حفاظًا لكتاب الله وسنة نبيِّه - صلى الله عليه وسلَّم - مخافة أن ينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فنقَّطوا الإعراب؛ مخافة اللَّحْن في القرآن ونقَّطوا الإعجام؛ مخافة التَّصحيف في القرآن. فكان حفظ كتاب الله هو الدَّافع الرَّئيس في تععيد القواعد وحفظ اللغة.

فلولا الإسلام والقرآن، لم تحظَّ اللغة العربيَّة بما حظيت به من خدمة، بتدوين علومها، وتبويب مسائلها، وتتابعت الأجيال على النَّظر فيها جمعًا، وتألُّيفًا، وتعديدًا، وبحثًا عن أوجه جمالها، وإعجاز قرآنها، وتمجيدًا لها وتعظيمًا (3).

وقد اختلف العلماء واضطربوا في بدايات اللَّحْن على حكايات، وروايات كثيرة، ولكنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ اللَّحْن ظهر بصورة واضحة بعد الفتوحات الإسلاميَّة، ودخول كثير من غير العرب في

¹ أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت 351هـ)، مراتب النحويين، حقه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة - القاهرة، ص5، وانظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط1 1418هـ، ج2، ص341.

² الأفغاني، سعيد بن محمد (ت1417هـ)، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح، ص8، وانظر: الصاعدي، عبد الرزاق بن فراج، أصول علم العربية في المدينة، مجلة الجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنورة، ط28، العددان 105-106، 1407هـ-1418هـ، ج1، ص286.

³ العابد، سليمان بن إبراهيم بن محمد، عناية المسلمين باللغة العربيَّة خدمة للقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص6.

الإسلام كما أسلفنا؛ مما دفع العلماء لإرساء قواعد النَّحْو الذي تتطلبه الحوادث، وتقتضيه الحاجات خدمةً للقرآن والسنة فيحسن قراءتهما ويفهم مرادهما.

من هنا نلاحظ أنّ عوامل نشأة النَّحْو وأسبابه تكمن في ظهور اللَّحْن على ألسنة النَّاس، وتفشيّه وانتشاره، ووصوله إلى القرآن، وتلاوته، وفهمه.

ولعلّ هذا ما بيّنه ابن خلدون في مقدّمته حيث أشار إلى أنّ اللَّحْن كان سبباً مباشراً لنشأة النَّحْو، إذ يقول: " وخشي أهل الحُلُوم⁽¹⁾ منهم أن تفسد تلك المَلَكَة رأساً ويطول العهد؛ فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك المَلَكَة مطّردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل: أنّ الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثمّ رأوا تغيّر الدلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً، وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم فقيّدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النَّحْو " ⁽²⁾.

وروايات نشأة النَّحْو كثيرة جداً، لا حاجة للاسترسال في تَقْصِي ما ورد منها، إذ يكفي بيان سبب نشأة النَّحْو من خلالها والوقوف على اختلافات العلماء في مضامينها من حيث زمنها ومؤسّسها، ومن خلال هذه الروايات يتبيّن لنا أمران:

الأول: زمن نشأة النَّحْو:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في زمن نشأة علم النَّحْو وتعدّدت آراؤهم، وأغلب الروايات ⁽³⁾ تشير إلى أنّ الصدر الأول من العصر الإسلامي هو زمن نشأة النَّحْو، وبالتحديد في عصر الخلفاء الراشدين.

¹ الحُلُوم: جمع جُلم وهي الأناة والعقل، انظر: لسان الرب 12 / 146، فصل الحاء المهملة.

² مقدمة ابن خلدون 2 / 368-369.

³ انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص537؛ والذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1 2003م، ج2، ص735، وسير أعلام النبلاء للذهبي 4 / 83، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر (ت911هـ)، سبب وضع علم العربية، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، بيروت- دمشق، ط1، 1409هـ، ج1، ص42-43 و ص53-54، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1 1425هـ، ص139-140.

أما بالنسبة لمكان النشأة فيتفق العلماء والباحثون قديماً وحديثاً على أنّ العراق هي بلد النشأة وتحديداً البصرة. قال ابن سلام: "وكان لأهل البصرة في العربية قُدْمة، وبالنحو وبلغات العرب والغريب عناية" (1).

ثانياً: واضع علم النُّحو:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً حول الواضع الأول وصاحب السبق لعلم النُّحو، نتيجة لاضطراب الروايات وتعددها فمنهم من نسبه إلى عليّ بن أبي طالب، ومنهم من نسبه إلى أبي الأسود الدؤلي، ومنهم من نسبه إلى نصر بن عاصم، ومنهم من نسبه إلى عبد الرحمن بن هرمز، ومنهم من نسبه إلى يحيى بن يعمر الليثي، ومنهم من نسبه إلى غير هؤلاء. وقال آخرون: إنه قديم قدم العرب.

قال السيرافي: "اختلف الناس في أول من رسم النُّحو فقال قائلون أبو الأسود الدؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الدؤلي، ويُقال: الليثي، وقال آخرون: عبد الرحمن بن هرمز" (2).

والذي إخاله قريباً إلى الواقع ويرتضيه النظر أنّ أبا الأسود الدؤلي (3) هو واضع علم النُّحو.

وفيما يأتي الأدلة (4) القاطعة على نسبة وضع علم النُّحو إلى أبي الأسود (5):

أولاً: اتفاق جمهور الرواة من القدماء على ذلك، بل إنّ المبرّد جعله إجماعاً لعلماء العربية (6).

¹ ابن سلام، أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلام بن عبيد الله الجمحي، (ت 232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني - جدة، ج1، ص12.

² السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت 368هـ)، أخبار النُّحويين البصريين، تحقيق طه مُحَمَّد الزيني ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، الناشر مصطفى الحلبي، ط 1373هـ، ص11.

³ هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدليل بن بكر الديلي، ويقال: الدؤلي، وفي اسمه ونسبه ونسبته اختلاف كثير؛ كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، وشهد معه وقعة صفين، وهو بصري، وكان من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً. وتوفي أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف، وعمره خمس وثمانون سنة - رضي الله عنه -، وقيل إنه مات قبل الطاعون بيلة الفالج، وقيل إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقيل لأبي الأسود عند الموت: أبشر بالمغفرة، فقال: وأين الحياء مما كانت له المغفرة. انظر: وفيات الأعيان 535/2-539.

⁴ الدجني، فتحي عبد الفتاح، أبو الأسود الدؤلي ونشأة النُّحو، وكالة المطبوعات - الكويت، ط1، 1974م، ص173-174.

⁵ انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام 12/1، وأخبار النُّحويين البصريين للسيرافي ص11، وابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ، ج3، ص455-456، و وفيات الأعيان، 391/6-392.

⁶ انظر: وفيات الأعيان 392/6، والموجز في نشأة النُّحو ص21.

ثانيًا: رواية ابن النديم (ت438هـ) في الفهرست. قال مُحَمَّد بن إِسْحَق كان بمدينة الحديثة رجل يُقال له مُحَمَّد بن الحسين ويعرف بابن أبي بعرة، جماعةٌ للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوي على قطعة من الكتب العربيّة في النَّحْو، واللّغة، والأدب، والكتب القديمة. فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي... فرأيته وقلّبتها، فرأيت عجبًا إلا أنّ الزّمان قد أخلّقها. وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها،... ورأيت ما يدل على أنّ النَّحْو عند أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربع أوراق أحسبها من ورق الصّين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل، والمفعول من أبي الأسود- رحمة الله عليه- بخط يحيى ابن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: " هذا خط علان النَّحوي "، وتحتّه: " هذا خط النَّضر بن شمیل (1) " (2).

ثالثًا: قول علي بن أبي طالب لأبي الأسود: ما أحسن هذا النَّحْو الذي نحوت! (3).

تطوّر علم النَّحْو:

كان لأبي الأسود الفضل الوافر في بدء الغرس الذي نما وترعرع وازدهر على كَرّ الزّمان بإضافة اللاحق إلى السّابق ما استدركه، وما ابتدعه، فازداد فيه التّدوين، والتّصنيف شيئًا فشيئًا (4). ولقد مرّ علم النَّحْو بمراحل وأطوار حتّى غدا يانعًا ناضجًا وقد تمّ تقسيمها إلى أربع مراحل وهي:

طور الوضع والتّكوين، وطور النّشوء والنّمو، وطور النّضج والكمال، وطور التّرجيح والبسط في التّصنيف (5).

¹ هو النضر بن شمیل بن خرشه بن يزيد بن كلثوم بن عنتر بن زهير بن تميم، بصري الأصل، نزل مرو الروذ وهي بلاد مازن، أخذ عن الخليل وعن فصحاء الأعراب، توفي سنة أربع ومئتين أو ثلاث، وله من الكتب كتاب الصفات، وكتاب الأنواء، وكتاب المعاني، وكتاب غريب الحديث. انظر: ابن النديم، أبو الفرج مُحَمَّد بن إِسْحَق بن مُحَمَّد الورّاق (ت438هـ)، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط2 1417هـ ص74-75. وهو ثقة ثبت، صاحب غريب وشعر ونحو وحديث وفقه ومعرفة بأيام الناس. انظر: المزهر في اللغة 347/2.

² الفهرست لابن النديم ص62-63.

³ سير أعلام النبلاء للذهبي 82/4.

⁴ نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة، ص30.

⁵ المرجع السابق ص36.

أولاً: طور الوضع والتكوين:

ولقد انفردت البصرة وعلماؤها في هذا الطور؛ إذ الكوفة منشغلة بالقراءة، والزواية، والأشعار والأخبار، وقد بدأ هذا الطور من الواضع الأوّل لعلم النّحو أبي الأسود الدّؤلي (ت68هـ)، إلى أوّل عصر الأفضاذ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ)، ويقسم هذا الطور من حيث علماؤه إلى طبقتين: أما الطبقة الأولى: فقد شملت تلامذة الدّؤلي ومن أشهرهم: ونصر بن عاصم اللّيثي (ت89هـ)، عنبسة بن معدان الفيل (بُعَيْدَ 100هـ)، وعبد الرّحمن بن هرمز (ت117هـ)، ويحيى بن يعمر العدواني (ت129هـ). ويتميّز منهج هذه الطبقة بالخلوّ من التوسّع والتشعب والتعقيد⁽¹⁾.

وأما الطبقة الثانية: فبدأت من عهد عبد الله بن أبي اسحق (ت117هـ) إلى عهد أبي عمرو ابن العلاء (ت154هـ)، مروراً بعيسى بن عمر (ت149هـ). ويتميّز منهج هذه الطبقة بالاستنباط واستعمال القياس، يقول ابن سلام: "ثمّ كان من بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي، وكان أوّل من بَعَجَ⁽²⁾ النّحو، وَحَدَّ القياس والعلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء، وبقي بعده بقاءً طويلاً، وكان ابن أبي إسحق أشدّ تجرّيداً للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب، ولغاتها، وغريبها"⁽³⁾.

"وبرزت عند رجال هذه الطبقة ظاهرة الخلاف النّحوي بين مصوّب ومخطئ؛ حيث لم تعد المسائل النّحويّة واللّغويّة منقّاةً عليها، وأنّ وجه الصّواب فيها لم يعد منقّاةً عليه"⁽⁴⁾.

¹ نشأة النّحو وتاريخ أشهر النحاة، ص32-33 وص59.

² قال الأزهري: لَعَجَهُ حَبُّهُ أَصُوبٌ مِنْ بَعَجِهِ لِأَنَّ الْبَعْجَ الشَّقَّ. يقال: بَعَجَ بطنه بالسكين، إذا شَقَّهُ وخضخضه فيه. انظر: الأزهري، أبو منصور مُحمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت370هـ)، تهذيب اللّغة، تحقيق مُحمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 2001م، ج1/ ص249، باب العين والجيم مع الميم، وقال ابن منظور: وبعت بطني لفلان بالغت في نصيحته، وقيل في قول أبي نؤيب وبطني بالكلام بعيج أي نصحي لهم مبذول. وتبعّج السحاب وانبعج بالمطر انفرج عن الوذوق والوبل الشديد. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3-1414 هـ، ج1، ص308، مادة بَعَجَ.

³ طبقات فحول الشعراء لابن سلام 1 / 14.

⁴ الخثران، عبدالله بن حمد، مراحل تطور الدرس النّحوي، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ط1413، ص81.

ثانياً: طور النشوء والنمو:

ويبدأ هذا الطور من عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي من البصريين، وأبي جعفر الرّؤاسي من الكوفيّين، إلى أوّل عصر المازني البصري، وابن السكّيت الكوفي (1). إذ يضمّ هذا الطور ثلاث طبقات من البصريّين وثلاثاً من الكوفيّين.

أعلام طبقات البصريّين:

الطبقة الثالثة وأشهر أعلامها: أبو الخطّاب عبد الحميد بن عبد المجيد (الأخفش الأكبر) (ت172هـ)⁽²⁾، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، ويونس بن حبيب (ت182هـ)، وقد تزامنت هذه الطبقة مع الطبقة الأولى من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو جعفر الرّؤاسي (ت175هـ)، ومعاذ ابن مسلم الهراء (ت187هـ).

الطبقة الرابعة وأشهرهم: أبو بشر عمرو بن عثمان (سيبويه) (ت180هـ)، وأبو محمّد يحيى ابن المبارك اليزيدي (ت202هـ) وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (ت215هـ)، وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت216هـ). وقد تزامنت هذه الطبقة مع الطبقة الثانية من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت189هـ).

الطبقة الخامسة وأشهر علمائها: سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت211هـ)، وأبو علي محمّد بن المستنير المعروف بقطرب (ت206هـ).

وتتزامن هذه الطبقة مع الطبقة الثالثة من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو الحسن علي بن المبارك الأحمر (ت194هـ)، وأبو زكريا يحيى بن زياد المعروف بالفراء (ت207هـ)، وأبو الحسن علي بن المبارك اللحياني (ت220هـ).

¹ انظر: نشأة النّحو وتاريخ أشهر النحاة ص35.

² هو أبو الخطّاب عبد الحميد بن عبد المجيد من أهل هجر من موالبيهم، وكان نحوياً لغوياً وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب وأخذ عنه سيبويه - وحمل عنه النّحو، ولولاه لما اشتهر - وأخذ عنه أيضاً: عيسى بن عمر النّحوي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، ومن في طبقتهم وغيرهم. شيخ العربية، ومن كبار علمائها . مولى قيس ابن ثعلبة. لقي الأعراب وأخذ عنهم. وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها. ولم يظفر له ابن خلكان والحافظ الذهبي بوفاة. انظر: وفيات الأعيان 301/3، وسير أعلام النبلاء 323/7، والأعلام للزركلي 288/3.

ثالثاً: طور النضج والكمال:

ويبدأ هذا الطور من عهد أبي عثمان المازني البصري (ت249هـ)⁽¹⁾ إمام الطبقة السادسة، ويعقوب بن السكيت الكوفي (ت244هـ) إمام الرابعة، إلى آخر عصر الميزد البصري (ت285هـ) شيخ السابعة، وثعلب الكوفي (ت291هـ) شيخ الخامسة⁽²⁾. ويتميز منهج هذا الطور بالفصل بين المباحث النحوية والصرفية.

رابعاً: طور الترجيح:

ظهر هذا الطور نتيجة للخلافات القائمة بين المذهبين البصري والكوفي في الطور السابق فجاء علماء هذا الطور وهم من بغداد فعملوا على المفاضلة بين المذهبين، وإيثار المختار منهما، وقاموا بمسألة الترجيح بينهما، ومن أشهر علماء هذا الطور: أبو إسحق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت311هـ)، والحسن بن عبد الله بن المرزباني السيرافي (ت368هـ)، ومحمد بن القاسم بن الأنباري (ت327هـ)، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت267هـ)⁽³⁾.

وتميز منهج هذا الطور بكثرة تأليفه وتصانيفه، إذ عملوا على الترجيح بين المذهبين البصري والكوفي، وشرحوا المختصرات، وعلقوا عليها بالتقارير والحواشي.

¹ هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النحوي، كان إمام عصره في النحو والأدب، وأخذ الأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي الأنصاري وغيرهم، وأخذ عنه أبو العباس الميزد، وله من التصانيف كتاب ما تلحن به العامة وكتاب التصريف وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج، توفي سنة تسع وأربعين ومئتين، وقيل ثمان وأربعين، وقيل ست وثلاثين ومئتين بالبصرة. النظر: وفيات الأعيان 283/1-286.

² انظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص39-40، ومراحل تطور نشأة النحو ص111-112.

³ انظر: مراحل تطور الدرس النحوي ص125-127، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص150-156.

نشأة علم البلاغة

" يرجع تاريخ نشأة البلاغة العربية إلى نشأة النقد الأدبي عند العرب، وقد ولد النقد الأدبي بميلاد الشعر العربي، ولازمه في جميع مراحلها المختلفة، يرسم له المنهج القويم، ويلجّ عليه بالإصلاح ويوضح له أسباب النماء والاكتمال، كما يتبين له عوامل الضعف والفساد؛ ليجتنبهما... ولذلك طُبِعَ النقد في العصر الجاهلي بطابع العجلة والارتجال، فهو من قبيل "النقد الذاتي" (1).

وهذا ما أكده الصّعدي (2) في قوله: "ليس من البعيد أن يكون العرب في الجاهلية قد عرفوا بعض مسائل البلاغة والفصاحة، ومما يُروى من ذلك أنّ النابغة الذبياني كانت تُضربُ له قبة حمراء بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها" (3).

وهذا دليل على معرفة العرب في جاهليتهم بالبلاغة، تلك البلاغة التي يعرفونها بفطرتهم وسليقتهم بعيدة عن التعقيد والتعقيد، وظلّ الأمر كذلك في صوره الأولى، ثم أخذ ينمو شيئاً فشيئاً بمرور الأيام واختلاف العصور الأدبية والنقدية والتي استنبطت منها المقاييس البلاغية "فيما بعد" (4).

ولمّا جاء الإسلام ونزل القرآن بدأت العلوم الإسلامية تظهر شيئاً فشيئاً إمّا حفاظاً على كتاب الله - عزّ وجلّ - مثل: علم القراءات القرآنية، وعلم النحو، وإمّا تبياناً وفهماً لآياته ومعرفة سرّ إعجازه مثل العلوم القرآنية التي عُنيت بشرح كتاب الله وتفسيره وهي كتب التفسير، وأيضاً ببلاغته وبيان وجوه إعجازه، وهي كتب الإعجاز القرآني.

ويؤكد ذلك العايد بقوله: "أمّا ما يتعلق بالإعجاز والبلاغة، فهذا الأمر من الواضح بما يكفينا ويغنينا عن أن نردّد ما قاله الآخرون، فلولا القرآن لم يكن ثمّ بحث في إعجاز، ولا عمل في بلاغة، فالبلاغة إنما وُلدت لتبين عن إعجاز القرآن" (5).

¹ الحربي، مُحمّد رمضان، ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، مكتبة الآداب - القاهرة، ط1، 2010م، ص61.

² هو عبد المتعال الصّعدي عالم إصلاح من شيوخ الأزهر بمصر، ولد في قرية "كفر النجبا" من الدقهلية، ومات أبوه وهو ابن شهر فريته أمه، وتخرج بالجامع الأحمدي (1336) ودرّس فيه، ثم كان أستاذاً بكلية اللغة العربية بالأزهر (1368) وألّف كتباً كثيرة طُبعت كلها، منها "نقد نظام التعليم الحديث للأزهر" و"العلم والعلماء ونظام التعليم". انظر: الأعلام للزركلي 148/4.

³ الصّعدي، عبد المتعال، البلاغة العالية (علم المعاني)، قدم له وراجعه عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها، ط2 1991م، ص34.

⁴ ابن قتيبة ومقاييسه النقدية، ص62.

⁵ عناية المسلمين باللغة العربية للعايد، ص64.

من خلال ذلك نلاحظ أنّ الهدف من دراسة البلاغة لا يعدو أن يكون هدفاً من الأهداف

الآتية:

أولاً: هدف فنيّ: يتمثل في التعليم والتدريب والإرشاد، لمن أراد إصابة القول من الخطباء والدعاة الذين يتصدرون الكلام أمام الجموع الغفيرة من الناس. هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى فيتمثل في تمييز جيد الكلام من رديئه، وبيان مواطن الحسن والجمال والإبداع.

ثانياً: هدف دينيّ: وذلك للوقوف على سرّ إعجاز القرآن وبلاغته وبيان أحكامه وفهم معانيه.

واضع علم البلاغة:

إنّ أوّل من أصل أصول البلاغة وصاغها فناً له قواعده ومبادئه هو الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، ولقد شهد له بذلك كثير من العلماء، منهم: يحيى بن حمزة الطالبي (ت745هـ) صاحب كتاب "الطراز في علوم حقائق الإعجاز"، بقوله: "وأوّل من أسّس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورَتّب أفانينه، الشّيخ العالم التّحرير عَلم المحقّقين عبد القاهر الجرجانيّ، فلقد فكّ قيد الغرائب بالتّقييد، وهَدّد من سور المشكلات بالتّسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمّامها، وفتق أزواره بعد استغلاقها واستبهاّمها" (1). فتكاد تجتمع كلمة العلماء قديماً وحديثاً على أنّ واضع علم البلاغة، ومؤسّسها هو عبد القاهر الجرجانيّ.

أطوار نشأة علم البلاغة:

لم تظهر البلاغة العربيّة وليداً مكتمل الخلق، ولا واضح الملامح؛ بل اكتنفها الإيجاز، والغموض، والخفاء (2). وما دامت البلاغة العربيّة وجدت منثورة في مسائل العلوم الأخرى، ولم تولد

¹ الطالبي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الملقب بالمؤيد بالله (ت745هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية - بيروت، ط1 1423 هـ، ج1، ص6، وانظر: الرافي، مصطفى صادق (ت1356هـ)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، ج2، ص14-15، ومراد، وليد مُحمّد، نظرية النظم وقيمتها العالية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجانيّ، دار الفكر، ط1، 1983م، ص55.

² الخولي، كامل، صور من تطور البيان العربي، دار الأنوار للطباعة والنشر، 1962م، ص1.

واضحة المعالم كبقية العلوم الأخرى؛ لذا فإننا نجدها قد مرّت بأطوار مختلفة، تزداد في كلّ طور حيويّة ووضوحاً، إلى أن بلغت أوج مجدها في القرن الخامس الهجري (1).

الطور الأول: الوضع والتكوين:

من المعلوم أنّ البلاغة وجدت منذ العصر الجاهلي في أناس تميّزوا بالبلاغة والفصاحة، وكانت الأحكام البلاغية تظهر على فلتات أسنتهم في الحكم على حسن الشعر من رديئه، ولعلّ النابغة الذبياني كان من أوائل أولئك الذين يصدرن هذه الأحكام، إلّا أنّها كانت تتسم بالأحكام الفطرية غير المعلّلة، وظلّ الأمر كذلك حتّى جاء أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت208هـ) (2) في كتابه "مجاز القرآن"، إذ إنّه بيّن سبب تأليفه لكتابه، وأنّه أراد الكشف عن أسرار البيان في القرآن الكريم.

ثمّ تتابعت جهود العلماء تترى، من غير الالتفات إلى وضع القواعد، والقوانين لعلم البلاغة، وإنّما كان هدفاً دينياً (3).

الطور الثاني: طور النشوء والنمو:

بدأ الطور الأوّل في الدّفاع عن القرآن الكريم، وكشف أسراره وبيانه، ثمّ أخذت الأنظار تتّجه نحو أسرار الجمال وصور البيان في القرآن، وغيره من كلام العرب، سواء أكان شعراً أم نثراً، ولعلّ أوّل من طرق هذا الباب وخاض فيه هو بشر بن المعتمر (ت210هـ) فيما عُرف " بصحيفة بشر ابن المعتمر"، تحدّث فيها عن مدى تصوّره للأدب، واستعداد الأديب وأحوال المخاطبين، والأصول التي يجب مراعاتها في كلّ أولئك (4)، فكانت بمثابة بداية التكوين للبيان العربي، لاسيّما أنّه تناول

¹ انظر: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ص68.

² الإمام، العلامة، البحر، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولا، البصري، النحوي، صاحب التصانيف. ولد في سنة عشر ومائة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري. قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف: كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره، وكان يخطئ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتباً، وكان يرى رأي الخوارج. وقيل: إنّ الرشيد أقدم أبا عبيدة، وقرأ عليه بعض كتبه، وهي تقارب مائتي مصنف، منها: كتاب (مجاز القرآن)، وكتاب (غريب الحديث)، وكتاب (مقتل عثمان)، وكتاب (أخبار الحجاج)، وكان ألتغ، بذيء اللسان، وسخ الثوب. قارب مائة عام، أو كملها. فقيل: مات سنة تسع ومائتين. وقيل: مات سنة عشر. وفيات الأعيان 235/5، وسير أعلام النبلاء 445/9-447.

³ ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية، ص75.

⁴ طبانة، بدوي، دراسات في نقد الأدب العربي، المطبعة الفنية الحديثة، ط5، 1969م، ص138.

قضايا بلاغية من أهمها "قضية اللفظ والمعنى" بقوله: "ومن أراد معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما" (1).

وأيضاً من القضايا التي تطرَّق إليها ابن المعتمر "قضية مطابقة الكلام لمقتضى الحال" (2).

وقد سار على منواله الجاحظ، فسأل قلمه في إثارة القضايا الأدبية والفنية في ميدان البلاغة والنقد (3).

ثمَّ جاء بعد الجاحظ ابن المعتمر (ت296هـ) في كتابه "البدیع" وقد عدّه العلماء أوّل كتاب

في البلاغة العربية.

الطور الثالث: طور النضوج والكمال:

جادت قريحة العلماء، وارتفعت همهم، وازداد بحثهم؛ لإرساء قواعد هذا الفنّ، فأخذ ينمو ويتعرّج حتى جاء الجرجانيّ، فأرسي قواعدهِ وبيّن غوامضه، وحدّد حدوده، كما بيّن ذلك الحربيّ بقوله: "توالت جهود الباحثين في ميدان النقد والبلاغة آخذة في النّمو والازدهار شيئاً فشيئاً، إلى أن طلع الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) (4) في القرن الخامس الهجري، فوضّح الغامض، وفصّل المجمل، وابتكر الجديد" (5). والجرجانيّ تميّز بذكائه وسعة اطلاعه، فاستطاع أن يتوصّل إلى ما لم يستطع أحد أن يتوصّل إليه من سابقه ومعاصريه؛ لقدّرته على تقدير القيم الجماليّة والفنيّة بحسّه المرهف وذوقه المتقّف. عكف على كتب سابقه فكان قارئاً نهماً ينظر في التّراث، وينتقي، ويناقش، ويحلّل آراء العلماء بكلّ موضوعيّة وأمانة علميّة في نقله لكلام سابقه، وبيان جهودهم وآرائهم، وذكر فضلهم، حتّى أولئك الذين كانوا يخالفونه في المذهب والمعتقد، فقد عمل الجرجانيّ على لملمة آراء سابقه التي كانت منثورة في كتبهم، وقد اكتنفها الخفاء والإيجاز، كما بيّن ذلك الجرجانيّ بقوله: "واعلم أنّك لا ترى في الدّنيا علماً قد جرى الأمر فيه بديناً وأخيراً، على ما جرى عليه فيه "علم

¹ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1423هـ، ج1، ص129.

² انظر: المرجع السابق، 129/1.

³ انظر: المرجع السابق، 82/1.

⁴ هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحمّد الجرجانيّ، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللّغة، من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان) له شعريّون، من كتبه "أسرار البلاغة - ط" و "دلائل الإعجاز - ط" و "الجمل - خ" و "في النّحو، و "النتمة - خ" نحو، و "المغني" في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءاً، اختصره في شرح آخر سماه "المقتصد - خ" في الظاهرية، و "إعجاز القرآن - ط" و "العمدة في تصريف الأفعال، و "العوامل المئة - ط". انظر: الأعلام للزركلي 48/4-49، والذهبي 432/18-433.

⁵ ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية، ص78.

الفصاحة والبيان". أمّا البديء: فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلّا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتّصريح أغلب من التّلويح، والأمر في علم "الفصاحة" بالصدّد من هذا فإنّك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جلّه أو كلّه رمزاً ووحياً، وكناية وتعريضاً، وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلّا من غلغل الفكرة، وأدقّ النّظر⁽¹⁾.

وبذلك تكون البلاغة العربيّة قد وصلت إلى نضجها وكمالها وبلغت ذروتها على يد عبد القاهر الجُرْجَانِيّ⁽²⁾.

أقسام علم البلاغة:

جاء بعد الجُرْجَانِيّ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السّكّّّكي (ت626هـ) بكتابه "مفتاح العلوم" حيث عمل على تقسيم علم البلاغة وبوّبه ونظّمه وجعله في قواعد وقوانين، حتّى ظنّ بعضهم أنّه مؤسس علم البلاغة.

وقد قسّم البلاغة إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: علم المعاني:

هو علم يبحث في كفيّة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وهو بالتّالي الطّريق التي يجب أن يسلكها الأديب للوصول إلى هذه الغاية⁽³⁾. وأوّل من صرّح بعلم المعاني هو الزّمخشري في قوله: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في علّمين مختصّين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان⁽⁴⁾".

¹ الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت471هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود مُحمّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، ط3، 1992، ص455.

² انظر: صور من تطور البيان العربي، ص2.

³ مطرّجي، عرفان، الجامع لفنون اللغة العربيّة والعروض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، ط1 1407هـ، ص27.

⁴ الكشف، ج1، ص2.

ثانيًا: علم البيان:

البيان لغة: هو الكشف والإيضاح.

وإصطلاحًا: هو إيراد المعنى الواحد بطرق متعدّدة (1).

ووضع هذا العلم هو الشيخ عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، أمّا موضوع هذا العلم فهو اللفظ العربي (2).

ثالثًا: علم البديع:

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقتة لمقتضى الحال، ووضوح دلالاته بخلوها من التّعقيد المعنوي. ووضع هذا العلم هو الخليفة أبو العباس عبد الله بن المعتز (ت296هـ) صاحب كتاب "البديع" (3).

¹ الجامع لفنون اللغة العربية والعروض للمطرجي، ص105.

² المرجع السابق، ص105.

³ المرجع السابق، ص175.

نشأة علم التفسير:

إذا كانت علوم القرآن هي أجلّ العلوم الشرعيّة وأفضلها، فإنّ علم التفسير هو أجلّ علوم القرآن وأعلاها منزلة، ذلك أنّ موضوع هذا العلم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فازداد هذا العلم شرفاً وفضلاً بموضوعه. ويظهر ذلك جلياً من اسمه الذي تميّز به للكشف والتبيين عمّا جاء في كتاب الله - عزّ وجلّ - لبيان مراده - سبحانه وتعالى - كما بيّن ذلك الزرقاني (ت1367هـ) بقوله: "وسمي علم التفسير لما فيه من الكشف والتبيين، واختصّ بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنّها كلّها مشتملة على الكشف والتبيين؛ لأنّه لجلالة قدره واحتياجه إلى زيادة الاستعداد وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه كان كأنّه هو التفسير وحده دون ما عداه" (1).

مراحل التفسير:

من المعلوم أنّ علم التفسير نشأ بالتزامن مع نزول القرآن الكريم، ولما كان القوم الذين نزل فيهم القرآن الكريم أهل فصاحة وبلاغة كان لزاماً أن يكونوا على دراية في فهم ما أنزل عليهم فكانوا يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربيّة، قال - تعالى - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:2]. ومع ذلك فإنّ هناك آيات وألفاظاً استشكلت عليهم فكان لا بدّ من بيانها ومعرفة مرادها فنشأ علم التفسير؛ ليبيّن ذلك وقد مرّ بمراحل أهمّها:

المرحلة الأولى: التفسير في عهد النّبّي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

تعدّ هذه المرحلة أفضل مراحل تفسير القرآن، إذ كانت تعتمد في التفسير على الوحيين الكتاب والسنة. وقد تكفّل الله بحفظ كتابه بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9]، وكان من لوازم حفظ الله لكتابه جمعه وبيائه لقوله - تعالى - ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:17-19]، فتكفّل الله - عزّ وجلّ - ببيان كتابه وذلك من وجهين:

¹ الزرقاني، محمّد عبد العظيم (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، ج2، ص10.

أولاً: بيان الله - عزّ وجلّ - آياته وهو بيان القرآن الكريم بعضه بعضاً، وهو أولى طرق التفسير، " فالناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أُوجز في مكان قد يُبسّط في مكان آخر، وما أُجمل في موضع قد يُبين في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى " (1).

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في كتاب الله - عزّ وجلّ - نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: قال - تعالى - : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:6-7]. فقد فسّر المنعم عليهم بقوله ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:69]

ثانياً: بيان النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آيات الله:

وكان ذلك امتثالاً لأمر ربّه - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:44] فكان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بيّناً لأصحابه - رضوان الله عليهم - ما استشكل عليهم في فهم آيات الله - عزّ وجلّ - والأدلة الصحيحة على ذلك كثيرة جداً.

ولم يكن الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُطنّب في تفسير الآية، أو يخرج إلى ما لا فائدة في معرفته ولا ثمرة في إدراكه، فكان جُلّ تفسيره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بياناً لمجمل، أو توضيحاً لمشكل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمطلق، أو بياناً لمعنى لفظ أو متعلّقه (2).

ومن الأمثلة على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:82] شقّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أين لا

¹ الذهبي، مُحمّد السيد حسين (ت1398هـ)، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج1، ص31.

² الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، بحث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، ص19

يظلم نفسه؟ قال: " ليس ذلك إنما هو الشرك. ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13] (1).

المرحلة الثانية: التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

لا شك أنّ الصحابة كانوا أعرف الناس بكتاب الله وسنة نبيه؛ لأنهم كانوا ينهلون ويفيدون من النبع الصافي؛ فهم ملازمون للوحيين، فضلاً عن معرفتهم بأصول العربية، ومواطن الحسن والجمال فيها، فهم البلغاء الفصحاء.

ولمّا انقطع الوحيان كان الصحابة يعتمدون تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بأقوال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأيضاً يعتمدون الاجتهاد والاستنباط (2). وقد برز مجموعة من الصحابة اشتهروا بالتفسير. فكان أكثرهم شهرة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عباس، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - . فظهرت مدرسة علي بن أبي طالب وابن مسعود - رضي الله عنهما - في الكوفة وظهرت مدرسة أبي بن كعب - رضي الله عنه - في المدينة. وظهرت مدرسة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في مكة.

المرحلة الثالثة: التفسير في عهد التابعين - رحمهم الله تعالى -:

لم يكن ثمة فارق كبير بين منهج الصحابة - رضي الله عنهم - ومنهج التابعين، فقد تلقى التابعون تفسيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم - (3). فكان التابعون يعتمدون تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة، والتفسير بأقوال الصحابة، إذ كانوا يقدمون أقوال الصحابة على أقوالهم، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: " عرضت المصحف على ابن عباس

¹ البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1 1422هـ، ج4، ص163، حديث رقم 3429، باب قول الله تعالى: " ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله "، والنيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحقيق مجموعة من المحققين، دار الجيل - بيروت، الطبعة : مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة 1334 هـ، ج1، ص80، حديث رقم 242، كتاب الإيمان، باب إن الشرك لظلم عظيم .

² انظر: التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي 45/1.

³ بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص30

من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عليه عند كل آية منه، وأسأله عنها⁽¹⁾. فإن لم يجدوا اعتمدوا على الفهم والاجتهاد. وهم أهل لذلك؛ لأنهم عاصروا صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخاطوهم. قال ابن تيمية (ت728هـ)⁽²⁾ في حجية تفسير التابعين: "أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"⁽³⁾.

ومن أشهر المفسرين من التابعين:

سعيد بن جبير (ت95هـ)، ومجاهد بن جبر (ت104هـ)، وعكرمة البربري (ت104هـ)، والحسن البصري (ت110هـ)، وعطاء بن رباح (ت114هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت117هـ)، وغيرهم.

المرحلة الرابعة: التفسير في عهد التدوين:

لم يكن التدوين مشهوراً في المراحل الثلاث الأولى، وإنما كان تفسير القرآن الكريم بالرواية والتلقين. وقد مرّ تدوين تفسير القرآن الكريم بمراحل عدّة، حتى صار علماً له مصنفاته وأصوله.

وأهم هذه المراحل هي:

أولاً: بدأ تدوين العلوم في القرن الأول الهجري حيث دُوّنت بعض علوم القرآن الكريم، كالقراءات وغريب القرآن، والناسخ والمنسوخ وغيرها، كما بدأ تدوين حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد شمل أبواباً متنوعة، منها: باب الطهارة والصلاة والصيام وغيرها وكان علم التفسير باباً

¹ الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2، ج11، ص77، حديث رقم 11097

² هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحارني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة 712 هـ واعتقل بها سنة 720 وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، وفي الدرر الكامنة أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرّس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد، منها (الجوامع - ط) في السياسة الإلهية والآيات النبوية، ويسمى (السياسة الشرعية) و (الفتاوى - ط) خمس مجلدات، و (الإيمان - ط)، انظر: الأعلام 144/1.

³ ابن تيمية، تقي الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم (ت728هـ)، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1980م،

من هذه الأبواب. واشتدّت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، مع عنايتهم بجمع الحديث، وفي مقدّمة هؤلاء: سفيان بن عيينة (ت198هـ)، وعبد الرزاق بن همام (ت211هـ)، وعبد بن حميد (ت249هـ)، ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شيء، وإنما روي ما نُقل مسنداً إليهم في كتب التفسير بالمأثور⁽¹⁾.

ثانياً: في هذه المرحلة بدأ النظر إلى التفسير على أنه علم قائم بذاته منفصلاً عن الحديث فبدأ تدوين التفسير في مصنّفات خاصّة مشتملة على تفسير آيات القرآن مرتّبة حسب ترتيب المصحف. وتمّ ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه (ت273هـ)، وابن جرير الطبري (ت310هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت318هـ)، وابن أبي حاتم (ت327هـ)، وغيرهم من أئمة هذا الشأن⁽²⁾.

ولعلّ ابن جريج هو أوّل من صنّف في التفسير كما بيّن ذلك ابن تيمية بقوله: " فأوّل من صنّف ابن جريج شيئاً في التفسير " ⁽³⁾.

وأهم ما يميّز هذه المرحلة اعتمادها على التفسير المأثور عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والتابعين بالإسناد المتّصل إلى صاحب التفسير.

ثالثاً: كانت تلك المرحلة منعطفاً خطيراً في تاريخ التفسير بدأت حين اتّجه بعض المفسّرين إلى اختصار الأسانيد، ونقلوا الآثار المروية عن السلف دون أن ينسبونها إلى قائلها فاختلط الصحيح بالضعيف، وكانت تلك الهفوة من أخطر الهفوات، وأوسع الفجوات؛ لنفوذ الأعداء إلى الدّين ليضعوا فيه ما لا يرتضيه، ويُخلّوه ما ليس من باده، لولا أنّ الله هيأ لهذا الأمر من علماء الإسلام من كشف الزائفين ودسّ المغرضين وميّز بين الصحيح والسقيم وحفظ الله تعالى - لهذه الأمة هذا الدّين ⁽⁴⁾. وفي هذه المرحلة ظهر التفسير بالرأي في تفسير القرآن الكريم ويرجع ذلك لأسباب منها:

¹ القطان، مناع بن خليل (ت1420هـ)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3 1421هـ، ص351-352.

² التفسير والمفسرون لمحمّد الذهبي، 1/105.

³ ابن تيمية، تقي الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم (ت728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن بن مُحمّد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، 1995م، ج20، ص322.

⁴ بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص37

1. عدم الاهتمام بالأسانيد في التفسير بالمأثور أدى إلى اختلاط الروايات الصحيحة بالضعيفة فاختلف العلماء في قبولها وردّها.
 2. دخول كثير من الإسرائيليات في التفسير.
 3. تعدّد الطوائف والمذاهب أدّى إلى تفسير القرآن الكريم على ما يوافق المذهب أو الطائفة وإن خالف الحقّ المراد.
 4. تدوين العلوم المختلفة مثل: الفقه، واللغة، والنحو، والصرف. فكلّ من برع في فنّ من الفنون فإنّ تفسيره يكاد يقتصر على الفنّ الذي برع فيه.
- وعلى هذا الأساس قسم العلماء علم التفسير إلى قسمين: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي⁽¹⁾.

أولاً: التفسير بالمأثور:

وهو بيان معنى الآية بما ورد في كتاب الله، أو سنّة نبيّه - صلى الله عليه وسلم- أو أقوال الصحابة - رضي الله عنهم -⁽²⁾.

أمّا مكانته فهو أفضل أنواع التفسير وأعلىها؛ لأنّ التفسير بالمأثور إمّا أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الله - تعالى- فهو أعلم بمراده، وإمّا أن يكون تفسيراً بكلام الرّسول - صلى الله عليه وسلم- فهو المبيّن لكلام الله - تعالى-، وإمّا أن يكون بأقوال الصحابة فهم الذين شاهدوا التّنزيل وهم أهل اللّسان وتميّزوا عن غيرهم بما شاهدوه من الأقران، والأقوال حين التّنزل⁽³⁾.

ولكن ثمة أمر ينبغي التنبية إليه حتى لا يعترّ القارئ، أو الناظر في كلّ ما ورد عن النّبّي - صلى الله عليه وسلم- وصحبه - رضوان الله عليهم- آخذاً به مسلماً بصحّته. إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ التفسير بالمأثور دخله الوضع، وما لا يصحّ سنداً ومتناً عن النّبّي - صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام.

¹ انظر: الرومي، فهد بن عبدالرحمن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط12 1424هـ، ص150، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 11/2، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص358.

² دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي ص151.

³ المرجع السابق، ص133.

وأما أشهر المؤلفات في التفسير بالمأثور:

1. جامع البيان في تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري (ت310هـ).
2. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي (ت617هـ)⁽¹⁾.
3. تفسير القرآن العظيم لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ).
4. الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي (ت911هـ).
5. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (ت1325هـ).

ثانياً: التفسير بالرأي:

وهو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد، أي أن المفسر يعتمد على فهمه الخاص، واستنباطه في

بيان معاني القرآن وينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

1. التفسير بالرأي المحمود:

وهو استناد المفسر في تفسيره إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية مع إمامه باللغة العربية وأساليبها، وقواعد الشريعة وأصولها. إذ ينبغي أن لا يخالف أصول الدين، ولا الأدلة الشرعية القائمة عليها.

2. التفسير بالرأي المذموم:

هو التفسير بمجرد الرأي والهوى. وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء، والبدع الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند، ولا دليل، فسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى⁽²⁾.

¹ هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسبوط، بمصر) وتوفي فيها، من كتبه "الجامع لأحكام القرآن - ط" عشرون جزءاً، يعرف بتفسير القرطبي، و "قمع الحرص بالزهد والقناعة" و "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" و "التذكار في أفضل الأذكار - ط" و "التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة - خ" مجلدان، في دار الكتب، طبع "مختصره" للشعراني، و "التقريب لكتاب التمهيد - خ" في مجلدين ضخمين، في خزنة القرويين بفاس (الرقم 80 / 117) وكان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. انظر: الأعلام للزركلي 322/5.

² انظر: دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي، ص160.

وأما أشهر المؤلفات في التفسير بالرأي:-

1. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ).
2. مفاتيح الغيب لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرّازي (ت606هـ).
3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي (685هـ)⁽¹⁾.
4. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (1270هـ).
5. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1354هـ)⁽²⁾.

¹ هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، قاض، مفسر، علامة، ولد في المدينة البيضاء (بفارس -قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها. من تصانيفه " أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ط " يعرف بتفسير البيضاوي، و " طوابع الأنوار - ط " في التوحيد، و " منهاج الوصول إلى علم الأصول - ط " و " لب اللباب في علم الإعراب - خ " و " نظام التواريخ - خ " كتبه باللغة الفارسية، ورسالة في موضوعات العلوم وتعريفها - خ " و " الغاية القصوى في دراية الفتوى - خ " في فقه الشافعية. انظر: الأعلام للزركلي 110/4.

² هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة 1315 هـ فلزم الشيخ محمد عبده وتتلّمذ له، رحل إلى الهند والحجاز وأوربا. وعاد، فاستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في (سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة. ودفن بالقاهرة. أشهر آثاره مجلة (المنار) و (الوحي الموحدي - ط) و (يسر الإسلام وأصول التشريع العام - ط) و (الخلافة - ط) و (الوهابيون والحجاز - ط) و (محاورات المصلح والمقلد - ط) و (ذكرى المولد النبوي - ط). انظر: الأعلام للزركلي 126/6.

العلاقة بين النحو والبلاغة

إنَّ علم النُّحو من الضروريات التي تولِّج من خلاله علوم العربيَّة؛ لذلك كان الاهتمام به من أوائل علوم اللُّغة إذ لا يمكن فهمها إلَّا من خلاله، ولم يقف الحدُّ عند علوم العربيَّة فحسب، بل إلى العلوم الشرعيَّة كلِّها؛ لذلك عُدَّ علم آلة لا يُستغنى عنه في فهم باقي العلوم، مثل: علم التفسير، والفقه وغيرها (1).

ومن علوم اللُّغة التي تأثرت به كثيراً وجاءت متممة له علم البلاغة، الأمر الذي جعلهما وحدة متكاملة تسهم في فهم اللُّغة العربيَّة فهماً صحيحاً؛ للوقوف على إعجازها، وعمقها، وفصاحتها، وبلاغتها.

من هنا فإنَّ علوم العربيَّة لا يمكن الفصل بينها بحال، فإذا كان علم النُّحو يُعنى بالحفاظ على سلامة الجملة وصوغها على الكلام العربي الصحيح؛ فإنَّ علم البلاغة يبدأ من حيث ينتهي علم النُّحو فيأتي مكملاً له في الوقوف على الأساليب البيانيَّة من خلال تحليل النصوص لمعرفة دلالات المعاني والصُّور البيانيَّة والفنون البديعيَّة.

ولعلَّ نظريَّة النظم هي من أكثر الدِّراسات التي أوضحت العلاقة الوثيقة بين النُّحو والبلاغة، إذ إنَّ عبد القاهر الجُرْجانيَّ لم يدرس القضايا النُّحويَّة بمعزل عن البلاغة إنّما عمل على ربط النُّحو بالبلاغة يقول: "اعلم أنّه ليس النظم إلَّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النُّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرِّسوم التي رُسمت لك، فلا تُخلَّ بشيء منها" (2).

ويؤكِّد الجُرْجانيُّ في نظريته على عدم إمكانيَّة الفصل بين النُّحو والبلاغة، وهو ما أكَّده من المحدثين صالح بلعيد بقوله: "متلازمان كما تتلازم الفائدة والإسناد في الكلام" (3).

¹ انظر: حمودة، عبد العزيز، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة رقم 272، مطابع الوطن - الكويت، 1422هـ، ص242.

² دلائل الإعجاز للجرجاني، ص81.

³ بلعيد، صالح، التراكيب النُّحوية وسياقاتها المختلفة عند الامام عبد القاهر الجُرْجاني، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1994م، ص147.

فلا يمكن بحال فصل النَّحْوِ عن البلاغة؛ لأنَّ كلاً منهما مُتَمِّمٌ للآخر من حيث نظم الكلام وضم بعضه إلى بعض؛ لأنَّ فساد التركيب ناشئ عن عدم توخِّي معاني النَّحْوِ وأحكامه بين الكلمات. وهذا ما أثبتته الجُرْجَانِيّ في نظريته بقوله: " أن ليس النّظم شيئاً إلاّ توخّي معاني النَّحْوِ، وأحكامه، ووجوهه، وفروقه، فيما بيّن معاني الكَلِمِ " (1).

وختلاصة القول:

إنَّ ثَمَّةَ علاقةً قوِيَّةً متلازمةً ووطيدةً بين النَّحْوِ والبلاغة، فالصلة بين هذين العِلْمَيْنِ ثابتة قائمة متشابكة، لا يمكن الفصل بينهما بحدود عازلة، فبعضها يؤدّي إلى بعض ويكمل بعضها بعضاً، وموضوعهما واحد؛ لأنَّهما يبحثان القوانين التي يجب مراعاتها في تأليف الكلام، والعلاقات القائمة بين الكلمات في الجملة وبين الجمل بعضها مع بعض، وأثر ذلك على أداء المعنى المطلوب.

¹ دلائل الاعجاز للرجاني، ص 525.

العلاقة بين " النحو والبلاغة " والتفسير:

أولاً: علاقة النحو بالتفسير:

الحمد لله الذي نزل القرآن بلسان عربي مبين، فكان من عريته ما أصاب أعراب الجاهلية بأعظم الاندهاش والذهول، وكان من بيانه وفصاحته ما يبهر العقول، وتعجز عن غوامضه وأسراره الفحول⁽¹⁾. فأنزل الله عز وجل هذه المعجزة الخالدة وتكفل بحفظها، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا مَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:9] فكان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أشد الناس حرصاً على حماية القرآن والمحافظة عليه، ثم جاء أصحابه الذين جندوا أنفسهم لحماية القرآن الكريم فوضّحوا غريبه، وبيّنوا مشكله، وجلّوا غوامضه، وفتقوا أسراره وعجائبه⁽²⁾.

ولعل أقوى العلاقات وأوطأها تلك العلاقة القائمة بين علمي " النحو والبلاغة " وعلم التفسير، كيف لا؟! وإن من لوازم من أراد أن يخوض في علم التفسير أن يكون ملماً بالنحو والبلاغة كما بين ذلك كثير من العلماء منهم الإمام مكي بن أبي طالب (ت 437هـ)⁽³⁾ في مقدّمة مشكله بقوله: " رأيت من أعظم ما يجب على الطالب بعلم القرآن الراغب في تجويد ألفاظه، وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته وأفضل ما القارئ إليه محتاج معرفة إعرابه، والوقوف على تصريف حركاته وسواكنه يكون بذلك سالماً من اللحن فيه مستعيناً على إحكام اللفظ به مطّلعاً على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات متفهماً لما أراد الله به من عباده إذ بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال فتظهر الفوائد ويُفهم الخطاب وتصح معرفة حقيقة المراد⁽⁴⁾.

¹ درج الدرر في تفسير الآي والسور للجزباني 4/1.

² المرجع السابق، 4/1.

³ أبو محمّد مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمّد بن مختار القيسي المقرئ، أصله من القيروان، وانتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة، وهو من أهل التبصر في علوم القرآن والعربية، كان حسن الفهم والخلق جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علم القرآن محسناً لذلك، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها، وكان خيراً فاضلاً متواضعاً متديناً مشهوراً بإجابة الدعاء، وله تصانيف كثيرة نافعة فمنها: " الهداية إلى بلوغ النهاية " في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه، وهو سبعون جزءاً، و " منتخب الحجة " لأبي علي الفارسي، ثلاثون جزءاً، وكتاب " مشكل غريب القرآن " ثلاثة أجزاء، وكتاب " التبصر في القراءات " في خمسة أجزاء، وهو من أشهر توافقه. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 274/5-276.

⁴ مكي، أبو محمّد مكي بن أبي طالب (ت 437هـ)، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2 1405هـ، ج1، ص63.

ولم يتوقّف علم العربيّة على علم التّفسير فحسب بل يتعدّاه إلى علوم الشّريعة كلّها؛ إذ لا يمكن فهم الشّريعة الإسلاميّة وعلومها إلّا بفهم اللّغة العربيّة؛ فهي مفتاح علوم الإسلام: من تفسير، وحديث، وفقه وأصول، وغيرها من العلوم. فهذا يبيّن مدى العلاقة المتينة بين العربيّة وسائر العلوم لمن أراد أن يشتغلّ بها.

وهذا عمر بن الخطّاب (ت23هـ) - رضي الله عنه - يكتب لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - كتاباً يأمره فيه بالتّفقه بالسّنّة، والعربيّة، وإعراب القرآن: أي بيانه إذ يقول: "أما بعد، فتفقهوا في السّنّة، وتفقهوا في العربيّة، وأعرّبوا القرآن؛ فإنّه عربيّ" (1).

وكان حبر الأُمّة وإمام المفسّرين عبد الله بن عبّاس (ت68هـ) - رضي الله عنه - كثيراً ما يستشهد بكلام العرب في تفسير أي القرآن الكريم. وكان يأمر أصحابه بالرجوع إلى الشّعْر إذا أشكِل عليهم شيء من القرآن. روى أبو عبيدة قال: كان ابن عبّاس يقول: "إذا أشكِل عليكم الشّيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشّعْر؛ فإنّه ديوان العرب، وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشّعْر" (2).

وقد سار العلماء على نهج الصّحابة في الاستشهاد بالعربيّة، والحثّ على تعلّمها؛ بغية سبر أغوار علوم الدين ومعرفة كنهها، وعلى رأسها التّفسير (3). فهذا ابن تيمية جعلها شعار الإسلام بقوله: "فإنّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله" (4).

وقد عُنِيَ علماء النّحو بالتّفسير أيّما عناية منذ بدايات نشأته، بل إنّ المتنبّع لجهودهم في تفسير القرآن الكريم يجدها أكثر من أن تحصى قديماً وحديثاً، فهذا كتاب سيبويه باكورة التّأليف النّحوي نجده زاخراً بتفسير أي القرآن الكريم.

¹ ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن مُحمّد (ت235هـ)، المصنّف في الحديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط1 1409هـ، حديث رقم 25651، ج5، ص240، وحديث رقم 29914، ج6، ص116.

² المبرّد، أبو العبّاس مُحمّد بن يزيد (ت285هـ)، الفاضل، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط3 1421هـ، ص10.

³ انظر: ابن الجزري، شمس الدين ابو الخير مُحمّد بن مُحمّد بن يوسف (ت833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلميّة، ط1 1420هـ، ج1، ص9، ومغني اللّبيب عن كتب الأعراب لابن هشام ص13.

⁴ ابن تيمية، تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحلّيم (ت728هـ)، اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط7، 1419هـ، ج1، ص519.

ولقد أكثر سيبويه (ت180هـ)⁽¹⁾ من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ولم يكن ذلك عارضاً وإنما كان بقصد منه؛ لبيان صحة القاعدة النحوية التي تبناها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان في كثير من الأحيان يقف موضعاً ومحللاً ومستنبطاً.

ومن ذلك ما قاله سيبويه (ت180هـ) في معرض حديثه عن اتساع الكلام والاختصار: "ومثله في الاتساع قوله - عز وجل -: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقرة:171] وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى"⁽²⁾. ويؤكد الزمخشري (ت538هـ) دور علماء النحو الذين تعجّ رواياتهم في كتب التفسير بقوله: " والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه، والأخفش، والكسائي، والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين، والاستظهار في مآخذ النصوص بأقوالهم والتشبيث بأهداب فسرهم وتأويلهم"⁽³⁾. قال السيوطي (ت911هـ)⁽⁴⁾ معدداً شروط مفسر القرآن الكريم: "يجوز تفسيره لمن كان جامعاً

للعلم التي يحتاج المفسر إليها وهي خمسة عشر علماً:

¹ هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب بسيبويه، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل آل الربيع بن زياد الحارثي، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال. وأخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد وعن عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وغيرهم، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر وغيره، قال إبراهيم الحربي: سمي سيبويه؛ لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن، وقيل: كان فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته، وانطلاق في قلمه، سار إلى بلاد فارس، فاتفق موته بشيراز - فيما قيل -، عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين، مات سنة ثمانين ومئة، وهو الأصح. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 463/3-465، وسير أعلام النبلاء 351/8-352.

² سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت180هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط3 1408هـ، ج1، ص212.

³ الزمخشري، أبو القاسم محمّد بن عمرو أحمد (ت538هـ)، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق د. علي بو لمحم، مكتبة الهلال - بيروت، ط1 1993م، ص18.

⁴ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد ابن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو 600 مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيماً (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويًا عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي. من كتبه (الإتقان في علوم القرآن - ط) و (إتمام الدراية لقراء النقاية - ط) كلاهما له، في علوم مختلفة، و (الأحاديث المنيفة - خ) ، و (الأرج في الفرج - ط) و (الاندكار في ما عقده الشعراء من الآثار - خ) و (إسعاف المبطي في رجال الموطأ - ط) و (الأشباه والنظائر - ط) في العربية. انظر: الأعلام للزركلي 301/3.

أحدّها: اللّغة؛ لأنّ بها يُعرف شرح مفردات الألفاظ، ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثّاني: النّحو؛ لأنّ المعنى يتغيّر ويختلف باختلاف الإعراب فلا بدّ من اعتباره.

الثّالث: التّصريف؛ لأنّ به تُعرف الأبنية والصّيغ.

الرّابع: الاشتقاق؛ لأنّ الاسم إذا كان اشتقاقه من مادّتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما.

ثم ذكر بقية العلوم " (1).

وهذا ما قرّره الإمام الشّافعي (ت 204هـ)⁽²⁾ في بيان طريق الوصول إلى الله واستنباط

أحكامه بقوله: "فإنّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها" (3).

وأيدّه بذلك الشّاطبي (ت 790هـ) بقوله: "وإنّما البحث المقصود هنا أنّ القرآن نزل بلسان

العرب على الجملة، فطلّب فهمه إنّما يكون من هذا الطّريق خاصّة... فمن أراد تفهّمه فمن جهة

لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة" (4). بل إنّه أبطل كلّ معنى مُستنبط

من القرآن على غير لسان العرب بقوله: "فإذا كلّ معنى مُستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان

العربيّ فليس من علوم القرآن في شيء، لا ممّا يُستفاد منه، ولا ممّا يُستفاد به، ومن ادّعى فيه ذلك،

فهو في دعواه مُبطل" (5).

¹ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مُحمّد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ، ج4، ص213-214.

² هو الإمام أبو عبد الله مُحمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشي المطلب الشافعي، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف المذكور، وكان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرنين، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وكلام الصحابة - رضي الله عنهم - وأثارهم، واختلاف أفاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر حتى إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين ما لم يجتمع في غيره، حتى قال أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - : ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي، ومولده سنة خمسين ومئة، وقد قيل إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة، وكانت ولادته بمدينة غزّة، وهو الأصح، وحمل من غزّة إلى مكّة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن الكريم ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومئة، وقيل سنة إحدى ومئتين. ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومئتين، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى.

³ الشّافعي، أبو عبد الله مُحمّد بن إدريس (ت 204هـ)، الرّسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي- مصر، ط1 1358هـ، ج1، ص50.

⁴ الشّاطبي، إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفّان، ط1 1417هـ، ج2، ص102.

⁵ الموافقات 225-224/4.

وبيّن العايد مدى التلازم والتداخل والتآخي بين علوم اللّغة وعلوم القرآن ومنها التفسير بقوله: "بل هو محاولة بيان تلازم علوم القرآن وعلوم العربيّة، وتآخيها، حتّى إنّهُ ليعسرُ فصل أحدهما عن الآخر في النشأة والتاريخ، والتكوين والتأليف، والدوافع والمقاصد حتّى صار بينهما تزواج مكين، وتمازج وثيق متين، بحيث لا يستغني طالب علم عن العلم الآخر، ولا يُؤتى شقُّ ثمرته - على الوجه المرضي - بدون الشقِّ الآخر؛ لافتقار كلِّ إلى شقِّه، وتعذر استغنائه عنه" (1).

فبات واضحاً مدى العلاقة بين علم النّحو والتفسير، ولاشكَّ بأنّ التفسير يقوم على علم النّحو بل إنّ من أهمّ شروط المفسر أن يكونَ على دراية تامّة به. وقد سبق أن بيّنا أنّ العلاقة بين علمي النّحو والبلاغة قوية متكاملة يكمل بعضها بعضاً.

ثانياً: علاقة البلاغة بالتفسير:

مما لا شك فيه أنّ هناك علاقة وطيدة بين البلاغة والتفسير. إذ لا يجوز ألبتة إقصاء علم البلاغة عن التفسير المعنيّ ببيان معاني آيات القرآن الكريم، ومن المعلوم بالضرورة أنّ البلاغة معنيّة بالمعاني الذي يُعدّ أحد أهم أقسامها التي جعلها السيوطي من العلوم التي يُشترط الإلمام بها عند المفسر بقوله: "الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع؛ لأنّه يعرف بالأوّل خواصّ تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالتالي خواصّها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالتالي وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر؛ لأنّه لا بدّ من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنّما يُدرك بهذه العلوم" (2).

وحتّى يستقر في الأذهان مدى العلاقة بين هذين العليّين لا بدّ من الوقوف على معنى كلّ منهما لمعرفة المقصد منهما.

أمّا البلاغة فهي: "إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز ومعرفة الفصل من الوصل" (3).

¹ عناية المسلمين باللّغة العربيّة خدمةً للقرآن الكريم للعايد، ص2.

² الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 214/4.

³ رسائل الجاحظ 4 / 151.

وأما التفسير فهو: من الفسر، أي " توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة " (1).

فمن خلال تعريف كل منهما يتبين أنهما يبحثان عن المعنى والوصول إلى المقصود. وهذا بحد ذاته يكشف عن مدى العلاقة بينهما.

ولقد أكد علماء البلاغة أن لا سبيل إلى فهم القرآن وإدراك إعجازه إلا من خلال تعلم علم البلاغة. ومن ذلك قول أبي هلال العسكري (ت395هـ) في مقدمة كتابه الصناعتين: " إنَّ أَحَقَّ العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله - تعالى - " (2).

وبالمثال يتضح البيان في مدى العلاقة بين علمي البلاغة والتفسير، ودور البلاغة في فهم كتاب الله وإبراز معانيه، فقد ذكر الحافظ الذهبي (ت748هـ) (3) في كتابه معرفة القراء الكبار: " قال أبو عمرو الداني: سمعت عبد العزيز بن علي المالكي يقول: دخل أبو الفرج غلام بن شنبوذ على عضد الدولة، زائراً، فقال له: يا أبا الفرج، إنَّ الله يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:69] ونرى العسل يأكله المحرور (4)، فيتأذى به، والله الصادق في قوله. قال: " أصلح الله الملك إنَّ الله لم يقل (فيه الشفاء للناس) بالألف واللام اللذين يدخلان لاستيفاء الجنس، وإنما ذكره منكرًا معناه فيه شفاء لبعض الناس دون بعض " (5).

¹ التعريفات للجرجاني، ص63.

² الصناعتين لأبي هلال العسكري ص1، وانظر: الكشاف 2/1.

³ هو مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الأصل، من أهل ميافارقين، مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكُف بصره سنة 741 هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها (دول الإسلام)، (المشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب)، و (العباب) في التاريخ، و (تاريخ الإسلام الكبير)، و (سير أعلام النبلاء) و (الكاشف) في تراجم رجال الحديث. انظر: الأعلام للزركلي 326/5.

⁴ الحرير: المخزور الذي تدأخلته حرارة الغيظ وغيره. انظر: لسان العرب، فصل الحاء المهملة 4 /179.

⁵ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت748هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ، ص187.

ونخلصُ بالقول إلى أنّ ثَمَّةَ علاقةً قويَّةً بين علمي البلاغة والتفسير، إذ ينبغي لمن أراد الولوجَ في علم التفسير أن يكون على دراية تامَّة بعلم البلاغة بأقسامها الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

ضوابط التفسير باللُّغة:

أولاً: ما كان مُحتملاً لأكثر من معنى في لغة العرب إن كان اللَّفظ يحتمل هذه المعاني كلّها من دون تعارض، ولا تناقض في السِّياق جاز حمل الآية عليها، وهذا يأتي - غالباً - في الألفاظ المُشتركة، وإن كان قد يترجَّح أحدها مثل تفسيرهم لقوله - تعالى -: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:10]، فقد ورد عنهم في (الإلّ) أقوال، الأول: العهد، الثَّاني: القرابة، الثَّالث: الله - سبحانه - فيُحملُ على هذه المعاني الثلاثة، واختاره الطبري (ت310هـ) بقوله: " فَإِذْ كَانَتْ الْكَلِمَةُ تَشْمَلُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَكُنِ اللهُ خَصًّا مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، فَالضُّوَابُ أَنْ يُعَمَّ ذَلِكَ كَمَا عَمَّ بِهَا - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - مَعَانِيهَا الثَّلَاثَةَ، فيقال: " لا يرقبون في مؤمنٍ الله، ولا قرابته، ولا عهداً، ولا ميثاقاً" (1).

ثانياً: ما كان مُحتملاً أحد المعاني من معاني اللَّفظة فهناك ضوابط تدل على اختيار هذا المعنى دون غيره، وهي:

1. أن تكون اللَّفظة المفسَّرة صحيحة في اللَّغة، فلا يجوز تفسير القرآن بما لا يُعرفُ في لغة العرب. ومثاله: تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد:2] بأنَّه حالٌ ومقيمٌ به. قال ابن عطية (ت542هـ) في تفسير هذه الآية: "وقال بعض المتأولين: وأنت حلٌّ بهذا البلد معناه: حالٌ ساكنٌ بهذا البلد" (2).

¹ جامع البيان للطبري، 184/14، وانظر: درج الدرر للجراني، 66/1.

² ابن عطية، أبو مُحَمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط1، 1422هـ، ج5، ص483.

قال الخفاجي (ت1069هـ): " والحلُّ صفةٌ أو مصدرٌ بمعنى: الحال هنا على هذا الوجه، ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته في كتب اللُّغة " (1).

وقال ابن عاشور (ت1393هـ) معلقاً على ذلك: " وكيف يُقال: لا عبرة بعدم ثبوته في كتب اللُّغة، وهل المرجع في إثبات اللُّغة إلا كتب أئمتها " (2).

وقال الطيار: " وهو يقتضي أن تكون جملة، {وَأَنْتَ جِلٌّ} في موضع الحال من ضمير {أَفْسِمُ}، فيكون القسم بالبلد مقيداً باعتبار كونه بلد مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال «حلّ» بمعنى: حال؛ أي: مقيم في مكان، فإنّ هذا لم يرد في كتب اللُّغة: «الصحاح» و «اللسان» و «القاموس» و «مفردات الراغب»، ولم يعرج عليه صاحب «الكشاف»، ولا أحسب إعراضه عنه إلا لعدم ثقته بصحة استعماله " (3).

2. تفسير القرآن على الأغلب المعروف من لغة العرب دون الشاذ أو القليل، ومثاله: تفسير قوله - تعالى -: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [النبا:24] قال النَّحَّاس (ت338هـ): " واختلف العلماء في قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ [النبا:24] فقيل: أي لا يذوقون فيها برّداً يبرد عنهم السَّعير، وقيل: نوماً... وأصحّ هذه الأقوال القول الأوّل: لأنّ البرد ليس باسم من أسماء النَّوم؛ وإنّما يُحتال فيه. فيقال للنَّوم: برد؛ لأنّه يهدي العطش. والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله - جلَّ وعزَّ - على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك " (4).

3. مراعاة السِّياق، بحيث يراعي المفسّر عند تفسيره للفظة السِّياق؛ فلا يختار إلا ما يتناسب معه؛ ولذا كان من أوجه ردّ أقوال بعض المفسّرين عدم مناسبتها للسِّياق.

¹ الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر (ت1069هـ)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر - بيروت، ج8، ص361

² التَّحْرِير والتَّوْبِير لابن عاشور 3/348.

³ الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير، تقديم د. مُحَمَّد بن صالح الفوزان، دار ابن الجوزي، ط3 1420هـ، ص60-61.

⁴ النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد (ت338هـ)، إعراب القرآن، علّق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط1 1421هـ، ج5، ص83، وانظر: جامع البيان للطبري، 24/163-164.

وكان مِمَّنْ عُنِيَ بِالْجَانِبِ السِّيَاقِيِّ لِلْفِظَةِ، الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ (ت502هـ)⁽¹⁾، فبيّن معنى اللفظة اللغويّ بناءً على ما هي فيه من السّياق، قال الزّركشي (ت794هـ): "ومن أحسنها كتاب المفردات للرّاعب وهو يتصيّد المعاني من السّياق؛ لأنّ مدلولات الألفاظ خاصّة"⁽²⁾. وهذا يعني أنّ الكلمات العربيّة لها معنى خاصّ يحدده السّياق الذي وردت فيه تلك الكلمة؛ لذا ينبغي مراعاة ذلك.

4. معرفة أسباب النزول؛ لأنّ بعض الألفاظ لا يعرف المراد بها في الآية إلا بمعرفة ملابسات النزول، قال الزّركشي: "والتفسير إمّا أن يُستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة ... وإمّا في كلام مُضمّن لقصة لا يُمكن تصوّره إلا بمعرفتها كقوله: ﴿إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة:37] فالنسيء: التأخير، ولكن تحديد هذا التأخير يحتاج إلى معرفة قصة الآية، وبها يُعرف تفسيرها.

قال الطّبري (ت310هـ) في تفسير هذه الآية: "إنّما التأخير الذي يؤخّره أهل الشّرك بالله من شهور الحرم الأربعة وتصييرهم الحرام منهنّ حلالاً والحلال منهنّ حراماً، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته"⁽³⁾.

5. تقديم المعنى الشّرعي على المعنى اللغوي إذا تعارضوا ولا يُؤخذ بالمعنى اللغوي إلا إذا دلّت القرائن على أنّه المراد؛ لأنّ القرآن نزل لبيان الشّرع لا لبيان اللّغة.

فالصّلاة في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ [التوبة:84] تحتل

الدّعاء بالمعنى اللغوي، وتحتل صلاة الجنّاة بالمعنى الشّرعي، ولا يُوجد قرينة تصرفه إلى المعنى اللغوي. فيكون المراد صلاة الجنّاة.

¹ هو العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد بن المفضل الأصفهاني (أو الأصبهاني) ، الملقب بالرّاعب، صاحب التصانيف، كان من أذكى المتكلمين، أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرب بالإمام الغزالي. من كتبه (محاضرات الأدباء - ط) مجلدان، و (الذريعة إلى مكارم الشريعة - ط) و (الأخلاق) ويسمى (أخلاق الرّاعب) و (جامع التفاسير) كبير، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و (المفردات في غريب القرآن - ط) و (حلّ متشابهات القرآن - خ) و (تفصيل النشأتين - ط) في الحكمة وعلم النفس، و (تحقيق البيان - خ) في اللغة والحكمة، وكتاب في (الاعتقاد - خ) و (أفانين البلاغة). انظر: سير أعلام النبلاء 120/121، والأعلام 2/255.

² الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين مُحَمَّد بن عبدالله بن بهادر (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط1 1376هـ، ج1، ص291.

³ الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يزيد (ت310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة ط1 1420 هـ، ج11، ص449-450.

قال النَّحَّاس (ت338هـ)⁽¹⁾: "وحكى أهل اللّغة جميعاً فيما علمناه: أن الصلّاة في كلام العرب الدعاء، ومنه الصلّاة على الجنّاة"⁽²⁾، وينبغي أن يُتفطن هنا لأمر لا بُدّ منه وهو أنّه لا يجوز أن يحمل كلام الله - عزّ وجلّ - ويفسّر بمجرد الاحتمال النّحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإنّ هذا مقام غلط فيه أكثر المُعربين للقرآن؛ فإنّهم يفسّرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويفهم من ذلك التّركيب أيّ معنى اتفق؛ وهذا غلطٌ عظيم يقطع السّامع بأنّ مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التّركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر، فإنّه لا يلزم أن يحتمله القرآن، مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ: ﴿وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1] بالجرّ أنّه قسم، ومثل قول بعضهم في قوله - تعالى -: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُ بِهِ﴾ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿ [البقرة:217]] إنّ المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور به (3).

لذلك فإنّ من أراد الولوج في علم التفسير ينبغي أن يُكرّس عمله، وفكره، وجهده في بيان معاني أي القرآن، وكشف كنهه، ومراده على الوجه الذي يريده الله - تعالى - لا على الوجه الذي يريده هو. وهذا يتطلّب منه معرفة المقصد، والغاية التي نزل من أجلها القرآن الكريم وهي هداية النّاس، لقوله - تعالى -: ﴿الْمَ ۙ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:1-2]. ومن هنا فإنّ تحكيم اللّغة في تفسير القرآن وحدها يكون فيه إقصاء لكلام الله عن مراده، وما ينبغي اعتماده، فالقرآن كتاب هداية، وتشريع لا كتاب لغة، وهذا ما أكّده الطيّار بقوله: "...؛ لأنّ القرآن نزل لبيان الشّرع لا لبيان اللّغة " (4).

¹ هو أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المرادي النّحّاس، النّحوي المصري؛ كان من الفضلاء، وله تصانيف مفيدة منها: (تفسير القرآن الكريم)، و (كتاب إعراب القرآن)، و (كتاب النّاسخ والمنسوخ)، و (كتاب في النّحو اسمه (النفاحة)، وكتاب في الاشتقاق، و (تفسير أبيات سيبويه)، ولم يسبق إلى مثله، وكتاب (الكافي في النّحو)، وتوفي بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة، وقيل: سنة سبع وثلاثين - رحمه الله تعالى - وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل، وهو في أيام زيادته، وهو يقطّع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل، فلم يوقف له على خبر. والنّحّاس بفتح النون والحاء المشددة المهملة، وبعد الألف سين مهملة، هذه النسبة إلى من يعمل النّحّاس، وأهل مصر يقولون لمن يعمل الأواني الصفرية: النّحّاس.

² إعراب القرآن للنّحّاس، ج2، ص133.

³ ابن القيم، أبو عبد الله محمّد بن أبي بكرين أيوب (ت751هـ)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج3، ص27.

⁴ فصول في أصول التفسير ص44.

ولذلك فقد بات واضحاً مدى علاقة النُّحو والبلاغة بالتفسير؛ إذ لا يمكن الولوج في علم التفسير إلا بمعرفة عِلْمَي النُّحو والبلاغة.

نُبذةٌ عن حياةِ العَلَمَةِ الفَقِيهِ الإِمَامِ عَبْدِ القَادِرِ أَحْمَدَ بَدْرَانَ

اسمه ونسبه:

هو الشَّيْخُ عبدُ القادرِ بنِ أحمدَ بنِ مصطفى بن عبد الرِّحيمِ بنِ مُحَمَّدَ بنِ عبد الرِّحيمِ بنِ بدران، السَّعدي⁽¹⁾، الدَّومي⁽²⁾، ثمَّ الدَّمشقي⁽³⁾، الحنبلي⁽⁴⁾، الأثري⁽⁵⁾. المعروف بابن بدران كما أخبر عن نفسه في مقدِّمة كتابه "منادمة الأطلال" بقوله: "الشَّهيرُ كأسلافه بابن بدران السَّعدي الدَّمشقي"⁽⁶⁾.

ولادته ونشأته:

ولد ابن بدران في بلدة دوما من ريف دمشق، وقد اُخْتُلِفَ في تاريخ ولادته فقيل سنة 1265هـ⁽⁷⁾، وقيل سنة 1280هـ⁽⁸⁾، ونشأ فيها حيث تلقَّى علمه على يد مشايخها في مراحل تعليمه الأولى

¹ نسبةً إلى قبيلة بني سعد الحجازية، حيث يعود نسب جدّه الأكبر بدران السَّعدي، فهو حجازي الأصل.

² نسبةً إلى قريته التي ولد فيها وتُدعى (دوما)، تقع في ريف دمشق التي تبعد عنها ثلاثة عشر كيلاً من الجهة الشَّرقيَّة الشماليَّة، وهي مركز الغوطة.

³ نسبةً إلى دمشق موطن هجرته ووفاته.

⁴ الحنبلي: نسبةً إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل الفقهية حيث كان يعتمده ابن بدران بل إنَّ أهل قريته دوما كانوا ينتسبون إلى المذهب الحنبلي منذ عدَّة قرون، وقد عرفت بعلمائها ومشايخها الحنابلة منهم: الشَّيْخ سليمان المرادوي (ت950هـ) فقيه دوما، والشَّيْخ عبد القادر التغلبي (ت1057هـ) صاحب كتاب (المأرب)، والشَّيْخ أحمد الدَّومي (ت1107هـ) قاضي الحنابلة بدمشق، والشَّيْخ مصطفى الدَّوماني (ت1196هـ) شيخ الحنابلة بالأزهر، والشَّيْخ مُحَمَّد عثمان (ت1308هـ) مفتي الحنابلة بالمدينة المنورة، والشَّيْخ عبد القادر بن بدران (ت1346هـ)، والشَّيْخ أحمد بن صالح الشَّامي (ت1414هـ) مفتي دوما وفقهها، وغيرهم الكثير.

⁵ الأثري، نسبةً إلى الأثر وهو الحديث حيث يُنسب إليه كل من سلك مذهب المحدثين.

⁶ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير شوايش، المكتب الإسلامي-بيروت، ط2، 1985م، ص1.

⁷ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، ديوان الإمام عبد القادر بن بدران المسمَّى ب(تسليية اللَّبيب عن ذكرى الحبيب)، اعتنى به نور الدِّين طالب، دار النوادر، ط1 1428هـ، ص13.

⁸ العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، علامة الشام عبدالقادر بن بدران الدمشقي حياته وأثاره، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط1 1417هـ، ص8.

طلبه للعلم ومشايخه:

تلقى ابن بدران تعليمه على يد مجموعة من العلماء والمشايخ، منهم الشيخ عدنان بن مُحَمَّد عدس، والعلامة الفقيه المفتي مُحَمَّد بن عثمان بن عباس الخطيب الدومي الحنبلي المتوفى سنة (1308هـ)، ومحدث الشام العلامة مُحَمَّد بدر الدين الحسني (ت1354هـ)، والشيخ المحدث سليم ابن ياسين العطار الشافعي (ت1307هـ) مسند الشام، وقد تلقى عنه علوم الحديث، وأخذ منه إجازة عامة.

بعد ذلك أكبَّ ابن بدران على الكتب ينهل من معينها في كلِّ الفنون والعلوم آخذًا بنصيحة شيخه في حصّه على الاجتهاد في القراءة وإرادة الفهم حيث يقول - رحمه الله -: "ولمّا أَخَذْتُ نصيحتَه مَأْخَذَ القَبُول، لم أحتج في القراءة على الأساتذة في العلوم، والفنون إلى أكثر من ست سنين " (1).
وقد برَع في الكتاب والسنة، والمذهب، ومعرفة الخلاف، وسائر العلوم العقلية، والأدبية، والرياضية.

إلا أنه أولى عناية خاصة لعلم أصول الفقه الذي كان ينأى عنه طلاب العلم، ولا يُقبلون عليه، بل كان بعض العلماء يزهدون فيه؛ لأنّه يفتح باب الاجتهاد المسدود بنظرهم، ولم يكن يومئذ أحد من الطلبة يذكر هذا الفنّ، أو يتكلّم به بشفتيه، زاعمين أنّه يفتح باب الاجتهاد، وذلك الباب قد أُوصِد منذ قرونٍ متطاولة، فأقبل على أصول الفقه، وقد أكّد ذلك بقوله: "حتى كنت أسمع من كثير ممّن يدّعي العلم يقول: ما ضرّ الأمة إلا فنّ الأصول؛ لأنّه يُعلّم الناظر فيه الأخذ بالدليل فكنت لا أعبأ بالواشي، ولا أميل إلى اللّاحي، مهما كانت رتبته" (2).

¹ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم (ت 1346هـ)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2، 1401، ص488.

² ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة الناظر وجنة المناظر، دار الحديث بيروت مكتبة الهدى - الإمارات، ط1، 1412هـ، ج2، ص409.

وبعد عودته من دمشق التي مكث فيها قرابة خمس سنوات ينهل من معين علمائها، عاد إلى بلدته، يقول ابن بدران: "وإني بحمد الله - تعالى - لم أقرأ على الشيوخ إلا مدة لا تزيد على (1) خمس سنين مع الإشراف على فنون المعقول، ومنها الهيئة وفنّ المواقيت، وغير ذلك" (2).

محنته:

بدأ ابن بدران يلقي دروساً منتظمة في جامع دوما الكبير، يشرح فيها الفقه الحنبلي من كتاب "شرح منتهى الإرادات" للبهوتي، وظلّ يدرّس في جامع بلدته الكبير يفيد منه طلاب العلم، حتى حصلت له فتنة كبيرة، ومحنة عظيمة، حيث سعى به حسّاده ومناهضوه إلى قرينه الشاعر صالح بن أحمد الدومي (ت1325هـ) وكان آنذاك رئيس بلدية دوما، واستصدر أمراً بإبعاده عن دوما، فهاجر إلى دمشق، وعانى فيها الغربة والبُعد، والعزلة والفقر، ونَزَلَ قُرَابَةَ الْعَامَيْنِ والنَّصَف بضيافة محمود البارودي، حتى استقرّ به الأمر في مدرسة عبد الله باشا العظم جنوب المسجد الأمويّ، وسكن فيها بغرفة علوية كان فيها مقامه، وطعامه، ومنامه، وتدرّسه، وبقي فيها قرابة نصف عام (3).

حياته العمليّة:

عُيِّن مدرساً تحت قبة النسر في الجامع الأموي، حيث درّس كتاب "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي (4). وبعد عودته إلى قرينه عقب انجلاء المحنة التي أبعد من أجلها، أصبح عضواً في شعبة المعارف التي تشكّلت عام (1309هـ).

ثمّ عُيِّن مصحّحاً ومحرّراً بمطبعة الولاية وجريدتها في دمشق، وأنشأ مجلة (مَوَارِدِ الْحِكْمَةِ) سنة 1329هـ. وعيّنهُ الملك عبد العزيز آل سعود مُفْتِيًا لِلدِّيَارِ الْحِجَازِيَّةِ فِي سوريَا (5). وانصرف مدة إلى البحث عمّا بقي من الآثار، في مباني دمشق القديمة، فكان أحياناً يستعير سلماً خشبياً، وينقله بيديه ليقراً كتابة على جدار أو اسماً فوق باب (6).

¹ في الأصل عن الصواب ما أثبتناه.

² المرجع السابق، ص409.

³ ديوان ابن بدران "تسليّة اللبيب"، ص15.

⁴ انظر: المدخل لابن بدران ص470.

⁵ انظر: الأعلام للزركلي 4 / 37.

⁶ المرجع السابق، 37/4، وانظر: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ص3.

ثناء العلماء عليه:

أثنى على ابن بدران أهل العلم والأدب؛ إذ بينوا سعة علمه، واتساع معارفه في شتى أصناف العلوم، فضلاً عن ديانتته، وصلاحه، وعفته، وتقواه، وزهده في الدنيا، وإقباله على الآخرة. وهذا غيضٌ من فيضٍ من أقوال أهل العلم المنصفين الذين عرفوا قدره وفضله:

1. قال الكاتب الكبير محبّ الدين الخطيب حين ذكر وفاته في مجلة "الفتح": "هو - أي ابن بدران - من أفاضل العلماء... وتلقى العلم عن المشايخ مدة خمس سنوات، ثم انصرف إلى تعليم نفسه بنفسه، فكان من أهل الصبر على التوسّع في اكتساب المعارف من العلوم الشرعية، والأدبية والعقلية والرياضية، وهو حنبلي المذهب" (1).

2. وقال عنه الشيخ عبد الرزاق بن حسن البيطار في تقرّظه على كتاب "الكافي في علمي العروض والقوافي" لابن بدران "وقد شرحه الأديب الكامل، والأريب العالم العامل" (2).

3. وقال فضيلة العلامة الشيخ محمد بن سليمان الجراح في تقديمه لكتاب "أخصر المختصرات" لابن بلبان: "ومما زاد هذا المختصر جمالاً ورونقاً الحاشية التي دبّجتها براعة العلامة المتقن عبد القادر بن بدران، فأوضح المشكل وشرح الغريب" (3).

4. وقال عنه الأستاذ محمد تقي الدين الحصري: "هو متضلع من العلوم العصرية والفنون الكثيرة، اشتهر في الشعر والتاريخ،...، كان سلفي العقيدة، يحبّ النقش، ويميل طبعه إلى الانفراد عن الناس، والبعد عن الأمراء... وله اختصاص في علم الآثار والكتب القديمة، ومعرفة أسماء الرجال ومؤلفاتهم من صدر الإسلام إلى اليوم" (4).

¹ علامة الشام عبد القادر للعجمي، ص33.

² علامة الشام للعجمي، ص57.

³ ابن بلبان، محمد بن بدر الدين دمشقي الحنبلي (ت1006هـ)، أخصر المختصرات في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومعه حاشية نفيسة للإمام عبد القادر بن أحمد بن بدران (ت1346هـ)، حقّقه وعلّق عليه محمد بن باصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1 1416هـ، ص14.

⁴ الحصري، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م، ج2، ص762-763.

5. وقال العلامة الشَّيْخُ عبدالله بن خلف بن دحيان الحنبليّ - رحمه الله -: "العلامة الشَّيْخُ عبد القادر بن أحمد بن بدران مدرّس الجامع الأموي، وشيخ الحنابلة، في البلاد السوريّة، ومحدّث الشَّام وأحد أعضاء الرئاسة العلميّة بدمشق" (1).

وقال - أيضاً -: "العلامة المحقّق الشَّيْخُ عبد القادر بن أحمد بدران خاتمة المحقّقين في الشَّام" (2).

6. وقال الأستاذ أدهم الجندي: "وبرع - أي ابن بدران - في سائر العلوم العقليّة والأدبيّة والرياضيّة، وتبحّر في الفقه والنحو، فكان رحمه الله علماً من الأعلام" (3). وقال - أيضاً -: "كان شيخاً جليلاً زاهداً في حطام الدنّيا، متقشفاً في ملبسه ومسكنه ومعيشته... يمتاز بمناقبه الحميدة" (4).

عقيدته وفقهه:

كان - رحمه الله تعالى - منتهجاً منهج السلف في عقيدته، وهو ما كان عليه الصّحابة والتّابعون، والتّابعون لهم بإحسان، وقد أفصح عن ذلك في طليعة كتابه "المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل" عن عقيدته السلفيّة فقال: "وجعلت عقيدتي كتاب الله أكمل علم صفاته إليه، بلا تجسيم ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل" (5).

أمّا فقهه فكان - رحمه الله - متّبعاً للدليل من غير تقليد لأحد في زمن بلغ فيه التقليد أوجّه (6).

إلاّ أنّه - رحمه الله - كان يميل كثيراً إلى المذهب الحنبلي في اختياراته الفقهية حتّى اشتهر أنّه حنبليّ المذهب، وقد علّل - رحمه الله - ذلك بقوله: "ثمّ سبّرت المذاهب المتبوعة الآن، وكثيراً من غير المتبوعة فوجدت كلّاً منهم قدّس الله أسرارهم، وجعل في عليين منازلهم قد اجتهد في طلب الحقّ، ولم يأل جهداً في طلبه، ولا قصر في اجتهاده... غير أنّ الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه -

¹ العجمي، مُحمّد ناصر، علامة الكويت الشَّيْخُ عبد الله الخلف الدَّحيان حياته ومراسلاته العلميّة وأثاره، مركز البحوث والدراسات الكويتيّة، الكويت، 1415هـ، ص83.

² المرجع السابق ص84.

³ الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلّة صوت سوريا، ط1، 1954م، ج1، ص224، وعلامة الشَّام للعجمي ص31.

⁴ أعلام الأدب والفن ص225، وعلامة الشَّام للعجمي، ص32.

⁵ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ص43.

⁶ انظر: المرجع السابق، ص44.

كان أوسعهم معرفة بحديث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا يَعْلَمُ مِنْ أَطَّلَعِ عَلَى مُسْنَدِهِ الْمَشْهُورِ، وَأَكْثَرَهُمْ تَتَبَعًا لِمَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ مَذْهَبَهُ مُؤَيَّدًا بِالْأَدْلَةِ السَّمْعِيَّةِ" (1).

عزوبته:

كان - رحمه الله - من العلماء العزّاب الذين لم يتزوّجوا، إذ يقول: "فإنّه لا مال لي ولا بنون، إلاّ معونته - سبحانه و تعالى - ورزقه الذي تفضّل به عليّ كفافاً" (2).

فقد كرّس حياته ليتفرّغ لطلب العلم والتّدرّيس، كما قال الأستاذ أدهم آل الجندبي: "لقد آثر العزوبة في حياته؛ ليتفرّغ لطلب العلم والتّدرّيس" (3).

شعره:

كان ابن بدران أديباً شاعراً؛ حيث ترك لنا ديواناً جمع فيه أشعاره سمّاه "تسليّة اللّبيب عن ذكرى حبيب". شملت فنون الشّعْر كلّها: كالمدّيح، والوصف، والرتاء، والهجاء، والحكمة، والمراسلات. وقد وصفه غير واحد أنّه أديب وشاعر، قال العلامة الزّركلي: "عارف بالأدب والتّاريخ، له شعر" (4) وقال الأستاذ أدهم آل الجندبي: "كان شاعراً، وأديباً، وقطباً، وعالمًا فذاً بليغاً، وجمع شعره في ديوان". وقال - أيضاً - "وكان يهوى المطارحات والمساجلات الشّعريّة مع الشّعراء والأدباء" (5).

تلاميذه:

لم يكن لابن بدران عدد كبير من التلاميذ على الرّغم من انشغاله بالتّدرّيس مدّة طويلة من عمره، فقد درّس في بلدته دوما، وفي الجامع الأموي بدمشق، وفي المدرسة السّميساطيّة بدمشق، وفي مدرسة عبد الله باشا العظم، ولعلّ السّبب في قلّة إقبال الطّلبة على حلقاته العلميّة التي كان يعقدها للتّدرّيس يعود إلى المذهب الذي يُدرّسه، فقد انشغل بتدريس المذهب الحنبلي، في وقت كان المذهب

¹ المرجع السابق، ص44.

² نزّهة خاطر، 409/2.

³ أعلام الأدب والفن، 225/1.

⁴ الأعلام للزركلي، 37/4.

⁵ أعلام الأدب والفن 225-224/1.

الشّافعي والحنفي هو السائد في تلك الفترة، فضلاً عن انتشار التعصّب المذهبي للمذاهب الفقهيّة، والبدع والخرافات التي تعارض أصول عقيدة السلف الصّالح⁽¹⁾.

ولم يكن أحد يطلب علم المذهب الحنبلي في زمانه مصرّحاً بذلك فيقول: "ثمّ خرجت من دوما إلى دمشق، وهناك لم أجد أحداً يطلب العلم من الحنابلة، بل يندر وجود حنبلي بها"⁽²⁾.

ومع ذلك فقد تتلمذ على يديه قلة من طلاب العلم الذين برزوا في العلم والتأليف، ولعل أشهرهم:

1. مُحَمَّدٌ سليم الجندي (ت 1375هـ)⁽³⁾. الأديب الشاعر⁽⁴⁾.
2. مُحَمَّدٌ بن محمود اليزم (ت 1375هـ) الدمشقي المولد والوفاء، العراقي الأصل، شاعر أديب⁽⁵⁾.
3. فخري بن محمود البارودي (ت 1386هـ)، قرأ عليه " مقامات الحريري " بأجمعها، وتلقى عنه علوم اللغة والأدب والشعر⁽⁶⁾.
4. مُحَمَّدٌ صالح العقاد الشافعي (ت 1390هـ)، كان يقال عنه الشافعي الصغير، وقد أخذ عن ابن بدران النّحو⁽⁷⁾.

¹ انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ص 423.

² المرجع السابق، ص 441، وانظر: الشدي، عادل بن علي بن أحمد، مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، دار الوطن للنشر والتوزيع - السعودية - الرياض، ط 1، ص 32 - 33، وعلامة الشام للعجمي، ص 22.

³ هو مُحَمَّدٌ سليم بن مُحَمَّدٌ تقي الدين ابن مفتي المعرفة مُحَمَّدٌ سليم الجندي العباسي: شاعر، مدرس، عالم بالأدب، له اشتغال بالتاريخ. من أعضاء المجمع العلمي العربي. ولد ونشأ في معرة النعمان. وهاجر مع أبيه إلى دمشق (سنة 1319 هـ فقرأ على علماء أيامه. وعين للإفتاء في ديوان الرسائل سنة 1918 - 1924 ثم أستاذاً للأدب العربي في مدرسة، وصنف (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره - ط) جزآن. وحقق كتاب (الملائكة) له، وشرحه. ومن كتبه (ديوان شعره - خ) اطلعت عليه عنده، ونسخت منه مختارات، و (تاريخ المعرفة - ط) المجلدان الأول منه والثاني، و (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد - ط). انظر: الأعلام للزركلي 148/6.

⁴ الجندي، مُحَمَّدٌ سليم (ت 1375هـ)، تاريخ معرة النعمان، حققه وعلق عليه عمر رضا كخّالة، إصدارات وزارة الثقافة بسوريا، ط 1 1962م، ج 1، ص 7-8، وعلامة الشام للعجمي ص 60، وأعلام الأدب والفن ج 1 ص 255.

⁵ انظر: الأعلام للزركلي 91/7، وعلامة الشام للعجمي ص 61.

⁶ انظر: البارودي، فخري بن محمود (ت 1386هـ)، مذكرات البارودي، مطابع دار الحياة، لبنان، بيروت، 1951م، ص 34-35، وعلامة الشام للعجمي ص 61.

⁷ الحافظ، مُحَمَّدٌ مطيع، ووزار أباطة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، تقديم الدكتور شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ط 1 1986، ج 2، ص 894، وعلامة الشام للعجمي ص 62.

5. خير الدين الزركلي (ت1396هـ)⁽¹⁾ المؤرخ المشهور صاحب كتاب (الأعلام)، وقد ذكر معروف زريق أن الزركلي كان من تلاميذ ابن بدران⁽²⁾.

6. مُحَمَّدُ أحمد دهمان (ت1408هـ) وهو من أخصّ تلاميذ ابن بدران⁽³⁾.

7. منيف بن راشد اليوسف، وهو ابن أخ الوزير أمير الحج عبد الرحمن باشا اليوسف، قال العلامة ابن بدران مثنيًا عليه: " لم يترك المطالعة، ولم يملّ من تحصيل الفنون، فقد قرأ عَلَيَّ العروض، والنحو، والصرف، وفنون البلاغة، محباً للأدب والأدباء، وجمع الكتب النفيسة " ⁽⁴⁾.

مؤلفاته:

جادت قريحة العلامة ابن بدران بمؤلفات جليّة، ومصنّفات مفيدة، دلّت على عنوان عقله، ولسان فضله، ولا شكّ أنّ مؤلفات العالم هي ولده المُخَدِّد⁽⁵⁾.

قال أدهم آل الجندي: "ألف - رحمه الله- المؤلفات التي تشهد له بالفضل وسعة الإطلاع، غير أنّ بعضها لم يكتمل؛ لإصابته بداء الفالج في آخر عمره وقد تخدّرت يمانه من الكتابة " ⁽⁶⁾.

¹ قال المترجم عن نفسه (في كتابه الأعلام 8/ 267) : خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس، الرُّزْكَلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقيّ. ولدت ليلة 9 ذي الحجة 1310 (25 يونية 1893) في بيروت، وكانت لوالدي تجارة فيها، وهو وأمّي دمشقيان. ونشأت بدمشق، فتعلّمت في إحدى مدارسها الأهلية. وأخذت عن علمائها، على الطريقة القديمة، وأولعت بكتب الأدب. وقلّت الأبيات من الشعر، في صباي، وأديت امتحان " القسم العلمي " في المدرسة الهاشمية. ودرّست فيها. وأصدرت مجلة " الأصمعي " أسبوعية، فصادرتها الحكومة العثمانية، لصورة كتبت أنها صورة " الخليفة العربيّ " المأمون. وذهبت إلى بيروت، فانقطعت إلى الكلية العلمانية (لايبك) تلميذاً في دراساتها الفرنسية، ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربيّ فيها. ورجعت، في أوائل الحرب العامة الأولى، إلى دمشق. وأصدرت بها، بعد الحرب (1918) جريدة " لسان العرب " يومية، مع أحد الأصدقاء. وأقفلت، فشاركت في إصدار " المفيد " يومية أيضاً. وهيات للطبع مجموعة من شعري سميتها " عبث الشباب " فالتهمتها النار، وأكلت أصولها، واسترحت منها وأرحت! وعلى أثر وقعة " ميسلون " في صباح اليوم الذي كان الفرنسيون يدخلون به دمشق (1920) غادرتها إلى فلسطين، فمصر، فالحجاز. وصدر حكم الفرنسيين (غيابياً) بإعدامي، وحجز أملاكي. وفي سنة 1921 تجنست بالجنسية العربية في الحجاز. وانتدبني الملك حسين بن علي، لمساعدة ابنه " الأمير عبد الله " وهو في طريقه إلى شرقي الأردن، وكان الظن به حسناً، فعدت إلى مصر، فالقدس. واصطحبت منها إلى الصلت فعمان، جماعة، مهدت معهم السبيل لدخول عبد الله وإنشاء الحكومة الأولى في عمان.

² علامة الشام للعجمي ص62.

³ انظر: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 3/ 532-537، وعلامة الشام للعجمي ص63.

⁴ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، الكواكب الدرّيّة في تاريخ عبد الرحمن اليوسف، صدر سوريا، مطبعة الفيحاء، دمشق، 1339هـ، ص 107، وعلامة الشام للعجمي ص 62-63.

⁵ علامة الشام للعجمي، ص46.

⁶ أعلام الأدب والفنّ، 1/ 224.

وقد بلغت مصنّقاته ثمانية وأربعين مصنّفاً، منها ما أتمّه، ومنها ما لم يتّمّه، ومنها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط (1).

أمّا الكتب التي تمّت طباعتها فمن أشهرها:

1. تعليق على لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرّشاد لابن قدامة، طُبع سنة 1338هـ بدمشق.
 2. الكواكب الدريّة في تاريخ عبد الرّحمن اليوسف صدر سوريا، طُبعت سنة 1339هـ.
 3. تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، طُبعت الأجزاء السبعة الأولى سنة 1399هـ.
 4. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد طُبع مراراً.
 5. نزهة خاطر العاطر شرح روضة الناظر وجنّة المناظر لابن قدامة، طُبع سنة 1342هـ.
 6. البدرانية بشرح المنظومة الفارضية في الفرائض، طُبعت سنة 1342هـ.
 7. الفريدة اللؤلؤيّة في العقود الياقوتية، طُبع سنة 1404هـ.
 8. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، طُبع سنة 1405هـ.
 9. روضة الأرواح، طُبع سنة 1417هـ.
 10. درّة الغوّاص في حكم الزكاة بالرّصاص، طُبعت سنة 1417هـ.
 11. جواهر الأفكار، ولم يتّمّه، طُبع سنة 1420هـ.
 12. تسليّة اللّبيب عن ذكرى حبيب وهو ديوان شعر طُبع سنة 1428هـ.
- وأما الكتب التي ما زالت مخطوطة فمن أشهرها:-

1. شرح الأربعين حديثاً المنزريّة وهي مخطوطة لدى زهير الشاويش.
2. شرح شهاب الأخبار للقضاعي وهو مخطوط في المكتبة التيمورية برقم 531 بخط مؤلفه.
3. حاشية الرّوض المربع شرح زاد المستنقع وهو مخطوط لم يتّمّه المؤلّف.
4. موارد الأفهام على سلسبيل عمدة الأحكام وهو مخطوط لدى زهير الشاويش.
5. إيضاح المعالم من شرح العلامة ابن النّاظم في ثلاثة أجزاء وهو شرح لألفيّة ابن مالك في النّحو.

¹ انظر: علامة الشّام للعجمي، ص46-59، ومدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدّي، ص22-31.

6. آداب المطالعة، وهو تلخيص لكتاب الفرائد السنيّة في الفوائد النحويّة للشيخ أحمد المنيعي الدمشقي.

7. المنهل الصافي في شرح الكافي في العروض والقوافي.

8. رسالة في علم البديع وهي مخطوطة صغيرة لدى زهير الشاويش.

9. تعليق على مختصر الإفادات للبلباني

مرضه ووفاته:

أصيب ابن بدران بداء الفالج في آخر حياته، ولازمه المرض حتّى وفاته. وقد بيّن ابن بدران - رحمه الله تعالى - ذلك بقوله: "نمت ليلة النصف من شوال عام اثنين وأربعين وثلاثمائة بعد الألف في غرفتي في مدرسة عبد الله باشا العظم في دمشق، فانتبهت وقت الفجر وإذا بي أصبت في رجلي وفي يدي اليمناوين بحيث بطلت حركتهما، فنقلت في اليوم الثاني إلى المستشفى العام بدمشق، المبني بالبرامكة، فكننت فيه كالغريب، وصار من كُنْتُ أعلمه، وأصفّي له قلبي كالعدو المجاهر المحتال، ومن به من النَّصاري يعرفون قدري ويلطفونني أحسن ملاطفة" (1).

ومكث - رحمه الله - ستة أشهر في المستشفى يصارع المرض، ويعاني من غربته وأتات المرضى من حوله ثمّ خرج، ليعود إلى غرفته الصّغيرة في مدرسة عبد الله باشا العظم التي كان يسكن فيها ويدرس، يقول الأستاذ أدهم آل الجندي عنه: "وكان يُدرّس في مدرسة عبد الله باشا العظم في البرزورية وينام فيها، ويعيش من الراتب المُخصّص له من دائرة الأوقاف" (2). وبقي كذلك مدّة أربع سنوات حتّى وافاه أجله في مدينة دمشق، في شهر ربيع الثّاني عام ستة وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة النبويّة الموافق للخامس والعشرين من شهر أيلول عام سبعة وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد وذلك في مستشفى الغرباء، ودُفِنَ في مقبرة الباب الصّغير بدمشق" (3).

¹ انظر: ديوان ابن بدران "تسليّة اللبيب"، ص 81-95.

² أعلام الأدب والفنّ، 224/1، وانظر: علامة الشام للعجمي، ص 38، وعلامة الكويت ابن دحيان، ص 116.

³ انظر: ترجمة ابن بدران في آخر كتابه: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص أ، وأعلام الأدب والفنّ، 225/1، وعلامة الشام للعجمي ص 65، ومنتخبات التواريخ لدمشق، 763/2.

رحم الله ابن بدران فقد عاش غريباً، ومات غريباً، فطوبى للغرباء، وجزاه عن العلم وطلابه خير الجزاء.

التَّعْرِيفُ بِتَفْسِيرِ ابْنِ بَدْرَانَ (جَوَاهِرُ الْأَفْكَارِ):

كان ابن بدران يعزم على تسمية تفسيره بـ: "معارج العرفان إلى فهم آيات القرآن"، وقد مضى على ذلك في نهاية الجزء الأول من تفسيره؛ حيث كتب بخط يده: "وقد خطر لي أن أسمي الكتاب كَلِّه" معارج العرفان إلى فهم آيات القرآن" أسأله - تعالى - الإعانة على إتمامه بفضلته وكرمه". لكنّه عاد فكشط هذا الاسم الذي اختاره بنفسه، وكتب بدلاً منه الاسم الذي استقرّ عليه وهو: "جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار" (1)، وهو الاسم الذي صدّر به كتابه في طُرْتِهِ (2) (3).

ولعلّ سبب تغيير التسمية أنّ منهجه - رحمه الله - في التفسير لم يكن ليقصر على فهم معاني القرآن وبيانه فحسب، بل عمّد إلى استخراج الجواهر والذّرر الكامنة فيه، وبظهر ذلك جلياً من خلال تفسيره لآيات الله - تعالى - وقد ذكر ابن بدران تفسيره هذا في كتابه: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (4).

وبيّن زهير الشاويش في مقدّمة تحقيقه للتفسير أنّ ابن بدران لم يُنمّ تفسيره بقوله: "وهذا التفسير بلغ فيه مؤلّفه إلى تفسير الآية 189 من سورة البقرة ثمّ انقطع الذي عندنا، ونسأل الله أن نجد ما تبقى منه - إن كان موجوداً - " (5).

ولكن ما يبدو للباحث أنّ ابن بدران لم يُنمّ تفسيره لأسباب عرضت له، فضلاً عن اشتغاله بالتأليف في كتبٍ أخرى، أشار إليها في نهاية تفسيره للجزء الأول بقوله: "إلى هنا انتهى بنا المجال

¹ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - لبنان - بيروت، ط1 1999م، ص366.

² أطراز البَلَد: نواحيه، الواجدة طُرّة، وطرة كلّ شيء: ناحيته. انظر: تهذيب اللغة، باب الطاء والراء 202/13. وقيل: طُرّة الثوب موضع هُدْبِه، وهي حاشيته التي لا هُدْبَ لها. انظر: لسان العرب، فصل الطاء المهملة 500/4.

³ مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدي، ص41.

⁴ انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، ص447.

⁵ انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص5.

على سبيل الاختصار في تفسير الجزء الأول من كتاب الله - تعالى - مع العجز والتقصير، وكنت ابتدأت به قبل سنين تعدّ بالسبع أو الثمان، فكتبت منه قطعة ثم منعتني عنه موانع، وصرفتنني عنه أمور، منها اشتغالي بتهديب تأريخ الإمام أبي القاسم علي ابن عساكر، الذي يربو تهذيبه على الثلاثة عشر مجلداً، ومنها بعض مؤلفات اقتضت الضرورة تقديمها، ومنها أشغال تشغل القلب وتغله، ليس هنا مواضع ذكرها، ثم لما فرغت من "تهذيب تأريخ ابن عساكر"، صرفت العناية نحو إتمامه حتى وقع الفراغ منه يوم الجمعة الحادي عشر من شهر شوال سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة بعد الألف" (1).

وقد أصيب بالشلل النصفي في شقه الأيمن عام 1342هـ أي قبل وفاته بأربع سنين فأقعد عن الحركة، وعن الكتابة بيده اليمنى فصار يكتب بيده اليسرى في القسم الأخير الموجود من تفسيره، ولعل اضطراب الخط يظهر ذلك. فبيعد مع هذا كله أن يستطيع إتمام تفسيره، وقد صرح بذلك معاصروه ومن ترجموا له على أن تفسيره لم يكتمل، منهم محمد بن ناصر العجمي بقوله عن تفسير ابن بدران: "لم يكمل" (2)، إذ إنه - رحمه الله - قام بتفسير سورة الفاتحة ووصل إلى الآية 189 من سورة البقرة (3).

وقد اعتمد ابن بدران في تفسيره على تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة الصحيحة المبيّنة، ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، واستعان باختلاف القراءات لفهم المعنى، فضلاً عن اعتماده على اللغة في الإيضاح والكشف والإفهام والتبيين (4).

¹ المرجع السابق، ص366.

² علامة الشام للعجمي، ص50.

³ انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص16، والمدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدي، ص41-47.

⁴ انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص7.

الفصل الثَّاني:

الأدب النظري والدراسات السابقة:

هناك العديد من الدراسات التي عُنِيَتْ بتجلية العلاقة بين النُّحو والبلاغة والتفسير، إلا أنَّ هذا البحث تقدَّر بتناوله أثر القواعد النَّحويَّة والبلاغيَّة في الاختيارات التفسيرية في كتاب جواهر الأفكار لابن بدران.

أولاً: الأدب النظري:

ومن الكتب التي تناولت العلاقة بين اللُّغة والتفسير بصورة تطبيقية:

1. الطُّبري(ت310هـ)، في كتابه الموسوم بـ: "جامع البيان في تفسير القرآن".

يعدُّ مؤلِّفه مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن غالب الطُّبري الإمام أبو جعفر رأس المفسرين على الإطلاق، وأحد الأئمَّة⁽¹⁾، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالماً بأحوال الصَّحابة والتَّابعين، بصيراً بأيَّام النَّاس وأخبارهم⁽²⁾. أصله من "آمل" طبرستان.⁽³⁾

وقال ابن خزيمة (ت 311هـ) - وهو معاصر له- عن تفسير مُحَمَّد بن جرير: "قد نظرت فيه من أوَّله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من مُحَمَّد بن جرير⁽⁴⁾. وله مؤلِّفات عديدة منها ما هو مطبوع ومنها ما لم يُطبع بعد⁽⁵⁾.

¹ السيوطي، جلال الدين عبد الرَّحمن بن أبي بكر(ت911هـ)، طبقات المفسرين العشرين، تحقيق علي مُحَمَّد عمر، مكتبة وهبة- القاهرة، ط1، 1396هـ، ص95.

² الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق الدكتور بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 2002م، ج2، ص548.

³ طبقات المفسرين العشرين للسيوطي، ص96.

⁴ الداودي، مُحَمَّد بن علي بن أحمد (ت945هـ)، طبقات المفسرين للداودي، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ج2، ص114.

⁵ انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص145.

وقال فهد الرّومي: " أمّا تفسيره (جامع البيان في تأويل آي القرآن) فلم يؤلّف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسّرون عالّة على تفسيره في التّفسير بالمأثور، إذ يتميّر تفسيره بمزايا منها:

1. اعتماده على التّفسير بالمأثور من الرّسول- صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه والتّابعين.
2. التزامه الإسناد في الرواية.
3. عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.
4. ذكره لوجه الإعراب..
5. دقّته في استنباط الأحكام الشّرعيّة من الآيات " (1).

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب حتى عهد قريب مفقوداً لا وجود له، ثمّ قدر الله له الظهور والتّداول، فكانت مفاجأة سارّة للأوساط العلميّة في الشّرق والغرب إذ وُجِدَت في حيازة أمير " حائل" الأمير حمود ابن الأمير عبد الرّشيد من أمراء نجد نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طُبِعَ عليها الكتاب من زمن قريب، فأصبحت في يدنا دائرة معارفٍ غنيّة في التّفسير بالمأثور (2).

ولاشكّ أنّ تفسير الطّبري من أجلّ التّفاسير وأعظمها، حتّى كادت أن تجتمع كلمة العلماء والباحثين في المشرق والمغرب قديماً، وحديثاً على عظيم قيمته ورفعة شأنه.

قال السيّوطي (ت911هـ) - رحمه الله-: " فإنّه كثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير الطّبري، وهو من أجلّ التّفاسير وأعظمها قدراً" (3)، بل إنّه من أصحّ التّفاسير إسناداً، كما بين ذلك ابن تيمية (ت728هـ)- رحمه الله - بقوله: " وأمّا التّفاسير التي في أيدي النّاس فأصحّها تفسير مُحمّد بن جرير

¹ المرجع السابق، ص145.

² التّفسير والمفسّرون لمُحمّد الذهبي، ج1، ص149.

³ الإتيان في علوم القرآن للسيّوطي، ج4، ص207.

الطبري؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل من المتهمين، كمقاتل ابن بكير، والكلبي" (1).

" وقال الشيخ أبو حامد الإسفراييني (ت406هـ)⁽²⁾: " لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير ابن جرير، لم يكن ذلك كثيراً " . (3).

من هنا يتبين لنا أن تفسير الطبري يُعدّ من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يُعدّ المرجع الأول من المفسرين الذين عُنوا بالتفسير النقلي، وإن كان في الوقت نفسه يُعدّ مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي؛ نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي، والبحث الحر الدقيق (4).

لذلك تظهر أهمية هذا التفسير من ناحية زمنية، إذ يُعدّ من أقدم كتب التفسير التي وصلت إلينا، وما قبله من الكتب قد اندثر ولم يصل إلينا شيء منها، إلا تفسير يحيى بن سلام (ت200هـ) فهو أقدم منه، وقامت بتحقيقه الدكتورة هند شلبي، حيث تم طبعه ونشره من قبل دار الكتب العلمية عام 1425هـ. وتظهر أهميته من ناحية فنية، وهي الطريقة المميزة التي سلكها المفسر في تأليف تفسيره، الأمر الذي جعله ينماز عن باقي التفاسير.

وتتجلى طريقة ابن جرير في تفسيره أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: " القول في تأويل قوله - تعالى - كذا وكذا " ثم يفسر الآية مستشهداً بما يرويه بسنده إلى الصحابة، أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم، ويعرض لكل ما روي في الآية، ولا يقتصر على مجرد الرواية، بل يوجّه

¹ مجموع الفتاوى 13 / 385.

² هو الأستاذ، العلامة، شيخ الإسلام، أبو حامد أحمد بن أبي طاهر مُحَمَّد بن أحمد الإسفراييني، شيخ الشافعية ببغداد، ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. قدم بغداد وله عشرون سنة فتفقه على أبي الحسن بن المرزبان، وأبي القاسم الداركي. وبرع في المذهب وأرى على المتقدمين، وعظم جاهه عند الملوك، وكان أول أمره يحرس في درب، وكان يطالع على زيت الحرس، وأنه أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة، مات في شوال سنة ست وأربعين وأربعمئة وكان يوماً مشهوداً، انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، طبقات الشافعيين، تحقيق د. أحمد عمر هاشم، د. مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، 1413هـ ص345-346، وسير أعلام النبلاء للذهبي 194/17-196.

³ طبقات المفسرين للسيوطي، 96/1، وطبقات المفسرين للداودي، 113/2.

⁴ التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 149/1

الأقوال ويرجح بعضها على بعض، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ويستتبط بعض الأحكام.

ولم يكتف ابن جرير بذكر الإسناد فقط؛ وإنما كان يقف منه موقف الناقد البصير فيحكم على رجاله بالعدالة أو التجريح، وقد يعمد إلى رد الرواية التي لا يثق بصحتها. وكان ابن جرير يُعنى بذكر القراءات وتوجيهها في بيان المعنى المراد من الآية الكريمة. أما بالنسبة للإسرائيليات فكان يكثر من ذكرها إلا أنه كان يتعقب كثيراً منها بالنقد. ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللغوية بجانب الروايات المنقولة، ويستشهد بالشعر القديم بشكل واسع، وكان يهتم بالمذاهب النحوية؛ لذلك فإننا نجده كثيراً ما يتعرض لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال تارة على المذهب البصري، وأخرى على المذهب الكوفي، وهكذا يكثر في مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب، فضلاً عن استشهاده بالشعر القديم على ما يقول؛ مما جعل كتابه غنياً بالمعالجات اللغوية والنحوية، التي أكسبته شهرة عظيمة، وهذا يدل على أنه - رحمه الله - كان واسع المعرفة بعلوم اللغة وأشعار العرب، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن ابن جرير لم يكن يعرض القضايا اللغوية إلا وسيلة للتفسير؛ من أجل ترجيح بعض الأقوال على بعض، والتوفيق بين ما صحح عن السلف، والمعارف اللغوية بحيث يزيل ما يتوهم فيه التناقض بينهما.

وأما بالنسبة لمعالجته للأحكام الفقهية؛ فإنه يعالج أقوال العلماء، ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأي يختاره لنفسه، ويرجحه بالأدلة العلمية الثقلية والعقلية. فلم يكن - رحمه الله - مقلداً لأحد إنما كان مجتهداً، له مذهبه الفقهي الخاص به. والحق أن شخصيته الأدبية، والعلمية جعلت تفسيره مرجعاً مهماً من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية، ولغوية، وعلمية قيمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة⁽¹⁾.

وإن خير ما وصف به تفسير الطبري ما نقله الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني في تاريخه بقوله: " فتم من كتب يعني محمد بن جرير كتاب " تفسير القرآن "، وجوده، وبين فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه

¹ انظر: التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي، ص 150-159، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص 374-375.

وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدین فيه، والقصص وأخبار الأمة، والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب، كلمة كلمة، وآية آية، من الاستعاذة وإلى أبي جاد⁽¹⁾، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل⁽²⁾.

وقد أتم ابن جرير تفسيره في سبع سنوات، إملأ على أصحابه كما بين ذلك الحموي في معجم الأدباء فيما أسنده إلى أبي بكر ابن بالويه (ت340هـ)⁽³⁾ قال: قال لي أبو بكر محمد بن اسحاق، يعني ابن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير، قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملأ قال: كله؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين⁽⁴⁾، قال: فاستعاره مني أبو بكر وردّه بعد سنين⁽⁵⁾.

وقد أفاد الباحث من تفسير الطبري إفادة عظيمة في كيفية عرض أقوال العلماء في المسألة الواحدة، وطريقة الترجيح بين هذه الأقوال، فضلاً عن دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات، وبيانه لأوجه الإعراب في تحديد المراد من الآية، ومقابلة أقوال العلماء بالقول الصحيح المأثور عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والصحابة والتابعين؛ إذ إنه اعتنى عناية فائقة بالإسناد.

¹ وهو علم يرمز فيه للأرقام بالحروف، وبعضهم يجعله باباً لمعرفة الحوادث. وتفسير ابن جرير ليس فيه علم أبي جاد؛ ولكنه قصد من الألف إلى الباء، يعني من أوله إلى آخره.

² طبقات المفسرين للدأودي، 2/ 114.

³ هو الإمام المفيد الرئيس، أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه الجلاب النيسابوري، من كبراء بلده، ارتحل به أبوه فسمع من محمد بن غالب تتمام وموسى بن الحسن الجلاجلي وبشر بن موسى وغيرهم، كتب عن عبد الله بن أحمد بن حنبل مئة جزء، وتوفي في رجب سنة أربعين وثلاثمئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 419/15.

⁴ يعني بعد المئتين 283هـ - 290هـ.

⁵ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي (ت626هـ)، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ، ج6، ص2442.

2. الزمخشري (ت538هـ)، في كتابه الموسوم بـ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن مُحَمَّد بن عمر الزمخشري المعتزلي الملقب بـ جبار الله؛ لأنه ذهب إلى مَكَّة وجاورها زمنًا، ولد في رجب سنة 467هـ في زمخشر قرية من قرى خوارزم، وقدم بغداد ولقي الكبار وأخذ عنهم، وبعد أن تلقى العلم، رحل إلى مَكَّة وألَّف فيها تفسيره الكشاف سنة 528هـ، ثم عاد إلى جرجانية خوارزم وتوفي فيها ليلة عرفة سنة 538هـ، وهو إمام الأئمة البارزين في النُّحو واللغة والأدب، وصاحب تصانيف بديعة في شتى العلوم ومن أجلها: كتابه الكشاف، ومن مؤلفاته: (أساس البلاغة، والمفصل في النُّحو، والأحاجي النُّحوية، والمقامات، وغيرها. وهو حنفي المذهب، معتزلي الاعتقاد، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، بل يجاهر به ويدعو إليه.

قال صاحب وفيات الأعيان: " كان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، حتى نُقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً، واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب " (1).

وأما قيمة هذا التفسير، فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه؛ لِمَا أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما ظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس أحدٌ كالزمخشري يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم؛ لا سيَّما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارها، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلَّق به قلوب المفسرين (2).

وليس ذلك فحسب بل إنَّ إمامه بعلمي البيان والمعاني جعله يكشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته، ولقد أشار إلى ذلك في مقدِّمة كتابه بقوله: " لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص

¹ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان 5 / 170.

² التفسير والمفسرون 307/1.

على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التتقير عنهما أزمنا " (1).

ولقد أعدّ الزمخشري نفسه لهذا إعداداً كاملاً: فأعدّ له لغة، وبلاغةً وبيانا، وأسلوباً، وفصاحة، وأعدّ له نحواً، وصرفاً.

" ولكن الذي يركّز عليه صاحب الكشف ولا يرى من إتقانه مناصاً للمفسّر هو: علم المعاني، وعلم البيان، وما من شكّ في أن التفسير يحتاج إلى علوم جمّة " (2).

واعتمد الزمخشري في تفسيره على الرأي أكثر من اعتماده على المأثور؛ ولذلك فإنه قليلاً ما يستشهد بالأحاديث، ولا يتحاشى إيراد الأحاديث الموضوعية خاصة في فضائل السور. كما أنه قليلاً ما يورد الإسرائيليات، وإنّما كان جلّ اهتمامه، واعتناؤه ببيان وجوه الإعجاز القرآني، وإظهار جمال النظم فيه، واستخراج ما يحويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان، الأمر الذي ميّزه عن غيره وجعله مرجعاً؛ إذ لا يوجد تفسير أوسع مجالاً من جهوده في هذا الصّدّد من تفسير الزمخشري؛ لذلك فإنّ كلّ من جاء بعده - حتى من أهل السنة - أفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه، فأوردوا في تفاسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشفه من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، واعتمدوا ما نبّه عليه الزمخشري من نكات بلاغية، تكشف عمّا دقّ من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه (3).

وقد استطاع الزمخشري بحذقه ودهائه ومهارته، أن يملأ تفسيره بعقائد المعتزلة، والاستدلال لها وتأويل الآيات وفقها، فهو يأتي بالإشارات البعيدة، ليضمّن معناها الآيات في الانتصار للمعتزلة والردّ على خصومهم، ويدسّ ذلك دسّاً لا يدركه إلا حاذق، حتى قال البلقيني (ت 805هـ) (4): " "

¹ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ج1، ص2

² محمود، منيع بن عبد الحليم (ت 1430هـ). مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1421هـ، ص107.

³ انظر: التفسير والمفسرون لمحمّد الذهبي 313/1

⁴ هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعي، أبو حفص، سراج الدين: مجتهد حافظ للحديث، من العلماء بالدين. ولد في بلقينة (من غربية مصر) وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة 769 هـ وتوفي بالقاهرة. من كتبه " التدريب - خ " في فقه الشافعية، لم يتمه، و " تصحيح المنهاج - خ " ست مجلدات، فقه، و " الملمات برد المهمات - خ " فقه، و " محاسن الاصطلاح ". انظر: الأعلام للزركلي 46/5.

استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش " (1). أي أنه يَدُسُّ السُّمَّ في العسل، إذ لا تظهر بدعته الاعتزالية -أحياناً- في كلامه إلا بعد فحص، وتمحيص، وتدقيق وتفتيش.

لذلك فإن كثيراً من العلماء قد نبّه إلى أخذ الحيطة والحذر عند النظر في تفسير الزمخشري، قال الذهبي (ت748هـ): "محمود بن عمرو الزمخشري المفسر النَّحْوِي صالح؛ لكنّه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله، فكن حذراً من كشافه" (2).

وقال أبو حيان (ت745هـ) في البحر المحيط عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿وَإِنَّا

لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: 49]، متعباً الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "وهذا الرجل وإن كان أوتي من القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبّهت على ما فيه مما يجب تجنّبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا، وينتبه على ما تضمّنه من القبائح، بعد ذكر ما مدحته به:

فيُنْتَبِتُ موضوع الأحاديث جاهلاً ويعزرو إلى المعصوم ما ليس لائقاً

ويشتم أعلام الأئمة ضلّة ولا سيما إن أولجوه المضايقا

إلى أن قال:

ويحتال للألفاظ حتى يديرها لمذهب سوء فيه أصبح مارقا (3)

¹ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي 243/4، وبحوث في أصول التفسير ص153.

² الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي مُحَمَّد البجّاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1 1382 هـ، ج4، ص78.

³ البحر المحيط في التفسير 252/8-253.

وقال تاج الدين السبكي (ت771هـ) في كتابه معيد النعم ومبيد النقم: " واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنّفه إمام في فنّه، إلا أنه رجل مبتدع فيجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في كتابه الكشاف من ذلك كله (1).

وهذا ابن خلدون يقرّ رسوخ قدم الزمخشري في ما يتعلق باللسان وبلاغته، ولكنه ينتقده في معتقده الفاسد وانتصاره له، ومخالفة أهل السنة، بقوله: " ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أنّ مؤلّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة " (2).

بل إنّ ابن خلدون يُحدّر من الاطّلاع عليه إلا لمن وقف على المذاهب السنيّة، محسناً للحجاج عنها، فإنه مأمون من غوائله وسينتفع من غرابة فنونه في اللسان، إذ يقول: " وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنيّة، مُحسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان " (3).

وقد كان الزمخشري من شدة تعصبه لمذهبه والدفاع عنه، يعمد إلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولو أدى ذلك إلى تدرّعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، وهذا ما دفعه إلى إبطال المعنى الظاهر في كثير من الأحايين؛ لإثبات معنى آخر موجود في اللغة بما يتفق ومذهبه لنصرته وإظهاره.

فمثلا نراه عندما تعرّض لتفسير قوله -تعالى- ﴿: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:22-23]، يتخلّص من المعنى الظاهر لكلمة " ناظرة "؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه الذي يقرر إنكار رؤية الله - تعالى - ونراه يثبت له معنى آخر هو التوقّع والرجاء،

¹ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق مُحَمَّد النجار وأبو زيد شلبي ومُحَمَّد أبو العيون، طبع بدار الكتاب العربي بمصر، ط1 1948م، ص80.

² مقدمة ابن خلدون 252/1.

³ المرجع السابق 252/1.

ويستشهد على ذلك بالشعر العربي فيقول: " والناصرة: من نصرة النعيم، إلى ربها ناظرة، تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله - تعالى - ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ ﴿٣٠﴾ [القيامة: 30]، ﴿إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٨٨﴾ [ال عمران: 28، النور: 42، فاطر: 18] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ [البقرة: 245]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾ [الشورى: 10، هود: 88]، كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنّهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم؛ فإن المؤمنين ناظرة ذلك اليوم؛ لأنّهم الآمنون الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، فاخصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه مُحال، فوجب حمله على معنى يصحّ معه الاختصاص، والذي يصحّ معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تزيد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل⁽¹⁾:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ
وَالْبَحْرِ دُونَكَ زِدْتَنِي نَعْمًا " (2)

ومن الذين خصّصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضي الإسكندرية، أحمد بن مُحَمَّد بن منصور المنير المالكي، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها " الانتصاف " ناقش فيها الزمخشري وجادله في بعض ما جاء في كشافه من أعراب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم في بيان ما تضمنه من الاعتزال، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشري وتتفق مع هواه⁽³⁾.

وينبغي لمن أراد أن يقرأ في الكشاف أن يرجع لكتاب "الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال" لابن المنير وهو مطبوع مع الكشاف وفيه كشف لاعتزالياته وضلالاته⁽⁴⁾.

¹ هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي، شهد فتح مصر، ومات في أيام عمر، وكان أبوه من كبار الصحابة. انظر: ابن يونس، أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصّدفي (ت 347 هـ)، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1 1421 هـ، ج 1، ص 93، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 99/2.

² الكشاف 662/4، ومفاتيح الغيب للرازي 731/30، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 315/1.

³ انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 330/1.

⁴ انظر: دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي 162/ 1.

وابن المنير - مع شدة خصومه للزمخشري - لا ينسى ما له من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يُبدي إعجابه به؛ لتتويجه بأساليب القرآن العجيبة التي تنادي بأنه ليس من كلام البشر. وكثيراً ما يعترف - بتقدير كبير وفي عدالة واعتدال - بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية (1).

فضلاً عما يحويه الكشاف من بحوث أدبية قيمة، تُظهر لنا ما كان بين الأدب والتفسير من تأثر كلّ منهما بالآخر وتأثيره فيه (2).

وقد أفاد الباحث من الكشاف إفادة بالغة في بيان أوجه الإعجاز في الآيات القرآنية؛ لإحاطته بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، فضلاً عن تقننه في عرض المسائل، ومناقشتها، وتحليلها؛ للوصول إلى المراد من الآية القرآنية، وبيان أحكامها. وكيفية دفاعه عن الرأي الراجح لديه.

¹ انظر: التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي 331/1.

² انظر: المرجع السابق 341/1.

3. الرازي (ت606هـ)، في كتابه الموسوم بـ (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير).

هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي، البكري، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي⁽¹⁾، ولد في الري سنة (544هـ)، وتوفي في هراة سنة (606هـ). وهو عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق، نشأ في البلاد الأعجمية، وعاش فيها، كان - رحمه الله - فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبع فيها، فكان إماماً في التفسير، وعلوم الكلام، والعلوم العقلية، والمنطق، والفلسفة، واشتهر بذلك وفاق فلاسفة عصره، وكان طبيباً حاذقاً، أجاد اللغتين العربية والفارسية، وتمرس بأدبهما واكتملت ملكته البيانية فيهما، قال ابن خلكان (ت681هـ): "وكان له في الوعظ اليد البيضاء، ويعظ باللسانين العربي والعجمي" ⁽²⁾. وقد نَدِمَ - رحمه الله - على الاشتغال بعلوم الكلام، كما بيّن ذلك ابن قاضي شهبة (ت851هـ) بقوله: "وقيل: إنّه ندم على دخوله في علم الكلام، قال ابن الصلاح (ت643هـ)⁽³⁾: أخبرني القطب الطوغاني مرتين: أنّه سمع فخر الدين الرازي يقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى. وَرَوِيَ عنه أنّه قال: لقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجد لها تروياً غليلاً، ولا تشفي غليلاً، ورأيت أصحَّ الطرق طريقة القرآن" ⁽⁴⁾.

وقد تَفَنَّنَ في التأليف والتصنيف، فأنتج كتباً كثيرة جليلة في التفسير، والكلام، والأصول، والفقه، والنحو، والأدب، والفلسفة، والطب، والهندسة، والفلك.

¹ وفيات الأعيان، 4/248 - 249.

² المرجع السابق، 4/249، وانظر: ابن عاشور، مُحَمَّد الفاضل بن مُحَمَّد الطاهر (ت1390هـ)، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، السنة الثانية - الكتاب الثالث عشر، سنة 1390هـ، ص69.

³ هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام مفتي الإسلام، تقي الدين أبو عمر بن الإمام البارعي القاسم صلاح الدين النصري، الكردي، الشَّهْرُزُورِي، الشافعي، تفقه على والده الصلاح بشهرزور، وكان والده شيخ تلك الناحية، ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة، وبرع في المذهب، وكان إماماً بارعاً، حجة، متبحراً في العلوم الدينية بصيراً بالمذهب ووجهه، خبيراً بأصوله، عارفاً بالمذاهب، جيد المادة من اللغة العربية، حافظاً للحديث متقناً فيه، توفي سنة ثلاث وأربعين وستمئة. انظر: تاريخ الإسلام 14/455. وقال عنه بان خلكان: كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة. انظر: وفيات الأعيان 3/243.

⁴ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الأسدي (ت851هـ)، طبقات الشافعية، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت، ط1 1407هـ، ج2، ص65-66، وانظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام 13/137، وطبقات الشافعيين لابن كثير ص780، وطبقات المفسرين للداوودي 2/216 - 217، وبحث في أصول التفسير ص154.

ومن أهم هذه المصنّفات: التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وله في أصول الفقه: المحصول، وفي الحكمة: المخلص، وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة، وفي الطلسمات⁽¹⁾: السّر المكنون، ويقال: إنّه شرح المُفصّل في النّحو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي، وغيرها كثير من مصنّفاته التي يتجلّى فيها علم الرجل الواسع الغزير⁽²⁾.

ويُعدُّ تفسيره (مفاتيح الغيب) أوسع التفسير في علم الكلام، فقد تأثر كثيراً بالعلوم العقلية وتوسّع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية، والفلكية، والمسائل الطبية، وملاً تفسيره بهذه العلوم، كما قال أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط: "فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك حكي عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير"⁽³⁾.

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، إلا أنه لم يتمه على أرجح أقوال العلماء، قال ابن خلكان (ت 681هـ) في وفيات الأعيان: "له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها: تفسير القرآن الكريم، جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله"⁽⁴⁾.

وقد اختلف العلماء فيمن أكمله وأتمه، قال ابن حجر (ت 852هـ) في الدرر الكامنة: "أحمد ابن مُحَمَّد بن أبي أحرز مكي نجم الدين المخزومي القمولي ... وأكمل تفسير الإمام فخر الدين"⁽⁵⁾، وقال صاحب كشف الظنون: "وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن مُحَمَّد القمولي تكملة له، وتوفي

¹ (الطلسم) (في علم السحر) خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مُبهم كالألغاز والأحاجي (ج) طلاس. انظر: الزيات، أحمد حسن وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استنبول - تركيا، ط 2، 1392، مادة طَلَسَم، ج 2، ص 562.

² انظر: وفيات الأعيان 249/4، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 206/1.

³ انظر: البحر المحيط 547/1، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي 243/4، وبحوث في أصول التفسير، ص 155.

⁴ وفيات الأعيان 249/4.

⁵ ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد العسقلاني (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، مراقبة مُحَمَّد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر آباد / الهند، ط 2، 1392هـ، ج 1، ص 359.

سنة (727)، سبع وعشرين وسبعمئة. وقاضي القضاة: شهاب الدين بن خليل الخويي، الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضاً وتوفي سنة (639 هـ)، تسع وثلاثين وستمئة " (1).

وقال صاحب التفسير والمفسرون للخروج من هذا الاضطراب بين قولي ابن حجر وحاجي خليفة في بيان مَنْ أتم وأكمل تفسير الرازي: "والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أنّ الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويي فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه. كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلى النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخويي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون " (2).

ولعلّ السبب في هذا الاضطراب هو أن القارئ لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلك والأسلوب، فنمط الكتاب وطريقته تجري على وتيرة واحدة من أوله إلى آخره، الأمر الذي يجعل قارئ الكتاب والناظر فيه لا يستطيع التمييز بين الأصل والتكملة، بحيث لا يستطيع الوقوف على حقيقة المقدار الذي كتبه الرازي، والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة (3).

فيما يرى المعلمي اليماني (ت1386هـ) أنّ عامّة الكتاب هو من تصنيف الفخر الرازي، وأنّه أتمّ تفسيره إلاّ بعض السور اليسيرة، فقد أتمّها وأكملها أحمد بن خليل الخويي (4).

إذ إنّهُ خَلَصَ بالقول: "الأصل من هذا الكتاب، وهو القدر الذي هو من تصنيف الفخر الرازي، هو: من أوّل الكتاب إلى آخر تفسير سورة القصص، ثمّ من أوّل تفسير الصافات إلى آخر تفسير سورة الأحقاف، ثمّ تفسير سورة الحديد والمجادلة والحشر، ثمّ من أوّل تفسير سورة الملّك إلى

¹ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى - بغداد، 1941م، ج2، ص1756.

² التفسير والمفسرون لمحمّد الذهبي 208/1.

³ انظر: المرجع السابق 208/1، وبحوث في أصول التفسير ص155.

⁴ انظر: اليماني، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ت1386هـ)، مجموع رسائل التفسير، تحقيق محمّد أجمل الإصلاحي، دار علم الفوائد، ط1 1434هـ، ص305-332.

آخر الكتاب. وما عدا ذلك فهو من تصنيف أحمد بن خليل الخويي، وهو بعض التكملة المنسوبة إليه؛ فإن تكملته تشمل زيادة على ما ذكر تعليقاً على الأصل. " (1).

ومع ذلك فإن تفسير الرازي يحظى بشهرة واسعة بين العلماء، بما يمتاز به عن غيره باستفاضته في كثير من الأبحاث في شتى العلوم، لا سيما في علم الكلام، وعلوم الكون والطبيعة. ويمتاز أيضاً بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، ويتوسع في ذلك حتى نجده كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة. كما أنه يتوسع ويستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية والبلاغية. إلا أن استطراده وتوسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية كان ظاهراً وواضحاً في تفسيره حتى أصبح أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي علوم الكون والطبيعة؛ قللت من أهميته كتفسير للقرآن الكريم. وهذا ما دفع السيوطي (ت 911هـ) بالقول: "صاحب العلوم العقلية - خصوصاً الإمام فخر الدين - قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المؤرد للآية (2).

وأما موقفه من المعتزلة، فإنه لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليهم، رداً لا يراه بعضهم كافياً ولا شافياً، كما قال ابن حجر (ت 852هـ) في لسان الميزان: "وكان يُعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويُفصّر في حلّها، حتى قال بعض المغاربة: يُوردُ الشبهة نقداً، ويحلّها نسيئةً" (3).

ولعلّ أبرز ما أفاد الباحث من تفسير الرازي، استفاضته في معالجة المسائل في شتى العلوم، لا سيما النحوية والبلاغية منها؛ للوقوف على المعنى المراد من خلالها، وهذا ناتج عن سعة اطلاعه وتبحّره في شتى أصناف العلوم، فضلاً عن ذكر المناسبات وبيانها بين الآيات بعضها مع بعض، وكيفية الربط بين الآية والآية، والسورة والسورة؛ ممّا يؤكّد الاختيار الأمثل للقاعدة النحوية والبلاغية في توجيه المعنى المراد.

¹ المرجع السابق، ص 331-332.

² الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 4/243، وانظر: كشف الظنون لحاجي خليفة 1/427.

³ ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت 852هـ)، لسان الميزان، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1 2002م، ج 6، ص 318، وانظر: التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي 1/207-210، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 378-379، ودراسات في علوم القرآن لفهد الرومي 1/163.

4. أبو حيان (ت 745 هـ) في كتابه الموسوم بـ (البحر المحيط في التفسير).

هو أبو عبدالله مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، الجيانيّ، الشهير بأبي حيان، المولود سنة (654هـ)، في إحدى قرى غرناطة، وتوفي في القاهرة سنة (745هـ). كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، وعلى علم واسع في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال ومعرفة طبقاتهم - خصوصاً المغاربة-، وكان ملماً بالقراءات صحيحها وشاذّها، وعُرف بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، ولا شك أنه الإمام المطلق في زمانه بالنحو والتصريف، وقد أمضى أكثر عمره خدمة لهذا الفن حتى صار لا يُذكر أحدٌ في أقطار الأرض فيهما غيره.

وقال عنه الصفدي (ت 764هـ)⁽¹⁾: "كان أمير المؤمنين في النحو" (2).

وقال - أيضاً - : "لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، ولم أره على غير ذلك" (3).

وقال عنه الداوودي (ت 945هـ): "نحويّ عصره، ولُغويّ، ومفسّر، ومحدّث، ومقرّئ، ومؤرّخ، وأديبه"⁽⁴⁾. وله مؤلفات كثيرة، من أهمها: البحر المحيط في التفسير، وغريب القرآن، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وغيرها.

ويُعدُّ تفسيره (البحر المحيط) من أشهر كتبه وأفضلها، ويقع في ثمانية مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، إذ يَعدُّه كثير من أهل العلم، والتفسير المرجع الأول، والأكثر أهمية لمن أراد أن يقفَ على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم. فقد توسّع - رحمه الله - في الإعراب والمسائل النحويّة، وذكر الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير، وهو وإن كان كذلك إلا أنه لم يُهمل كلّ ما له صلة بالتفسير، فنراه يتكلّم عن

¹ خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صغد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان. وتولى ديوان الإنشاء في صغد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها. له زهاء من مئتي مصنف، منها (الوفاي بالوفيات) كبير جداً، في التراجم، و(الشعور بالعمور) في تراجم العمور وأخبارهم، و (نكت الهميان) ترجم به فضلاء العميان، و (ألحان السواجع) رسائله لبعض معاصريه، رتب أسماءهم على حروف المعجم.

² الصّفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د. علي أبي زيد، وآخرون، قدم له مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق - سوريا، ط1 1418هـ، ج5، ص325.

³ المرجع السابق 330/5.

⁴ طبقات المفسرين للداوودي 287/2.

المعاني اللغوية للمفردات واستعمالاتها، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة وتوجيهها، فضلاً عن النواحي البلاغية في القرآن الكريم، وذكر الأحكام الفقهية عندما يمرُّ بآيات الأحكام، مستعرضاً أقوال العلماء من السلف ومن تقدّمه من الخلف في ذلك.

فهذا منهجه وطريقته التي رسمها لنفسه في تأليفه لكتابه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته، إذ يقول: "وترتيبي في هذا الكتاب، أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها، لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب. وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ، ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك اللفظة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيحمل عليه ثم أشرع في تفسير الآية، ذاكراً سبب نزولها، إذا كان لها سبب ونسخها ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شادّها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية ناقلاً أقاويل السلف، والخلف في فهم معانيها، متكلماً على جليّها، وخفيّها بحيث إني لا أغادر منها كلمة، وإن اشتهرت، حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان (1).

ويشير أبو حيان إلى أنه اعتمد في أكثر نقول كتابه على كتاب "التحريف والتحبير لأقوال أئمة التفسير"، إذ يقول: "واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا، على كتاب التحريف والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبدالله مُحَمَّد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، عرف بابن النقيب - رحمه الله تعالى - إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنّف في علم التفسير، يبلغ في العدد مئة سِفْرٍ أو يكاد" (2).

ولم يقتصر أبو حيان في نقله على كتاب "التحريف والتحبير" فحسب، بل إنه كثيراً ما ينقل من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، قال في خطبة تفسيره: "وهذا أبو القاسم محمود بن عمرو المشرقي الخوارزمي الزمخشري، وأبو مُحَمَّد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، أجلّ من صنّف في علم التفسير، وأفضل من تعرّض للتنقيح فيه والتحرير" (3)، وأضاف يقول: "وكلامُهُما فيه يدلُّ على تقدُّمهما في علوم، من

¹ البحر المحيط 12/1-13.

² المرجع السابق 22/1.

³ المرجع السابق 20/1.

منثور ومنظوم، ومنقول ومفهوم، وتقلّب في فنون الآداب، وتمكّن من علمي المعاني والإعراب، وفي خطبتي كتابيهما وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدلّ على أنهما فارسا ميدان، وممارسا فصاحة وبيان⁽¹⁾. ومع ذلك، فإنّه لم يتوان عن تعقّبهما كثيراً بالردّ والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص. فضلاً عن عدم رضاه عن اعتزاليات الزمخشري، فكان ينقذها ويردّها بأسلوب ساخر، ويحمل عليه الحملات القاسية من أجل آرائه الاعتزالية. كما بيّن ذلك أبو حيان بقوله: "ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة" (2).

ونظم قائلاً:

ويحتال للألفاظ حتى يديرها لمذهب سوءٍ فيه أصبح مارقا⁽³⁾.

ومع ذلك نجده يُشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه، إذ يصفه بأنّه: "أوتي من علم القرآن أوفر حظاً، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ" (4)

ونهاية القول، فإنّ أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع، وهي الناحية النحويّة التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير (5).

ولمّا كان البحر المحيط يُعدّ المرجع الأوّل للوقوف على أوجه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، فإنّ الباحث قد أفاد منه إفادة كبيرة في توسّعه في الإعراب والمسائل النحويّة، وذكّر الخلاف بين النحويين، وكيفية ترجيحه للمسألة النحويّة بما يناسب المعنى المراد. فضلاً عن عرضه للمعاني اللغويّة للمفردات واستعمالاتها؛ للوقوف على الراجح في المسألة.

¹ البحر المحيط 20/1.

² المرجع السابق 252/8.

³ المرجع السابق 253/8.

⁴ المرجع السابق 252/8.

⁵ انظر: التفسير والمفسرون لمحمّد الذهبي 225/1 - 228، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 379/1 - 380، وبحوث في أصول التفسير ص 155 - 156.

5. الألويسي (ت 1270هـ) في كتابه الموسوم بـ (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني).

هو أبو التّاء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الألويسي البغدادي، وُلِدَ في جانب الكَرْخ من بغداد سنة 1217 هـ، نبغ في كثير من العلوم حتى صار شيخ العلماء في العراق، وكان عالماً باختلاف المذاهب، مطلقاً على الملل والنحل، سلفي الاعتقاد شافعي المذهب، إلا أنه قد انتقل إلى المذهب الحنفي كما قال عن نفسه: "فإني وإن كنت من قبل شافعيّاً، فإني اليوم والحمد لله قد صرت حنفيّاً". ولكنّه في آخر أمره يميل إلى الاجتهاد.

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرّس في عدّة مدارس، وقد ترك ثروة علمية عظيمة ونافعة من أهمها: (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)، وحاشيته على قطر الندى لابن هشام، ولم يتمّها، وبعد وفاته أمّمها ابنه السيد نعمان الألويسي، و(درّة العوّاص في أوهام الخواص)، و(شرح السلم في المنطق)، وكتاب (الأجوبة العراقية)، وكتاب (غرائب الاعتراب في الذهاب والإقامة والإياب)، وغيرها كثير.

وقد توفي - رحمه الله - في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 1270 هـ، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ. (1)

أمّا تفسيره فقد ذكر الألويسي في مقدمته عن أسباب تفسيره لكتاب الله - عزّ وجلّ - بقوله: "لم أزل متطلباً لاستكشاف سرّه المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم، طالما فرقتُ نومي لجمع شوارده وفارقت قومي لوصال خرائده" (2).

ثمّ بيّن أنّه رأى رؤيَةً في منامه، فكانت إشارة إلى تأليف تفسيره، حيث يقول: "... إلى أن رأيت رؤيَةً لا أعدّها أضغاث أحلام ولا أحسبها خيالات أوهام... ثم انتبعت من نومتي، وأنا مستعظم

¹ انظر: البيطار، عبدالرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (ت 1335هـ)، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حقّقه ونسّقه وعلّق عليه حفيده مَحْمَدُ بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط 2 1413هـ، ص 1450-1455، والتفسير والمفسرون لمَحْمَدُ الذهبي 250/1-251، والتفسير ورجاله لمَحْمَدُ الفاضل بن عاشور ص 128-134، وبحوث في أصول التفسير ص 157-158.

² الألويسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني (ت 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1 1415هـ، ج 1، ص 4.

لرؤيتي، فجعلت أفنش لها عن تعبير، فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير... وأقول غير مبالٍ بتشنيع جهول: هذا تأويل رؤيائي " (1).

وقد اعتنى الألويسي بتفسيره، فكان حصيلة علمه وفكره في شتى العلوم، وبذل مجهوده حتى أخرج للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فقد نقل عن كثير من المفسرين ممن سبقه، فنقل عن تفسير ابن عطية، والكشاف، والرازي، وأبي السعود، والبيضاوي، وأبي حيان وغيرها من التفاسير المعتمدة. ولم يكتف بالنقل عن هذه التفاسير، وإنما كثيراً ما ينقد ويفند ويرد على أقوال أصحابها فيما يراه صواباً، فنجده يفند ويرد آراء المعتزلة والشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه السلفي السني.

ومما يلاحظ في تفسيره أنه يستطرد إلى الكلام في العلوم الكونية، والفلكية، ويذكر كلام أهل الهيئة، وأهل الحكمة، ويقر ما يرتضيه، ويفند ما لا يرتضيه. كما أنه يستطرد ويتوسع إلى الكلام في الصناعة النحوية إلى حد يكاد يخرج به عن وصفه مفسراً، وهذا في مواضيع كتابه كلها، فلا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك. كذلك نجده يستوفي مذاهب الفقهاء وأدلتهم عند الكلام عن آيات الأحكام، مع عدم تعصبه لمذهب بعينه. أما بالنسبة للإسرائيليات والأخبار المكذوبة فلا يابها، بل إنه شديد النقد والسخرية من أولئك المفسرين الذين امتلأت تفاسيرهم بها وظنوها صحيحة. ثم إنه كثير الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعاني اللغوية. كما أنه يذكر أسباب النزول للآيات التي أنزلت على سبب، مع ذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، ومناسبات السور بعضها مع بعض، ويعرض لذكر القراءات المتواترة وغيرها.

وتميز تفسير الألويسي بالتفسير الإشاري والإكثار منه بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات، حتى عدّ بعض العلماء تفسيره من المؤلفات في التفسير الإشاري. ولكن الظاهر من منهج الألويسي في تفسيره، أنه لم يكن مقصوده الأهم هو التفسير الإشاري، بل كان ذلك تابعاً لغيره من التفسير الظاهر (2).

¹ المرجع السابق، 5/1.

² انظر: التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي 250/1-257، وبحوث في أصول التفسير ص 157-158، والتفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ص 135-141.

والحق أنّ تفسير الألوّسي لو جرّد عن قسم التفسير بالإشارة لكان أليقّ بمقامه العلمي السامي، ولكن من نظر إلى التيارات التي تلاقت في تكوينه، وتكوين البيئة العلمية التي أنجبتّه، التمس له عذراً، وأيقن بأنّ تعلق الأفكار بتلك المناهج من التفسير لم يكن يحتمل إلغاءها؛ لأنها تستقل حينئذ بتوجيه الناس، ولذلك أوردّها إلى التحقيقات العلمية الكفيلة بردها، أو حجزها عند وضع يقصرها على حدّها (1).

قال مُحَمّد الذهبي (ت1398هـ): "وجملة القول: فروح المعاني للعلامة الألوّسي ليس إلاّ موسوعة تفسيرية قيّمة، جمعت جُلّ ما قاله علماء التفسير الذين تقدّموا عليه، مع النقد الحرّ، والترجيح الذي يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة، مع توسع كاد يخرجّه عن وصفه مفسراً إلاّ أنّه متّزن في كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم على اختلاف نواحيه، وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء، إنه سميع مجيب " (2).

وقد أفاد الباحث من روح المعاني إفادة عظيمة، ومعرفة جليّة، بما احتواه من أقوال لعلماء التفسير الذين تقدّموا عليه، وكيفية الجمع بين أقالهم تارة، ونقدهم تارة أخرى، وطريقته في الترجيح بين الأقوال، وقوة دفاعه عمّا يراه راجحاً في تأويل الآيات، ومعرفة مراد الله منها.

وختلاصة القول:

فإنّ هذا غيُضٌ من فيضٍ فيما يُذكر من تفاسير القرآن الكريم، وإنّما أكتفي بما ذكرت مخافة الإطالة؛ ولكن ممّا ينبغي التنبيه إليه أنّ كلّ من أراد ارتقاء المصعد، ودخول المعبر، واعتلاء المنبر في تفسير آيات الله، ومعرفة كنهها، ومراد الله منها لا بدّ له من الاطّلاع على أمّات التفاسير بكليّتها وجملتها؛ لأنّ كلّ تفسير من التفاسير المعنوية يُعدّ مدرسة في علم التفسير، وأصوله، وقواعده، لا سيّما وأنّ كلّ عالم من علماء التفسير يتميّز بلفته، أو لفتات تفسيرية قد لا توجد عند غيره. فالأخذ بكليّتها تفتح الآفاق للوصول إلى الأعماق في مراد الله من كلامه، واستتباط أحكامه.

¹ التفسير ورجاله لمُحمّد الفاضل بن عاشور ص141.

² التفسير والمفسرون لمُحمّد الذهبي، 257/1.

ثانياً: الدراسات السابقة:

بعد البحث والتنقيب لم يعثر الباحث على دراسات سابقة تتناول القواعد النحوية والبلاغية في تفسير " جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار " لابن بدران. إلا أن هناك الكثير من الدراسات التي عُنيت ببيان أثر القواعد النحوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية، ومنها:

1. الطبطبائي (2001م)، تعدد التوجيه النحوي عند الطبري في تفسيره " جامع البيان في تأويل آي القرآن " .

رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مصر .

تناول الباحث موضوعاً خاصاً في تفسير الطبري، وهو تعدد الأوجه الإعرابية التي ساقها الإمام المفسر مُحَمَّد بن جرير الطبري في تفسيره. وتظهر أهمية هذه الدراسة في العلاقة القوية بين المعنى النحوي (الإعراب)، والمعنى الدلالي في تفسير الطبري، وهذه العلاقة هي التي تبين أهمية تعدد الأوجه الإعرابية عند الطبري، فحاجته إلى معرفة وجوه المعنى الدلالي هي التي تدفعه إلى معرفة وجوه المعنى النحوي.

فالطبري عندما يضع أوجهاً إعرابية لآية ما، فإنه يحدّد تحديداً دقيقاً - في كل وجه إعرابي - المعنى الدلالي المراد للآية. وقد تحدّث الباحث عن أسباب تعدد التوجيه النحوي في التنعيم، وكذلك ما جاء من اختلاف في التركيب في الكلمة المفردة أو في الجملة، حيث أدى إلى تغيّر في التوجيه النحوي عند الطبري، ثم أورد بعض اختلافات النحاة في بعض القضايا النحوية، مما أدى إلى تعدد في التوجيه النحوي في تفسير الطبري. وبعد ذلك ذكر الباحث أن مظاهر تعدد التوجيه النحوي عند الطبري إما مظاهر تتعلق بالعلامة الإعرابية، أو مظاهر لا تتعلق بالعلامة الإعرابية، ثم أعدّ فصلاً في الآثار المترتبة على تعدد التوجيه النحوي عند الطبري، وذلك كمثل الآثار الفقهية، والآثار البلاغية، والآثار اللغوية، والآثار العقائدية.

ومن النتائج التي خلّص إليها الباحث: أن أوجه الإعراب تكشف عن وجوه التأويل، وتمكّن الدارس من معرفة المعاني المختلفة التي تحتملها الآية القرآنية، وذلك من دلائل الإعجاز الإلهي في الكتاب العزيز. وجاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

2. زين (2006م)، أبو السعود ومنهجه في النُّحو من خلال تفسيره " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " (الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم نموذجاً). رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن.

وقد حاولت الدراسة تجلية المنهج النُّحوي في تفسير أبي السعود وهو من التفاسير المشهورة والمتداولة بين أهل العلم، إذ اقتصرَت الدراسة على الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم. وبعد تقري المادة النُّحوية في التفسير تبين للباحث أنه يشتمل على مسائل، وتدقيقات، وتحقيقات نحوية، تُبرز أثر علم النُّحو في توجيه المعنى، فعمل على تطبيق مقتضيات النُّحو في معالجة القضايا الشرعية، مبيّناً أهمية الدراسة من جهتين:

الأولى: أنها تمثل أنموذجاً تطبيقياً لفهم النصوص عن طريق القواعد النُّحوية المطردة.

الثانية: أنها تتناول تفسيراً يتخذ من النُّحو الآلة الرئيسة في تحليل النص القرآني.

وجاءت هذه الدراسة في تمهيدٍ وأربعة فصول وخاتمة.

3. المنيراوي (2009م)، أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (دراسة تطبيقية في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء).

رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة.

عمدت الباحثة إلى بيان أثر اختلاف الإعراب، وتعدّد المواقع الإعرابية في تفسير القرآن الكريم، وتطبيق ذلك على سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، من خلال الاستقراء والتحليل، حيث اعتمدت كتاب إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس؛ لتحديد المواضع التي تختلف فيها المواقع الإعرابية، وبيّنت أن اختلاف الإعراب كان له الأثر الواضح في توجيه المعنى عند المفسرين.

وقد خلّصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج من أهمها:

1. يرتبط علم الإعراب بالتفسير ارتباطاً وثيقاً؛ فعلم الإعراب من العلوم المهمة التي لا بدّ

لمن يشتغل في علم التفسير أن يتعلمها، وأن يكون على دراية بها؛ لما لها من أثر بالغ في بيان مراد الله -تعالى- وفهم الآية فهماً سليماً، وإزالة اللبس والإشكال عنها، ودون هذا العلم سيبقى المفسر فاقداً لأداة مهمة من أدوات التفسير.

2. تأكيد العلاقة بين الإعراب والمعنى الدلالي، وأن كلاً منهما يؤثر في الآخر. فإن العرب ما كانت لتجزع من اللحن في الإعراب لو لم يكن مؤدياً إلى فسادٍ في المعنى، وما كانت لتحرص ذلك الحرص على الإعراب لو لم يكن يعمل في إبراز المعنى وإظهاره.

3. إن هناك العديد من آيات القرآن العظيم التي كان للإعراب الفصل في توجيهها، والوقوف على أغراضها ومعانيها. فإن وظيفة هذا العلم لا تقتصر على ضبط الكلمات، ومعرفة المبني والمعرب، والمرفوع والمنصوب، والمجرور والمجزوم؛ بل تتعدى إلى توجيه النصوص القرآنية والوقوف على مقاصدها⁽¹⁾.

واشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وأربعة مباحث تمثل الجانب النظري، وأربعة مباحث تمثل الجانب التطبيقي للدراسة، فضلاً عن الخاتمة والفهارس.

4. العتّابي (2013م)، ابن مالك النحوي في تفاسير القرآن الكريم.

رسالة ماجستير، جامعة واسط، العراق.

قام الباحث بدراسة مصدر مهم من المصادر النحوية التي اعتمدها المفسرون في تفاسيرهم، ألا وهو آراء ابن مالك النحوية، حيث عمل الباحث على استقراء مجموعة من التفاسير فوجد أن جُلّ المفسرين الذين جاؤوا بعده ذكروا آراءه النحوية، وناقشوها وبيّنوا أثرها في توجيه المعنى بما يتناسب مع توجيههم للنصوص القرآنية وهذا ما دفعهم إلى اعتماد آرائه وآراء النحويين من غيره في توجيه النص القرآني.

وتتنظم هذه الرسالة في ثلاثة فصول تتقدمها مقدمة، وتُعقبها الخاتمة.

وبعد هذا العرض لبعض الدراسات السابقة ذات الصلة؛ فإنّ الباحث قد أفاد من هذه الدراسات من خلال كيفية تناولها للمسائل النحوية، والبلاغية، وعرضها، وتحليلها، وبيان أثرها في توجيه المعنى المراد للآيات القرآنية، فضلاً عن كيفية عرضها لأقوال العلماء، وترجيحاتهم خروجاً من دائرة الخلاف الواقع بينهم؛ للوقوف على الحقّ والصواب في التفسير، والتأويل.

¹ أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم، ص253-254.

ما يميّز هذه الدراسة:

تتماز هذه الدراسة بتناولها تفسيراً متداولاً بين أهل العلم، يعتمد على النُّحو والبلاغة في تحليل النص القرآني في كثير من تخريجاته، وتقريراته، واختياراته بعيداً عن التعصّب لرأي عالم من علماء النُّحو والبلاغة. ولم يعثر الباحث على دراسات سابقة تتناول القواعد النُّحوية والبلاغية في هذا التفسير وهو "جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار" لابن بدران. كما أنّها تماز - أيضاً - بتناولها علمين مهمين من علوم العربية، وهما: النُّحو والبلاغة، وبيان أثرهما في توجيه المعنى المراد من كلام الله - عزّ وجلّ -.

الفصل الثالث:

أثر القواعد النحوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189:

يتناول هذا الفصل الجانب التطبيقي والتحليلي للدراسة من خلال بيان أثر القواعد النحوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران، إذ وقع اختيار الباحث على عشر مسائل في القواعد النحوية، وخمس في القواعد البلاغية.

المبحث الأول: أثر القواعد النحوية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189:

المسألة الأولى:

أثر الباء في توجيه المعنى في قوله - تعالى - ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: 1].

كان اختيار ابن بدران - رحمه الله - مبنياً - في هذه المسألة - على ثلاث قواعد، اعتمد من

خلالها تفسير قوله - تعالى -: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾

القاعدة الأولى: متعلق الجار والمجرور بـ ﴿ بِسْمِ ﴾ محذوف:

قوله: " لا يخفى على أحد ممن له أدنى إلمام بعلم العربية، أن " الباء " من (بسم) حرف

جزء، متعلق بمحذوف " (1).

أي إنَّ كلَّ جارٍ ومجرورٍ لا بدَّ له من شيءٍ يتعلَّق به ظاهراً أو محذوفاً، وهذه معروفة لدى

العرب؛ إذ إنَّها مستقراة من كلامهم، فيكون بذلك قد قرَّر قاعدة مضطربة، معلومة من العربية

¹ جواهر الأفكار، ص31.

بالضرورة، ولا خلاف معتبراً فيها. وهذا مفهوم قوله: " لا يخفى على أحد ممن له أدنى إلمام بعلم العربية " (1).

قال السَّمِينِ الحَلْبِيِّ (ت756هـ)⁽²⁾ صاحب الدَّرِّ المصون: "واعلم أنّ كل جارٍ ومجرور لا بدّ له من شيء يتعلّق به، فعل أو ما في معناه، إلا في ثلاث صور: حرف الجرّ الزائد، ولعلّ ولولا عند مَنْ يجرّ بهما، وزاد الأستاذ ابن عصفور كاف التشبيه، وليس بشيء فإنها تتعلّق. إذا تقرر ذلك ف ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لا بدّ من شيء يتعلّق به ولكنه محذوف " (3).

وقال ابن عاشور (ت1393هـ) في متعلّق المجرور في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: " فحذف متعلّق المجرور فيها حذفاً مُلْتَزِماً إيجازاً اعتماداً على القرينة " (4).

وهذا ما يذهب إليه الباحث في أنّ كلّ جارٍ ومجرورٍ لا بدّ له من شيء يتعلّق به ظاهراً أو محذوفاً، مؤيداً بذلك قول ابن بدران ومن ذهب إلى هذا القول.

القاعدة الثانية: متعلّق الجار والمجرور بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فعلٌ متأخّر:

قوله: " قدّر علماء البلاغة هذا المحذوف متأخراً، وهو ما يعول عليه، ويناسب ما لأجله كان نزول القرآن " (5). إذ يرجّح المؤلف في هذه القاعدة أن المتعلّق المحذوف فعلٌ متأخّر، تأويله (بسم الله أقرأ)، أو (بسم الله أبدأ).

وقد اختلف العلماء في متعلّق ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المحذوف من حيث الموضع والنوع. إذ إنّ هذا المتعلّق المحذوف يُقسم إلى أربعة أقسام، بيّنها الفخر الرازي (ت606هـ) في تفسيره مفاتيح

¹ المرجع السابق، ص31.

² هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين: مفسّر، عالم بالعربية والقرآنة. شافعيّ، من أهل حلب. استقر واشتهر في القاهرة. من كتبه (تفسير القرآن) عشرون جزءاً، و (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز)، و (الدر المصون) في إعراب القرآن، و (عمدة الحفّاظ، في تفسير أشرف الألفاظ) في غريب القرآن، كتب سنة 995 وكان في عشرين مجلدة رآها ابن حجر بخطه، و (شرح الشاطبية) في القرآنة قال ابن الجزري: لم يسبق إلى مثله. انظر: الأعلام للزركلي 274/1.

³ السَّمِينِ الحَلْبِيِّ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت756هـ)، الدَّرُّ المصون في علوم الكتاب المكتون، تحقيق الدكتور أحمد مُحمَّد الخراط، دار القلم - دمشق، ج1، ص22.

⁴ التحرير والتنوير لابن عاشور 1 / 146.

⁵ جواهر الأفكار، ص31.

الغيب بقوله: " قد بيّنّا أنّ الباء من ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ متعلّقة بمضمر، فنقول: " هذا المضمر يُحتمل أن يكون اسماً، وأن يكون فعلاً، وعلى التقديرين فيجوز أن يكون متقدّماً، وأن يكون متأخراً، فهذه أقسام أربعة، أما إذا كان متقدّماً وكان فعلاً فكقولك: أبدأ باسم الله، وأما إذا كان متقدّماً وكان اسماً فكقولك: ابتداء الكلام باسم الله، وأما إذا كان متأخراً وكان فعلاً فكقولك: باسم الله أبدأ، وأما إذا كان متأخراً وكان اسماً فكقولك: باسم الله ابتدائي " (1).

وذهب البصريّون إلى أنّ المتعلق المحذوف (اسم)، واختلفوا في نوعه هل هو مبتدأ أو خبر؟

فقال بعضهم: إنّ المتعلق بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ مبتدأ حُذِفَ هو وخبره، وبقي معموله، تقديره:

ابتدائي باسم الله كائن، أو قراءتي باسم الله كائنة. وقال بعضهم: إنّ المتعلق بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ خبر حُذِفَ هو ومبتدؤه، وبقي معموله، تقديره: ابتدائي كائن باسم الله، أو قراءتي كائنة باسم الله.

قال النحاس (ت 338هـ): " قال أكثر البصريين: المعنى أول ما افتُتِحَ به ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾،

وأوّل كلامي ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ " (2).

وذهب الكوفيون إلى أنّ المتعلق المحذوف (فعل)، واختلفوا في موضعه، هل هو مقدّم أو

مؤخّر؟

فقال بعضهم: إنّ المتعلق المحذوف وهو الفعل مقدّم؛ لأنّ هذا هو الأصل، تقديره: أقرأ باسم الله، أو أبتدئ باسم الله.

قال الزجاج (ت 311هـ) - وهو بغداديّ المذهب - " قوله - عزّ وجلّ - : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الزجاج، الجالب للباء معنى الابتداء، كأنك قلت: بدأت باسم الله الرحمن الرحيم، إلّا أنه لم يُحتج لذكر " بدأت "؛ لأنّ الحالة تُنبئ أنّك مُبتدئ " (3).

¹ مفاتيح الغيب، 1/99.

² النّحاس، أبو جعفر أحمد بن مُحمّد (ت 338هـ)، معاني القرآن، تحقيق مُحمّد علي الصّابوني، جامعة أمّ القرى - مكّة المكرّمة، ط 1409هـ، ج 1، ص 50.

³ الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت 311هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب - بيروت، ط 1408هـ، ج 1، ص 39.

وأيدهم في ذلك الجرجاني (ت471هـ): " ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: الباء مع الاسم آلة لفعل محذوف، وتقديره أفتتح وأبتدى باسم الله " (1).

وقال السمين الحلبي (ت756هـ): " واختلف النحويون في ذلك، فذهب أهل البصرة إلى أنّ المتعلّق به اسم، وذهب أهل الكوفة إلى أنه فعل، ثم اختلف كلٌّ من الفريقين: فذهب بعض البصريين إلى أنّ ذلك المحذوف مبتدأ حُذف هو وخبره وبقي معموله، تقديره: ابتدائي باسم الله كائن أو مستقر، أو قراءتي باسم الله كائنة أو مستقرة... وذهب بعضهم إلى أنه خبر حُذف هو ومبتدؤه أيضاً، وبقي معموله قائماً مقامه، والتقدير: ابتدائي كائن باسم الله، أو قراءتي كائنة باسم الله، نحو: زيد بمكة، فهو على الأوّل منصوب المحلّ، وعلى الثاني مرفوعه لقيامه مقام الخبر. وذهب بعض الكوفيين إلى أنّ ذلك الفعل المحذوف مُقدّر قبله، قال: لأنّ الأصل التقديم، والتقدير: أقرأ باسم الله أو أبتدى باسم الله. ومنهم من قدرّ بعده، والتقدير: باسم الله أقرأ، أو أبتدى، أو أتلو (2).

وقال ابن عطية (ت542هـ): " والباء في بسم الله متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره ابتداء مستقر أو ثابت بسم الله، وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره ابتدأت باسم الله، فيسم الله في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيبويه أنّ الباء متعلقة باسم كما تقدم " (3).

واختلفوا - أيضاً - : هل ذلك الفعل أمر أم خير؟ فذهب الفراء أنه أمر تقديره: اقرأ أنت باسم الله، وذهب الزجاج أنه خبر تقديره: اقرأ أنا أو أبتدى ونحوه (4).

وقد أدّى هذا الاختلاف بين النحويين إلى الاختلاف بين المفسرين في توجيه المعنى المراد من قوله - تعالى - : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.

قال الطبري (ت310هـ): " وذلك أنّ الباء من " بسم الله " مقتضية فعلاً يكون لها جالباً، ولا فعل معها ظاهر فأغنت سامع القائل: " بسم الله " معرفته بمراد قائله... فمعقول إذن أنّ قول القائل

¹ درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 1 / 99.

² الدر المصون 22/1،.

³ المحرر الوجيز لابن عطية 61/1.

⁴ الدر المصون 23/1.

إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تالياً سورة، أن إتباعه "بسم الله الرحمن الرحيم" تلاوة السورة، يُنبئ عن معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومفهوم به أنه مرید بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم " (1).

وقال الواحدي (ت468هـ): "فأما المتعلق به (الباء) في قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فإنه محذوف، ويُستغنى عن إظهارها لدلالة الحال عليه، وهو معنى الابتداء، كأنه قيل (بدأت بسم الله)، (وأبدأ بسم الله)، والحال تبين أنك مبتدئ فاستغنيت عن ذكره " (2).

وقال الثعلبي (ت427هـ) في تفسير قوله - تعالى -: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي الكلام إضمار واختصار تقديره: قل، أو ابدأ بسم الله " (3).

وقال البغوي (ت516هـ): "قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، الباء زائدة تخفّض ما بعدها، مثل من، وعن، والمتعلق به (الباء) محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: ابدأ بسم الله أو قل بسم الله " (4).

فكانت هذه أقوال بعض المفسرين الذين ذهبوا إلى القول بأن المتعلق المحذوف هو فعل متقدم. ومن المفسرين الذين قالوا: إنّ المتعلق المحذوف هو فعل متأخر:

صاحب الكشاف بقوله: "فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلّ وبسم الله ارتحل؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كان مُضمراً ما جعل التسمية مبدأ له " (5).

¹ جامع البيان 1/115.

² الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد (ت468هـ)، التفسير البسيط، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط1 1430هـ، ج1، ص438.

³ الثعلبي، أبو اسحق احمد بن مُحَمَّد (ت427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1 1422هـ، ج1، ص92.

⁴ البغوي، محيي السنة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد (ت516هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 1420هـ، ج1، ص70.

⁵ الكشاف، 2/1.

وصاحب أنوار التنزيل بقوله: " والباء متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ؛ لأنّ الذي يتلوه مقروء" (1).

وقال الرازي (ت606هـ): "... التقديم أولى أم التأخير؟ فنقول: كلاهما وارد في القرآن، أما التقديم فكقوله: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِدَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: 41]، وأما التأخير فكقوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]، وأقول: التقديم عندي أولى" (2).

وينبغي التنبيه هنا أنّ التقديم في قول الرازي في هذا الموطن يعني به تقديم لفظ الجلالة، دلّ على ذلك قوله " أما التقديم فكقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِدَهَا وَمُرْسَلَهَا﴾ [هود: 41]، أي مثل مَنْ يقول: بسم الله أقرأ أو أبدأ.

والذي يراه الباحث راجحاً بعد الاطلاع على أقوال العلماء، وسير ترجيحاتهم، أنّ المتعلق المحذوف من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ هو فعل متأخر. مؤيداً بذلك صاحب التفسير ابن بدران ومن قال بهذا القول، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. إنّ القول بأنّ المتعلق المحذوف مبتدأ حذف هو وخبره وبقي معموله، تقديره: ابتدائي باسم الله كائن. فيه نظر من حيث إنه يلزم حذف المصدر وإبقاء معموله وهو ممنوع (3).
- قال مكّي (ت437هـ) صاحب مُشْكِلِ إعراب القرآن: " وموضع بسم موضع رفع عند البصريين على إضمار مبتدأ تقديره ابتدائي بسم الله، فالباء على هذا متعلقة بالخبر الذي قامت الباء مقامه تقديره: ابتدائي ثابت، أو مستقر بسم الله أو نحوه، ولا يحسن تعلق الباء بالمصدر الذي هو مضمّر؛ لأنه يكون داخلاً في صلته فيبقى الابتداء بغير خبر (4).
2. إنّ الأصل في العمل الأفعال، ولما كانت القراءة عملاً لزم أن يكون المتعلق المحذوف فعلاً.

¹ البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي (ت685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق مُحَمَّد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 1418هـ، ج1، ص25.

² مفاتيح الغيب، 99/1.

³ الدر المصون، 22/1.

⁴ مشكل إعراب القرآن لمكّي 66/1.

قال ابن عثيمين (ت1421هـ) في تفسيره: "وقد رناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال - وهذه يعرفها أهل النحو-؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط" (1).

وسبقه ابن عادل (ت775هـ) في اللباب بقوله: "قال أبو بكر الرازي - رحمه الله تعالى -: إضمار الفعل أولى من إضمار الاسم؛ لأن نسق تلاوة القرآن يدل على أن المضمرة هو الفعل" (2).

3. لما كان الفعل الذي يُشرع القيام به إنما يكون بعد قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لزم من ذلك أن يكون المتعلق المحذوف متأخراً.

قال المعلمي اليماني (ت1386هـ): "والأصل في الكلمة التي يتعلق بها الجار والمجرور تقدّمها عليه، ولكن المختار في تسمية الإنسان عن نفسه تأخير المتعلق؛ لأنّ الحالة التي تدلّ عليه من شأنها التأخير. فإن أراد أن يقوم فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وقام، فالقيام إنما يُشاهد بعد التسمية، فكذلك ينبغي تقدير الفعل الذي دلّ عليه القيام وهو "أقوم" (3).

4. إنّ في تأخير الفعل فوائد منها:

أ- التبرك والتعظيم بتقديم اسم الله - عزّ وجلّ -؛ لأنّ سبحانه قديم في الوجود، فهو الأول ليس قبله شيء، فينبغي أن يُقدّم اسمه - سبحانه - على كل شيء يُفعل، منبركاً به، مُعظماً له. لا سيما وأنّ المشركين كانوا يُقدّمون أسماء آلهتهم في جميع أفعالهم، فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى من أجل التبرك والتعظيم، فشرع الله - عزّ وجلّ - لنبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في كل أمر يقصده ويفعله، محرماً بذلك الابتداء باسم سوى اسم الله - تعالى -؛ لذلك فإنّ التبرك والتعظيم لله - سبحانه - من باب أولى على ما سواه، ولهذا قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "من لم يذبح فليذبح بسم الله" (4).

ب- الحصر والاختصاص؛ لأنّ تأخير العامل يفيد الحصر على المعمول (المتقدّم)؛ إذ لا يستطيع أحد أن يعمل فعلاً، أو يتحول عن فعل إلا بعونه - سبحانه - فلا أفعل فعلاً باسم أحد إلا اسم الله - عزّ وجلّ -.

¹ العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة)، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، ط 1423هـ، م 1، ص 5.

² ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت 775هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط 1419هـ، ج 1، ص 118.

³ مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليماني، ص 8.

⁴ صحيح البخاري 23/2، باب كلام الإمام والناس في خطبة، حديث رقم 985.

وكذلك تأخير العامل يفيد الاختصاص للمعمول؛ لأنه لا يُقصد أحد بالابتداء إلا الله - سبحانه - فيُخصّ بالتبرك والتعظيم، والعون. فكان تقديم لفظ الجلالة، وتأخير الفعل إرادة للاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، كما في قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[الفاتحة: 5]، وقوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: 41]. ولا يعارضه قوله - تعالى -: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]؛ لأنّ ذلك المقام مقام قراءة فكان الأمر بها أهم؛ لذلك قُدمت.

وذهب إلى هذا القول كثير من علماء النحو والتفسير، قال الزمخشري: " فإن قلت: لم قدرت المحذوف متأخراً؟ قلت: لأنّ الأهم من الفعل، والمتعلّق به هو المتعلّق به؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء ألتهتم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله - عزّ وجلّ - بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: " إياك نعبد "، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41] (1)

قال ابن المنير (ت683هـ) في تعليقه على كلام الزمخشري السابق: " لأنك لو ابتدأت بالفعل في التقدير لما كان الاسم مبتدأً به، فيفوت الغرض من التبرك باسم الله تعالى - أول نطقك " (2). وأيد الزمخشريّ (ت538هـ) الكافيجي (ت879هـ) بقوله: " ما ذهب إليه صاحب " الكشاف " ها هنا هو المختار فإنّ فيه قلة الحذف، ورعاية حق خصوصية المقام، ودلالة على اختصاص القراءة بسم الله، وتعليماً للمؤمنين بأنّ طريقهم هو الحقّ والصواب، وتعريضاً للكفار بأن سبيلهم هو الخطأ والطغيان، فمعلوم أن هذه الاعتبارات تناسب نظم القرآن، وتشهد بفصاحته وغاية إعجازه " (3).

وقال البيضاوي (ت685هـ): " وتقديم المعمول ها هنا أوقع كما في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا﴾، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأنه أهم وأدلّ على الاختصاص، وأدخل في التعظيم

¹ الكشاف، 1/3.

² ابن المنير، ناصر الدين أحمد بن مُحَمَّد الإسكندري (ت683هـ)، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، وهو مذيّل في الحاشية من كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص3.

³ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، ج1، ص84.

وَأَوْفَقُ لِلوُجُودِ فَإِنَّ اسْمَهُ - سبحانه و تعالى - مَقْدَمٌ عَلَى القِرَاءَةِ، كَيْفَ لَا وَقَدْ جَعَلَ آلَةَ لَهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الفِعْلَ لَا يَتَمُّ وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ شَرْعاً مَا لَمْ يَصْدُرَ بِاسْمِهِ - تعالى -، لِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: " كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرٌ " (1)، وَقِيلَ الْبَاءُ لِلْمَصَاحِبَةِ، وَالْمَعْنَى مَتَبَرِكاً بِاسْمِ اللَّهِ - تعالى - أَقْرَأُ " (2).

وَقَالَ الفَخْرُ الرَّازِي (ت606هـ): " وَأَقُولُ: التَّقْدِيمُ عِنْدِي أَوْلَى - يَعْنِي تَقْدِيمَ لَفْظِ الجَلَالَةِ وَتَأْخِيرِ الفِعْلِ - (3) وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهُ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ - تعالى - قَدِيمٌ وَاجِبُ الوجودِ لذَاتِهِ، فَيَكُونُ وَجُودُهُ سَابِقاً عَلَى وجودِ غَيْرِهِ، وَالسَّابِقُ بِالذَّاتِ يَسْتَحِقُّ السَّبِقَ فِي الذِّكْرِ، الثَّانِي: قَالَ - تعالى -: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالأَخِرُ ﴾ [الحديد: 3]، وَقَالَ: ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: 4]، الثَّالِثُ: أَنَّ التَّقْدِيمَ فِي الذِّكْرِ أَدْخَلَ فِي التَّعْظِيمِ، الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فَهَذَا هُنَا الفِعْلُ مَتَأَخَّرَ عَنِ الأَسْمِ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ كَذَلِكَ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ بِاسْمِ اللَّهِ أِبْتَدَئاً " (4).

وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ المَعْلَمِيُّ اليمَانِيُّ (ت1386هـ) بِقَوْلِهِ: " إِنَّ التَّأْخِيرَ يَبِينُ أَنَّ فِي الكَلَامِ اخْتِصَاصاً، وَمَعْنَى الاخْتِصَاصِ أَنْ يَكُونَ الكَلَامُ يَدُلُّ مَعَ ثُبُوتِ الأَمْرِ لِلشَّيْءِ عَلَى انْتِفَائِهِ عَنِ غَيْرِهِ " (5).

وَرَجَّحَ ابنُ هِشَامٍ (ت761هـ) مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الكُوفِيُّونَ فِي مَسْأَلَةِ جُمْلَةِ " البِسْمَلَةِ " حَيْثُ عَدَّهَا البَصْرِيُّونَ اسْمِيَّةً، عَلَى تَقْدِيرِ " ابْتِدَائِي بِاسْمِ اللَّهِ "، وَعَدَّهَا الكُوفِيُّونَ: فَعْلِيَّةً، عَلَى تَقْدِيرِ: " أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ "، فَوَافَقَ الكُوفِيِّينَ، وَقَدَّرَ " بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ " (6).

¹ ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمود شاكر، دار الحديث - القاهرة، ط1 1416هـ، ج8، ص395، حديث رقم 8694. قال المحقق: إسناده صحيح وهو بلفظ: "كل كلام أو أمر ذي بال لا يُفتح بذكر الله - عزَّ وجلَّ - فهو أبتَرُ أو قال أقطع"، وضعفه الألباني في الإرواء. الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين (ت1420هـ)، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2 1405هـ، ج1، ص29، حديث رقم 1، باب كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه، وقال: ضعيف جداً.

² أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 25/1.

³ انظر: ص90.

⁴ مفاتيح الغيب، 99/1.

⁵ مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليماني ص8.

⁶ ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت761هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، دار الفكر، ج1، ص7.

القاعدة الثالثة: معنى الباء:

قال ابن بدران: "وجب على العامل أن يقول عند الابتداء به: باسم الله، فكأنه يقول: إنَّمَا عملي هذا هو بأمر الله، وهو خالص له، وليس لي منه شيء، طارحاً الرياء والافتخار به؛ لأنني عبد مملوك له - تعالى - فلا أعمل شيئاً لنفسي، وهل أنا ونفسي إلا ملك له - تعالى - وليست القدرة التي أنشأت بها هذا العمل إلاً منه - تعالى - ولولا أنه تفضّل عليّ بها، لما كنت قادراً على فعل شيء، ولا على صدوره، ولست أستمدُّ القوّة إلاً منه، ولا أرجو الإحسان إلاً منه، فلفظ " الاسم " مراد هنا"(1).

إذ بيّن - رحمه الله - أن معنى الباء من ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ هو الاستعانة، ويظهر ذلك جلياً بقوله: " وليست القدرة التي أنشأت بها هذا العمل إلاً منه - تعالى - ولولا أنّه تفضّل عليّ بها، لما كنت قادراً على فعل شيء، ولا على صدوره، ولست أستمد القوّة إلاً منه " (2).

بمعنى أن العبد غير قادر على فعل شيء إلاً بالاستعانة به - سبحانه -، ولولا عون الله لعباده لما استطاعوا القيام بشيء من أعمال العبادات والطاعات، ولا الأعمال الدنيوية المعيشية. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى معاني الحروف وأثرها في بيان المعنى المراد من الآيات الكريمة.

حروف المعاني وأثرها في توجيه المعنى:

لقد كان لحروف المعاني الأثر الكبير في بيان المعنى المراد، وتوجيه الآية القرآنية؛ ممّا جعلها موضع اهتمام المفسرين التي يحتاجون إليها لاختلاف مدلولها كما بيّن ذلك الزركشي (ت794هـ)⁽³⁾ بقوله: "والبحث عن معاني الحروف مما يحتاج إليه المفسّر لاختلاف مدلولها " (4).

ولهذه الحروف معانٍ متعددة تختلف باختلاف السياق الذي وردت فيه؛ لبيان المعنى المراد بحسب ما يقتضيه الحال، الأمر الذي دفع كثيراً من العلماء إلى إفرادها بالتأليف، وخصّها بالتصنيف،

¹ جواهر الأفكار، ص32-33.

² المرجع السابق، ص33.

³ هو مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقّه الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة - ط) و (لقطة العجلان - ط) في أصول الفقه، و (البحر المحيط) في أصول الفقه، و (إعلام الساجد بأحكام المساجد - ط). انظر: الأعلام للزركلي 60/6-61.

⁴ البرهان في علوم القرآن للزركشي 4 / 175.

ومن أشهرهم الزجّاجي (ت 337هـ) في كتابه " حروف المعاني والصفات "، والرّماني (ت 384هـ) في كتابه " معاني الحروف "، وغيرهم.

فحروف المعاني: هي الحروف التي تربط الأسماء بالأفعال، والأسماء بالأسماء. (1)

"وهي لا تستقل بالمعنى، وإنما تحمل دلالات جزئية ومعاني تبعية، تظهر أثناء تركيبها، وانتظامها في الجملة: كحروف الجر، والعطف، وغيرها؛ لذلك اهتم بتحديد المفسرون، فكانت موضع عناية عند كثير من العلماء؛ لإبراز المعنى المراد، وإيضاحه، وإزالة غوامضه، واستنباط الأحكام المترتبة عليه، إذ " إنّ كثيراً من مسائل الفقه يتوقف فهمها على فهم معنى الحرف ومدلوله" (2).

معاني حرف الجر الباء:

اختلف العلماء في تحديد معاني حرف الجر الباء وعددها. فعدها ابن هشام (ت 761هـ) اثني عشر معنى (3)، فيما عدّها غيره أكثر من ذلك (4)، ومنهم من عدّها أقل، بينما عدّها سيبويه (ت 180هـ) واحداً وما عداه يرجع إليه، " قال سيبويه: الإلصاق لا يفارق الباء، وإليه تُرجع تصاريف معانيها " (5).

والظاهر أنّ حرف الجر الباء له عدة معانٍ تختلف باختلاف موقعه في التركيب الجملي، فقد يكون بمعنى الإلصاق كما في قوله - تعالى -: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 67]، أو الاستعانة كما في قوله - تعالى -: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 1]، أو الاستعلاء كما في قوله - تعالى -: ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْنَطَارِ﴾ [آل عمران: 75]، وهكذا دواليك.

قال ابن جني (ت 392هـ): " واعلم أنهم قد سمّوا هذا الباء في قوله: مررت بزيد، وظفرت ب بكر، وغير ذلك، ممّا تتصل فيه الأسماء بالأفعال، مرّة: حرف إصاق، ومرّة: حرف استعانة، ومرّة:

¹ ابن سيده، علي بن إسماعيل (ت 458هـ)، المُخصَّص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 4 1417هـ، ص 225.

² النملة، عبد الكريم بن علي بن مُحمَّد، المُهتَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقهِ المُقَارَن، مكتبة الرُّشد - الرِّياض، ط 1 1420هـ، ج 3، ص 1279.

³ انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، 33-31/3.

⁴ انظر: الصبّان، أبو العرفان مُحمَّد بن علي (ت 1206هـ)، حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1 1417هـ، ج 2، ص 428.

⁵ التحرير والتنوير لابن عاشور، 147/1.

حرف إضافة، وكل هذا صحيح من قولهم. أما الإلصاق: فنحو قولك: تمسكت بزويد، وذلك أنك ألصقت محلّ قدرتك به، وبما اتصل به، فقد صح إذن معنى الإلصاق. وأما الاستعانة: فقولك: ضربت بالسيف، وكتبت بالقلم، وبريت بالمُدية، أي: استعنت بهذه الأدوات على هذه الأفعال. وأما الإضافة: فقولك: مررت بزويد، أضفت مرورك إلى زيد بالباء " (1).

وقال الفخر الرازي (ت606هـ): "الباء قد تكون أصلية كقوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:9]، وقد تكون زائدة وهي على أربعة أوجه: أحدها: للإلصاق وهي كقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾، وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وثانيها: للتبعيض عند الشافعي - رضي الله عنه -، وثالثها: لتأكيد النفي كقوله - تعالى -: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:46]، ورابعها: للتعدية، كقوله - تعالى -: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:17]، أي أذهب نورهم" (2).

وقال أبو حيان الأندلسي (ت745هـ): "باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل. فالإلصاق حقيقة: مسحت برأسي، ومجازاً: مررت بزويد. والاستعانة: ذبحت بالسكين. والسبب: ﴿فَبُطِّمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء:160]. والقسم: بالله لقد قام. والحال: جاء زيد بثيابه. والظرفية: زيد بالبصرة. والنقل: قمت بزويد. وتأتي زائدة للتوكيد: شربن بماء البحر. والبدل: فيا ليت بهم قوماً، أي بدلهم. والمقابلة: اشتريت الفرس بألف. والمجازة: تشقق السماء بالغمام أي عن الغمام. والاستعلاء: ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْنَطَارِ﴾ [آل عمران:75]. وكنتي بعضهم عن الحال بالمصاحبة، وزاد فيها كونها للتعليل، وكنتي عن الاستعانة بالسبب. وعن الحال بمعنى مع بموافقة معنى اللام" (3).

وقد أدى هذا الاختلاف إلى اختلاف العلماء في تحديد معنى حرف الجر الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. إذ إن بعضهم اختار المعنى الذي يناسب مذهبه الاعتقادي، بصرف النظر عن المعنى الحقيقي لها.

¹ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، سِرُّ صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1421هـ، ج1، ص134.

² مفاتيح الغيب، 1/96.

³ البحر المحيط، 1/27.

فالباء إما للاستعانة، أو المصاحبة، أو الإلصاق، أو الاستعلاء، أو زائدة، أو قسمية، والأربعة الأخيرة ليست بشيء، وإن استؤنس لبعض ببعض الآيات، واختلف في الأرجح من الأولين (1).

وقال المعلمي اليماني: "وباء الجر تأتي لعدة معانٍ، اقتصر الأكثر هنا على معنيين، وذكرنا أنّ غيرها لا يأتي إلاّ بتعسف: أحدهما: الاستعانة، والثاني: المصاحبة" (2).

وبعد سبر أقوال العلماء، والنظر في سياقاتهم، تبين أنّ غالب خلافهم باللفظ لا بالمعنى، "وقد قال سيبويه - رحمه الله تعالى - : أصل معاني الباء الإلصاق، وجميع معانيها ترجع له، وهو إن لم يكن عن المصاحبة فليس ببعيد منها" (3).

فيصرح أحدهم بلفظ ثم في معرض حديثه، وسياقه يتبين أنه أراد معنى لفظ آخر، كما عند البيضاوي في تفسيره: "وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله - تعالى - أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقول على السنة العباد؛ ليعلموا كيف يُتبرك باسمه، ويُحمد على نعمه ويُسأل من فضله" (4).

فنراه هنا أطلق لفظ المصاحبة على معنى الباء، ثم نجده يُصرح المعنى المراد من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موطن آخر بقوله: "وإنما قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ولم يقل بالله؛ لأنّ التبرك والاستعانة بذكر اسمه" (5). فأراد بذلك الاستعانة، ولعلّ هذا ما دفعه - رحمه الله - لأنّ يقول بالمصاحبة على صيغة التمرّيض وهي (قيل). كما بيّن ذلك الألوّسي (ت 1270هـ) في كتابه روح المعاني (6).

ومنها من صرح باللفظ وأراد المعنى:

كما قال أبو حيان (ت 745هـ): "الباء في بسم الله للاستعانة، نحو كتبت بالقلم" (7).

¹ انظر: روح المعاني، 49/1.

² مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليماني ص10.

³ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي 1 / 36.

⁴ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 25/1.

⁵ المرجع السابق، 26/1.

⁶ انظر: روح المعاني، 49/1.

⁷ البحر المحيط، 29/1.

وكذلك السَّمِينِ الحَلِيِّ (ت 756هـ)⁽¹⁾ بقوله: " وبسم: جار ومجرور، والباء هنا للاستعانة، كعملت بالقدم؛ لأن المعنى: أقرأ مستعيناً بالله⁽²⁾. وأيضاً أبو السعود (ت 982هـ) بقوله: " ومعناها الاستعانة أو الملابس تبركاً أي: بسم الله أقرأ، أو أتلو، وتقديم المعمول للاعتناء به، والقصد إلى التخصيص كما في إياك نعبد " ⁽³⁾.

وقال الشوكاني (ت 1250هـ): " والباء للاستعانة، أو المصاحبة " ⁽⁴⁾.

وقال درويش (ت 1403هـ): " (بسم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف، والباء هنا: للاستعانة أو للإلصاق"⁽⁵⁾.

وممن قال بالمصاحبة وأراد بها معناها:

الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أن المؤمن لمَّا اعتقد أن فعله لا يجيء مُعتدّاً به في الشرع واقعاً على السنّة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله - عليه الصلاة والسلام - : " كلُّ أمر ذي بال لم يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر " ⁽⁶⁾، إلا كان فعلاً (لا فعل)، جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتّاب بالقلم. والثاني: أن يتعلّق بها تعلق الدُّهن بالإنبات، في

¹ هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين: مفسر، عالم بالعربية والقرآنة. شافعي، من أهل حلب. استقر واشتهر في القاهرة. من كتبه (تفسير القرآن)، و (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز)، و (الدر المصون) في إعراب القرآن، و (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) في غريب القرآن، كتب سنة 995 وكان في عشرين مجلدة رآها ابن حجر بخطه، و (شرح الشاطبية) في القرآنة قال ابن الجزري: لم يسبق إلى مثله. انظر: الأعلام للزركلي 274/1.

² الدر المصون، 14/1.

³ أبو السعود، العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (ت982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج1، ص9.

⁴ الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله (ت1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط1 1414هـ، ج1، ص21.

⁵ درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (ت1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سوريا، ط4 1415 هـ، ج1، ص9.

⁶ سبق تخريجه، انظر: ص93، هامش رقم (1).

قوله: ﴿ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبركاً بسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعي للمُعَرَّس: بالرفاء والبنين⁽¹⁾، معناه: أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين، وهذا الوجه أعرّب وأحسن⁽²⁾.
فيظهر من كلامه أنه رجّح القول بالمصاحبة على الاستعانة بقوله: وهذا الوجه (أي الملايسة)
" أعرّب و أحسن "

كما بيّن ذلك الشوكاني (ت 1250هـ)⁽³⁾ في كتابه فتح القدير⁽⁴⁾، والألوسي (ت 1270هـ)
في كتابه روح المعاني⁽⁵⁾، وابن عاشور (ت 1393هـ) في كتابه التحرير والتنوير⁽⁶⁾.

والذي دفع الزمخشري (ت 538هـ) إلى القول بالمصاحبة، هو انتصاره وتأيدده لمعتقده
الاعتزالي، إذ يعتقد أنّ اسم الله -تعالى- الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده،
إذ وجوده - على زعمه - بقدره العبد، وعلى هذا بنى كلامه؛ لأن مذهب المعتزلة يقول باستقلال
العبد بفعله.

وقد ردّ العلماء عليه، وفندوا قوله، وبيّنوا أنّ حرف الباء من ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ إنّما هو للاستعانة
لا للمصاحبة⁽⁷⁾.

فيما يرى الباحث بعد النظر في أقوال العلماء وتأويلاتهم، أنّ معنى الباء في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾
للاستعانة، مؤكداً بذلك ما ذهب إليه ابن بدران، ومن قال ذلك من العلماء والمفسرين؛ لأنّ البسملة

¹ قال الألباني: ولا يقول: " بالرفاء والبنين، كما يفعل الذين لا يعلمون، فإنه من عمل الجاهلية وقد نُهي عنه في أحاديث منها: عن الحسن
أن عقيل بن أبي طالب تزوج امرأة من جشم، فدخل عليه القوم، فقالوا: " بالرفاء والبنين "، فقال: " لا تفعلوا ذلك، [فإن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - نهى عن ذلك]، قالوا: " فما نقول يا أبا زيد؟ قال: " قولوا: بارك الله لكم وبارك عليكم، إنّما كذلك كنّا نؤمر. والحديث قويٌّ
بمجموع الطريقتين. انظر: الألباني، أبو عبدالرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت 1420هـ)، آداب الزفاف في السنة المطهرة، دار السلام، الطبعة
الشرعية الوحيدة 1423هـ، ص 175-176.

² الكشاف، 4-3/1.

³ هو علي بن مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني: فقيه، من أهل الاجتهاد. يمانى من صنعاء. ولد بها وتوفي قبل وفاة أبيه بشهرين. له
كتب، منها " القول الشافي السديد في نصح المقلد وإرشاد المستفيد - خ " في خزنة الرباط (المجموع 1105 كتاني) مات بالروضة من
أعمال صنعاء. انظر: الأعلام للزركلي 17/5.

⁴ فتح القدير للشوكاني، 21/1.

⁵ روح المعاني 50/1.

⁶ التحرير والتنوير لابن عاشور، 147/1.

⁷ انظر: الكشاف (حاشية ابن المنير) 3/1، ونواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) للسيوطي 95/1-
104، وروح المعاني 51-49/1.

لَمَّا شُرِعَتْ، إِنَّمَا شُرِعَتْ عِنْدَ كُلِّ فِعْلٍ يَرِيدُهُ الْإِنْسَانُ: كَالْتَلَاوَةِ، وَالْمَأْكُلِ، وَالْمَشْرَبِ، وَالذَّبْحِ، وَالْوَضُوءِ، وَدُخُولِ الْبَيْتِ وَالخُرُوجِ مِنْهُ، وَدُخُولِ الْمَسْجِدِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَفْعَلُ فِعْلاً إِلَّا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ، وَخَالِصاً لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا حَوْلَ لَهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَنْ بِيَدِهِ الْحَوْلُ، وَالْقُوَّةُ وَهُوَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَهُوَ الْمُعِينُ، وَهُوَ الْمُنْعَمُ، وَهُوَ الْمُتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِذِكْرِهِ، وَحَسَنَ عِبَادَتِهِ.

فَالِاسْتِعَانَةُ: طَلَبُ الْعَوْنِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُسْتَعِينٍ، وَمُسْتَعَانٍ بِهِ، وَمُسْتَعَانٍ عَلَيْهِ⁽¹⁾.

وَحَقِيقَتُهَا طَلَبُ الْمَعُونَةِ عَلَى إِيقَاعِ الْفِعْلِ، وَإِحْدَاثِهِ بِمَا يُمْكِنُ الْعَبْدُ مِنْ أَدَاءِ مَا لَزِمَهُ بِصُورَةٍ مُمْكِنَةٍ وَمَيَسَّرَةٍ، وَلِذَلِكَ طَلَبُهَا مِنْ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽²⁾. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَقِيقَتُهَا، فَإِنَّهَا أَوْلَى مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْمَعَانِي؛ لِأَنَّ فِيهَا مِنَ الْأَدْبِ، وَالِاسْتِكَانَةِ، وَإِظْهَارِ الْعِبُودِيَّةِ لِلَّهِ - تَعَالَى - . ثُمَّ لَمَّا أَتَبَعَهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - " بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " دَلَّ عَلَى افْتِقَارِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَضَعْفِهِ، وَهَوَانِهِ، وَإِسْقَاطِ الْحَوْلِ، وَالْقُوَّةِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقِلٌّ فِي قُدْرَتِهِ - كَمَا زَعَمَ الْمُعْتَزِلَةُ -؛ لِأَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَعَوْنِهِ، وَتَوْفِيقِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، فَهُوَ بِأَمْسِّ الْحَاجَةِ إِلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: 5]، وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: 128]، فَمَنْ اسْتَعَانَ بِجَنَابِهِ - سُبْحَانَهُ - أَعَانَهُ، وَمَنْ لَادَ بَبَابِهِ حَفْظَهُ، وَصَانَهُ. وَلِذَلِكَ أَمَرَهُ بِطَلَبِ الْاسْتِعَانَةِ بِهِ بِقَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ - : ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: 128].

وختلاصة القول:

إِنَّ حَرْفَ الْجَرِّ (الباء) فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مُتَأَخِّرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ " بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأَ "، وَأَنَّهُ جَاءَ بِمَعْنَى الْاسْتِعَانَةِ، أَيِ إِنَّ الْعَبْدَ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، مُبْتَغِياً بِذَلِكَ وَجْهَهُ - سُبْحَانَهُ -؛ لِئِنَالِ رِضَا، وَالْأَجْرِ وَالنَّوَابِ. وَذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ ابْنُ بَدْرَانَ، وَكَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ النَّحْوِ، وَالْبَلَاغَةِ، وَالنَّفْسِيرِ، وَأَيُّدُهُمْ بِذَلِكَ الْبَاحِثُ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ، وَسَارَ عَلَى مَنَوَالِهِمْ؛ لَمَّا يَرَاهُ مِنْ رِجْحَانِ هَذَا الْقَوْلِ، وَقَرَبِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَالصَّوَابِ.

¹ درج الدرر للجرجاني، 160/1.

² انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، 10/1.

المسألة الثانية:

أثر اسم الإشارة ﴿ ذَلِك ﴾ في توجيه المعنى في قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ذَلِك ﴾
الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ [البقرة: 1-2]:

قال ابن بدران - رحمه الله - : " إِنَّ اسم الإشارة، راجع إلى ما نزل من القرآن، قبل نزول هذه السورة، وقد يسمّى بعض القرآن قرآناً مجازاً، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ [الأعراف: 204]، وقال - تعالى - حاكياً عن الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن: 1]، وهم لم يسمعوا إلا بعضه، والأقرب في إعراب هذه الجملة، أن يجعل (ذا) مبتدأ خبره ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾ صفته، والخبر ما بعده " (1).

ويظهر من كلامه - رحمه الله - أنه اعتمد أن ﴿ ذَلِك أَلَمْ يَكُنْ ﴾ جملة مستقلة مستأنفة لا علاقة لها بما قبلها، فإنَّ إعرابها يصحُّ عنده على وجهين:

الأول: ﴿ ذَلِك ﴾ اسم إشارة مبتدأ، خبره ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾.

الثاني: ﴿ ذَلِك ﴾ اسم إشارة مبتدأ، و ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾ صفة، خبره ما بعده.

وبناءً على هذا التوجيه الإعرابي، اعتمد اختياره التفسيري لهذه الآية وهو:

إِنَّ اسم الإشارة ﴿ ذَلِك ﴾ يُشَارُ به إلى ما نزل من القرآن الكريم قبل نزول سورة البقرة، و ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾ هو الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم.

واختلف النحاة في إعراب قوله - تعالى - : ﴿ ذَلِك أَلَمْ يَكُنْ ﴾ [البقرة: 2]. على عدّة أقوال،

وسبب الخلاف ناشئ عن اختلافهم فيما قبلها وهو قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ ﴾ [البقرة: 1]، فهل هذه الحروف المقطّعة لها محل من الإعراب أم لا؟ فذهب فريق منهم: الخليل، وسيبويه بالقول: إنّها لا محل لها من الإعراب، وأنّها لم تُعْرَبْ لأنّها بمنزلة حروف التهجّي فهي محكية، ولو أُعْرِبَتْ ذهب

¹ جواهر الأفكار ص51.

معنى الحكاية. وقال النحاس (ت 338هـ): " وقال الفراء: إِنَّمَا لَمْ تُعْرَبْ، لِأَنَّكَ لَمْ تُرَدَّ أَنْ تُخْبِرَ عَنْهَا بِشَيْءٍ"⁽¹⁾. وقال مكي (ت 437هـ): " لا تُعْرَبُ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَ عَنْهَا، أَوْ أَنْ تَعْطِفَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ"⁽²⁾.

فيما ذهب فريق آخر منهم: أحمد بن يحيى، وابن كيسان، إلى أَنَّ لها محلاً من الإعراب، وأنها تعرب في موضع نصب بمعنى: اقرأ ﴿الْم﴾ أو عليك ﴿الْم﴾، ويجوز أن يكون موضعه رفعاً بمعنى هذا ﴿الْم﴾ أو هو ﴿الْم﴾ أو ذاك⁽³⁾. ويجوز أن يكون موضعها خفضاً على من جعلها قسماً⁽⁴⁾.

ويرى الفخر الرازي (ت 606هـ) بأنَّ الاختلاف في هذه المسألة يعود إلى فواتح السور، من حيث هل هي أسماء للسور أم لا؟، فيقول: " هل لهذه الفواتح محل من الإعراب أم لا؟ فنقول: إن جعلناها أسماءً للسور فنعم، ثمَّ يَحْتَمِلُ الأوجه الثلاثة، أما الرفع فعلى الابتداء، وأما النصب والجر فلما مرَّ من صحة القسم بها⁽⁵⁾.

ومن لم يجعلها أسماءً للسور لم يتصور أن يكون لها محل على قوله، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدودة " ⁽⁶⁾.

" ويروى عن الحسن، أنه قال: ﴿الْم﴾ وسائر حروف التهجي في القرآن أسماءً للسور " ⁽⁷⁾.

¹ إعراب القرآن للنحاس 1 / 23.

² مشكل إعراب القرآن لمكي / 73

³ إعراب القرآن للنحاس 23/1، وانظر: الكشف والبيان للثعلبي 140/1، والكشاف 31/1، والقرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2 1384هـ، ج 1، ص 156-158.

⁴ انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 222/1، والكشف والبيان عن تفسير القرآن 137/1، ومشكل إعراب القرآن لمكي 73/1، والعكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي بن مُحَمَّد البجّاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج 1، ص 14.

⁵ انظر: مفاتيح الغيب 254/2.

⁶ المرجع السابق 258/2، والكشاف 31/1. وروح المعاني 107/1-108. والدر المصون 80/1-81.

⁷ التفسير الوسيط للواحدى 76/1، وابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1 1422هـ، ج 1، ص 26.

وقد كثر الكلام في شأن أوائل السور، والذي أطبق عليه الأكثرون وهو مذهب سيبويه وغيره من المتقدمين أنها أسماء لها، وسمّيت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب (1)

وبناء على ما تقدم فإن إعراب اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مختلف على قولين:

الأول: من قال: إِنَّ ﴿الْمَ﴾ ليست اسماً للسورة، وإنما بمنزلة الصوت والتهجي؛ فإنّها لا محل لها من الإعراب، وما بعدها يُعدُّ جملة مستأنفة لا علاقة لها بما قبلها.

فيكون إعراب قوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ كما يأتي:

1. اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبره.
2. اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ و ﴿الْكِتَابُ﴾ صفة، والخبر ما بعده.
3. اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ذلك الكتاب، و ﴿الْكِتَابُ﴾ صفة، أو بدل، أو عطف بيان.

الثاني: مَنْ قال إِنَّ ﴿الْمَ﴾ اسمٌ للسورة؛ فإنَّ لها محلاً مِنَ الإعراب، فيكون إعراب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ كما يأتي:

1. ﴿الْمَ﴾ مبتدأ أول، واسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ثان، و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبر المبتدأ الثاني، وجملة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ خبر المبتدأ الأول.
2. اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ ثان محذوف تقديره: هو. وجملة (هو ذلك) خبر المبتدأ الأول ﴿الْمَ﴾ و ﴿الْكِتَابُ﴾ صفة.

¹ روح المعاني 102/1.

3. ﴿الْمَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره (هذه الم). ويكون اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ خبراً ثانياً أو بدلاً و﴿الْكَتَبُ﴾ صفة (1).

وبناءً على اختلاف العلماء في التوجيه الإعرابي؛ فإنَّ المفسرين اختلفوا في توجيه المعنى، على أقوال بناءً على ما يشير إليه اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾:

القول الأول: إنَّ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ يُشار به إلى ﴿الْمَ﴾.

وهذا لا يعارض كون اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ للبعيد؛ لأنَّ ﴿ذَلِكَ﴾ يُشار بها للقريب والبعيد (2).

وقاله الفراء (ت 207هـ) (3) في معاني القرآن (4)، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف (5).

كما أنَّ اسم الإشارة جاء للمذكر لا للمؤنث؛ لأنَّ المشار إليه مذكر وليس بمؤنث، فالاسم وهو ﴿الْمَ﴾ ليس بمؤنث، نعم ذلك المسمى له اسم آخر - وهو السورة - وهو مؤنث لكن المذكور السابق هو الاسم الذي ليس بمؤنث وهو ﴿الْمَ﴾، لا الذي هو مؤنث وهو السورة (6).

¹ انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 221/1، والكشاف 33/1، وإعراب القرآن الكريم لابن سيده 16/1، وإعراب القرآن للنحاس 23/1، والمحزر الوجيز لابن عطية 83/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 219/1، ونواهد الأبتكار وشوارد الأفكار للسيوطي 281/1، ومشكل إعراب القرآن لمكي 74-73/1، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج 68-67/1، والكشف والبيان عن تفسير القرآن 140/1، والدر المصون 81/1.

² انظر: مفاتيح الغيب 259/2.

³ هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، الديلمي الكوفي مولى بن أسد، وقيل مولى بني منقر، كان أربع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب؛ حكى عن أبي العباس ثعلب أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية، لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب. وأخذ النحو عن أبي الحسن الكسائي، وهو الأحمر من أشهر أصحابه وأخصهم به. انظر: وفيات الأعيان 176/6-177.

⁴ معاني القرآن للفراء 11-10/1.

⁵ الكشاف 32/1.

⁶ انظر: مفاتيح الغيب 260/2، والكشاف 32/1.

ولذلك فإنَّ من قال بهذا القول يرى أنَّ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ مشار إلى ﴿الْمَ﴾ على احتمال أن تكون حروف ﴿الْمَ﴾ مسوقةً مساق التَّهْجِي؛ لإظهار عجز المشركين عن الإتيان بمثل بعض القرآن، بمعنى أن يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى ﴿الْمَ﴾ بعده حرفاً مقصوداً للتعجيز.

أي إنَّ هذه الحروف هي من جنس حروفكم، التي منها تراكيب كلامكم، ومنها تراكيب هذا الكتاب الذي عجزتم عن معارضته.

فعلى هذا التوجيه يكون ﴿الْمَ﴾ جملة مستقلة مسوقة للتعريض (1).

القول الثاني: إنَّ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ يُشار به إلى ﴿الْكِتَابِ﴾.

واختلف العلماء في ذلك على عدة تأويلات:

1. إنَّ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابِ﴾ هو الكتاب الكامل، كأنَّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنَّه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً (2).

وعليه فإن الكتاب الكامل هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

2. اختلف العلماء في تأويل (اسم الإشارة) المشار به إلى الكتاب على قولين:

أ. أنه بمعنى (هذا)، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكسائي، وأبي عبيدة، والأخفش (3).

قال الطبري (ت310هـ) في تفسيره: "قال عامة المفسرين تأويل قول الله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ

الْكِتَابِ﴾: هذا الكتاب " (4).

¹ انظر: زاد المسير في علم التفسير 1 / 25، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/155، والكشاف 1/30، والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (ت 710هـ)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1 1419 هـ، ج1، ص35-36، ومفاتيح الغيب 2/253، والتحرير والتنوير لابن عاشور 1/119.

² انظر: الكشاف 1/33.

³ زاد المسير لابن الجوزي 1/27.

⁴ جامع البيان في تأويل القرآن 1/225، وانظر: تفسير الوسيط للواحي 1/76، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي 1/141، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 1/83، ومفاتيح الغيب 2/259، وفتح القدير للشوكاني 1/38، والتحرير والتنوير لابن عاشور 1/219-221.

ب. أنها إشارة إلى غائب، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه أراد به ما تقدم إنزاله عليه من القرآن.

والثاني: إنه أراد به ما وعده أن يوحيه إليه في قوله: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5].

والثالث: إنه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتاب السالفين؛ لأنهم وعدوا بنبي وكتاب⁽¹⁾.

وهذه الأقوال هي الأشهر، والأقوى عند علماء التفسير، وقيل غير ذلك من أقوال العلماء

المرجوحة، وقد يصل بعضها إلى حدّ الغرابة، ومنها:

1. قيل: هو اللوح المحفوظ⁽²⁾.

2. وقيل: هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة، والشقاوة، والأجل، والرزق⁽³⁾.

3. وقيل: ذلك الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل، أن رحمته سبقت غضبه⁽⁴⁾.

4. وقيل: الصراط المستقيم في الفاتحة. قال الألويسي في تفسيره: "وأغرب ما رأيناه في توجيه الإشارة

أنها إلى الصراط المستقيم في الفاتحة، كأنهم لما سألوا الهداية؛ لذلك قيل لهم: ذلك الصراط الذي

سألتم الهداية إليه هو الكتاب"⁽⁵⁾.

فيما يرى الباحث أن الراجح في تأويل قوله: ﴿الْمَ ۝ ذَٰلِكَ أَلَكْتُبُ﴾ [البقرة: 1-2]، ما يأتي:

أولاً: إن ﴿الْمَ﴾ هي حروف للتّهجي والحكاية لا محل لها من الإعراب، وأنها ليست أسماءً للسور

لاعتبارات أربعة:

¹ زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 27/1، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 157/1-158، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري 226/1-227، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي 141/1، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 83/1، والكشاف 33/1، والفتاوي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي (ت1307هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، عناية عبدالله بن إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت 1412هـ، 73/1، وروح المعاني للألويسي 106/1-109، والتحرير والتنوير لابن عاشور 219/1-221.

² انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 156/1، والكشف والبيان للثعلبي 141/1، والمحزر الوجيز لابن عطية 83/1، ومفاتيح الغيب 259/2.

³ فتح القدير للشوكاني 39/1.

⁴ المرجع السابق 39/1.

⁵ روح المعاني 109/1.

1. إن كثيراً من السور اتفقت في ﴿الْمَ﴾، و ﴿الرَّ﴾، و ﴿حَمَّ﴾، فلو كانت أسماءً للسور لَحَصَلَ الاشتباه فيها، ومعلوم أن المقصود من أسماء الأعلام هو إزالة الاشتباه.
2. إن سور القرآن إنما اشتهرت بأسمائها المعروفة سلفاً وخلفاً، كقولنا سورة البقرة، وسورة آل عمران، ولم تُعرف بأسماء فواتحها، فلو كانت فواتح السور أسماءً لها؛ لاشتهرت بذلك ولُنُقِلَ إلينا، فإن قيل: وَرَدَ على السنة الصحابة - رضوان الله عليهم - ذكر فواتح السور مع اسمها المتعارف عليه كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: "كان النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ألم تنزِيل (السجدة) وهل أتى على الإنسان " (1).

فإنه يُجاب على ذلك من وجهين:

- الأول:** لما اتفقت كثير من السور في فواتحها، كان لزاماً تعريف السورة المرادة بذكر اسمها المتعارف عليه؛ لذلك قال الراوي: " ألم السجدة "؛ ليميّزها عن السور التي افتتحت ب ﴿الْمَ﴾ من مثل البقرة، وآل عمران، ولقمان، وغيرها. فهو لم يُرد ذكر اسمها المتعارف عليه لذاتها وإنما للتعريف بها.
- الثاني:** إنَّ الرَّوِي لم يُرد ذكر اسم السورة، وإنما أراد أن يذكر الآية الأولى وهي ﴿الْمَ﴾، دلَّ على ذلك أنه لم يذكر اسم السورة الثانية وإنما ذكر الآية الأولى منها بقوله: "... وهل أتى على الإنسان". ثم إنَّ هناك رواية لم يذكر فيها اسم السورة المتعارف عليها، وإنما ذكر الآية الأولى، والثانية من السورة، روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة: " ألم تنزِيل و " هل أتى " (2).

3. إنَّ هذه الأسماء لم تكن معلومة عند العرب ولم تكن من قوانين أسمائهم، ولو كانت أسماءً، لكانت من غرائب أسمائهم، ولُنُقِلت إلينا بالتواتر؛ لأنها من الأمور الغريبة التي لا يمكن إخفاؤها.

4. إنَّ عدد السور التي تبتدئ بالفواتح أقل بكثير من السور التي لا فواتح لها، فإذا كانت فواتح السور أسماءً لها فَلِمَ تُرِكَت غالبية السور من غير فواتح؟ فإن قيل: ليس بالضرورة أن تكون كذلك،

¹ صحيح البخاري 40/2 برقم 1068، وصحيح مسلم من حديث ابن عباس 16/3 برقم 1986.

² صحيح مسلم 16/3 برقم 1989، وانظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل 95/3، حديث رقم 627.

فلكلّ سورة اسمها الخاص بها، قلت: نعم، ولكن ما تواتر على ألسنة الصحابة هو أسماء السور المتعارف عليها إلى يومنا هذا الموجودة في فهرست المصحف الشريف.

وعلى هذا فإنّ فواتح السور ومنها ﴿الْم﴾ هي آية من آيات السور مسوقة للتعجيز؛ ليثبت الله - عزّ وجلّ - للمشركين أنّ هذا الذي تحدّاكم على أن تأتوا بمثله، أو ببعضه إنّما هو من الحروف التي تولّفون بها تراكيب لغتكم؛ فلمّا عجزتم عن ذلك كان لزاماً أن تعلموا أنّ هذا القرآن ليس من كلام البشر وإنّما هو كلام الله - تعالى - يجب الإيمان به والامتنال لما فيه.

ثانياً: بناءً على ما سبق؛ فإنّ توجيه المعنى لقوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أنّ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ يُشير إلى كل ما نزل بمكّة، والمدينة قبل هذه السورة، و ﴿الْكِتَابُ﴾ هو: الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. قد يُسمى بعض القرآن قرآناً مجازاً، قال - تعالى - : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الأعراف: 204]، وقال حاكياً عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1]، وقوله ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: 30]، وهم ما سمعوا إلّا بعضه، وهو الذي كان قد نزل إلى ذلك الوقت.

2. لما كان كلام الله هو أفصح الكلام، فينبغي أن يُحمل إعرابه على أفصح الوجوه وأحسنها، وأبعدها من التكلف، وأسوِّغها في لسان العرب من غير تأويل ولا إضمار ولا افتقار⁽¹⁾. فتكون آية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة مستقلة من مبتدأ وخبر، أو أن يكون ﴿الْكِتَابُ﴾ صفة والخبر ما بعده.

وهذا ما ذهب إليه المصنّف ابن بدران - رحمه الله تعالى -، وكثير من علماء النحْو والتفسير في توجيه المعنى لقوله - تعالى - : ﴿الْم﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: 1-2].

¹ إعراب القرآن لابن سيده ص16.

المسألة الثالثة:

أثر دلالة ﴿ مِنْ ﴾ في تحريم الإسراف، أو في منع بذل المال كله، في قوله -

تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3] .

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " ولما ذكر وُصلة الخلق بالخالق، وكانت النفقة مع أنها أعظم دعائم الدين صلة بين الخلائق، أتبعها بها تنبيهاً بـ ﴿ مِنْ ﴾ التي للتبويض، على النهي عن الإسراف، وعلى طيب النفقة؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأمرًا بالورع وزاجراً عما فيه شبهة فقال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3] أي: ومما مكّناهم من الانتفاع به على عظمة خزائنا، وهو لنا دونهم، ينفقون في مرضاتنا، مما هو لازم لهم، من الزكاة والحجّ، والجهاد، والتفقات الواجبة، ومما يتطوّعون به من الصدقات وغيرها". (1)

ويظهر من كلام ابن بدران أنه اعتمد معنى من معاني الحروف وهو أنّ ﴿ مِنْ ﴾ للتبويض

في توجيه المعنى في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3] استنبط منها حكماً شرعياً، وهو تحريم الإسراف، أو إنفاق المال كله.

لا شك أنّ لحرف الجرّ ﴿ مِنْ ﴾ معاني كثيرة، تختلف باختلاف موقعها في السياق؛ لأنّ

حرف الجرّ: " كلمة دلّت على معنى في غيرها " (2)، ولمعاني الحروف أثرها في توجيه المعنى.

فحرف الجرّ ﴿ مِنْ ﴾ يكون زائداً، وغير زائد، فغير الزائد له أربعة عشر معنى، وقال ابن هشام (ت 761هـ): " تأتي على خمسة عشر وجهاً " (3)، ومنها:

ابتداء الغاية: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: 1].

وللتبويض: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة: 165]، وبيان الجنس: ﴿ فَأَجْتَنَبُوا

الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج: 30] ، والتعليل: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَعِقِ ﴾

¹ جواهر الأفكار، ص 54-55.

² عبد الحميد، مُحمّد محيي الدين (ت 1392هـ)، التّحفة السّنيّة بشرح المقدّمة الأجرومية، المكتبة العصريّة، صيدا- بيروت، 1416هـ، ص 8.

³ مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام ص 349.

[البقرة: 19]، والبدل: ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: 38]، والمجاورة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: 121]، وانتهاء الغاية قريب منه، والاستعلاء: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: 77]، والفصل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220]، وموافقة الباء في: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: 45]، و ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: 40].
والزيادة باطراد، وذلك بشرطين: كون المجرور نكرة، والكلام غير موجب، واشترط الكوفيون التنكير فقط، ولم يشترط الأخفش شيئاً (1).

ولم يُثبت أكثر النحويين لـ ﴿ مِنْ ﴾ جميع هذه المعاني، وتأولوا كثيراً من ذلك على التضمين، أو غيره، وقد ذهب المبرد، وابن السراج، والأخفش الأصغر، وطائفة من الحذاق، والسّهيلي، إلى أنها لا تكون إلا لابتناء الغاية، وأن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى؛ ألا ترى أن التبعية من أشهر معانيها، وهو راجع إلى ابتداء الغاية. فإنك إذا قلت: أكلت من الرغيف، إنما أوقعت الأكل على أول أجزائه فانفصل، فمآل معنى الكلام إلى ابتداء الغاية، وإلى هذا ذهب الزمخشري (2).
وقال ابن هشام (ت761هـ) في معنى ﴿ مِنْ ﴾: "ابتداء الغاية وهو الغالب عليها حتى ادعى جماعة أنّ سائر معانيها راجعة إليه، وتقع لهذا المعنى" (3).

وقد اختلف علماء التفسير في تحديد معنى حرف الجرّ ﴿ مِنْ ﴾ في قوله - تعالى - ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3]، مما ترتب على هذا الاختلاف اختلاف في الحكم الشرعي في مسألة الإسراف، وإنفاق المال كله بين الحرمة والجواز.

¹ انظر: المرادي. أبو محمّد بدر الدين حسن بن قاسم (ت749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة والأستاذ محمّد نديم فاضل، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 1413، ج1، ص308-316، والمفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ص379-380، وابن يعيش، أبو البقاء موفّق الدين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمّد بن علي (ت643هـ)، شرح المفصل للزمخشري، قدّم له إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ، ج4، ص458-463. والذّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون 96/1-97.

² الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 315/1-316.

³ مغني اللبيب ص419.

القول الأول: قالوا: إِنَّ ﴿ مِنْ ﴾ في هذه الآية جاءت بمعنى البيان، أي: بمعنى بيان الجنس، وعليه فإن مقدار المال المُنْفَق لا يُقَدَّر بشيء لإطلاق الآية. إلا إذا كان الإنفاق من الزكاة؛ فإنَّ الشَّرْع قد حدّد قيمة الإنفاق، ويتفرّع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير.

واستدلّوا على ذلك بفعل أبي بكر - رضي الله عنه - حين تصدّق بجميع ماله، ولم ينكره عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (1). **ولكنهم اشترطوا شرطين لذلك:**

أما الأول: ألا يترتّب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل ونحوهم؛ فإنَّ ترتّب عليه ذلك فالواجب مقدّم على التّطوُّع (2).

وأما الثاني: أن يكون حاله كأبي بكر - رضي الله عنه - في التّوكّل على الله في الرّزق؛ لأنّ عدم إنكار الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر؛ لعلمه بصبره، وإطلاعه على ما وفر في صدره؛ لذلك فإنّ وجد في نفسه عدم الصّبر على الفاقة فلا يشرع له ذلك (3).

القول الثاني: قالوا: إِنَّ حرف الجرِّ ﴿ مِنْ ﴾ في هذه الآية جاء بمعنى التّبعية: أي إنفاق بعض المال، وهؤلاء اتّفقوا في معنى حرف الجرِّ ﴿ مِنْ ﴾ لكنهم اختلفوا في توجيه معنى الآية، والذي يترتّب عليه اختلافهم في الحكم الشرعي لإنفاق المال كلّه، إذا كان المراد بالإنفاق مطلقه الأعم، وإلا فإنّهم متفقون إذا كان المراد بالإنفاق الزكاة؛ لأنّها لا تكون بجميع المال، وإنّما ببعضه الذي قدره الشَّرْع (4).

¹ انظر: السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق (ت275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق مُحَمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ج2، ص129، حديث رقم 1678، والترمذي، مُحَمّد بن عيسى بن سورة (ت279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط2، 1395هـ، ج5، ص614، حديث رقم 3675، وحسنه الألباني، انظر: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمّد ناصر الدّين (ت1420هـ) صحيح أبي داود - الأم، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع - الكويت، ط1، 1423هـ، ج5، ص366، حديث رقم 1473.

² انظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) لابن عثيمين 30/1.

³ انظر روح المعاني للألوسي 121/1، وأضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن للشنقيطي 10/1-12.

⁴ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 85/1، والتحرير والتوير لابن عاشور 236/1، والثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمّد بن مخلوف (ت 875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق الشيخ مُحَمّد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 1418 هـ، ج1، ص183، و الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (ت 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، 1415 هـ، ج1، ص10-12، وتفسير القرآن (الفاتحة و البقرة) للعثيمين 30/1، وروح المعاني 121/1.

فذهب فريق إلى أنّ إنفاق بعض المال يكفي في اتّصاف المنفق بالهداية، والفلاح، ولا يتوقّف على إنفاق جميع المال⁽¹⁾؛ فيكونون بذلك قد جوّزوا إنفاق المال كلّه.

بينما ذهب آخرون إلى أنّ النكته في إدخال ﴿ مِنْ ﴾ التَّبَعِيَّةِ هي: أنّ الرزق أعمّ من الحلال والحرام؛ فأدخلت إيداناً بأنّ الإنفاق المعتدّ به ما يكون من الحلال، وهو بعض من الرزق⁽²⁾. وعلى هذا يكونون قد جوّزوا إنفاق المال كلّه.

فيما ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ إدخال ﴿ مِنْ ﴾ التَّبَعِيَّةِ جاءت إيداناً بإنفاق بعض المال لا كله؛ لأن الإسراف والتبذير منهيّ عنهما، مستتبتين بذلك حكماً شرعياً وهو حرمة الإسراف والتبذير وعدم إنفاق المال كلّه⁽³⁾.

ويؤكّد ذلك ابن عاشور (ت1393هـ) في تفسيره "التحرير والتّوير" بقوله: "وفي الإتيان بـ ﴿ مِنْ ﴾ التي هي للتَّبَعِيَّةِ إيماءٌ إلى كون الإنفاق المطلوب شرعاً هو إنفاق بعض المال؛ لأنّ الشريعة لم تكلف الناس حرجاً، وهذه البعض يقلّ ويتوقّر بحسب أحوال المنفقين. فالواجب منه ما قدرت الشريعة نصابه ومقاديره من الزكاة، وإنفاق الأزواج، والأبناء، والعبيد، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير، ولم يشترع الإسلام وجوب تسليم المسلم ما ارتزقه، واكتسبه إلى يد غيره"⁽⁴⁾.

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإنفاق لا يقتصر على المال فحسب إنّما يدخل فيه جميع المعاون⁽⁵⁾ التي منحهم الله - تعالى - من النعم الظاهرة، والباطنة مستدئين على ذلك بقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ عِلْمًا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ كَنْزٌ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"⁽⁶⁾، أي ينفق ممّا آتاه الله

¹ انظر: روح المعاني للأوسى 121/1.

² المرجع السابق 121/1.

³ انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 1/ 183، ومفاتيح الغيب 2/276، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 39/1، والبحر المحيط 68/1، وفتح القدير للشوكاني 42/1، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 12-10/1.

⁴ التحرير والتّوير لابن عاشور 236/1.

⁵ عاون يعاون، مُعاونةً وعواناً، فهو مُعاون، والمفعول معاوّن. انظر: عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1 1429 هـ، باب ع و ن، ج2، ص1580.

⁶ انظر: الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة - مصر، 1394هـ، دار الكتب العلمية ط1409، ج7، ص228. وحسنه الألباني، انظر: الألباني، أبو عبدالرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت1420هـ)، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط3 1408هـ، ج1، ص424، حديث رقم 2112.

من العلم، والمعرفة، والقوة وغيرها (1)، لذلك قال السلمي (ت 412هـ) (2) في تفسيره: " وقيل ممّا رزقناهم ينفقون أي: ممّا خصّصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون ببركتها ونورها على متبعيهم" (3).

ويرى الباحث بعد الاطلاع على أقوال العلماء، وسبر آرائهم وأدلّتهم، أنّ القول الرّاجح في هذه المسألة هو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أنّ حرف الجرّ ﴿ مِنْ ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة:3] إنّما جاء للتّبعض ليدلّل على عدم إنفاق جميع ما رزقوا؛ لأنّه منهي عن التّبذير والإسراف.

وهذا الذي رجّحه وذهب إليه ابن بدران في تفسيره جواهر الأفكار؛ لأنّ الآيات التي تعضد هذا المعنى كثيرة في كتاب الله - تعالى - منها قوله - عزّ وجلّ - في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67]. إذ إنّ الإنفاق المحمود هو التّوسط، والاعتدال بين الإسراف، والتقتير، وفي موطن آخر يأمر الله عباده بعدم الإسراف بقوله: ﴿ وَعَاتُوا حَقَّهُ وَيَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: 141]، وقوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: 31]. فالآيات تحتّ على عدم الإسراف في الإنفاق، ومقتضى ذلك إبقاء جزء من المال وعدم إنفاقه كلّه؛ لأنّ المسلم كما أمر بالبذل، والإنفاق على غيره من خلال الزّكاة والصدقات، فإنّه أيضاً مأمور بإبقاء قدرٍ من المال لنفسه ولمن يعول، تحسباً لنوائب الدّهر وتقلّبات الأحوال.

¹ انظر: الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت502هـ)، تفسير الزّاعب الأصفهاني، تحقيق د.مُحمّد عبد العزيز بسيوني، كنيّة الآداب- جامعة طنطا، ط1، 1420هـ، ج1، ص82-83، أنوار التنزيل وأسرار التأويل 39/1، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1.

² هو مُحَمَّد بن الحسين بن مُحَمَّد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوريّ، أبو عبد الرحمن: من علماء المتصوفة. قال الذهبي: (شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، قيل: كان يضع الأحاديث للصوفية). بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها (حقائق التفسير - خ) مختصر، على طريقة أهل التصوف، في المكتبة المحمودية بالمدينة مولده ووفاته في نيسابور. انظر: الأعلام للزركلي 99/6.

³ السلمي، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى الأزدي (ت412هـ)، تفسير السلمي وهو حقائق التفسير، تحقيق سيّد عمران، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1421هـ، ج1، ص50، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1، وتفسير الأصفهاني 83-82/1.

قال الشنقيطي (ت 1393هـ)⁽¹⁾ في أضواء البيان: " عبّر في هذه الآية الكريمة بـ ﴿ مِنْ ﴾ التَّبَعِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ يَنْفِقُ لَوْجِهَةِ اللَّهِ بَعْضَ مَالِهِ لَا كُلَّهُ، وَلَمْ يَبَيِّنْ هُنَا الْقَدْرَ الَّذِي يَنْبَغِي إِنْفَاقَهُ وَالَّذِي يَنْبَغِي إِمْسَاكَهُ. وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ أَنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يَنْبَغِي إِنْفَاقَهُ: هُوَ الزَّائِدُ عَلَى الْحَاجَةِ وَسَدِّ الْخَلَّةِ الَّتِي لَا بَدَّ مِنْهَا، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ: " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ [البقرة: 219]. وَالْمُرَادُ بِالْعَفْوِ: الزَّائِدُ عَنِ الْقَدْرِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بَدَّ مِنْهَا عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَاتِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ"⁽²⁾.

وقال يوسف القرضاوي (1422هـ): " ومن أسرار التعبير القرآني أنه جعل الإنفاق المطلوب مما رزق الله، أي: بعض ما رزق الله، ومعنى هذا أنه ينفق البعض، ويُدخِر البعض الآخر، ومن أنفق بعض ما يكتسب، فقلما يفتقر، وقد صحَّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَدْخِرُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ⁽³⁾، فَهَذَا لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا الزَّهْدَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ"⁽⁴⁾.

ولم يقتصر النهي في الآيات الكريمة عن الإسراف في المأكل، والمشرب، فحسب وإنما كان النهي عن الإسراف في كلِّ شيء، وهذا ما ذهب إليه الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ (ت 502هـ) في تفسيره بقوله: " إِنَّهُ نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْإِنْفَاقِ "⁽⁵⁾. وكذلك قول عطاء: " إِنَّهُ نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ "، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ كَثِيرٍ⁽⁶⁾.

¹ هو مُحَمَّدُ الْأَمِينُ بْنُ مُحَمَّدِ الْمُخْتَارِ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَكْنِيِّ الشَّنْقِيطِيِّ، مَفْسِّرٌ مَدْرَسٌ مِنْ عُلَمَاءِ شَنْقِيطٍ (مُورِيْتَانِيَا) . وُلِدَ وَتَعَلَّمَ بِهَا. وَحَجَّ (1367) وَاسْتَقَرَّ مَدْرَسًا فِي الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ ثُمَّ الرِّيَاضِ، وَأَخِيرًا فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ (1381) وَتَوَفَّى بِمَكَّةَ. لَهُ كُتُبٌ، مِنْهَا (أَضْوَاءُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - ط) ، وَ (مَنْعُ جَوَازِ الْمَجَازِ - ط) وَ (مَنْهَجٌ وَدِرَاسَاتٌ لِآيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ - ط) وَ (دَفْعُ إِيهَامِ الْاضْطِرَابِ عَنِ أَيِّ الْكُتُبِ - ط) وَ (آدَابُ الْبَحْثِ وَالْمَنَاطِرَةِ - ط) وَ (أَلْفِيَّةٌ فِي الْمَنْطِقِ) وَ (رِحْلَةٌ خَرُوجُهُ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ). انظر: الأعلام للزركلي 45/6.

² أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 10/1.

³ عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: " أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضْرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ" رواه البخاري في صحيحه، ج7، ص63، حديث رقم 5357، كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.

⁴ القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1415هـ، ص 201.

⁵ انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 410/1.

⁶ انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2 1420هـ، ج3، ص350.

فالإِنْفَاقُ يَكُونُ بِالتَّوَسُّطِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، لَا بِخُلِّ، وَلَا إِسْمَاكَ، وَلَا إِسْرَافٍ، وَلَا تَبْذِيرٍ، وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ، لِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۗ ﴾ [الإِسْرَاءُ: 29].

وَجَاءَتِ الأَدْلَةُ مِنَ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى التَّوَسُّطِ فِي الإِنْفَاقِ وَعَدَمِ الإِسْرَافِ، لِقَوْلِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَابْسُوا، وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ " (1).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " كُلُّ مَا شِئْتَ، وَابْسَ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأْتُكَ اثْنَتَانِ: سَرْفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ " (2).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: " مَا أَنْفَقْتُ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَهْلِ بَيْتِكَ فِي غَيْرِ سَرْفٍ، وَلَا تَبْذِيرٍ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَلَاكَ، وَمَا أَنْفَقْتَ رِيَاءً، أَوْ سَمِعَةَ فَذَلِكَ حِظُّ الشَّيْطَانِ " (3).

وَقَالَ ابْنُ الجُوزِيِّ (ت 597هـ) فِي صَيْدِ الخَاطِرِ: " العَاقِلُ يَدْبِرُ بِعَقْلِهِ عَيْشَتَهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنْ كَانَ فَقِيرًا اجْتَهَدَ فِي كَسْبٍ، وَصِنَاعَةٍ تَكْفِيهِ عَنِ الذَّلِّ لِالخَلْقِ، وَقَلَّ العَلَاثِقُ، وَاسْتَعْمَلَ القِنَاعَةَ، فَعَاشَ سَلِيمًا مِنْ مَنِّ النَّاسِ عَزِيزًا بَيْنَهُمْ. وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدْبِرَ فِي نَفَقَتِهِ؛ خَوْفٌ أَنْ يَفْتَقِرَ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الذَّلِّ لِالخَلْقِ " (4).

وَلَعَلَّ أَدْلَ دَلِيلٍ عَلَى حُرْمَةِ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿ وَعَاتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۗ إِنَّ المَبْذُورِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۗ ﴾ [الإِسْرَاءُ: 26-27].

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الأَدْلَةِ القُرْآنِيَّةِ، وَالسَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، وَالسَّلَفِ، فِي تَحْرِيمِ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ، وَإِنْفَاقِ المَالِ كُلِّهِ، مِمَّا لَا يَدْعُ شُكًّا فِي جَوَازِ ذَلِكَ.

¹ صحيح البخاري، 140/7، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده " [الأعراف: 32]، وانظر: النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ت 303هـ) المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط 2 1406هـ، ج 5، ص 79، حديث رقم 2559، باب الاختيال في الصدقة. وحسنه الألباني.

² صحيح البخاري، 140/7، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده " [الأعراف: 32].

³ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد - الرياض، ط 1 1423هـ، ج 8، ص 491، حديث رقم 6128، باب تحريم الملاعب والملاهي.

⁴ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ)، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم - دمشق، ط 1 1425هـ، ج 1، ص 498.

أما بالنسبة لمن اعتمد على أن ﴿ من ﴾ جاءت بمعنى بيان الجنس، وقال بجواز إنفاق المال كله مستنداً بحديث أبي بكر - رضي الله عنه - .

فيرى الباحث أن الاستدلال بقصة أبي بكر - رضي الله عنه - بحاجة إلى تفصيل، ولا تؤخذ على إطلاقها. فالناظر - بادئ الأمر - يرجح جواز إنفاق المال كله استناداً إلى فعله - رضي الله عنه - وإقرار النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - له؛ لأنَّ هذا هو المعنى المتبادر للذهن عند قراءتها أو سماعها، ولكنَّ الأمر مضبوط بضوابط تؤخذ من خلال التأمل في القصة، ووقائعها، والظروف المصاحبة لها، وأقوال العلماء في التعليق عليها، إذ إنَّ الردَّ على مَنْ استدلَّ بهذه القصة يكون من وجهين:

أولاً: إنَّ أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأتقاهما وأعلاهما منزلة ورفعة، وإنَّ اليقين الذي وقَّرَ في صدره، والتوكل الذي اعتمد عليه، وإيمانه الراسخ بربه، وصبره على طاعته، هو ما دفعه لإنفاق كل ماله امتثالاً لأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهذا ما كان يعلمه - عليه الصلاة والسلام - من أبي بكر فلم يُنكر عليه؛ لأجل ذلك.

قال الخطَّابي (ت 388هـ)⁽¹⁾ في معالم السنن: " ولم يُنكَرْ على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خروجه من ماله أجمع، لما عَلِمَ من صحَّة نيَّته، وقوَّة يقينه، ولم يُخَفْ عليه الفتنة " ⁽²⁾.

ثانياً: أنَّ أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - إنَّما أنفق ماله كله ممَّا يملك من الدراهم، والدنانير لا غيره، وإلاَّ لمعلوم أنَّه - رضي الله عنه - كان يملك داراً في المدينة، ومكَّة، ولم ينفقهما.

¹ أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها (غريب الحديث) و (معالم السنن في شرح سنن أبي داود) و (أعلام السنن في شرح البخاري) وكتاب (الشحاح) ، وكتاب (شأن الدعاء) وكتاب (إصلاح غلط المحدثين) وغير ذلك . وكان يشبهه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام عالماً وأدباً وزهداً وورعاً وتديساً وتأليفاً . وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة بمدينة بست، رحمه الله - تعالى - . والخطابي - بفتح الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة - وهذه النسبة إلى جده الخطاب المذكور، وقيل إنَّه من ذرية زيد بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، فنسب إليه، والله أعلم. انظر: وفيات الأعيان 214/2-215.

² الخطابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت388هـ)، معالم السنن، المطبعة العلمية - حلب، ط1 1351هـ، ط2 1401هـ، ج2، ص78.

قال ابن حزم (ت456هـ) في المحلى: " بلا شك كانت له دار بالمدينة معروفة، ودار بمكة. وأيضاً: فإن مثل أبي بكر لم يكن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليُضيِّعه فكان في غنى " (1).
وبناءً على ما تقدّم؛ فإن فعل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ليس على إطلاقه، فلا ينبغي لأحد أن يتصدّق بكل ماله إلاّ من كان حاله مثل أبي بكر في اليقين، والتوكل، والإيمان، والصبر، وهيئات هيات أن تكون هذه الصفات في رجل إلاّ في أبي بكر - رضي الله عنه -، بل إنّ هذه المنزلة لم يصل إليها الصحابة - رضوان الله عليهم - وهم خير القرون، فكيف بمن هم دونهم؟! وقد ردّ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الذهب إلى صاحبه مخافة الفتنة عليه (2). ولم يأخذ من كعب بن مالك كل ماله لما أراد أن ينفقه في سبيل الله شكراً لله - تعالى - على ما أنعم عليه من التوبة بسبب تخلفه عن غزوة تبوك. قال كعب بن مالك: " يا رسول إنّ من توبتي أن أنخلع (3) من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " أمسك بعض مالك، فهو خير لك " (4).

قال النووي (ت676هـ): " وإنّما أمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالاقْتِصَارِ عَلَى الصَّدَقَةِ بَعْضُهُ؛ خَوْفًا مِنْ تَضَرُّرِهِ بِالْفَقْرِ؛ وَخَوْفًا أَلَّا يَصْبِرَ عَلَى الْإِضَاقَةِ، وَلَا يُخَالَفَ هَذَا صَدَقَةَ أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنه - بجمع ماله، فإنّه كان صابراً راضياً " (5).

وقال ابن عابدين (ت1252هـ) (6): " ومن أراد التصدّق بماله كلّهُ وهو يعلم من نفسه حُسن التوكل، والصبر عن المسألة، فله ذلك، وإلاّ فلا يجوز، ويكره لمن لا صبر له على الضيق أن ينقص

¹ ابن حزم، أبو مُحَمَّدَ عَلِي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ)، المحلى بالآثار، دار الفكر - بيروت، (د. ت)، ج6، ص260.

² معالم السنن للخطابي، 78/2.

³ انخلع من ماله، أي: خرج من جميع ماله، وأراد: إخراجَه متصدّقاً به.

⁴ صحيح البخاري، 69/6، حديث رقم 4676، كتاب المغازي، باب قوله: " لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار " [التوبة: 117]، وصحيح مسلم، 111/8، حديث رقم 7116، [53 - 2769]، كتاب الآداب، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

⁵ النووي، أبو زكريّا محبي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2 1392هـ، ج17، ص97.

⁶ هو مُحَمَّدَ أَمِين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقيّ: فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في دمشق. له (رد المحتار على الدر المختار)، فقه يعرف بحاشية ابن عابدين، و (رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار) و (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية)، و (نسمات الأسحار على شرح المنار - ط) أصول، و (حاشية على المطول) في البلاغة، و (الرحيق المختوم - ط) في الفرائض، و (حواش على تفسير البيضاوي) التزم فيها أن لا يذكر شيئاً ذكره المفسرون، و (مجموعة رسائل - ط)، وهي 32 رسالة، و (عقود اللآلي في الأسانيد العوالي - ط) وهو ثبته. انظر: الأعلام للزركلي 42/6.

نفقة نفسه عن الكفاية التامة " (1). ولا يُكتفى بهذا الشرط فحسب، بل يجب على من أراد أن ينفق ماله كلّهُ أن يكون صحيح البدن والعقل سالماً من الدَّيْن، ليس عنده من يعول من الزوجة، والأولاد، والعبيد، وإن كان عنده من هؤلاء أن يكونوا مثله في الصبر، واليقين.

قال الطبري (ت310هـ): "قال الجمهور: من تصدَّق بماله كلّهُ في صحة بدنه، وعقله، حيث لا دَيْن عليه، وكان صبوراً على الإضاعة، ولا عيال له، أو له عيال يصبرون أيضاً، فهو جائز فإن قُدم شيء من هذه الشروط كره، وقال بعضهم هو مردود " (2).

والظاهر من هذه الشروط التي وضعها مَنْ يجوّزون إنفاق المال كلّهُ أنّها مُحالة الوجود. فيبقى القول بحرمة إنفاق المال كلّهُ، وهو الأظهر، وهو الذي عليه الدليل من الكتاب والسنة. أي أنّ ﴿ مِنْ ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3] جاءت للتبعيض لا لبيان الجنس.

¹ ابن عابدين، مُحَمَّد أمين بن عمر (ت1252هـ)، ردّ المحتار على الدر المختار، دار الفكر - بيروت، ط2 1412هـ، ج2، ص357.
² نقله عن الطبري: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت892هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ط1379هـ، ج3، ص295. ولم يجد الباحث قول الطبري فيما وقف عليه من كتبه ومنها تفسيره. وانظر: ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت449هـ)، شرح صحيح البخاري لابن بطّال، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2 1423هـ، ج3، ص428-429.

المسألة الرابعة:

أثر دلالة (الذي والذين) على العهد والجنس في توجيه معنى قوله - تعالى -:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: 6]

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " ومن هنا تعلم أنّ التعريف بالذي، والذين من بين سائر الموصولات، كتعريف (ذي) باللام، في كونه للعهد تارة، وللجنس أخرى، سواء جعلت من المعرف باللام كما ذهب إليه شذمة من النحاة، أو لا، كما عليه المحققون، وعليه فإنّ التعريف هنا للجنس؛ فهو متناول كل من صمّم على كفره تصميماً لا يزَعوي بعده، سواء كان المنّصف بذلك في زمن نزول القرآن، أو كان بعده حتى آخر الأمر؛ لأنّ القرآن يبقى حكمه إلى آخر الدوران، ودلّ على تناوله للمصريين قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، ومعناها: أنّ الذين كفروا مستوٍ عندهم الإنذار وعدمه، فالقائل بأنّ التعريف للعهد، وأنّ المراد به ناس بأعيانهم: كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة وأضرابهم، قول لا حظ له في شيء من التحقيق، بل هو قول من لا يرى أنّ القرآن عام لجميع الأزمان " (1).

فيظهر من كلامه - رحمه الله تعالى - أنّه ذهب إلى القول أنّ (ال) في ﴿الَّذِينَ﴾ هي

للجنس بمعنى استغراق الأفراد، وعليه فإنّ توجيه المعنى عنده في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: 6]، كلّ من كفر بالله،

ورسوله ممن هو في عصر النّبّي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبعده إلى يوم القيامة.

وقد اختلف علماء التفسير في دلالة (أل) من ﴿الَّذِينَ﴾ على قولين، أدّى هذا الاختلاف

إلى اختلاف توجيه المعنى في الآية الكريمة والمراد ب (الذين كفروا).

ف (أل) التعريفية: تأتي جنسية، وزائدة، وعهدية (2).

¹ جواهر الافكار ص 61-62

² صافي، محمود بن عبدالرحيم (ت1376هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، ط4 1418هـ، ج4، ص397. وانظر: الأشموني، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن عيسى (ت900هـ)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1419هـ، ج1، ص167-168. وانظر: النجار، مُحَمَّد عبد العزيز، ضياء السالك إلى أوضاع المسالك، مؤسسة الرسالة، ط1 1422هـ، ج1، ص179-182.

القول الأول: قالوا إِنَّ (أَل) من ﴿الَّذِينَ﴾ عهدية، والعهد هنا ذِكْرِي بمعنى: ذِكْر طائفة، أو مجموعة، أو أفراد بعينها، قال صاحب الكشاف: " والتعريف في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوز أن يكون للعهد وأن يُراد به ناس بأعيانهم "(1).

واختلف هؤلاء فيمن عُنِيَ بهذه الآية، وفيمن نزلت: فذهب بعضهم إلى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقال بهذا القول ابن عباس - رضي الله عنه - (2)، والكلبي (3)، ورجَّحه الطبري في تفسيره بعد أن ذكر تأويلات المفسرين قال: " وأولى هذه التأويلات بالآية تأويل ابن عباس "(4).

وذهب آخرون إلى أن الآية نزلت في مشركي العرب(5). وقال الضَّحَّاك: نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته (6). وقال الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسيره: " والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأضرابهم "(7). وقال الربيع بن أنس: " نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب "(8).

وقال قوم: هي فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، أراد الله تعالى - أن يُعْلَمَ أن في الناس مَنْ هذه حاله دون أن يُعَيَّنَ أحداً، بمعنى أنها عامة، ومعناها الخصوص؛ فَإِنَّ مَنْ عَيَّنَ أحداً فَإِنَّمَا مَثَلٌ بِمَنْ كُتِفَ الغيب لموته على الكفر. ولكنها خاصة فيمن كفر في عصر النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

¹ الكشاف 47/1. وانظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1 والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.
² انظر: مفاتيح الغيب 284/2 جامع البيان في تأويل القرآن 251/1، والمحزر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية 87/1، والجامع لأحكام القرآن 184/1. وتفسير الراغب الأصفهاني 88/1. والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.
³ انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 251/1، والكشف والبيان في تفسير القرآن 149/1، والتفسير الوسيط للواحدى 83/1، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن 86/1، والجامع لأحكام القرآن 184/1.
⁴ جامع البيان في تأويل القرآن 252/1.
⁵ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 149/1، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن 86/1.
⁶ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 149/1، والتفسير الوسيط للواحدى 83/1.
⁷ الكشاف 47/1-48، وانظر: مفاتيح الغيب 284/2، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.
⁸ انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 88/1، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 87/1، والجامع لأحكام القرآن 184/1.

وَسَلَّمَ - وَرَجَّحَ ذَلِكَ ابْنُ عَطِيَّةٍ (ت 542 هـ) ⁽¹⁾ فِي تَفْسِيرِهِ ⁽²⁾، وَالْقُرْطُبِيُّ (ت 671 هـ) فِي تَفْسِيرِهِ ⁽³⁾،
وَابْنُ كَثِيرٍ (ت 774 هـ) فِي تَفْسِيرِهِ ⁽⁴⁾، وَأَبُو زَيْدِ الثَّعَالِبِيِّ (ت 876 هـ) فِي تَفْسِيرِهِ ⁽⁵⁾، وَالشُّوكَانِيُّ
(ت 1250 هـ) فِي تَفْسِيرِهِ ⁽⁶⁾.

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي: فَقَالُوا إِنَّ (ال) التَّعْرِيفِيَّةَ فِي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جَنَسِيَّةٌ، أَي تَأْتِي لِاسْتِغْرَاقِ
الْجِنْسِ حَقِيقَةً، فَهِيَ لِشُمُولِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ. فَمَنْ كَفَرَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ بَعْدَهُ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ: " وَالتَّعْرِيفُ فِي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ... وَأَنْ يَكُونَ لِلْجِنْسِ، مَتَنَاوَلًا كُلَّ
مَنْ صَمَّمَ عَلَى كَفَرِهِ تَصْمِيمًا لَا يَرَعَوِي بَعْدَهُ وَغَيْرِهِمْ " ⁽⁷⁾. وَرَجَّحَهُ بِقَوْلِهِ: " وَدَلَّ عَلَى تَنَاوُلِهِ لِلْمُصْرَبِينَ
الْحَدِيثُ عَنْهُمْ بِاسْتِوَاءِ الْإِنذَارِ، وَتَرْكِهِ عَلَيْهِمْ " ⁽⁸⁾.

وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ (ت 1393 هـ): " وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَوْصُولُ لِتَعْرِيفِ الْجِنْسِ الْمَفِيدِ لِلِاسْتِغْرَاقِ
عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْكُفْرِ أَنْوَاعُهُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَكُونُ عَامًّا مَخْصُوصًا بِالْحَسِّ؛ لِمَشَاهِدَةِ
مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، أَوْ يَكُونُ عَامًّا مُرَادًا بِهِ الْخُصُوصُ بِالْقَرِينَةِ، وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ هُمَا اللَّذَانِ اقْتَصَرَ عَلَيْهِمَا
الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ وَهُمَا نَاطِرَانِ إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فَتَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُوا
مَمَّنْ تَبَيَّنَ بَعْدُ أَنَّ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ " ⁽⁹⁾.

¹ هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو مُحَمَّد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل
غرناطة. عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملمثين. وتوفي بلورقة. له (المحرر الوجيز
في تفسير الكتاب العزيز)، و (برنامج) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه. وقيل في تاريخ وفاته سنة 541 و 546. انظر: الأعلام للزركلي
282/3.

² المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 87/1.

³ الجامع لأحكام القرآن 184/1.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن كثير 173/1.

⁵ الجواهر الحسان في تفسير القرآن 185/1.

⁶ فتح القدير للشوكاني، 46/1.

⁷ الكشاف 47/1، وانظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1

⁸ الكشاف 47/1.

⁹ التحرير والتنوير لابن عاشور 248/1

فيما يرى الباحث - بعد الاطلاع على أقوال العلماء والنظر في أدلتهم - أن الخلاف قائم على مسألة نحوية في تعريف الموصول هل هو للعهد أم للجنس؟ أدى إلى تباين آراء العلماء في توجيه معنى الآية على الأقوال المذكورة آنفاً، ولقد أيد الباحث قول ابن بدران والقائلين: إن التعريف في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما هو للجنس؛ لأنه يتناول كل من صم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده، سواء أكان المتصف بذلك في زمن نزول القرآن، أم كان بعده، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. ممّا هو معلوم أنّ ألفاظ العموم إنّ حُصِّصت فلا بدّ من دليل، أو قرينة تصرفها من العموم إلى الخصوص، ولما لم يكن دليل، أو قرينة فيبقى على عمومه.

2. أنّ القرآن الكريم نافذة أحكامه، وشرائعه في كل زمان ومكان، فهو عام لجميع الأزمان إلى يوم القيامة.

3. أنّ صيغ المخاطبين في زمن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَلَبَّس بها كلّ من اندرج تحت تلك الصيغ كقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: 104]، فكلّ مؤمن معني بالخطاب في كل زمان، ومكان، وكذا قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 6].

4. لما كان قول القائلين بالعموم يشمل قول القائلين بالخصوص؛ فهو مُقَدَّم لاستغراق الكلّ على القائلين بطائفة دون طائفة، فعموم الكفّار إلى يوم القيامة يشمل مشركي قريش، وأحبار اليهود.

5. أنّ الله عنده علم من سيكفر به، ويموت على كفره من ذرية آدم إلى يوم القيامة، فقد صحّ عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّه قال: " إنّ أوّل ما خلق الله القلم. فقال له: اكتب، قال: يا ربّ، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم الساعة. من مات على غير هذا فليس مني "(1). وفي رواية: " قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد " (2).

فعلّمه - سبحانه - ليس مقصوراً على من سيموت على الكفر في عهده - صلى الله عليه وسلم - بل إلى يوم القيامة.

¹ رواه ابو داود في سننه 86/7، حديث رقم 4700، باب في القدر، وصحيح الجامع وزيادته 405/1 حديث رقم 2018-890.

² صحيح الجامع وزيادته 405/1، حديث رقم 2017-889.

6. أن قول من قال: إن الآية عامّة، ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب مردود من وجهين:

أ. قول الله - عز وجل - : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] [أخرج من ذلك من كان كافراً وقت نزول الآية وأمن فيما بعد، كمن آمن يوم الفتح. فتبقى الآية على عمومها ولا خصوص فيها.

ب. أن كلمة العذاب سبقت على من مات كافراً قبل نزول الآية، وعصر النبي - صلى الله عليه وسلم -، لا بل قبل خلق آدم - عليه السلام - فقد صحَّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " ما منكم من أحد إلا وقد كتبت مقعده من النار، ومقعده من الجنة "، قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا، ونَدَعُ العمل؟ قال: " اعملوا! فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له "، قال: "أما من كان من أهل السعادة فسيسرُّ لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيسرُّ لعمل الشقاوة " ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 5-10] ⁽¹⁾. وعليه فإن الآية تشمل كل كافر يموت على الكفر مُدَّ آدم - عليه السلام - حتى يوم القيامة؛ لأنها سبقت عليه كلمة العذاب.

وختلاصة القول:

إن تعريف الاسم الموصول في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 6]، للجنس ويشمل كل كافر سواء في عصره - صلى الله عليه وسلم - أو بعده إلى يوم القيامة، وهذا ما ذهب إليه ابن بدران، والمُحَقِّقون من المفسرين - رحمهم الله جميعاً -.

¹ صحيح البخاري 171/6، باب: " فسنيسرهُ للعسرى " [الليل: 10]، حديث رقم 4949، وصحيح مسلم 47/8، كتاب: الأداب، باب: كل ميسر لما خلق له، حديث رقم 6826.

المسألة الخامسة:

أثر معنى (علّ) في توجيه معنى قوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: 21]

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " ومعنى (علّ) هنا للتعليل، وهذا أثبتته لها جماعة، منهم الأخفش، والكسائي، وحملوا عليه قوله - تعالى - : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]، وإِثْمًا أَثْبَتْنَا هَذَا؛ لِأَنَّ الْمَفْهُومَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ خَلْقَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فِي مَعْنَى: خَلَقَهُمْ لِأَجْلِ التَّقْوَى، كَأَنَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ: أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَالْأَصْنَامَ، وَالنُّجُومَ، وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ؛ لِتَقْرِبِكُمْ إِلَيْنَا زَلْفَى، وَتَجْعَلُونَهُمْ وَاسِطَةً، كَأَنَّ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ عَلَيْهَا حَارِسٌ لَا يُدْخِلُ إِلَّا الْأَفْرَادَ، وَإِنَّ مَا تَعْبُدُونَهُمْ لَا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا، وَلَا يَجْلِبُونَ لَهَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَنْفَعُونَ غَيْرَهُمْ، أَوْ يَضُرُّونَهُمْ؟! وَحَيْثُ إِنَّكُمْ عِبَدْتُمُوهُمْ لِعَلَّةِ الْوَاسِطَةِ، فَانظُرُوا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْأَصْلِيَّةِ، فَاعْبُدُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ أَسْلَافَكُمْ، وَأَصْنَامَكُمْ؛ لِأَجْلِ هَذِهِ الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَمَّا كَانَتْ التَّقْوَى قِصَارَى أَمْرِ الْعَابِدِ، وَمُنْتَهَى جِهَدِهِ، قَالَ هُنَا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]؛ لِأَنَّ التَّقْوَى إِذَا لَزِمَتْهُمْ كَانَ مَا هُوَ أَدْنَى مِنْهَا أَكْرَمَ، وَالْإِثْيَانُ بِهِ أَهْوَنُ " (1).

ومما هو معلوم أنّ (علّ) من أخوات إنّ، تنصب المبتدأ ويسمى اسمها، وتزفع الخبر ويسمى خبرها (2). ولها معان اختلف العلماء في تحديدها، فجعلها ابن مالك (ت672هـ) (3) أربعة (4)، فيما عدّها المرادي (ت749هـ) ثمانية معانٍ، ذكرها في كتابه " الجنى الداني في حروف المعاني " بقوله: "ولعلّ

¹ جواهر الأفكار ص94.

² انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام ص315، وشرح التسهيل لابن مالك 39/2-40.

³ هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ مَالِكِ الطَّائِي الْجَبَّالِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، جَمَالُ الدِّينِ: أَحَدُ الْأَثَمَةِ فِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. وُلِدَ فِي جَبَانَ (بِالْأَنْدَلُسِ) وَانْتَقَلَ إِلَى دِمَشْقَ فَمَاتَ فِيهَا. أَشْهَرُ كُتُبِهِ (الْأَلْفِيَّةُ - ط) فِي النَّحْوِ، وَهُوَ (تَسْهِيلُ الْفَوَائِدِ - ط) نَحْوُ، وَ (شَرْحُهُ لَهُ)، وَ (الضَّرْبُ فِي مَعْرِفَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ) وَ (الْكَافِيَةُ الشَّافِيَّةُ - ط) أَرْجُوزَةٌ فِي نَحْوِ ثَلَاثَةِ آلَافِ بَيْتٍ، وَ (شَرْحُهَا - ط) وَ (سَبْكُ الْمَنْظُومِ وَفِكَ الْمَخْتُومِ) نَحْوُ، وَ (لَامِيَةُ الْأَفْعَالِ - ط) وَ (عِدَّةُ الْحَافِظِ وَعِدَّةُ اللَّافِظِ) رِسَالَةٌ، وَ (شَرْحُهَا)، وَ (إِيْجَازُ التَّعْرِيفِ) صَرَفٌ، وَ (شَوَاهِدُ التَّوْضِيحِ - ط) وَ (إِكْمَالُ الْإِعْلَامِ بِمَثَلَاتِ الْكَلَامِ - ط) وَ (مَجْمُوعٌ) فِيهِ 10 رِسَائِلَ، وَ (تَحْفَةُ الْمُؤَدِّدِ فِي الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ - ط) مَنْظُومَةٌ، وَ (الْعُرُوضُ) وَ (الْإِعْتِزَادُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الظَّاءِ وَالضَّادِ) قَصِيدَةٌ مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ عَلَى رُويِ الظَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ، مَشْرُوحَةٌ شَرْحًا مُتَقَنًا مِنْ إِنْشَائِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. انظر: الأعلام للزركلي 233/6.

⁴ انظر: ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ (ت672هـ)، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق مُحَمَّدُ كَامِلُ بَرَكَاتٍ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ، ج1، ص61، وشرح التسهيل لابن مالك 7/2.

لها ثمانية معان " (1)، وعدّها ابن هشام (ت761هـ) ثلاثة معان بقوله: " ولعلّ للترجّي، أو الإشفاق، أو التعليل " (2). ولعلّ هذه الثلاثة هي أشهر ما ورد عند العلماء.

أمّا التّرَجِّي فقال به سيبويه (ت180هـ) في كتابه " الكتاب ": " وإذا قلت (لعلّ) فأنت ترجوه أو تخافه في حال ذهاب " (3).

وقال الأزهري (ت370هـ) في تهذيب اللغة: (علّ ولعلّ) حرفان وضعا للترجّي في قول النّحويين. وأثبت عن ابن الأنباري أنّه قال: " لعل يكون ترجياً، ويكون بمعنى كي، ويكون ظناً كقولك: لعلّي أحجّ العام، معناه أظنّني: سأحجّ، ويكون بمعنى: عسى، لعلّ عبدالله يقوم، معناه عسى عبد الله، ويكون بمعنى الاستفهام كقولك: لعلك تشتمني فأعاقبك، معناه هل تشتمني؟ " (4).

وقال الأنباري (ت577هـ) (5): " ومعنى (لعلّ): ترجّيت " (6). وقال أيضاً: " ولعلّ أفادت معنى التّرَجِّي " (7).

¹ انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 579/1.

² ابن هشام، أبو محمّد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط11 1383هـ، ص147، وانظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام ص317.

³ الكتاب لسبويه 2 / 148.

⁴ تهذيب اللغة للأزهري 79/1، وانظر: التفسير البسيط للواحيدي 219/2، ذكر الواحيدي منها ثلاثة الترجي وكي والظن.

⁵ هو أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمّد بن عبيد الله بن محمّد بن عبيد الله بن أبي سعيد محمّد بن الحسن بن سليمان الأنباري، الملقب كمال الدين، النّحوي، كان من الأئمة المشار إليهم في علم النّحو، وسكن بغداد من صباه إلى أن مات، وتفقه على مذهب الشافعي - رضي الله عنه - بالمدرسة النظامية وتصدّر لإقراء النّحو بها، وقرأ اللغة على أبي منصور ابن الجواليقي، وصحب الشريف أبا السعادات هبة الله بن الشجري وأخذ عنه وانتفع بصحته، وتبحّر في علم الأدب، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء، وصنف في النّحو كتاب " أسرار العربية " وهو سهل المأخذ كثير الفائدة، وله كتاب " الميزان " في النّحو أيضاً، وله كتاب في " طبقات الأدباء " جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه، وكتبه كلها نافعة، وكان نفسه مباركاً ما قرأ عليه أحد إلا وتميّر. وانقطع في آخر عمره في بيته مشغلاً بالعلم والعبادة وترك الدنيا ومجالسة أهلها، ولم يزل على سيرة حميدة. وكانت ولادته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وتوفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمئة ببغداد، ودفن بباب أبرز بترية الشيخ أبي إسحاق الشيرازي - رحمه الله تعالى -. انظر: وفيات الأعيان 3/139.

⁶ أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله الأنصاري (ت 577هـ)، أسرار العربية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1 1420هـ، ص122، وانظر: أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله (ت 577هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط1 1424هـ ج1، ص145.

⁷ المرجع السابق ص124.

وأما الإشفاق فالفرق بينه، وبين الترجي: أن الترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه (1).

وأما التعليل فقد اختلف فيه العلماء على قولين:

الأول: قول الكسائي والأخفش، وحملاً على ذلك ما في القرآن من نحو قوله - تعالى - ﴿لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: 52]، أي: لتهتدوا، ولتتقوا، ولتشكروا (2).

الثاني: مذهب سيبويه والمحققين إن معنى (لعل) في الآيات التي استشهد بها للتعليل؛ فإنها في ذلك

كله للترجي، وهو ترج العباد، وقوله - تعالى - ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

[طه: 44]، معناه: اذهب على رجائكما ذلك من فرعون (3).

ويرى التعليل نفسه شوقي ضيف (ت1426هـ) في كتابه المدارس النحوية بقوله: " إن من

معاني لعل التعليل " (4).

وقيل إن من معانيها الاستفهام، قال به الكوفيون وتبعهم ابن مالك (5)، وجعل منه: ﴿وَمَا

يُذْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: 3]، وقول النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لبعض الأنصار، وقد

خرج إليه مستعجلاً: " لعلنا أعجلناك " (6). وخالفهم بذلك البصريون؛ فقالوا: إن لعل في الآية بمعنى

الرجاء، وفي الحديث بمعنى الإشفاق (7).

وقد أدى هذا الاختلاف بين علماء النحو في تحديد معنى لعل إلى تباين آراء المفسرين في

توجيه قوله - تعالى - ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]. ويظهر هذا التباين في أمرين:

¹ انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1، والبحر المحيط 151/1، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 59/1، وروح المعاني للألوسي 188/1.

² انظر: معاني القرآن للأخفش 443/2، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1.

³ انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1.

⁴ شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام (ت1426هـ)، المدارس النحوية، دار المعارف، (د.ت)، ج1، ص97.

⁵ انظر: شرح التسهيل لابن مالك 8/2.

⁶ صحيح البخاري 47/1، حديث رقم 180، باب من لم يرَ الوضوء إلا من المخرجين من القبل والدبر، وصحيح مسلم 269/1، حديث رقم 345، باب إنما الماء من الماء.

⁷ انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 581/1.

الأول: في معنى لعل. والثاني: في متعلق لعل.

الأمر الأول: فقد اختلف علماء التفسير في تحديد معنى لعل في قوله - تعالى - ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21] إلى أقوال عديدة أشهرها:

القول الأول: قالوا لعل جاءت بمعنى التَّرجِّي، أي الرجاء، وممن قال بذلك:

القشيري (ت465هـ) في تفسيره بقوله: " قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تقريب الأمر عليهم، وتسهيله، ولقد وقفهم بهذه الكلمة - أعني لعل - على حدِّ الخوف، والرجاء (1).

وابن عطية (ت542هـ) في تفسيره بقوله: " و (لعل) في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى، وليست من الله بمعنى ترجُّ وتوقُّع. وقال سيبويه ورؤساء اللسان: هي على بابها، والتَّرجِّي، والتَّوقُّع إنما هو في حيِّز البشر، أي إذا تأملتكم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى" (2).

والنيسابوري (ت550هـ) في تفسيره: " لعلكم تتقون: على أصلها في الشكِّ والرجاء من المخاطب للتقوى لئلا يأمن العبد مدلاً بتقواه " (3).

والبيضاوي (ت691هـ) في تفسيره: " لعلكم تتقون حالٌّ من الضمير في اعبدوا، كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تتخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح " (4).

وأبو حيَّان (ت745هـ) الأندلسي بقوله: " وليست لعل هنا بمعنى كي؛ لأنَّه قول مرغوب عنه، ولكنَّها للتَّرجِّي والإطماع " (5).

¹ القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت465هـ)، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط3، (د.ت)، ج1، ص68.

² المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 105/1.

³ النيسابوري، أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (ت نحو 550هـ)، إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1 1415هـ، ج1، ص74.

⁴ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 54/1.

⁵ البحر المحيط 155/1.

ورجّح ذلك البقاعي (ت885هـ) في نظم الدرر⁽¹⁾، والألوسي (ت1270هـ) في روح المعاني⁽²⁾، ومُحمَّد رشيد رضا (ت1354هـ) في تفسير المنار⁽³⁾، وأبو زهرة (ت1394هـ) في زهرة التفاسير⁽⁴⁾.

وقد نبّه القائلون بهذا القول إلى أمرين لا بدّ من الإشارة إليهما:

أما الأوّل: وهو أنّ الشكّ في الرجاء إنّما يكون في حقّ المخاطبين، وأمّا إذا وقعت في كلام الله يكون معناها التحقيق؛ لأنّه - سبحانه وتعالى - منزّه عن الشكّ في الرجاء؛ لأنّ الشكّ لا يكون إلّا عند الجهل بالعاقبة، وذلك على الله - تعالى - مُحال.

وأما الثاني: فإنّ الرجاء، والإطماع إنّما هو في حقّ المخلوقين، أي هو بالنسبة إلى المخاطبين؛ لأنّ الرجاء لا يكون في حقّه - سبحانه -⁽⁵⁾، ولا تُستعمل إلّا في الممكن، لا يُقال: لعلّ الشباب يعود⁽⁶⁾.

وقال ابن الشجري (ت542هـ)⁽⁷⁾ في أماليه: "ولعلّ إنّما هو حرف موضوع للرجاء، والراجي شاكٌّ، بدلالة أنّك تقول: لعلّي أدخل الجنة، وأرجو أنّ أدخل الجنة، ولا تقول: أرجو أنّ يدخل النّبّيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الجنة، ولا: لعلّ النّبّيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يدخل الجنة؛ لأنك على غير يقين من دخولك الجنة، وغير شاكٍّ في دخول النّبّيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الجنة..."

¹ انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن (ت885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج1، ص143.

² انظر: روح المعاني للألوسي 1/188.

³ انظر: رضا، مُحمَّد رشيد بن علي (ت1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ج1، ص155.

⁴ انظر: أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (د. ت)، ج1، ص157-158.

⁵ انظر: مفاتيح الغيب للرازي 2/334 - 335، والمحرر الوجيز لابن عطية 1/105، وإيجاز البيان عن معاني القرآن للثيسابوري 1/74، والبحر المحيط 1/155.

⁶ البحر المحيط 1/151.

⁷ هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن مُحمَّد بن حمزة الحسني، المعروف بابن الشجري البغدادي، كان إماماً في النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها كامل الفضائل، متضلّعاً من الآداب صنف فيها عدة تصانيف، فمن ذلك كتاب "الأمالي"، وهو أكبر توافقه وأكثرها إفادة، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً، وهو يشتمل على فوائد جمّة من فنون الأدب. والشجري: بفتح الشين المعجمة والجيم وبعدها راء، هذه النسبة إلى شجرة، وهي قرية من أعمال المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وشجرة أيضاً اسم رجل، وقد سمت به العرب ومن بعدها، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم، ولا أدري إلى من ينتسب الشريف المذكور منهما هل نسبته إلى القرية، أم إلى أحد أجداده كان اسمه شجرة، والله أعلم. ولد في رمضان، سنة خمسين وأربع مئة. وتوفي: في السادس والعشرين من رمضان، سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة، ودفن بداره، وإنما سمع الحديث في كهولته. انظر: وفيات الأعيان 6/45-50، وسير أعلام النبلاء 20/195-196، والأعلام للزركلي 8/74.

فهو على شكّ المخاطبين فإنّه قيل: افعلوا ذلك على الرجاء منكم، والطمع أن تعقلوا، وأن تذكروا، وأن تتقوا " (1).

وقال ابن جُزَيّ (ت741هـ): " وإن كانت لعلّ للترجيّ فتأويله أنّه في حقّ المخلوقين، جرياً على عادة كلام العرب " (2).

وقال القاسمي (ت1332هـ)⁽³⁾: " وفي إيراد (لعلّ) تُشبه طلبه - تعالى - برجاء الرّاجي من المرجوّ منه أمراً هيّئ الحصول " (4).

القول الثاني: قالوا: إنّ (لعلّ) جاءت بمعنى التعليل، وممّن قال بذلك:

ابن عباس (ت68هـ) - رضي الله عنه - إذ جاء في تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: " ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لكي تتقوا السخطة، والعذاب، وتطيعوا الله " (5).

¹ ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعدات هبة الله بن علي بن حمزة (ت542هـ)، أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود مُحَمّد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1 1413هـ، ج1، ص76.

² جُزَيّ، أبو القاسم مُحَمّد بن أحمد الكلبي (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط1 1416هـ، ج1، ص74.

³ هو جمال الدين (أو مُحَمّد جمال الدين) بن مُحَمّد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام في عمله هذا أربع سنوات (1308 - 1312 هـ) ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة. ونشر بحوثاً كثيرة في المجالات والصحف، منها (لائل التوحيد - ط) و (ديوان خطب - ط) و (الفتوى في الإسلام - ط) و (إرشاد الخلق إلى العمل بخير البرق - ط) و (شرح لقطة العجلان - ط) و (نقد النصائح الكافية - ط) و (مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن - ط) و (موعظة المؤمنين - ط) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و (شرف الأسباط - ط) و (تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب - ط)، و (محاسن التأويل - ط) في تفسير القرآن الكريم انظر: الأعلام للزركلي 135/2.

⁴ القاسمي، مُحَمّد جمال الدين بن مُحَمّد سعيد (ت1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق مُحَمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 1418هـ، ج1، ص265.

⁵ ابن عباس، عيد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت68هـ)، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدين أبو الطاهر مُحَمّد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت817هـ)، دار الكتب العلمية - لبنان، ج1، ص5.

ومقاتل (ت150هـ)⁽¹⁾ في تفسيره بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، يقول: لكي تتقوا " (2).

ووافقهما أي - ابن عباس ومقاتل - سفيان الثوري (ت161هـ) بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قال تطيعون " (3).

وكان مجاهد يقول في تأويل قوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: " تطيعون " (4).

وقال الطبري (ت310هـ) في تفسيره: " وإنما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم؛ لنتقوه بطاعته، وتوحيده، وإفراده بالربوبية، والعبادة " (5). قال المحقق (6) في الهامش: " يريد الطبري أن العرب تستعمل " لعل " مجردة من الشك، بمعنى لام كي " (7).

وقال الماتريدي (ت333هـ) في تفسيره: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أي: كي تتقوا " (8).

¹ هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدي بالولاء الخراساني المروزي، أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدث بها، وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور. وأخذ الحديث عن مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح، وأبي إسحاق السبيعي، والضحاك بن مزاحم ومحمد بن مسلم الزهري وغيرهم. وروى عنه بقرية بن الوليد الحمصي وعبد الرزاق بن همام الصنعاني وحرمي بن عمارة وعلي بن الجعد، وغيرهم. وحكي عن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - أنه قال: الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل بن سليمان في التفسير، وعلى زهير ابن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام. وقال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، وقال البخاري: مقاتل لا شيء ألبتة. قلت - أي الذهبي - : أجمعوا على تركه - أي متروك الحديث - . فكان متروك الحديث. من كتبه (التفسير الكبير)، و (نوارد التفسير) و (الرد على القدرية) و (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (القرآيات) و (الوجوه والنظائر). وتوفي سنة خمسين ومئة بالبصرة - رحمه الله تعالى - . انظر: وفيات الأعيان 255/5-257، وسير أعلام النبلاء 201/7-202، والأعلام للزركلي 281/7.

² الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير (ت150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط1 1423هـ، ج1، ص112.

³ الثوري، أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق (ت161هـ)، تفسير الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1403هـ، ج1، ص42.

⁴ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 364/1.

⁵ جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق محمود شاكر 364/1.

⁶ هو أحمد بن محمد عبد القادر (المعروف بأحمد شاكر)، ولد في القاهرة عام 1309 هـ، حفظ القرآن في صغره، ودرس التفسير، والفقه والحديث، والأدب، ودرس في الأزهر، وتلمذ على عدد من علماء عصره، وعُني بعلم الحديث، واهتم بتحقيق عدد من كتب السنة، وشرحها، وعمل أميناً للفتوى بالأزهر، وتولى القضاء عام 1951 م، ثم عُين رئيساً للمحكمة الشرعية، واختير وكيلاً لمشيخة الجامع الأزهر سنة 1327هـ، وقد حقق كثيراً من كتب الحديث والفقه والأدب والشعر، وألف عدداً كبيراً من الكتب، منها: الكتاب والسنة، والشرح واللغة. وتوفي - رحمه الله تعالى - في ذي القعدة سنة 1377 هـ.

⁷ المرجع السابق 364/1، هامش رقم 3.

⁸ الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود (ت333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1 1426هـ، ج1، ص399.

وقال السمرقندي (ت373هـ): ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعصية، وتتجون من العقوبة " (1).

وقال ابن زنين (ت399هـ): ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لكي تتقوا " (2).

وقال الثعلبي (ت427هـ) في تفسيره: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لكي تتجوا من السّحت والعذاب" (3).

وقال الجُرْجَانِي (ت471هـ) في درج الدرر: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا مخالفة الخالق" (4).

وقال السمعاني (ت489هـ) (5) في تفسيره: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل معناه: لكي تتقوا، قاله أبو عبيدة" (6).

وقال البغوي (ت516هـ) في تفسيره: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لعلمك تتجون من العذاب " (7)، أي لكي (8).

¹ السمرقندي، أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن أحمد بن إبراهيم (ت 375هـ)، تفسير السمرقندي المسمّى (بحر العلوم)، تحقيق وتعليق علي مُحَمَّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1413هـ، ج1، ص101.

² ابن أبي زنين، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن عيسى (ت 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق أبي عبدالله حسين بن عكاشة ومُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة - مصر - القاهرة، ط1 1423هـ، ج1، ص127.

³ الكشف والبيان عن تفسير القرآن 166/1.

⁴ درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 121/1.

⁵ هو الإمام، العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي، الحنفي كان، ثم الشافعي. ولد: سنة ست وعشرين وأربع مئة. وبرع في مذهب أبي حنيفة على والده العلامة أبي منصور السمعاني، وبرز على الأقران. صنف كتاب (الأصطلام)، وكتاب (البرهان)، وله (الأمالى) في الحديث، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكا في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة. وتوفي يوم الجمعة، الثالث والعشرين من ربيع الأول، سنة تسع وثمانين وأربع مائة، عاش ثلاثا وستين سنة - رحمه الله - انظر: سير أعلام النبلاء 114/19-119، والأعلام للزركلي 303/7-304.

⁶ السمعاني، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار (ت 489هـ)، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض - السعودية، ط1 1418هـ، ج1، ص56. ويعني بأبي عبيدة معمر بن المثنى.

⁷ معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي 93/1.

⁸ انظر: المرجع السابق 93/1، هامش رقم 3.

ودافع عن هذا القول الغزنويُّ (ت بعد553هـ) في باهر البرهان بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا، وهو معنى كلِّ (لعلّ) في القرآن؛ لأنَّ الله يتعالى عن معاني الشكِّ " (1).

وقال ابن الجوزي (ت597هـ) في زاد المسير: " وفي (لعلّ) قولان: أحدهما: أنها بمعنى (كي). وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل، وقطرب، وابن كيسان. قال ابن عباس: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الشرك، وقال الضحّاك: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار، وقال مجاهد: لعلمكم تطيعون " (2).

وذهب إلى هذا القول أبو زيد الثعالبي (ت875هـ) - بعد أن ذكر أقوال المفسرين فيها - بقوله: " وأما (لعلّ) هنا، فهي بمعنى (كي) أو (لام كي)، أي: لتتقوا، أو لكي تتقوا " (3).

ورجّح هذا القول القاسمي (ت1332هـ) في محاسن التأويل بقوله: " ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: كي تتقوا " (4).

وابن العثيمين (ت1421هـ) بقوله: " وقوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، (لعلّ) هنا للتعليل: أي لتصلوا إلى التقوى " (5).

القول الثالث: قالوا (لعلّ) جاءت بمعنى المقاربة، ورجّح ذلك ابن جُزَيِّ (ت741هـ) في تفسيره - بعد أن ذكر أقوال المفسرين - بقوله: " والأظهر فيها أنها لمقاربة الأمر، نحو عسى، فإذا قالها الله: فمعناها أطباع العباد، وهكذا القول فيها حيث ما وردت في كلام الله " (6).

القول الرابع: قالوا (لعلّ) جاءت بمعنى التعرّض للأمر أي التعريض.

¹ الغزنوي، أبو القاسم مُحَمَّد بن أبي الحسين علي بن الحسين النيسابوري (ت 553هـ)، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، تحقيق سعاد بنت صالح، جامعة أم القرى - مكّة المكرمة، 1419هـ، ج1، ص44.

² انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 42/1 - 43، ومدارك التنزيل وحفائق التأويل للتسفي 62/1، والبحر المحيط لأبي حيان 151/1، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 85/1.

³ الجواهر الحسان في تفسير القرآن 195/1.

⁴ محاسن التأويل (تفسير القاسمي) 265/1.

⁵ تفسير القرآن الكريم (الفاحة - البقرة) لابن عثيمين 73/1.

⁶ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَيِّ 74/1.

قال الكرمانى (ت نحو 505 هـ) فى غرائب التفسير - بعد ذكر الأوجه الثلاثة فى معنى (لعلّ) -: " قال أبو بكر بن الإخشيد: معناه التعرّض للأمر، أى افعلوا متعرّضين للتقوى، حكاة ابن عيسى" (1).

وقال السّمين الحلبىّ (ت 756 هـ) - بعد ذكر أقوال العلماء فى المسألة -: " والثالث: أنّها للتعرّض للشىء، كأنّه قيل: افعلوا ذلك متعرّضين لأنّ تتقوا " (2).

القول الخامس: قالوا إنّ (لعلّ) واقعة فى الآية موقع المجاز لا الحقيقة.

وقال بهذا القول الزمخشري (ت 538 هـ) فى الكشاف - فبعد أن ذكر أقوال المفسرين فى معنى (لعلّ) - عمّل على تنفيذها، والرّد عليها، ثمّ خلّص برأى مغاير لما جاء به المفسرون مؤيداً بذلك مذهبه المعتزلي، إذ يقول: " قال من قال: إنّ (لعلّ) بمعنى (كى)، و(لعلّ) لا تكون بمعنى (كى) " (3). ثم رّد على القائلين بالترجى بقوله: " فإنّ قلت: ف (لعلّ) التى فى الآية ما معناها؟ وما موقعها؟ قلت: ليس ممّا ذكرنا فى شىء؛ لأنّ قوله: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، لا يجوز أن يُحمل على رجاء الله تقواهم؛ لأنّ الرجاء لا يجوز على عالم الغيب، والشهادة، وحمله على أن يخلّفهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً. ولكنّ (لعلّ) واقعة فى الآية موقع المجاز لا الحقيقة " (4). ثم بيّن سبب اختياره لهذا الرأى بقوله: " لأنّ الله - عزّ وجلّ - خلّق عباده ليتعبّدهم بالتكليف، وركّب فيهم العقول، والشهوات، وأزاح العلة فى أقدارهم، وتمكينهم، وهداهم النّجدين، ووضع فى أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير، والتقوى " (5).

¹ الكرمانى، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر (ت نحو 505 هـ)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للتقافة الإسلامية

- جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، (د. ت)، ج 1، ص 124-125.

² الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون 189/1، وانظر: اللباب فى علوم الكتاب لابن عادل 412/1.

³ الكشاف 92/1.

⁴ المرجع السابق 92/1.

⁵ المرجع السابق 92/1.

وهنا تظهر نُصرة الزمخشري لمذهبه في سبب اختيار هذا الرأي الذي خالف فيه جُلّ المفسرين، وقد بيّن ذلك ابن المُنير الإسكندري (ت683هـ)⁽¹⁾ في كتابه الانتصاف - المُدِيل بحاشية الكشاف - وقد تعقّب في ذلك⁽²⁾.

وردّ أبو حيّان الأندلسي (ت745هـ) على الزمخشري بعد أن نقل كلامه في أنّ (لعلّ) على المجاز لا الحقيقة⁽³⁾.

كما ردّ عليه أبو السعود (ت982هـ) في تفسيره بقوله: " وأما جَعَلَ المُشْبِهَ إرادته - تعالى - في الاستعارة، والتمثيل فأمرٌ مُؤَسَّسٌ على قاعدة الاعتزال القائلة: بجواز تخلف المراد عن إرادته - تعالى -⁽⁴⁾. فالجملة حالٌ إمّا من فاعل خَلَقَكُمْ طالباً منكم التقوى، أو من مفعوله، وما عُطِفَ عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين؛ لأنهم المأمورون بالعبادة أي خَلَقَكُمْ وإياهم مطلوباً منكم التقوى، أو علةٌ له، فإنّ خَلَفَهُمْ على تلك الحال في معنى خَلَفَهُمْ لأجل التقوى كأنّه قيل: خَلَقَكُمْ لتتقوا أو كي تتقوا"⁽⁵⁾.

من هنا يتبيّن لنا أنّ ما جاء به الزمخشري ومن قال بقوله إنّما كان مبنياً على ما يوافق مذهبه الاعتزالي، لا على قواعد علمية، وضوابط تفسيرية، وهو بذلك قد خالف جمهور المفسرين، وأكثر المحقّقين ممن سبقوه. وقد خالفه جُلّ من جاء بعده وردّوا عليه، وفندوا قوله. فلا اعتبار في قوله، وتبقى (لعلّ) على الحقيقة لا المجاز.

أمّا بالنسبة إلى دلالتها ومعناها في قوله - تعالى - ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فيرى الباحث أنّها جاءت للتعليل، مؤيداً بذلك ابن بدران وكلّ من قال بذلك من النحاة، والمفسرين، وعلى رأسهم: حَبْرُ الأُمَّة ابن عبّاس، وكبار التابعين، مقاتل، وسفيان وغيرهم؛ لأنّه لا مانع لغةً من الحمل عليه، وبما أنّ منتهى غاية العبد هو الحصول على التقوى؛ ليفوز بما أعدّه الله - عزّ وجلّ - للمتّقين، كما

¹ هو أحمد بن مُحَمَّد بن منصور: من علماء الإسكندرية وأدبائها. ولي قضاءها وخطابتها مرتين. له تصانيف، منها (تفسير) و (ديان خطب) و (تفسير حديث الإسراء) على طريقة المتكلمين. و (الانتصاف من الكشاف) وله نظم. انظر: الأعلام للزركلي 220/1.

² انظر: الكشاف 92/1، هامش رقم 2.

³ انظر: البحر المحيط 155/1.

⁴ إنّ كان المقصود تخلف المراد عن الإرادة الشرعية فلا مانع من ذلك، وإن كان قصد به الإرادة الكونية فهو المحذور.

⁵ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 60/1.

بِئِنَّهُ اللهُ - تعالى - في كتابه العزيز في غير ما آية بقوله: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 7]، وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات: 15] وقوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: 31]. فلما كان هذا ما أعدّه الله - عزّ وجلّ - للمتقين، كان لازماً على العباد أن يحرصوا كلّ الحرص للوصول إلى ذلك المُبتغى؛ لذلك جاء الخطاب من الله - سبحانه وتعالى - للناس كافة أن يعبدوه للحصول على التقوى التي تتطلّع إليها آمالهم، وتشرئب لها نفوسهم للوصول إليها؛ للفوز بما أعدّه الله - عزّ وجلّ - للمتقين.

الأمر الثاني: فقد اختلف علماء التفسير في متعلق (لعلّ) على قولين:

القول الأول: قالوا: إنّ متعلق (لعلّ) قوله - تعالى - : ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ وممن قال بهذا القول:

القرطبيّ (ت 671هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ " لعلّ " متصلة بـ ﴿ أَعْبُدُوا ﴾

لا بـ ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ " (1). وهذا قول المهذويّ (2).

وأبو حيّان (ت 745هـ) في تفسيره بقوله: " وهي متعلقة (3) بقوله: ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾،

فكأنّه قال: إذا عبدتم ربكم رجوتم التقوى، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار، والفوز بالجنة " (4).

بل إنّ رجح ذلك بقوله: " والذي يظهر ترجيحه أن يكون: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ أَعْبُدُوا

رَبَّكُمْ ﴾، فالذي نُودوا لأجله هو الأمر بالعبادة، فناسب أن يتعلّق بها ذلك " (5).

والسمين الحليّ (ت 756هـ) في تفسيره بقوله: " وهذه الجملة (6) على كلّ قول متعلقة من

جهة المعنى بـ ﴿ أَعْبُدُوا ﴾، أي: اعبدوا على رجائكم التقوى، أو لتتقوا، أو متعرضين للتقوى، وإليه

¹ الجامع لأحكام القرآن 227/1.

² انظر: البحر المحيط 156/1، والدر المصون 189/1 - 190.

³ يعني لعلّ.

⁴ البحر المحيط 155/1.

⁵ المرجع السابق 156/1.

⁶ يعني لعلكم تتقون.

مال المهدي وأبو البقاء " (1). وهذا الذي رجّحه، ومال إليه بقوله: " والذي يظهر به صحّته أن يكون ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿أَعْبُدُوا﴾، فالذي نودوا لأجله هو الأمر بالعبادة فناسب أن يتعلّق بها ذلك (2).

وابن عاشور (ت1393هـ) في تفسيره بقوله: " وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تعليل للأمر بـ ﴿أَعْبُدُوا﴾ فلذلك فصلت، أي أمرتكم بعبادته لرجاءٍ منكم أن تتقوا " (3).

وأبو زهرة (ت1394هـ) (4) في تفسيره بقوله: " وقوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متّصل بقوله - تعالى - : ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي اعبدوا رجاءً أن تتقوا بأن تقوا أنفسكم شرّ عذابه، وتكونوا في أمنٍ من عقابه " (5). وقد رجّح ذلك بقوله: " وعندي أنّ الاتصال بين رجاء التقوى، والأمر بالعبادة أظهر، و أوضح، ولا إشكال فيه " (6).

القول الثاني: قالوا: إنّ متعلّق (لعلّ) في قول الله - تعالى - : ﴿خَلَقَكُمْ﴾. وممّن قال بذلك:

الزمخشري (ت538هـ) في تفسيره بقوله: " ولكنّ (لعلّ) واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة؛ لأنّ الله - عزّ وجلّ - خلق عباده؛ ليتعبّدهم بالتكليف " (7). ثمّ قال: " فإنّ قلت: كما خلق المخاطبين لعلّهم يتقون فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلمّ قصره عليهم دون من قبلهم؟ قلت: لم يقصره عليهم، ولكنّ غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً " (8).

¹ الدر في المصون في علوم الكتاب المكنون 189/1.

² المرجع السابق 190/1.

³ التحرير والتنوير لابن عاشور 328/1.

⁴ هو مُحَمَّد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى وتربى بالجامع الأحمدي وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي (1916 - 1925) وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات، وعلم في المدارس الثانوية سنتين ونصفاً. وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (1933) وعين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة (1935) وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من 40 كتاباً، منها المطبوعات الآتية: (الخطابة) و (تاريخ الجدل في الإسلام) و (أصول الفقه) و (محاضرات في مقارنات الأديان) و (محاضرات في المجتمع الإسلامي) وكانت وفاته بالقاهرة. انظر: الأعلام للزركلي 26-25/6.

⁵ زهرة التفاسير 157/1.

⁶ المرجع السابق 158/1.

⁷ الكشاف 92/1.

⁸ المرجع السابق 92/1 - 93.

وبين أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) في البحر المحيط رأي الزمخشري بقوله: " ولم يذكر الزمخشري غير تعلقها ب ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ " (1).

وابن عطية (ت542هـ) في تفسيره بقوله: " ويتجه تعلقها ب ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ أي لما ولد كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له، ورجا أن يكون متقياً " (2). وأيده ونقل كلامه أبو زيد الثعالبي (ت875هـ) في الجواهر الحسان (3). وابن جزي (ت741هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ يتعلّق ب ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾: أي: خَلَقَكُمْ لِنَتَّقُوهُ" (4)، بل إنّه ضعّف القول بأنّ متعلّق لعلّ ﴿ أَعْبُدُوا ﴾ بقوله: " وقيل: يتعلّق بقوله: ﴿ أَعْبُدُوا ﴾ وهذا ضعيف " (5).

والذي يظهر للباحث بعد طول نظر في المسألة، والاطّلاع على آراء العلماء من النحاة والمفسّرين أنّ متعلّق (لعلّ) هو قوله - تعالى - : ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾؛ وذلك أنّ العبادة ليست التقوى نفسها، " وإنّما هي فعلٌ يَحْصُلُ به التقوى؛ لأنّ الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار بل يوجب الاحتراز، فكأنّه قال: ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ لتحترزوا به عن عقابه " (6).

ولمّا كان الأمر كذلك، أمرهم - سبحانه وتعالى - بالعبادة للحصول على التقوى التي هي سبب الفلاح والنجاح في الدارين، والفوز بالجنة التي أعدّها الله - تعالى - للمتقين، بل إنّ الله - عزّ وجلّ - خَلَقَ النَّفْلَيْنِ لعبادته بقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56]، فكأنّه - تعالى - إنّما خَلَقَ المكلفين؛ لكي يعبدوه، ويطيعوه، لا كما يرى الزمخشري لكي يتقوه، ويطيعوه؛ لأنّ التقوى هي نتاج العبادة، وهي غاية العبد لنيل رضا ربّه. فكأن الأمر الإلهي

¹ البحر المحيط 1/155.

² المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 1/105.

³ انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 1/196.

⁴ التسهيل لعلوم التنزيل لجزيّ 1/74.

⁵ المرجع السابق 1/74.

⁶ الرّازي، فخر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر (ت 606هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3

جاء بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكانت لعلّ متعلقة بقوله - تعالى - : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، لا كما يرى ابن بدران ومن قال بهذا القول من النحاة، والمفسرين من قبله: "خلقهم لأجل التقوى" بمعنى أنّ (لعلّ) متعلقة بـ ﴿حَلَقَكُمْ﴾. فذكرُ الله - عزَّ وجلَّ - الخلقَ بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21] إنّما هو تذكير للناس على إقرارهم أنّ الذي خلقهم والذين من قبلهم وخلق السماوات والأرض إنّما هو الله، قال - تعالى - : ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فأراد - سبحانه - أن يُبين لهم أنّ ما يعبدون من دون الله ليسوا بواسطة بينهم وبينه - عزَّ وجلَّ - وما ينبغي أن يكونوا كذلك، فإنَّ الله - تعالى - حكى عنهم أنّهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، فإذا كنتم تُقرُّون بخلق الله لكم ولهم وتؤمنون بربوبيته، فإنَّ هذا ينبغي أن يدفعكم إلى الإقرار بألوهيته - سبحانه - والإيمان به، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تتحصّلون على التقوى؛ لتنالوا جنة المأوى، فقال - تعالى - : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].
وعليه فإنَّ (لعلّ) جاءت بمعنى التعليل، وهي متعلقة بـ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾

المسألة السادسة:

أثر الخلاف في عود الضمير في قوله - تعالى - ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾

[البقرة: 23] على إعجاز القرآن والتّحدي به.

قال المؤلف - رحمه الله - : " ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾، متعلق (بسورة) صفة لها، والنقدير: فَأَتُوا

بسورة كائنة من مثل ما نزلنا على عبدنا".⁽¹⁾

يرى ابن بدران أنّ متعلق قوله - - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم. ولم

يجوّز - رحمه الله - أن يعود الضمير إلى غير ذلك، بل إنّه خطأً من جوّز ذلك بقوله: "وجوّز

صاحب الكشاف، أن يكون ضمير ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ عائداً على "عبدنا" وفيما جوّزه غلط من وجوه".⁽²⁾

وقد اختلف علماء النّحو في عود الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ على ثلاثة

أقوال، ذكّر الزّجاج (ت311هـ)⁽³⁾ اثنين بقوله: "وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾

للعلماء فيه قولان: أحدهما: قال بعضهم: ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾: من مثل القرآن كما قال - عزّ وجلّ - :

﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ﴾ [هود: 13] وقال بعضهم: ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ من بشر مثله"⁽⁴⁾ وجوّز

صاحب التّبيان قولاً ثالثاً بقوله: "ويجوز أن يعود على الأنداد"⁽⁵⁾.

¹ جواهر الأفكار ص115

² انظر: المرجع السابق ص115-117

³ هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن السرى بن سهل الزّجاج النّحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنّف كتاباً في (معاني القرآن) وله كتاب (الأمال)، وكتاب (ما فسّر من جامع المنطق)، وكتاب (الاشتقاق)، وكتاب (العروض)، وكتاب (القوافي) وكتاب (الفرق)، وكتاب (خلق الإنسان)، وكتاب (خلق الفرس)، وكتاب (مختصر في النّحو)، وكتاب (فعلت وأفعلت)، وكتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف)، وكتاب (شرح أبيات سيبويه)، وكتاب (النوادر)، وكتاب (الأنواء)، وغير ذلك. وأخذ الأدب عن المبرد وثلعب، رحمهما الله - تعالى - توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر وقليل: سنة إحدى عشرة، وقليل: سنة ست عشرة - وثلاثمئة، ببغداد، رحمة الله - تعالى - وقد أناف على ثمانين سنة. وإليه ينسب أبو القاسم عبد الرحمن الزّجاجي صاحب كتاب "الجمل في النّحو"، لأنّه كان تلميذه - رحمه الله - وعنه أخذ أبو علي الفارسي أيضاً. انظر: وفيات الأعيان 49/1-50.

⁴ معاني القرآن للزّجاج 100/1

⁵ التّبيان في إعراب القرآن 40/1

أَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: وهو أن الضمير في قوله - تعالى - ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود على القرآن فقد رجَّحه ثلَّةٌ من علماء النُّحو واللُّغة، ومن أشهرهم:

الفراء (ت 207 هـ) في معاني القرآن بقوله: " وقوله: فأتوا بسورة من مثله، الهاء: كناية عن القرآن فأتوا بسورة من مثل القرآن"⁽¹⁾

ومكِّي (ت 437 هـ) في مُشكِلِ إعراب القرآن بقوله: "والهاء في قوله: "من مثله" تعود على القرآن"⁽²⁾

بينما جوِّز بعضهم القول بالقرآن ومن أشهرهم:

الزجاج (ت 311 هـ) بقوله: " وقوله: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ من مثل القرآن كما قال - عز وجل - : ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ﴾ [هود: 13] "⁽³⁾.

والعكبري (ت 616 هـ) بقوله: " ويجوز أن تعودَ على القرآن فتكون ﴿ مِّن ﴾ زائدة "⁽⁴⁾.

والباقولي (ت نحو 543 هـ) بقوله: " وقيل: تعود الهاء إلى قوله " ما "، أي: فأتوا بسورة من

مثله، ما نزلنا على عبدنا - فيكون (من) زيادة - على قول أبي الحسن - دليله قوله: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾"⁽⁵⁾، ثم قال بعد أن ذكر الأوجه الثلاثة: " والمعنى يقتضي الأوجه الثلاثة "⁽⁶⁾.

والأنباري (ت 577 هـ) بقوله: " الهاء في ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ فيها وجهان ... والثاني: أن تكون عائدة

على "ما نزلنا" وهو القرآن، فتكون من زائدة وهو قول أبي الحسن الأخفش، وتقديره فأتوا بسورة مثله، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: 38]"⁽⁷⁾.

¹ معاني القرآن للفراء 19/1

² مشكل إعراب القرآن لمكِّي 83/1

³ معاني القرآن وإعرابه للزجاج 100/1

⁴ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 40/1

⁵ الباقلوي، أبو الحسن نور الدين علي بن الحسين بن علي (ت نحو 543 هـ)، إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، ودار الكتب اللبنانية - بيروت - القاهرة / بيروت، ط 4 1420 هـ، ج 1، ص 552.

⁶ المرجع السابق 552/2

⁷ أبو البركات الأنباري، عيد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله الأنصاري (ت 577 هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق د. طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1400 هـ، ج 1، ص 64.

ودرويش (ت 1403هـ) بقوله: ﴿مِنْ مِّثْلِهِ﴾ متعلقان بحسب عودة الضمير؛ فهو: إمّا أن يعود على القرآن فهما متعلقان بمحذوف صفة لسورة، وإما أن يعود على عبدنا⁽¹⁾.
وأما القول الثاني: وهو أن الضمير بقوله - تعالى -: ﴿مِنْ مِّثْلِهِ﴾ يعود على مُحَمَّد -صلى الله عليه وسلم-. وممن رجّح هذا القول:

ابن سيده (ت 458هـ)⁽²⁾ بقوله: " ف (من) متعلقة بقوله: فأثوا من مثل الرسول بسورة، ومعنى (من) على هذا الوجه: ابتداء الغاية، ويجوز أن تكون في موضع الصفة فتتعلق بمحذوف، وهي أيضاً لابتداء الغاية، أي بسورة كائنة من رجل مثل الرسول، أي ابتداء كينونتها من مثله " ⁽³⁾.
والعكبري (ت 616هـ) بقوله: " (من مثله): الهاء تعود على النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيكون من للابتداء"⁽⁴⁾.

والباقولي (ت نحو 543هـ) بقوله: " وقرب اللفظ يقتضي عَوْدَه إلى "عبدنا " " ⁽⁵⁾.
بينما جَوّز بعضهم هذا القول ومنهم:

الزجاج (ت 311هـ) بقوله: " وقال بعضهم (من مثله) من بشر مثله "⁽⁶⁾.
والأنباري (ت 577هـ) بقوله: " الهاء في " مثله " فيها وجهان:
أحدهما: أن تكون عائدة على " عبدنا " وتكون (من) لابتداء الغاية: أي، ابتدئوا في الإتيان بالسورة من مثل مُحَمَّد "⁽⁷⁾.

ودرويش (ت 1403هـ) بقوله: " وإما أن يعود على عبدنا " ⁽⁸⁾.

¹ إعراب القرآن وبيانه لدرويش 56/1-57

² هو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسى؛ كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما وقد جمع في ذلك جموعاً، من ذلك كتاب " المحكم " في اللغة، وهو كتاب كبير جامع مشتمل على أنواع اللغة، وله كتاب " المخصّص " في اللغة أيضاً وهو كبير، وكتاب " الأنبيق " في شرح الحماسة في ست مجلدات، وغير ذلك من المصنفات النافعة. وكان ضريراً، وأبوه ضريراً، وكان أبوه أيضاً قيماً بعلم اللغة، وعليه اشتغل ولده في أول أمره، ثم على أبي العلاء صاعد البغدادي، وقرأ أيضاً على أبي عمر الطلمنكي، وكان له في الشعر حظ وتصرف. وتوفي عشية يوم الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وأربعمئة، وعمره ستون سنة أو نحوها. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 3/330.

³ إعراب القرآن لابن سيده 89/1

⁴ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 40/1

⁵ إعراب القرآن للباقولي 552/2

⁶ معاني القرآن وإعراجه للزجاج 100/1

⁷ البيان في غريب إعراب القرآن 64/1

⁸ إعراب القرآن وبيانه لدرويش 57/1

أما القول الثالث: وهو أنّ الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود على الأنداد.

فقد جوزه بعض العلماء من مثل:

العُكبري (ت 616هـ) بقوله: " ويجوز أن تعود على الأنداد " (1) .

والباقولي (ت نحو 543هـ) بقوله: " وقيل: الهاء تعود إلى الأنداد " (2) ثم قال: " والمعنى

يقتضي الأوجه الثلاثة " (3) .

ولم يقتصر الاختلاف على عود الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ على علماء

النحو فحسب؛ بل تعداه إلى علماء التفسير حيث تباينت آراؤهم في ذلك؛ ممّا أدّى إلى اختلافهم في توجيه معنى الآية الكريمة.

وقد اختلف علماء التفسير في عود الضمير إلى أقوال عدّة منها:

القول الأول: قالوا إنّ الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم.

وقال بذلك عمر وابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهم - والحسن البصري (4)، ومجاهد،

وقتادة (5)، والفراء، ومقاتل (6)، وجمهور العلماء (7) - رحمهم الله تعالى - .

وقد رجّح ذلك أكثر المفسرين المتقدمين، والمتأخرين ومن أشهرهم:

مقاتل (ت 150هـ) بقوله: "فأتوا بسورة من الله مثله يعني مثل هذا القرآن" (8) .

¹ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 40/1

² إعراب القرآن للباقولي 552/2

³ المرجع السابق 552/2

⁴ انظر: مفاتيح الغيب 349/2، واللباب في علوم الكتاب 435/1، وعزائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 193/1، وتفسير القرآن للسمعاني 59/1

⁵ انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 373-374، وزاد المسير في علم التفسير 44/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 232/1، وفتح القدير للشوكاني 63-64، والنكت والعيون للماوردي 84/1

⁶ انظر: زاد المسير في علم التفسير 44/1،

⁷ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1

⁸ تفسير مقاتل بن سليمان 93/1

وعبد الرزاق (ت 211هـ) بقوله: " حدثنا معمر، عن قتادة، في قوله - تعالى - : ﴿ فَأَتُوا

بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: 23]، قال: يقول: " بسورة مثل هذا القرآن، حقاً لا باطل فيه، ولا كذب " (1).

والطبري (ت 310هـ) بقوله: " فمعنى قول مجاهد وقاتدة اللذين ذكرنا عنهما: أن الله - جلّ

ذكره - قال لمن حاجّه في نبيه مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الكفّار: فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب، كما أتى به مُحَمَّد بلغاتكم، ومعاني منطقتكم " (2).

ثمّ قال - بعد أن ذكر التأويلات الأخرى -: " والتأويل الأول، الذي قاله مجاهد، وقاتدة، هو

التأويل الصحيح " (3).

ورجّح هذا القول السمرقندي (ت 373هـ) في تفسيره (4)، وابن أبي زمنين (ت 399هـ) في

تفسيره (5)، والثعلبي (ت 427هـ) في تفسيره (6)، والواحي (ت 468هـ) في تفسيره (7)، والبغوي

(ت 516هـ) في تفسيره (8)، والغزوي (ت بعد 533هـ) في تفسيره (9)، والزمخشري (ت 538هـ) في

الكشاف (10)، وابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره (11)، والنيسابوري (ت نحو 550هـ) في تفسيره (12)،

والرازي (ت 606هـ) في تفسيره (13)، والقرطبي (ت 671هـ) (14)، والبيضاوي (ت 685هـ) (15)، والخازن

¹ الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني (ت 211هـ)، تفسير عبد الرزاق، دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1419هـ، ج 1، ص 260هـ.

² جامع البيان للطبري 374/1.

³ المرجع السابق 374/1.

⁴ انظر: بحر العلوم للسمرقندي 102/1.

⁵ انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين 127/1.

⁶ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 168/1.

⁷ انظر: التفسير البسيط للواحي 238/2-239، والتفسير الوسيط 102/1.

⁸ انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 92/1-93.

⁹ انظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للغزوي 45/1.

¹⁰ انظر: الكشاف 98/1-99.

¹¹ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1-107.

¹² انظر: غرائب القرآن وَرَغَائِبُ الْفُرْقَانِ لِلنَّيْسَابُورِيِّ 193/1.

¹³ انظر: مفاتيح الغيب 349/2.

¹⁴ انظر: الجامع لأحكام القرآن 232/1.

¹⁵ انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 57/1.

(ت 741هـ) في تفسيره⁽¹⁾، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط⁽²⁾، والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدر المصون⁽³⁾، وابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره⁽⁴⁾، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، وأبو السعود (ت 982هـ) في تفسيره⁽⁶⁾، وأبو الفداء (ت 1127هـ) في روح البيان⁽⁷⁾، والشوكاني (ت 1250هـ) في تفسيره⁽⁸⁾، والقاسمي (ت 1332هـ) في تفسيره⁽⁹⁾، وأبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير⁽¹⁰⁾، والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره⁽¹¹⁾.

القول الثاني: قالوا إِنَّ الضمير في قوله - تعالى - : ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ يعود إلى مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وقد رجّح هذا القول بعض المفسرين ومن أشهرهم:

أبو جعفر الطحاوي (ت 321هـ) كما بيّن ذلك السمرقندي (ت 373هـ) في تفسيره بقوله: " وكان الفقيه أبو جعفر⁽¹²⁾ - رحمه الله - يقول: (الهاء) إشارة إلى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكأنه قال: فأتوا بسورة من مثل مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنّه لم يكن قرأ الكتب، ولا درس، فأتوا بسورة من رجل لم يقرأ الكتب، كما جاء به مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " ⁽¹³⁾.

¹ انظر: الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيجي (ت 741هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1415 هـ، ج 1، ص 31.

² انظر: البحر المحيط في التفسير 169/1.

³ انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1

⁴ انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1

⁵ انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1

⁶ انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 64/1

⁷ انظر: روح البيان 79/1

⁸ انظر: فتح القدير للشوكاني، 64-63/1

⁹ انظر: محاسن التأويل للقاسمي 268/1

¹⁰ انظر: زهرة التفاسير 165/1

¹¹ انظر: الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ)، تفسير الشعراوي - خواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997، ج 1، ص 167.

¹² هو أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر. ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقّه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفياً. ورحل إلى الشام سنة 268هـ فاتصل بأحمد بن طولون، فكان من خاصته، وتوفي بالقاهرة. وهو ابن أخت المزني. من تصانيفه (شرح معاني الآثار) في الحديث، و (بيان السنّة - ط) رسالة، وكتاب (الشفعة - ط) و (المحاضر والسجلات) و (مشكل الآثار - ط)، في الحديث، و (أحكام القرآن) و (المختصر) في الفقه، وشرحه كثيرون، و (الاختلاف بين الفقهاء) وهو كبير لم ينمّه، و (تاريخ) كبير منه مجلدات مخطوطة في اسطنبول، باسم (مغاني الأخبار) في أسماء الرجال ومعاني الآثار) و (مناقب أبي حنيفة). انظر: الأعلام للزركلي 206/1، ووفيات الأعيان لابن خلكان 71-72.

¹³ بحر العلوم للسمرقندي 102/1.

وَمُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا (ت 1354هـ) بقوله: " وقوله - تعالى -: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ فيه وجهان: (أحدهما) أَنَّ الضمير في (مثله) للقرآن المعبر عنه بقوله: (مما نزلنا)، (والثاني) أَنَّهُ لعبدنا، قال شيخنا⁽¹⁾: وهو أرجح، بدليل " من " الداخلة على " مثله " الدالة على النشوء، أي فإن كان أحد ممن يُماثل الرسول بالأمية يَفِدِر على الإتيان بسورة فليَفْعَل " (2)

وهناك من العلماء من جَوَز القولين، القرآن ومُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومنهم:

الماوردي (ت 450هـ) في تفسيره بقوله: " فأتوا بسورة من مثله " فيه تأويلان: أحدهما: يعني من مثله من القرآن، وهذا قول مجاهد وقتادة، والثاني: فأتوا بسورة من مثل مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من البشر؛ لأنَّ مُحَمَّدًا بشر مثلهم " (3).

والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) بقوله: " من مثله " قيل: من مثل القرآن، وقيل: من مثل النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - من البشر تنبيهاً أَنَّ مثله ليس في طُرُق البشر، و ﴿مِن﴾ على الوجه الأول: للتبعض، وعلى الثاني: للابتداء " (4).

والطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) بقوله: " والضمير في قوله: من مثله يجوز أن يعود إلى (ما نزلنا) أي من مثل القرآن، ويجوز أن يعود إلى عبدنا " (5).

وابن عثيمين (ت 1421هـ) بقوله: " ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يحتتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمعنى: مِنْ مِثْلِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ويحتتمل أن يكون عائداً إلى القرآن المنزل؛ والمعنى: مِنْ مِثْلِ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا، أَي مَنْ جِنْسِهِ؛ وكلاهما صحيح " (6).

¹ يعني به مُحَمَّدٌ عبده.

² تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) 160/1.

³ النكت والعيون 84/1.

⁴ تفسير الراغب الأصفهاني 117/1.

⁵ التحرير والتنوير لابن عاشور 338/1.

⁶ تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة 82/1.

وَمِنَ الْمَفْسَّرِينَ مَنْ رَجَّحَ الْقَوْلَ بِالْقُرْآنِ وَلَكِنَّهُ جَوَّزَ الْقَوْلَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَمِنْهُمْ:

الزمخشري (ت538هـ) بقوله: "والضمير لما نزلنا، أو لعبدنا، ويجوز أن يتعلّق بقوله: (فَأْتُوا)
والضمير للعبد، فإن قُلْتُ: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قُلْتُ: معناه فَأْتُوا بسورة مِمَّا هو
على صفته في البيان الغريب، وعلوّ الطبقة في حُسْنِ النَّظْمِ، أو فَأْتُوا مِمَّنْ هو على حاله مِنْ كونه
بشراً عربياً، أو أُمِّيًّا لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء" (1). ولكنّه رجّح القول بالقرآن بقوله: " وردّ
الضمير إلى المُنزَلِ أَوْجَه، لقوله - تعالى - : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ مِثْلِهِ ﴾ ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ
مِّثْلِهِ ﴾ [هود: 13]، ﴿ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: 88]،
ولأنّ القرآن جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على أصحّ الأساليب، والكلام مع ردّ الضمير إلى المُنزَلِ
أَحْسَنُ تَرْتِيباً " (2).

والواحدي (ت468هـ) بقوله: " ويجوز أن تعود الكناية في مثله إلى قوله: على عبدا وهو
النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - والمعنى: فَأْتُوا بسورة من رجل أُمِّيٍّ لا يُحَسِّنُ الخَطَّ والكَتَابَةَ، ولم
يدرس الكتب" (3).

وشهاب الدين الخفاجي (ت1069هـ) بقوله: " فيجوز أن يكون قوله مِنْ مِثْلِ هَذَا الْعَبْدِ توسيعاً
للدائرة، كأنّه قيل لِيَأْتِ واحدٌ مِنْكُمْ كائناً مَنْ كَانَ بِمِقْدَارِ سُورَةٍ مَا " (4).

القول الثالث: قالوا: إنّ الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ يعود إلى الكتب القديمة:
التوراة، والإنجيل، والزيور. وهذا الرأي انفرد به المفسّرون ولم يرد عند النحويين - حسب اطلاع
الباحث -.

¹ الكشاف 98/1

² المرجع السابق 99/1

³ الوسيط في تفسير القرآن المجيد 102/1

⁴ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكتابة الرازي على تفسير البيضاوي) 38/2.

وقد ذكر هذا القول ابن عطية (ت542هـ) في تفسيره بقوله: "وقالت طائفة: الضمير في مثله عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزيور" (1)، والقرطبي (ت671هـ) في تفسيره بقوله: "وقيل: يعود على التوراة، والإنجيل" (2).

القول الرابع: قالوا: إنَّ الضمير في قوله - تعالى - ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعود إلى الأنداد.

وقال بهذا القول أبو البقاء العكبري (ت616هـ) (3) بقوله: "ويجوز أن تعود على الأنداد بلفظ المفرد؛ كقوله - تعالى - ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمِ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66] (4).

ويرى الباحث بعد تتبع أقوال العلماء وآرائهم، أنَّ القول الراجح في هذه المسألة، هو قول القائلين مِنَ النَّحَاةِ وَالْمَفْسِّرِينَ إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يَعُودُ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ بَدْرَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَرَجَّحَهُ وَدَافَعَ عَنْهُ مِنْ وَجْهِهِ (5). وذلك للاعتبارات الآتية:

¹ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 107/1

² الجامع لأحكام القرآن 232/1، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 435/1

³ هو الشيخ، الإمام، العلامة، النحوي البار، محب الدين، أبو البقاء عبد الله بن الحسين ابن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ثم البغدادي، الأرجي، الضرير، النحوي، الحنبلي، الفرضي، صاحب التصانيف. ولد: سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة. قرأ بالروايات على: علي ابن عساكر البطائحي، والعربية على: ابن الخشاب، وأبي البركات بن نجاح. وتفقه على: القاضي أبي يعلى الصغير مُحَمَّد بن أبي خازم، وأبي حكيم النهرواني، وبرع في الفقه والأصول، وحاز قصب السبق في العربية. وسمع من: أبي الفتح ابن البطي، وأبي زرعة المقدسي، وأبي بكر بن النقور، وجماعة، وتخرج به أئمة. قال ابن النجار: قرأت عليه كثيرا من مصنفاته، وصحبته مدة طويلة، وكان ثقة، متدينا، حسن الأخلاق، متواضعا، ذكر لي أنه أضر في صباه من الجدري. وذكر تصانيفه: صنف (تفسير القرآن)، وكتاب (إعراب القرآن)، وكتاب (إعراب الشواذ)، وكتاب (متمشابه القرآن)، و (عدد الآي)، و (إعراب الحديث)، وله (تعليقة في الخلاف)، و (شرح لهداية أبي الخطاب)، وكتاب (المرام في المذهب)، ومصنف في الفرائض، و (شرح الفصيح)، و (شرح الحماسة)، و (شرح المقامات)، و (شرح الخطب)، توفي العلامة أبو البقاء: في ثامن ربيع الآخر، سنة ست عشرة وست مئة، وكان ذا حظ من دين وتعبد وأوراد. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي 91-93/22، ووفيات الأعيان لابن خلكان 100/3-102.

⁴ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 540/1، وانظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1

⁵ انظر: جواهر الأفكار ص115-117

1. أن هذا القول هو قول أعلم الناس بكتاب الله - عز وجل - وأعرفهم بمراده وهم الصحابة - رضوان الله عليهم - وكبار التابعين (1).

2. أن هذا القول هو قول أكثر المحققين (2)، والمفسرين (3)، وهو قول الجمهور (4).

3. أن الآيات الواردة في باب التحدي كلها تعود إلى القرآن الكريم؛ فكانت هذه الآية مطابقة لآيات

التحدي (5)، من مثل قوله - تعالى -: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: 38]، وقوله - تعالى -:

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ ﴾ [هود: 13]، وقوله - تعالى -: ﴿ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: 88]، ثم لما كان هذا الترتيب الرّبّاني في القرآن الكريم،

وهو جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على أصح الأساليب؛ إذ إنه بدأ بالجزء وانتهى بالكل، فكان

عُود الضمير في هذه الآية إلى القرآن الكريم أحسن ترتيباً، فيكون الترتيب بسورة من مثله، ثم بسورة

مثله، ثم بعشر سور، ثم بمثل هذا القرآن (6).

4. أن سياق الآية إنّما كان في المنزل، لا في المنزل عليه، فكان هذا مدار البحث والتحدي، قال -

تعالى -: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾، لزم من ذلك أن يعود الضمير إلى القرآن

الكريم؛ لأن الله - عز وجل - بين لهم: أنكم إن كنتم على هذه الحال من الريب، والشك في المنزل

فأتوا بشيء مما يماثله.

5. أن الإعجاز كان في المنزل لا في المنزل عليه؛ لأنّ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنّما كان بشراً

منهم فاخصه الله من بينهم؛ ليُلقي عليهم كلاماً من كلامهم امتاز بالكمال، والفصاحة، والبلاغة،

والبيان، ولما كانوا أهل فصاحة، وبيان تحدّاهم الله أن يأتوا بمثل هذا الكلام، وهو القرآن الكريم؛ فكان

واجباً أن يعود الضمير إلى المنزل لا إلى المنزل عليه؛ لأنّ الله - عز وجل - أراد إظهار كمال

¹ انظر: تفسير مقاتل 93/1، وتفسير عبد الرزاق 260/1، وتفسير القرآن للسمعاني 59/1، ومفاتيح الغيب 349/2، وجامع البيان في تأويل القرآن 373-374/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1.

² انظر: مفاتيح الغيب 349/2، وعَرَائِبُ الْقُرْآنِ وَرَغَائِبُ الْفُرْقَانِ لِلنَّبِيسَائِبُرِيِّ 193/1

³ انظر: البحر المحيط 169/1

⁴ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1.

⁵ انظر: مفاتيح الغيب 249/2.

⁶ انظر: الكشاف 99/1

كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا إظهار كمال نبيه - صلى الله عليه وسلم - الذي هو بشر منهم.

6. أن الإعجاز بالإتيان بمثل هذا القرآن إنما كان عامماً للثقلين لقوله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88]، فهم عاجزون عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا، أو انفردوا. وسواء أكانوا أميين، أم عالمين بشتى أصناف العلوم، وهذا هو الملائم لختمه - تعالى - الآية بقوله: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إذ لو كان المراد أن يأتي أمي على الصفة التي عليها هذا الأمي بمثل ما أتى به لم يحتج أن يستظهر بالشهداء؛ لذلك فإن الله - تعالى - طلب منهم أن يستعينوا بمن شأوا من خلقه زيادة في التحدي، وإظهاراً للإعجاز في كلامه.

7. أن الإعجاز كان للآميين، والعالمين، والكتابين، والمشركين، فلو صرفنا الضمير إلى المنزل عليه كونه أمياً لكان الإتيان من غير الأمي ممكناً، وهذا محال في الإتيان بمثل كلام الله، فكان عود الضمير إلى القرآن أظهر.

8. أن الضمير إنما يعود إلى أقرب مذكور إلا إن جاءت قرينة أو دلّ السياق على غير ذلك، ولما كانت القرينة وهي قوله - تعالى -: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ والسورة بعض من القرآن تدلّ على المذكور الأبعد وهو القرآن فإن الضمير يعود إلى ما دلّت عليه القرينة.

9. أن القول بأن الضمير عائد إلى الأنداد قول ضعيف قاله أبو البقاء العكبري (ت 616هـ) ⁽¹⁾ وردّ عليه السمين الحلبي (ت 756هـ) في تفسيره بقوله: " قال أبو البقاء: «إنها تعود على الأنداد بلفظ المفرد كقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [النحل: 66] قلت: ولا حاجة تدعو إلى ذلك، والمعنى ياباه أيضاً" ⁽²⁾.

وخلاصة القول:

إن الضمير في قوله - تعالى -: ﴿ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، مُظهراً - سبحانه - إعجاز كلامه، ومُتحدياً لهم أن يأتوا بمثله. ولم ولن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

¹ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 40/1، وانظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1.

² الدر المصون 200/1، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 435/1.

المسألة السابعة:

أثر الاستثناء المنقطع في تحديد أصل إبليس في قوله - تعالى - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: 34].

قال المصنّف - رحمه الله تعالى - : " ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي " إِبْلِيسَ " هَلْ هُوَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَمْ مِنَ الْجِنِّ؟ فَذَهَبَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَلَا سِيَّمَا الْمُعْتَزِلَةَ، وَمِنْهُمْ صَاحِبُ الْكَشَافِ، إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلِكُلِّ أَدَلَّةٍ⁽¹⁾

ويعودُ هذا الاختلاف الذي أشار إليه ابن بدران إلى معرفة الاستثناء هل هو منقطع أم مُتَّصِلٌ؟ فمن قال: إنَّ إبليسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَدَّ الاستثناءَ مُتَّصِلاً؛ أي أنَّ المُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَمَنْ قَالَ: إنَّ إبليسَ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَدَّ الاستثناءَ مُنْقَطِعاً؛ أي أنَّ المُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسٍ مُنْقَطِعٍ مِنْهُ. وَكُلُّ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ وَرَدَ الاستثناءُ الْمُنْقَطِعُ، وَالْمُتَّصِلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ.

وللوقوف على المعنى المراد مِنَ الآيَةِ، وَإِزَالَةَ الْإِشْكَالِ، وَالِإِبْهَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، لَا بُدَّ مِنَ الْإِلْتِقَاتِ إِلَى الاستثناءِ، وَبَيَانِ تَعْرِيفِهِ، وَأَقْسَامِهِ.

فالاستثناء هو: إخراج ما بعد " إلا "، أو إحدى أخواتها من أدوات الاستثناء، من حكم ما قبله، نحو " جاء التلاميذ إلا علياً ". والمُخْرَجُ يُسَمَّى " مُسْتَثْنَى "، وَالْمُخْرَجُ مِنْهُ " مُسْتَثْنَى مِنْهُ "⁽²⁾. وهو قسمان: مُتَّصِلٌ، وَمُنْقَطِعٌ.

فالمُتَّصِلُ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ، نَحْوُ " جَاءَ الْمَسَافِرُونَ إِلَّا سَعِيداً ".

¹ جواهر الأفكار ص 170.

² الغلابيني، مصطفى بن مُحَمَّدٍ سليم (ت 1364هـ)، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط 28 1414هـ، ج 3، ص 127، وانظر: القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت 684هـ)، الفروق (أنوار البروق في أنواع الفروق)، الناشر عالم الكتب، (د. ت)، ج 3، ص 86، وابن الصانع، مُحَمَّدٌ بن حسن بن سباع (ت 720هـ)، اللّمْحَة فِي شَرْحِ الْمَلْحَة، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة - المملكة العربية السعودية، ط 1 1424هـ، ج 1، ص 66، واليعقوب، عبد الله ابن يوسف بن عيسى، المنهاجُ الْمُخْتَصَرُ فِي عِلْمِي النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، مَوْسَسَة الرِّيَّانِ، بيروت - لبنان، ط 3 1428هـ، ص 109.

والمنقطع ما ليس من جنس ما استثنى منه، نحو " احترقت الدار إلا الكتب" (1). وأنه منصوب
أبدأ، والرفع فيه شاذٌ حكاه أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) (2) (3)، ولكن جناح بن حبيش قرأ " إلا
إبليس" بالرفع، وقيل هذه قراءة الكوفيين، وتكون إلا بمعنى الواو أو لكن (4). قال أبو جعفر النَّحَّاس
(ت338هـ): " فسجدوا إلا إبليس نُصِبَ على الاستثناء؛ لا يجوز غيره عند البصريين؛ لأنَّه موجب،
وأجاز الكوفيون الرفع" (5).

وقال الأنباريُّ (ت 577هـ): " ذهب الكوفيون إلى أنّ " إلا " تكون بمعنى الواو، وذهب
البصريون إلى أنّها لا تكون بمعنى الواو" (6). وبناءً على قراءة الكوفيين بالرفع؛ فإنَّ تأويل الآية يكون
فسجدوا - أي الملائكة - وإبليس أبي، واستكبر فتخرج أداة الاستثناء عن عملها، وتبقى القاعدة على
أصلها في أنّ الاستثناء المنقطع منصوبٌ أبدأ، ولعلَّ هذا ما دفع أبا عمرو بن العلاء إلى القول
بشذوذ قراءة الرفع. وكذا القول فيمن عدّها بمعنى غير، أو لكن.

¹ جامع الدروس العربية للغلابيني 127/3، وانظر: حاشية الصبَّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك 2 / 209، واللُّمحة في شرح
اللُّمحة لابن الصائغ 457/1 - 459، والمنهاجُ المُختَصَر في علمي النَّحو والصَّرْف ص110، وابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان
ابن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، أمالي ابن الحاجب، تحقيق د. فخر صالح سليمان قرارة، دار عمار - الأردن، دار الجيل - بيروت،
ط1 1409هـ، ج2، ص708.

² هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري. ورأيت بخطي في مسوداتي: هو أبو
عمرو بن العلاء بن عمار ابن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويقال: جلهم بن
حجر بن خزاعي، واسمه العريان؛ أحد القراء السبعة، كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النَّحو في الطبقة الرابعة من
علي بن أبي طالب - رضي الله عنه-. قال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: لقد علمت من النَّحو ما لم يعلمه الأعمش وما لو كتبتُ
لما استطاع أن يحمله. وقال أيضاً: سألت أبا عمرو عن ألف مسألة، فأجابني فيها بألف حجة. وكان أبو عمرو رأساً في حياة الحسن
البصري مقدما في عصره. وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وكانت كتبه التي كتب عن العرب
الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرأ - أي تتسك - فأخرجها كلها، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما
حفظه بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية. قال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فلم أسمع
يحتج ببيت إسلامي. انظر: وفيات الأعيان 466/3، وسير أعلام النبلاء 407/6-409.

³ الهَرَمِي، عمر بن عيسى بن إسماعيل (ت 702هـ)، المحرَّر في النَّحو، تحقيق أ.د. منصور علي مُحَمَّد عبد السميع، دار السلام، مصر -
القاهرة - الإسكندرية، ط2 1429هـ، ج2، ص895.

⁴ الخطيب، عبد اللطيف مُحَمَّد، معجم القراءات، دار سعد الدين، مصر - القاهرة، ط2 1430هـ، ج1، ص80.

⁵ إعراب القرآن للنَّحَّاس 45/1

⁶ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحويين: البصريين والكوفيين 216/1.

وقد اختلف العلماء في كون إبليس من الملائكة حتى استثنى منهم أم لا ؟ على قولين:

القول الأول: ذهب الجمهور إلى أنه كان من الملائكة، وجعل الاستثناء ها هنا متصلاً، أي

من جنس المستثنى منه وهم الملائكة وقال بذلك:

ابن قتيبة (ت 276هـ) في غريب القرآن بقوله: " وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿ فَسَجَدُوا ﴾

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50]؛ أي من الملائكة " (1). بمعنى أنه متَّصلٌ من جنس المستثنى.

والطبري (ت 310هـ) في تفسيره (2)، والثعلبي (ت 427هـ) في تفسيره (3)، والواحدي (ت 468هـ) (4)

في تفسيره (5)، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: "والأول أصحّ - يعني قول ابن عباس وأكثر المفسرين: كان إبليس من الملائكة -؛ لأنّ خطاب السجود كان مع الملائكة" (6)، وابن عطية (ت

542هـ) في تفسيره بقوله: " وقوله - تعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نُصِبَ عَلَى الاستثناء المتَّصل؛ لأنّه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية " (7)، والقرطبي (ت 671هـ) في تفسيره بقوله:

" قوله ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نُصِبَ عَلَى الاستثناء المتَّصل؛ لأنّه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المسيّب، وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن،

¹ ابن قتيبة، أبو مُحمَّد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ)، غريب القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ، ج1، ص21.

² انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 501/1-508.

³ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 181/1.

⁴ هو أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحمَّد بن علي بن متويه الواحدي المتوي صاحب التفاسير المشهورة؛ كان أستاذ عصره في النُّحو والتفسير، ورزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها وذكرها المدرسون في دروسهم، منها (البيسط) في تفسير القرآن الكريم، وكذلك (الوسيط) وكذلك (الوجيز)، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب (أسباب النزول) و (التحبير في شرح أسماء الله تعالى الحسنى) وشرح ديوان أبي الطيب المتنبّي شرحاً مستوفى، وليس في شروحه مع كثرتها مثله وكان الواحدي المذكور تلميذ الثعلبي صاحب التفسير - المقدم ذكره في حرف الهمزة - وعنه أخذ علم التفسير وأرى عليه، وتوفي عن مرض طويل في جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، رحمه الله تعالى. انظر: وفيات الأعيان 303/3-304، وسير أعلام النبلاء 339/18-342.

⁵ انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد 120/1.

⁶ انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 104/1.

⁷ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 124/1.

ورجَّحه الطبري، وهو ظاهر الآية ⁽¹⁾، والنسفي (ت 710هـ) ⁽²⁾ بقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنَّه كان من الملائكة، كذا قاله علي، وابن عباس، وابن مسعود - رضي الله عنهم - ولأنَّ الأصل أنَّ الاستثناء يكون من جنس المستثنى منه ⁽³⁾، والخازن (ت 741 هـ) في تفسيره ⁽⁴⁾، وأبو حيَّان (ت 745هـ) في تفسيره بقوله: "والظاهر أنَّه استثناء متصل لتوجُّه الأمر على الملائكة، فلو لم يكن منهم لما توجَّه الأمر عليه، فلم يقع عليه ذمُّ لتركه فعل ما لم يؤمر به" ⁽⁵⁾، وابن عادل (ت 775هـ) في تفسيره بقوله: "وهل هو استثناء متصل أو منقطع؟ خلاف مشهور، والأصحُّ أنَّه متصل" ⁽⁶⁾، والسُّنكي (ت 926هـ) بقوله: "وثانيهما وهو المختار أنَّه من الملائكة" ⁽⁷⁾، والشَّربيني (ت 977هـ) بقوله: "وأنَّ إبليس كان من الملائكة، وإلا لم يتناوله أمرهم، ولم يصحَّ استثناءه منهم" ⁽⁸⁾، والألوسي (ت 1270هـ) في تفسيره ⁽⁹⁾، ومُحمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره ⁽¹⁰⁾، وصاحب الدرِّ المصون في تفسيره بقوله: "قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [إلا] حرف استثناء، و"إبليس" نصب على الاستثناء. وهل نصبه بإلا وحدها، أو بالفعل وحده، أو به بوساطة إلا، أو بفعل محذوف أو ب"أنَّ"؟ أقوال، وهل الاستثناء متصل، أو منقطع؟ خلاف مشهور، والأصحُّ أنَّه متصل" ⁽¹¹⁾.

¹ الجامع لأحكام القرآن 294/1.

² هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسفي، أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسِّر، من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبتَه إلى "نسف" ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند. له مصنفات جليلة، منها (مدارك التنزيل)، في تفسير القرآن، و (كنز الدقائق - ط) في الفقه، و (المنار - ط) في أصول الفقه و (كشف الأسرار - ط) شرح المنار، و (الوافي) في الفروع، و (الكافي) في شرح الوافي، و (المصفي) في شرح منظومة أبي حفص النسفي، في الخلاف، و (عمدة العقائد). انظر: الأعلام للزركلي 67/4-68.

³ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 80/1.

⁴ لباب التأويل في معاني التنزيل 37/1.

⁵ البحر المحيط 248/1.

⁶ اللباب في علوم الكتاب 539/1.

⁷ السنكي، زين الدين أبو يحيى زكريا بن مُحمَّد بن أحمد بن زكريا (ت 926هـ)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق مُحمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط 1403هـ، ص 343.

⁸ الشربيني، شمس الدين مُحمَّد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ)، السُّراج المُنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ط 1285هـ، ج 1، ص 48.

⁹ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 327/4.

¹⁰ تفسير المنار 221/1.

¹¹ الدرِّ المصون في علوم الكتاب المكنون 273/1.

القول الثاني: فيما ذهب فريق آخر إلى أنه لم يكن من الملائكة، وجعل الاستثناء ها هنا منقطعاً أي من غير جنس المستثنى منه وهم الملائكة، وقال بذلك:

الزجاج (ت 311 هـ) بقوله: " وهذا القول هو الذي نختاره؛ لأن إبليس كان من الجن كما قال -عز وجل- " (1).

وأبو جعفر النحاس (ت 338 هـ) في إعراب القرآن بقوله: " إلا إبليس قال أبو إسحق: استثناء ليس من الأول، يذهب إلى قول من قال: إن إبليس ليس من الملائكة، ولا كان منهم "، وهذا قول صحيح يدل على أن الله - جل وعز - أخبرنا أنه خلق الجن من نار، والملائكة لم تُخلق من نار (2).

والقصاب (ت نحو 360 هـ) (3) في النكت بقوله: " فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وإبليس من الجن لا من الملائكة بقوله في سورة الكهف: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50]، قيل: هو - والله أعلم - مُستثنى من الساجدين؛ لأنهم وإن كانوا ملائكة وإبليس جنياً فكان في جملة المأمورين بالسجود؛ لكني ننته كان معهم حينئذ (4).

والجصاص (ت 370 هـ) (5) في أحكام القرآن بقوله: " قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ

مِنَ الْجِنِّ﴾ فيه بيان أنه ليس من الملائكة؛ لأنه أخبر أنه من الجن، وقال - تعالى -: ﴿وَالْجَانَّ

¹ معاني القرآن وإعرابه للزجاج 1/114.

² إعراب القرآن 2/240، وانظر: معاني القرآن للنحاس 3/14.

³ هو الإمام، العالم، الحافظ، أبو أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكرجي الغازي المجاهد. وعرف بالقصاب لكثرة ما قتل في مغازيه. وكان والده من أصحاب علي بن حرب الطائي. حدث عن: أبيه وصنف كتاب (ثواب الأعمال)، وكتاب (عقاب الأعمال)، وكتاب (السنة)، وكتاب (تأديب الأئمة)، وأشياء. وعاش إلى حدود الستين وثلاثمائة. انظر: سير أعلام النبلاء 16/213.

⁴ القصاب، أبو أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكرجي (ت نحو 360 هـ)، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، تحقيق ج1 علي بن غازي التيجري، ج2 إبراهيم بن منصور الجنيدل، دار القيم - دار ابن عفان، ط1 1424 هـ، ج2، ص43.

⁵ هو أحمد بن علي الزازي، أبو بكر الجصاص: فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها. انتهت إليه رئاسة الحنفية. وخطب في أن يلي القضاء فامتنع. وألف كتاب (أحكام القرآن - ط) وكتاباً في (أصول الفقه - خ) مصور، في معهد المخطوطات بالقاهرة. انظر: الأعلام للزركلي 1/171.

خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿ [الحجر: 72]، فهو جنس غير جنس الملائكة كما أنَّ الإنس جنس غير جنس الجنَّ " (1).

وابن أبي زَمِين (ت 399 هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ منصوب باستثناء ليس مِنَ الْأَوَّلِ، كما قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَأَنَّهُمْ عُدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ [الشعراء: 77] والمعنى: لكنَّ إبليس أبا أن يكون، هذا على مذهب من قال: إنَّ إبليس لم يكن مِنَ الملائكة " (2).

ومَكِّي (ت 437 هـ) في مُشْكِلِ إعراب القرآن بقوله: " قوله ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إبليس نُصِبَ على الاستثناء المنقطع " (3).

والرَّمْخُشْرِيُّ (ت 538 هـ) في الكشاف بقوله: " إِلَّا إبليس استثناء مُتَّصِلٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَنِيًّا وَاحِدًا بَيْنَ الْأَطْفَالِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَغْمُورًا بِهِمْ، فَغَلَبُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: (فَسَجَدُوا) ثُمَّ اسْتَنْتَبَى مِنْهُمْ اسْتِنَاءً وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ مُنْقَطِعًا؛ أَي امْتَنَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْ جِنْسِ كَفَرَةِ الْجَنِّ، وَشَيْاطِينِهِمْ " (4).

وأبو البقاء العُكْبَرِيُّ (ت 616 هـ) في التبيان بقوله: " ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: استثناء منقطع؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ " (5).

¹ الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الزازي (ت 370 هـ)، أحكام القرآن، تحقيق مُحَمَّد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1405 هـ، ج 5، ص 43.

² تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمِين 384/2.

³ مشكل إعراب القرآن لمَكِّي 87/1.

⁴ الكشاف 127/1.

⁵ التبيان في إعراب القرآن للعكبري 51/1.

وابن كثير (ت 774هـ)⁽¹⁾ في تفسيره بقوله: " والغرض أن الله - تعالى - لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عُصْرِهِمْ - إلا أنه كان قد تشبَّه بهم، وتوسَّم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، ودُمَّ في مخالفة الأمر".⁽²⁾

ومحمَّد الطاهر عاشور (ت 1393هـ) في تفسيره بقوله: " واستثناء إبليس من ضمير الملائكة في فسَجَدُوا استثناءً مُنْقَطِعٌ؛ لأنَّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة"⁽³⁾.

وأبو زهرة (ت 1394 هـ) في تفسيره بقوله: " وإذا لم يكن منهم، فإنَّ الاستثناء يكون مُنْقَطِعاً ولكنَّ الخطاب مُوجَّه إليه لصحبته لهم"⁽⁴⁾.

والشعراوي (ت 1418هـ) بقوله: " وهكذا حَسَمَ الحقُّ - سبحانه - الأمرَ بأنَّ إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجنِّ"⁽⁵⁾.

وابن العثيمين (ت 1421هـ) بقوله: " إنَّ إبليس كان مُشاركاً لهم في أعمالهم ظاهراً، فكان توجيه الأمرِ شاملاً له بحسبِ الظاهر، وقد يُقال: إنَّ الاستثناء مُنْقَطِعٌ، والاستثناء المُنْقَطِعُ لا يكون فيه المستثنى من جنسِ المستثنى مِنْهُ"⁽⁶⁾.

¹ هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوَّ بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة 706 هـ ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق. تناقل الناس تصانيفه في حياته. من كتبه (البداية والنهاية) في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثير انتهى فيه إلى حوادث سنة 767 و (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (طبقات الفقهاء الشافعيين)، و (تفسير القرآن الكريم) و (الاجتهاد في طلب الجهاد) و (جامع المسانيد)، و (اختصار علوم الحديث) رسالة في المصطلح شرحها أحمد محمَّد شاكر، بكتاب (الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث - ط) و (اختصار السيرة النبوية) طبع باسم (الفصول في اختصار سيرة الرسول) و (رسالة في الجهاد - ط) و (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) في رجال الحديث. انظر: الأعلام للزركلي 320/1.

² تفسير القرآن العظيم لابن كثير 230/1.

³ التحرير والتنوير لابن عاشور 423/1.

⁴ زهرة التقاسير 197/1.

⁵ تفسير الشعراوي - الخواطر 7696/12.

⁶ تفسير العثيمين 127/1.

والماتريدي (ت 333هـ) في تفسيره⁽¹⁾، والزرکشي (ت 794هـ) في البرهان⁽²⁾، والسيوطي (ت 911هـ) في الإتيان⁽³⁾، ودَامَاد أَفَنَدِي (ت 1078هـ)⁽⁴⁾ في مَجْمَع الْأَنْهَرِ⁽⁵⁾.

وفاضل السامري بقوله: "فإبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن، والجن ليسوا من الملائكة"⁽⁶⁾.

وصلاح الخالدي بقوله: "وإبليس شيطان لأنه أول كافر، وهو من الجن بنص القرآن، قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۗ﴾ [الكهف: 50]، فهو جنّي من حيث النّسب والجنس، وهو شيطان من حيث الوصف"⁽⁷⁾.

فيما يرى ابن بدران - رحمه الله تعالى - ترجيح القول الأول: وهو أنّ الاستثناء متصل بمعنى أنّ المُستثنى منه من جنس المُستثنى، وبناءً على ذلك يكون إبليس من الملائكة، إذ يقول: "وهذا الذي تُدُلُّ عليه الآية؛ لأنه - تعالى - قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 34] فرجح بأنهم همّ المأمورون بالسُّجود، وإذا كان إبليس ليس منهم فلا يكون مأموراً، فكيف يُعاقب على ترك شيء لم يُؤمَر به، وأمّا قوله - تعالى - في سورة [الكهف: 50]: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فلا يُوجِبُ أنّ لا يكون⁽⁸⁾ من الملائكة؛ لأنّ الجنّ مأخوذ من الاجتتان وهو السُّتْرُ"⁽⁹⁾.

¹ انظر: تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) 368/4.

² انظر: البرهان في علوم القرآن للزرکشي 310/3.

³ انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 135/3، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، الإكليل في استنباط التنزيل، تحقيق سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية - بيروت، 1401هـ، ص 171.

⁴ هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن سليمان، المعروف بشيخي زاده ويقال له الدَامَاد: فقيه حنفي، من أهل كليبولي (بتركيا) من قضاة الجيش. له (مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر - ط) مجلدان، فرغ من تأليفه ببلدة أدرنه، و (نظم الفرائد - ط) في مسائل الخلاف بين الماتريديّة والأشعرية. انظر: الأعلام للزركلي 3/332.

⁵ داماد أفندي، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن سليمان (ت 1078هـ)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج 2، ص 693.

⁶ السامري، فاضل صالح، معاني النُّحو، دار الفكر، الأردن - عمان، ط 5 1432هـ، ج 2، ص 215.

⁷ الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، دار القلم، دمشق، ط 1 1428هـ، ص 260.

⁸ هكذا في الأصل، والصواب ألا يكون.

⁹ جواهر الأفكار ص 171.

ومع ذلك فإنه - رحمه الله - يرى أنّ القولين يتفقان في المعنى، ويختلفان في التعبير، بناءً على مَرْوِيَّاتِ ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - التي أخرجها ابن جرير الطَّبْرِيّ في تفسيره (1)، إذ يقول: "ولكن يُمكن أن يرجع القولان إلى الاتفاق في المعنى، والاختلاف في التعبير، فقد أخرج ابن جرير الطَّبْرِيّ في تفسيره، عن ابن عَبَّاسٍ، أنّه قال: كان إبليس مِنْ حَيٍّ مِنْ أحياء الملائكة يُقال لهم: الجنّ، وقال أيضاً: كان إبليس [قبل أن يرتكب المعصية] من الملائكة. والقول الأوّل مَرْوِيٌّ عن كثيرٍ من الصحابة. وقال ابنُ عَبَّاسٍ أيضاً: كان مِنْ أَشْرَفِ الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان يقول: لو لم يكن من الملائكة، لم يُؤمَر بالسجود، انتهى" (2).

ويرى الباحث بعد طول نظر في المسألة، واستقراءها، وتتبعها، وسبر أقوال العلماء فيها أنّ الاستثناء في قوله - تعالى - ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: 34] استثناءً مُنْقَطِعٌ، أي إنّ المستثنى من غير جنس المستثنى منه؛ بمعنى أنّ إبليس من الجنّ وليس من الملائكة، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. أنّ الاستثناء المنقطع مشهورٌ في كلام العرب ووارد في كلامهم، وأشعارهم، وأمّا مَنْ قال: " إنّ الاستثناء لا يكون من غير الجنس هذا هو المشهور في لغة العرب بدلالة أنّه لا يحسن قول القائل: " فتح الخبّازون إلا فلاناً " ويريدون " فلاناً الحدّاد"، ولا يحسن أن يقول: " رأيتُ النَّاسَ إلا حماراً " (3)، فهذا القول عارٍ عن الصحة، وبعيدٌ عن الصواب؛ لأنّ علماء النُّحو قد أثبتوه في كتبهم ونظمهم، فقد أثبتّه سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب بقوله: " ومثله في الانقطاع من أوله: إنّ لفلان والله مالا إلا أنّه شقيّ " (4). وقال - أيضاً - : " هذا بابٌ يُختار فيه النصب "؛ لأنّ الآخر ليس من النوع الأوّل وهو لغة أهل الحجاز، وذلك قولك: ما فيها أحدٌ إلا حماراً " (5).
وقال ابن الحاجب (ت 646هـ) في الكافية: " المستثنى: مُتَّصِلٌ ومُنْقَطِعٌ " (6).

¹ أنظر: جامع البيان 455/1-458.

² جواهر الأفكار ص 170-171.

³ الشبلي، أبو عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 769هـ)، آكام المرجان في أحكام الجنان، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد الجمل، مكتبة القرآن - مصر - القاهرة، (د. ت) ص 209

⁴ الكتاب 319/2.

⁵ المرجع السابق 319/2.

⁶ ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، الكافية في علم النُّحو، تحقيق صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب - القاهرة، ط 2010 م، ص 25.

وقال ابن مالك (ت 672هـ) في ألفيته:

ما استنتت إلا مع تمام ينصب
ويعد نفي أو كفي انتخب
إتباع ما اتصل وأنصب ما انقطع
وعن تميم فيه إبدال وقع⁽¹⁾

وقال الشاطبي (ت 790هـ) في المقاصد الشافية: "هذا القسم يعني أن ما كان واقعاً بعد إلا مستثنى بها؛ فإنه ينتصب إذا كان الكلام تاماً لم يُفَرِّغ العامل له، وسواءً أكان مُتَّصِلاً، أو مُنْقَطِعاً، ومثال ذلك: قام القوم إلا زيداً... ومثاله في المنقطع: جاءني بنو تميم إلا زيداً الهاشمي، ورأيت القوم كلهم إلا فرس بني فلان"⁽²⁾.

وورد في القرآن ما يُثبتُ المستثنى المنقطع في مثل قوله - تعالى - : ﴿ فَلَوْلَا كَاتَتْ

قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَفَنَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: 89]، وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ

نُعْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴾ [الأعراف: 43]، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: 34-44]،

وقوله - تعالى - : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ [النساء: 751]، وقوله - تعالى - :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ [الأعراف: 52-62]، ﴿ إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: 52-62]،

وورد ذلك في أشعار العرب ومثله قول النابغة⁽³⁾:

¹ ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، ألفية ابن مالك، دار التعاون، (د.ت)، ص31، وانظر: ابن عقيل، عبدالله بن عبد الرحمن (ت 769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، ط20 1400هـ، ج2، ص 209.

² الشاطبي، أبو اسحق ابراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق مجموعة من المحققين، معهد البحوث العلمية إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط1 1428هـ، ج3، ص344، وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك 212/2.

³ هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. من اهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وكان أبو عمرو ابن العلاء يفضله على سائر الشعراء. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. وكان حظياً عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجرده (زوجة النعمان) فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمناً. ثم رضي عنه النعمان، فعاد إليه. شعره كثير، جمع بعضه في (ديوان - ط) صغير. وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولاحشوش. وعاش عمراً طويلاً. ومما كتب في سيرته (النابغة الذبياني - ط) لجميل سلطان، ومثله لسليم الجندي، ولعمر الدسوقي، ولحنّا نمر، وكلها مطبوعة، وتوفي نحو 18ق هـ. انظر: الأعلام للزركلي 3/54-55.

حَافَتْ يَمِيناً غَيْرَ ذِي مَثْوِيَّةٍ⁽¹⁾ وَلَا عِلْمَ، إِلَّا حُسْنَ ظَنِّ بِصَاحِبِ⁽²⁾

وقال الشاعر:

لَيْسَ عَلَيْكَ عَطَشٌ وَلَا جُوعٌ إِلَّا الرُّقَادَ والرُّقَادُ مَمْنُوعٌ⁽³⁾

وقال الحارثُ بن عباد⁽⁴⁾:

والحربُ لا يَبْقَى لِحَا حِمِّهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
إِلَّا الفَتَى الصَّبَّارُ فِي الدَّ جَدَاتِ والفَرَسُ الوَقَاحُ⁽⁵⁾ ⁽⁶⁾

فمن خلال ما عَرَضْنَا مِنْ أقْوَالِ علماءِ النَّحْوِ فِي الاستثناءِ المُنْقَطِعِ، والشواهدِ القرآنيةِ، وشعرِ العربِ يَظْهَرُ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ أَنَّ الاستثناءَ المُنْقَطِعَ مشهورٌ فِي كلامِ العربِ لا كما زَعَمَ بعضُهُم بعدمِ مشروعِيَّتِهِ وجوازِهِ.

وعليه فإنَّ الاستثناءَ المُنْقَطِعَ فِي قوله - تعالى - : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: 34]

مُحْتَمَلٌ فِي لغةِ العربِ لا مُمْتَنِعٌ.

¹ يُقَالُ: حَلَفَ فُلَانٌ يَمِينًا لَيْسَ فِيهَا نَثْبًا، وَلَا نَثْوَى، وَلَا نَثِيَّةً، وَلَا مَثْوِيَّةً، وَلَا اسْتِثْنَاءً، كُلُّهُ وَاحِدٌ. وَأَصْلُ هَذَا كَلِمَةٌ مِنَ (النَّثَى) وَهُوَ الكَفُّ والرَّدُّ؛ لِأَنَّ الخَالِفَ إِذَا قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ غَيْرُهُ، فَقَدْ رَدَّ مَا قَالَه، بِمَشِيئَةِ اللهِ غَيْرِهِ. تَهْدِيبُ اللُّغَةِ لِلأَزْهَرِيِّ، بَابِ النَّاءِ والنونِ 102/15، وانظر: لسان العرب، فصل الناء المثلثة 124/14، وتاج العروس، باب ثوي 305/37.

² النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب (ت نحو 18 ق هـ)، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط3 1416، ص29، وانظر: الكتاب لسبويه 322/2.

³ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 294/1.

⁴ الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري، أبو منذر: حكيم جاهلي. كان شجاعاً، من السادات، شاعراً. انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب. وفي أيامه كانت حرب (البسوس) فاعتزل القتال، مع قبائل من بكر، منها يشكر وعجل وقيس. ثم إن المهلهل قتل ولدا له اسمه بجير، فثار الحارث ونادى بالحرب، وارتجل قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله (قرباً مريبط النعامه مني) أكثر من خمسين مرة، والنعامه فرسه، فجاؤوه بها، فجز ناصيتها وقطع ذنبها - وهو أول من فعل ذلك من العرب فاتخذ سنة عند إرادة الأخذ بالنار - ونصرت به بكر على تغلب، وأسر المهلهل فجز ناصيته وأطلقه، وأقسم أن لا يكف عن تغلب حتى تكلمه الأرض فيهم، فأدخلوا رجلاً في سرب تحت الأرض ومر به الحارث فأثد الرجل: (أبا منذر أفنيت فاستيق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض). فقيل: بر القسم: واصطلحت بكر وتغلب. وعمر الحارث طويلاً، وتوفي نحو 50 ق. هـ. انظر: الأعلام للزركلي 156/2.

⁵ وقح: الوقح: الحافر الصُّلب، والنعت وقاح، الذُّكر والأنثى فيه سواء. والجميع: وُقْحٌ ووَقَّحٌ، ورجل وقاح الوجه صُلْبُهُ: قليلُ الحياء. وقد وُقْحَ وقَاحَةً وقَحَّةً. الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَنِ الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170 هـ)، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، باب الحاء والقاف 3 ج، ص256.

⁶ البكري: أبو منذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة (ت نحو 50 ق. هـ)، ديوان الحارث بن عباد، جمعه وحققه أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "المجمع الثقافي"، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ط1 1429 هـ، ص242. وانظر: الكتاب لسبويه 324/2، والنكت في القرآن الكريم للقيرواني 134/1.

2. أنه في اللغة يُمكن إعطاء الشيء حُكْمَ غيره، فيكونُ تغليبُ الجنسِ كثير الأفرادِ على فردٍ من غير هذا الجنسِ مغموراً فيما بينهم بأن يُطلق اسمُ الجنسِ على الجميع، كقوله - تعالى - ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر: 30] وأنه عدَّ منهم مع أنه كان من الجن؛ تغليباً لكونه جنياً واحداً فيما بينهم⁽¹⁾. وهذا جائزٌ في اللغة غير مُحالٍ ولا مُمتنعٍ.

وعليه فإنَّ قوله - تعالى - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ [البقرة: 34] من بابِ تغليبِ جنسِ الملائكةِ على جنسِ إبليس الذي ليس من جنسِهِم.

3. أنَّ إبليس ليس من جنسِ الملائكةِ للأسباب الآتية:

أ. اختلافُ أصلِ خَلْقَةِ كُلِّ مِنْهُمَا؛ فالملائكةُ خُلِقَتْ مِنْ نُورٍ، والجنُّ خُلِقَتْ مِنْ نَارٍ، ودليلُ ذلك من القرآن الكريم بقوله - تعالى - ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر: 27] وأيضاً ما أخبر به إبليس عن نفسه بقوله - تعالى - ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12]، أما عن خَلْقِ الملائكةِ فقد ثبت في صحيح مسلمٍ من حديثِ عائشة - رضي الله عنها -، أنها قالت: قال رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " خُلِقَتْ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ "⁽²⁾، وأما القولُ بأنَّ النُّورَ، والنَّارَ بمعنى فهذا بعيدٌ؛ لأنَّ صِفَةَ وَمَاهِيَةَ النُّورِ تَخْتَلِفُ عَنِ النَّارِ وهذا ظاهرٌ، ثُمَّ إِنَّ اقترانهما في حديثِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَلَّ عَلَى أَنَّ النُّورَ مُخْتَلِفٌ تَمَاماً عَنِ النَّارِ، وعليه فإنَّ النَّارَ ليست من جَوْهَرِ النُّورِ.

فِيظَهْرُ جَلِيًّا مِنَ الْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ أَنِفَا اخْتِلَافُ أَصْلِ خَلْقَةِ كُلِّ مِنْهُمَا، وعليه فإنَّ جنسَ الملائكةِ غير جنسِ إبليس؛ ولهذا استثنى استثناءً مُنْقَطِعاً عَنْهُمْ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

ب. أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جُبِلُوا وَقُطِرُوا عَلَى الْعِصْمَةِ، وَعَدِمَ الزَّلُّ، أَوِ الْمَعْصِيَةِ، أَوِ الْكُفْرِ، إِذْ إِنَّهُ مُحَالٌ مِنْ أَحَدِهِمْ ارْتِكَابُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهُ مَآ

¹ البرهان في علوم القرآن للزركشي 310/3، وانظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 135/3، ونواهد الأبيكار وشوارد الأفكار للسيوطي 199/2، مفتاح العلوم للسكاكي، ص242.

² صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب في خَلْقِ الملائكةِ والجانِ وآدم، حديث رقم 7605 [60-2996]، 226/8، ورواه أحمد في المسند برقم 24668، والبيهقي في السنن الكبرى برقم 18207، وابن حبان في صحيحه برقم 6155.

أَمْرُهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحریم: 6]، وقال - تعالى - ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ [الانبیاء: 26-27]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ [النحل: 49-50]، فلما ارتكب إبليس المعصية في عدم امتثال أمر ربه
بالسجود لآدم دلّ على أنه ليس من جنسهم من حيث العصمة، وعدم ارتكاب المعصية والكفر؛ لأنّ
الملائكة معصومون من الخطأ، ومجبولون على الطاعة؛ لذلك استثناء الله في امتثال الأمر، والسجود
لآدم بقوله: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ .

ج. أنّ الله - عزّ وجلّ - صرّح في كتابه أنّ إبليس ليس من الملائكة، وإنّما هو من الجنّ، والجنّ
غير الملائكة بقوله: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: 50].

فهذا دليلٌ صريحٌ واضحٌ من القرآن الكريم أنّ إبليس كان من الجنّ، وليس من الملائكة، وأمّا
القول بأنّ الجنّ في هذه الآية بمعنى الاستتار فهذا تأويلٌ بعيدٌ؛ لأنّ قوله - تعالى - ﴿ كَانَ مِنَ
الْجِنِّ ﴾ إنّما هو بيانٌ سبب تركه للسجود؛ لكونه جنياً لا لكونه مستتراً؛ لأنّ الجنسين يشتركان في
هذه الصفة، ثمّ إنّ اقترانهما في الآية نفسها يدلّ على تباينهما، وتغايرهما، وأنّهما من جنسين مختلفين
لقوله - تعالى - ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ [سبأ: 40-41]
فصرّحت الآية في الفرق بين الجنّ والملائكة فلمّا كان الأمر كذلك كان المستثنى منقطعاً من غير
جنس المستثنى منه.

4. أنّ الأمر إنّما يشمل جملة المخاطبين، ويتعيّن على أحاديهم إلاّ إنّ دلّت القرائن على عدم شموله
فيهم؛ فإنّه يخرج من جملتهم، ولا يقع عليه الأمر. ولما كان إبليس من جملتهم وفي صحتهم وكان
يعبّد الله بعبادتهم، كان من المشمولين بالأمر بالسجود لآدم، لا سيّما مع عدم وجود قرينة تخرجه من
ذلك. بصرف النظر عن جنسه، فكان لزاماً عليه امتثال أمر ربه، بل إنّ القرائن تدلّ على أنّه خصّ

بالأمرِ بقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: 12]، وهذا يدلُّ على أنَّ شموله بالأمر لا يعني أنه من جنسهم فدخل مع الملائكة بالطاعة، والأمر، وخرَج منهم بالمعصية؛ لذلك خصَّه الله بالاستثناء بقوله: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾.

5. أَنَّ جُلَّ مَا وَرَدَ مِنْ آثَارِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَعَبْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَضْلاً عَنْ أَنَّ بَعْضَهَا ضَعِيفٌ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (ت 774هـ) فِي تَفْسِيرِهِ: " وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ مَرَّةٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا فَرَعَ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ مَا أَحَبَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فَجَعَلَ إِبْلِيسَ عَلَى مُلْكِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَانَ مِنْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ، وَإِنَّمَا سُمُوا الْجِنُّ لِأَنَّهُمْ خُزَّانُ الْجَنَّةِ، وَكَانَ إِبْلِيسَ مَعَ مُلْكِهِ خَازِناً " (1)، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ ثُمَّ عَلَّقَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: "هَذَا الْإِسْنَادُ إِلَى هَوْلَاءِ الصَّحَابَةِ مَشْهُورٌ فِي تَفْسِيرِ السُّدِّيِّ، وَيَقَعُ فِيهِ إِسْرَائِيلِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ، فَلَعَلَّ بَعْضَهَا مُدْرَجٌ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ، أَوْ أَنَّهُمْ أَخَذُوهُ مِنْ بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " (2).

وقال الألباني (ت 1420هـ) في السُّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ: " وما يُروى عن ابن عباسٍ في تفسير قوله: ﴿ مِنْ الْجِنِّ ﴾ أَي مِنْ خُزَّانِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مِمَّا لَا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ عَنْهُ " (3).

بَلْ إِنَّهُ وَرَدَ مِنَ الْآثَارِ الصَّحِيحَةِ مَا يُبْطِلُ هَذِهِ الْآثَارَ، وَيُعَارِضُهَا مِنْهَا: قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : " آدَمُ أَصْلُ الْإِنْسِ وَإِبْلِيسُ، أَصْلُ الْجِنِّ " (4).
وقال - أيضاً - : " مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ، وَإِنَّهُ لِأَصْلُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَصْلُ الْإِنْسِ " (5). وقال ابنُ كثيرٍ: " وهذا إسنادٌ صحيحٌ من الحسنِ " (6).

¹ تفسير القرآن العظيم لابن كثير 228/1-229، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 458/1، حديث رقم 607.

² تفسير القرآن العظيم لابن كثير 230/1.

³ الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّدُ ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي (ت 1420هـ)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1 1412هـ، ج 2، ص 312، وانظر: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّدُ ناصر الدين بن الحاج نجاتي (ت 1420هـ)، موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر، صنَّعه شادي بن مُحَمَّد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث، صنعاء - اليمن، ط 1 1431هـ، ج 8، ص 23.

⁴ الأصبهاني، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن جعفر (ت 369هـ)، العظمة، تحقيق رضاء الله بن مُحَمَّد إدريس المباركافوري، دار العاصمة - الرياض، ط 1 1408هـ، ج 5، ص 1572.

⁵ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 506/1، حديث رقم 696، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 567/9.

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن كثير 231/1.

وقال - أيضاً - : " قاتل الله أقواماً يزعمون أنّ إبليس كان من ملائكة الله، والله - تعالى - يقول: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ ⁽¹⁾.

وعليه فإنّ هذه الآثار الصحيحة تُغنينا عن ذكر الإسرائيليات، أو الآثار الضعيفة، إذ لا مَعْوَلَ عليها في بيان حُكْم، أو إسناد قول، على الرغم من أنّ جُلَّ من قال: إنّ إبليس من الملائكة اعتمد على هذه الآثار الضعيفة، أو الإسرائيليات. ومنهم ابن بدران - رحمه الله - وهذا ما دفعه إلى القول: "ولكنّ يمكن أن يرجع القولان إلى الاتفاق في المعنى، والاختلاف في التعبير" ⁽²⁾. ثمّ أورد أحاديث ابن عباس الظاهر ضَعْفُها؛ لمخالفتها الوحيين القرآن والسنة الصحيحة. ثمّ إنّه بعد ذلك يُرجح قول القائلين إنّ إبليس كان من الملائكة.

وَحُلَاصَةُ الْقَوْلِ:

إنّ الاستثناء في قوله - تعالى - : ﴿فَسَجَدُوا لِلْإِلَهِ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، مُنْقَطِعٌ عَنِ الْمُسْتَنْثَى مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - ذَكَرَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ، وَإِعْطَاءِ الشَّيْءِ حُكْمَ غَيْرِهِ. فهو مع الملائكة بِصُورَتِهِ، وَهَيْئَتِهِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِخَلْقَتِهِ، وَأَصْلِهِ، فَالْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَهُوَ مِنْ نَارٍ، فَيَكُونُ إِبْلِيسُ مِنَ الْجِنَّ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وقد سُئِلَتِ اللَّجْنَةُ الدَّائِمَةُ لِلْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْإِفْتَاءِ: هل إبليس من الجن أم من الملائكة؟

فَأَجَابَتْ: إبليس من الجن، وليس من الملائكة، قال - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ [الكهف: 50]، وقال - تعالى - : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ

كَالْفَخَّارِ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: 14-15]، وقال - صلى الله عليه

وسلم - : " خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ " ⁽³⁾،

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: " ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أنّ آدم

¹ ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (ت 327هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط 3 1419هـ، ج 7، ص 2366، حديث رقم 12843، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 567/9-568.

² جواهر الأفكار لابن بدران ص 170.

³ مسند أحمد ط الرسالة 42 / 109، حديث رقم 25194، وصحيح مسلم 8 / 226، برقم [7605-60]-2996، كتاب الآداب: باب في خلق الملائكة والجان وآدم.

أصلُ الإنسِ " (1)، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ، وَلَكِنْ خَانَ إِبْلِيسَ الطَّبَعُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ، وَتَعَبَّدَ، وَتَنَسَّكَ مَعَهُمْ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خِطَابِهِمْ، وَعَصَى بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ بِالسُّجُودِ.

عضو	عضو	عضو	عضو	عضو
بكر أبو زيد	عبد العزيز آل الشيخ	صالح الفوزان	عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان
نائب رئيس اللجنة	الرئيس			
عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز			

عبد العزيز بن عبد الله بن باز (2).

¹ جامع البيان في تفسير آي القرآن للطبري، 1 / 506، حديث رقم (696).

² انظر: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع - الرياض، فتوى رقم (7815)، ج3، ص 509، وانظر: المجموعة الثانية فتوى رقم (16370)، ج2، ص422.

المسألة الثامنة:

أثر عود الضمير في تأويل حديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ " (1) في توجيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ - تعالى - : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:35] قال ابن بدران - رحمه الله - : " وأما قوله(2): على صورته فالضمير راجع لآدم، ومعناه: أنه من بدء خلقه يظهر صورته التي كان عليها، فلم يكن كغيره من ذريته طفلاً، ثم كبر بالتدريج" (3).
فقد بين - رحمه الله - أن الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " على صورته" يعود إلى آدم - عليه السلام - .

علماً أنّ هذا الحديث محطّ خلاف بين العلماء قديماً، وحديثاً، والخلاف ناشئ عن عود الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " على صورته".

كما بين ذلك الألباني (ت 1420هـ) - رحمه الله - في الموسوعة: "وإنما اختلفوا في مرجع ضمير قوله - عليه الصلاة والسلام - : "خلق الله آدم على صورته" (4).

ولا شك أنّ بيان عود الضمير له بالغ الأثر في توجيه المعنى، والوقوف على مراده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الحديث.

ولتحرير المسألة، وحلّ الإشكال وبيان المُبهم فيها؛ لا بدّ من التعرّيج على الضمائر، وتعريفها، ومعرفة أقسامها.

¹ مسند أحمد تحقيق شاکر 142/7، حديث رقم 7319، باب ابتداء مسند أبي هريرة. وصحيح البخاري 50/8، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، حديث رقم 6227. وانظر: البخاري، مُحَمَّد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت 256هـ)، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط 4 1418هـ، 86-85/1، باب لا تقل: قَبِحَ اللهُ وجهه، وباب بدء السلام ص 374، والتبريزي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الخطيب العمري (ت 741هـ)، مشكاة المصابيح، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط 3 1985م، ج 3، ص 1315 برقم 4628. ومسلم 32/8، كتاب الآداب حديث رقم 6748 وحديث رقم 7265 - 149/8.

² أي النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

³ جواهر الأفكار ص 173.

⁴ موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر 201/1.

تعريف الضمير:

الضمير لغة: من ضَمَرَ، والضَّمِير: السِّرُّ، وداخل خاطر، وهو الشيء الذي تضمه في قلبك، تقول: أضمرت صرف الحرف؛ إذا كان متحركاً فأسكنته، وأضمرت في نفسي شيئاً، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، والمُضْمَر: الموضع والمفعول، وأضْمَرْتُ الشيءَ: أخفيتَه، وأضمرتُ الشيءَ: إذا غَيَّبْتُهُ (1).

أما في الاصطلاح: فهو " ما يُكْنَى به عن مُنْكَلِمٍ، أو مُخَاطَبٍ، أو غَائِبٍ، فهو قائم مقام ما يُكْنَى به عنه " (2).

والمُضْمَر: اسم مفعول من أضمرته، إذا أخفيتَه، وسترته، وإطلاقه على البارز توسع، والضَّمِير: بمعنى المُضْمَر على حد قولهم: عقدت العسل فهو عقيد أي، معقود" (3).

"والضمير فعيل، بمعنى اسم المفعول، من أضمرت الشيء في نفسي: إذا أخفيتَه، وسترته، فهو مُضْمَر كالحكيم بمعنى المُحْكَم. والنُّحَاة يقولون: إنَّما سُمِّي بذلك؛ لكثرة استتاره، فأطلاقه على بارز توسع، أو لعدم صراحته كالأسماء المظهرة. والثاني هو: الراجح فيما أرى؛ وذلك لأنَّك بالضمير تستر الاسم الصريح، فلا تذكره" (4). ثم قال: "والضمير مصطلح بصري، ويسميه الكوفيون كناية، ومكناً، وهو بالمعنى نفسه؛ فإنَّ الكناية تقابل التصريح" (5).

أما أقسامه وأنواعه فقد بيَّنها ابن مالك في ألفيته بقوله:

فَمَا لِذِي غَيْبَةٍ أَوْ حُضُورٍ كَأَنْتَ وَهُوَ سَمٌّ بِالضَّمِيرِ
وَدُوْ اتِّصَالٍ مِنْهُ مَا لَا يُبْتَدَأُ وَلَا يَلِي إِلَّا اخْتِيَاراً أَبَدًا

¹ انظر: لسان العرب (مادة ضَمَرَ)، 4/491-493.

² جامع الدروس العربية للغلابيني ص115. وانظر: شرح شذور الذهب ص168، وشرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ص93.

³ شرح التصريح على التوضيح 1/97.

⁴ معاني النُّحُو للسامرائي 1/41.

⁵ الجَوْجَرِي، شمس الدين مُحَمَّد بن عبد المنعم بن مُحَمَّد (ت 889هـ)، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق نواف بن جزاء الحارثي، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية (أصل الكتاب رسالة ماجستير للمحقق)، ط1 1423هـ، ص168، وحاشية الصبان 1/162، ومعاني النُّحُو للسامرائي 1/41.

كَالْيَاءِ وَالْكَافِ مِنْ ابْنِي أَكْرَمَكَ وَالْيَاءِ وَالْهَاءِ مِنْ سَلِيهِ مَا مَلَكَ (1)

فقد ذكر - رحمه الله - أَنَّ الضَّمِيرَ: متصل، ومنفصل، وبارز، ومستتر، ومرفوع، ومنصوب، ومجرور (2).

عود الضمير:

فالضمير لا بدّ له من مفسّر (3) يبيّن ما يراد به.

أولاً: فإن كان الضمير لمتكلم، أو مخاطب فمفسّره حضور مَنْ هو له (4)، في مثل قوله - تعالى -:

﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيِّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116].

ثانياً: وإن كان الضمير للغيب فلا بدّ له من مرجع يرجع إليه (5)، وهذا المرجع أو المفسّر نوعان:

1. أن يكون لفظاً: أي أن يعود إلى لفظ ظاهر، وهو نوعان:

أ. متقدّم: أي أن يعود الضمير إلى اسم سبقه باللفظ وهذا هو الأصل، في نحو قوله - تعالى -:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: 224]، وقوله - تعالى -:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 30].

ب. متأخر: أي أن يعود على متأخر في اللفظ، وهو على قسمين:

1. متأخر في اللفظ، متقدم في الرتبة، في نحو قوله - تعالى -:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ [طه: 67].

¹ انظر: ألفية ابن مالك ص12-13.

² المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري 1 / 166-172، وانظر: ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، د. مُحَمَّد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط 1410هـ، ج1، ص120-134، وشرح قطر الندى لابن هشام ص94-96، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للشاطبي 1/260-268، والنحو الوافي 1/232-234، وشرح التصريح على التوضيح 1/98-100، وجامع الدروس العربية للغلابيني ص 87-93، ومعاني النحو للسامرائي 1/42-45.

³ المفسّر: هو الاسم الذي يعود عليه الضمير، انظر: معاني النحو للسامرائي 1/59، هامش رقم (1).

⁴ شرح شذور الذهب ص169.

⁵ جامع الدروس العربية للغلابيني 1/94.

2. متأخر في اللفظ، متأخر في الرتبة، وهو محصور في سبعة أبواب كما بينها ابن هشام (ت 761هـ) في شرح شذور الذهب:

أ. باب ضمير الشأن في نحو قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1].
ب. أن يكون مُخْبَرًا عنه بمُفسِّره، في نحو قوله - تعالى - : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ [الجن: 24].
ج. الضمير في باب (نعم وبئس)، في نحو قوله - تعالى - : ﴿ يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: 50].
فإنه مفسر بالتمييز.

د. مجرور "رَبِّ"، نحو رَبِّه رجلاً، فإنه مفسر بالتمييز، قطعاً.
هـ. الضمير في التنازع إذا أَعْمَلَتِ التَّانِي واحتاجَ الأوَّل إلى مرفوع نحو: " قاما وقعد أخواك "؛ فإن الألف راجعة إلى الأخوين.
و. الضمير المبدل منه ما بعده، كقولك في ابتداء الكلام: " ضَرَبْتُهُ زيداً "، وقول بعضهم: " اللهم، صلِّ عليه الرؤوف الرحيم ".

ز. الضمير المتصل بالفاعل المقدم العائد على المفعول المؤخر، وهو ضرورة على الأصح، كقوله:
جزى ربُّه عني عدي بن حاتم جزاء الكلابِ العاوياتِ، وقد فعَل⁽¹⁾
فأعيد الضمير من " ربُّه " إلى " عدي " وهو متأخر لفظاً ورتبة⁽²⁾.

2. أن يكون من غير اللفظ، أي يُستغنى عن المفسر في اللفظ ولكن يدل عليه أمور:

أ. أن يدل عليه حساً، وذلك نحو قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف: 26]، وقوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [يوسف: 26].⁽³⁾ فالضمير يعود على امرأة العزيز، ولم يتقدّم لها ذكر صريح فهو مدلول عليه حساً.

¹ ديوان النابغة الذبياني ص 161.

² انظر: شرح شذور الذهب ص 169-170، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - مصر، ج 1، ص 265-266.

³ انظر: همع الهوامع 262/1، وشرح التسهيل 156/1، ومعاني النحو للسامرائي 59/1.

ب. أن يدلّ عليه العلم به، وإن لم يتقدم له ذكر نحو قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: 1]، فالضمير يعود على القرآن، وكقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: 32]، يعني الشمس فهي مفهومة من السياق⁽¹⁾.

ج. أن يدلّ عليه معنى المفسّر المتقدّم، ولا يتقدّم لفظه صراحة، وذلك كقوله - تعالى - : ﴿ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: 8]، فالضمير (هو) يعود على العدل، ولم يتقدّم ذكره بل تقدّم الفعل (اعدلوا) الذي يدلّ عليه⁽²⁾.

أمّا بالنسبة إلى الضمير الذي يعود إلى اسم سبقه في اللفظ، فهو على ثلاث حالات:

1. تعيّن المفسّر؛ أي أن يكون قد تقدّمه مفسّر واحد، نحو قوله - تعالى - : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة: 228]، فالضمير في ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ وهو نون النسوة، والهاء في ﴿ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ عائد على المطلقات من غير لبس، أو غموض.
2. تعيّن ما يدلّ على المفسّر؛ أي أن يكون قد تقدّمه مُفسّران أو أكثر، ولكنه تعيّن بقريئة تدلّ على أحدهما، في نحو قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: 11]، فعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو بقريئة التأنيث.
3. لا يتعيّن ما يدلّ على المفسّر؛ أي أن يتقدم الضمير مُفسّران أو أكثر ممّا يصلح للتفسير، فالأصل أن يعود الضمير إلى الأقرب؛ أي إلى أقرب مذكور، كقوله - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ [يونس: 5]، فالضمير في ﴿ وَقَدَرَهُ ﴾ وهو الهاء يعود إلى أقرب مذكور وهو القمر بمعنى قدر القمر، وكقوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَشَمَّرُوا تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: 20]، فالضمير في ﴿ عَنَّهُ ﴾ وهو الهاء

¹ انظر: همع الهوامع 262/1، وشرح التسهيل 156/1، وشرح شذور الذهب ص169، وجامع الدروس العربية للغلابيني 94/1، ومعاني النُّحُو للسامرائي 59/1.

² انظر: شرح التسهيل 156/1، وجامع الدروس العربية للغلابيني 94/1، ومعاني النُّحُو للسامرائي 59/1.

يعود إلى أقرب مذکور وهو الرسول؛ بمعنى ولا تولّوا عن الرسول، وكقولنا: "جاء مُحَمَّدٌ وخالد فأكرمته" أي فأكرمت خالدًا؛ لأنّه أقرب مذکور⁽¹⁾.

أقوال العلماء في عود الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "خلق الله آدم على صورته"⁽²⁾.

اختلف العلماء في عود الضمير على أقوال ثلاثة، فذهب فريق إلى أنّ الضمير يعود إلى المضروب، فيما ذهب آخرون إلى أنّه يعود إلى آدم - عليه السلام -، بينما ذهب آخرون إلى أنّه يعود إلى الله - سبحانه وتعالى - ولكلّ أدلّته⁽³⁾. وللوقوف على القول الراجح والصواب لا بدّ من عرض أدلّة كلّ فريق؛ لبيان الحقّ من الباطل، والصواب من الخطأ، والراجح من المرجوح، وهاتيك الأقوال وأدلّتها:

القول الأول: قالوا: إنّ الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "على صورته" يعود على المضروب⁽⁴⁾. واستند هذا الفريق على رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنّ الله خلق آدم على صورته"⁽⁵⁾. وفي رواية زاد فيها: "ولا تقلّ قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك"⁽⁶⁾.

¹ انظر: شرح التسهيل 156/1، وحاشية الصبان 162/1، وجامع الدروس العربية للغلابيني 94/1، ومعاني النحو للسامرائي 60/1.

² سبق تخريج الحديث، انظر: ص 166، هامش رقم (1).

³ انظر: مفاتيح الغيب 118/1، وفتح الباري لابن حجر 5 / 183، والتوابع، حمود بن عبد الله بن حمود (ت 1413هـ)، عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن، دار اللواء، المملكة العربية السعودية - الرياض، ط 2 1409هـ، ص 12-19، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 16 / 166.

⁴ انظر: مفاتيح الغيب 118/1، والجامع لأحكام القرآن 392/5، وفتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص 12.

⁵ رواه أحمد في المسند باب ابتداء مسند أبي هريرة 142/7، حديث رقم 3719، ومسلم في كتاب الآداب 32/8، حديث رقم 6748، ومشكاة المصابيح 1046/2، حديث رقم 3525، وابن خزيمة، أبو بكر مُحمّد بن إسحاق (ت 311هـ)، كتاب التوحيد، حَقَّقَهُ وخَرَجَ أحاديثه د.سمير بن أمين الزهيري، دار المغني، السعودية - الرياض، ج 1، ص 91-92، باب ذكر أخبار رُويت عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - حديث رقم 39.

⁶ رواه أحمد في المسند باب ابتداء مسند أبي هريرة 223/7، حديث رقم 7414. وصحيح الأدب المفرد باب لا تقلّ: قبّح الله وجهه 85/1، حديث رقم 129/173. وحسنه الألباني، وكتاب التوحيد لابن خزيمة باب ذكر أخبار رُويت عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - 91/1، حديث رقم 38.

وممن رَجَّحَ هذا القول:

ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتابه " تأويل مختلف الحديث عن بعض أهل الكلام " بقوله: " وزاد قوم في الحديث: إنه - عليه السلام - مرَّ برجل يضرب وجه رجل آخر فقال: لا تضربه؛ فإنَّ الله تعالى - خلق آدم - عليه السلام - على صورته " (1)، أي صورة المضروب (2).

وابن خزيمة (ت 311هـ) (3) في التَّوْحِيدِ بقوله: "توهَّم بعض من لم يتبحَّر العلم أنَّ قوله: "على صورته" يريد صورة الرحمن - عزَّ ربنا وجلَّ - عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله: "خلق آدم على صورته" الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم؛ أراد - صلى الله عليه وسلم - أنَّ الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أُمرَ الضَّارِبُ باجتتاب وجهه بالضرب، والذي قُبِحَ وجهه، فَرَجَزَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنَّ يقول: ووجه من أشبه وجهك؛ لأنَّ وجه آدم شبيهه وجوه بنييه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قَبِحَ اللهُ وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مقبَّحاً وجه آدم - صلوات الله عليه وسلامه -، الذي وجوه بنييه شبيهة بوجه أبيهم، فنفهَموا - رحمكم الله - معنى الخبر، لا تغلطوا، ولا تغالطوا؛ ففضلوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه؛ الذي هو ضلال" (4).

¹ انظر: مسند أحمد 267/8، تعليق أحمد شاکر في الهامش على حديث رقم 8274، والجامع لأحكام القرآن 392/5.

² ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، تأويل مختلف الحديث، المكتب الإسلامي - مؤسسة الإشراف، ط 2 1419هـ، ص 319. وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص 14.

³ هو مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة بن صالح بن بكر السلمي، الحافظ، الحجة، الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، أبو بكر السلمي النيسابوري، الشافعي، صاحب التصانيف. ولد: سنة ثلاث وعشرين ومئتين. وعني في حديثه بالحديث والفقه، حتى صار يُضرب به المثل في سعة العلم والإتقان. حدَّث عنه: البخاري، ومسلم في غير (الصحيحين). قال أبو علي الحافظ: كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارئ السورة. أخبرنا أبو علي الحسن بن علي، أخبرنا عبد الله بن عمر، أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري، أخبرنا عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا أبو حاتم بن حبان التميمي، قال: ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كأن السنن كلها بين عينيه، إلا مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة فقط. قال أبو الحسن الدارقطني: كان ابن خزيمة إماماً، ثبناً، معدوم النظر. ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه وأتباعه السنَّة. وكتابه في (التوحيد) مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة. قال الحاكم: فضائل إمام الأئمة ابن خزيمة عندي مجموعة في أوراق كثيرة، ومصنفاته تزيد على مئة وأربعين كتاباً سوى المسائل، والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء. ولابن خزيمة ترجمة طويلة في (تاريخ نيسابور)، تكون بضعا وعشرين ورقة، من ذلك وصيته، وقصيدتان رثي بهما. وضبط وفاته: في ثاني ذي القعدة، سنة إحدى عشرة وثلاث مئة، عاش تسعا وثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء 365/14-382.

⁴ كتاب التوحيد 93/1-94، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص 12.

والبيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات بقوله: "عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته، قال: وإنما أراد والله أعلم: فإنَّ الله خلق آدم على صورة هذا المضروب "(1).

وذكره الرازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله: "واعلم أنَّ العلماء ذكروا في تأويل هذه الأخبار وجوها: الأول: أنَّ قوله: "إنَّ الله خلق آدم على صورته" الضمير عائد إلى المضروب، يعني أنَّ الله - تعالى - خلق آدم على صورة المضروب؛ فوجب الاحتراز عن تقبيح وجه ذلك المضروب"(2).

والقرطبي (ت 671هـ) في تفسيره بقوله: "وقد مرَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - برجل يضرب عبده فقال: "أتقِّ الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته". أي على صورة المضروب؛ أي وجه هذا المضروب يشبه وجه آدم، فينبغي أن يحترم لشبهه. وهذا أحسن ما قيل في تأويله، والله أعلم"(3).

والنووي (ت 676هـ) في المنهاج بقوله: "واختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة: الضمير في صورته عائد على الأخ المضروب، وهذا ظاهر رواية مسلم"(4).

وابن حجر (ت 852هـ) في الفتح بقوله: "واختلف في الضمير على من يعود، فالأكثر على أنَّه يعود على المضروب؛ لما تقدَّم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أنَّ المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها "(5).

¹ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، الأسماء والصفات للبيهقي، حققه وخرج أحاديثه عبد الله بن مُحَمَّد الحاشدي، قدم له مقبل الوادعي، مكتبة السوادني، جدة - المملكة العربية السعودية، ط 1413هـ، باب ما ذكر في الصورة، ج 2، ص 63، حديث رقم 638.

² مفاتيح الغيب 118/1.

³ الجامع لأحكام القرآن 392/5.

⁴ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 166/16.

⁵ فتح الباري لابن حجر 183/5.

القول الثاني: قالوا إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " عَلَى صُورَتِهِ " يَعُودُ إِلَى اللهِ - سبحانه و تعالى -⁽¹⁾، واستند هذا الفريق على رواية ابن عمر - رضي الله عنه - بقوله: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لا تَقْبَحُوا الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ " ⁽²⁾.

وممن رَجَّحَ هذا القول:

الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ) - رحمه الله تعالى - قال ابن أبي يعلى في كتابه "طبقات الحنابلة" في ترجمة أبي جعفر مُحَمَّد بن عوف، ونقلت: من خط أحمد الشَّنجي بإسناده قال: سمعت مُحَمَّد بن عَوْف يقول: أَملى عَلَيَّ أحمد بن حنبل - وذكر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثمَّ قال: "ونحوه هذه الأحاديث مما قد صحَّ و حُفِظ؛ فَإِنَّا نَسَلِّمُ لَهَا وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ تَفْسِيرَهَا، وَلَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا، وَلَا نَجَادِلُ فِيهَا، وَلَا نَفْسِرُهَا، وَلَكِنَّا نَرُويها كما جاءت، ونؤمن بها ونعلم أنَّها حقٌّ، كما قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونسَلِّمُ بها ولا نردِّها... وأنَّ آدم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ كما جاء الخبر عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رواه ابن عمر عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -"⁽³⁾.

وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) - رحمه الله - في كتابه " بيان تلبيس الجهمية " بقوله: "وفي رواية مُحَمَّد بن حاتم فيه قال: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه؛ فَإِنَّ الله خلق آدم على صورته" وليس ليحيى بن مالك عن أبي هريرة في الصحيحين غيره، والكلام على ذلك أن يُقال: هذا

¹ انظر: فتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص19.

² ابن أبي أسامة، أبو مُحَمَّد الحارث بن مُحَمَّد بن داهر التميمي (ت 282هـ)، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المنتقى: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق د.حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة، ط1 1413هـ، باب النهي عن تقبيح الوجه، ج2، ص831، حديث رقم 872، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، باب أخبار رؤيت عن النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - 94/1، حديث رقم 44-45، وابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الصَّحَّاك بن مخلد الشيباني (ت 287هـ)، السُّنَّة، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط1 1400هـ، ج1، ص228 حديث رقم 517، وج1، ص230 حديث رقم 521، والمعجم الكبير للطبراني 12 / 430، حديث رقم 13580، وابن بطَّة، أبو عبد الله عبيد الله بن مُحَمَّد (ت 387هـ)، الإبانة الكبرى لابن بطَّة، تحقيق الوليد بن مُحَمَّد نبيه بن سيف النصر وآخرين، دار الراجية - الرياض، ط1 1418هـ، ج7، ص244، حديث رقم 185، باب الإيمان بأن الله - عزَّ وجلَّ - خلق آدم على صورته، والأجْرِي، أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين (ت 360هـ)، الشريعة، تحقيق د.عبد الله بن عمر الدمججي، دار الوطن - الرياض - السعودية، ط2 1420هـ، باب الإيمان بأن الله عز وجل خلق آدم على صورته بلا كيف، ج3، ص1152، حديث رقم 725، والأسماء والصفات للبيهقي 64/2، حديث رقم 640.

³ انظر: ابن أبي يعلى، أبو الحسين مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 526هـ)، طبقات الحنابلة، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت، ج1، ص311-313، وعقيدة أهل الإيمان ص19-20.

الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أنّ الضمير عائد إلى الله؛ فإنّه مستفيض من طرق متعدّدة عن عدد من الصحابة وسياق الأحاديث كلها يدل على ذلك " (1).

وابن راهويه (ت 238هـ) (2) - رحمه الله - فيما نقله عنه ابن تيمية في كتابه بيان تلبيس الجهميّة بقوله: "وقال الخلال أخبرني حرب بن إسماعيل الكرمانى، قال سمعت إسحاق بن راهويه يقول: قد صحّ عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: " إِنَّ الله خلق آدم على صورة الرحمن "، إنّما عليه أن ينطق بما صحّ عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّه نطق به" (3) ثم قال: " فقد صحّ إسحاق حديث ابن عمر مسنداً " (4). وقال التويجري (ت 1413هـ) في كتابه عقيدة أهل الإيمان: " إنّ الإمام أحمد (5) وإسحاق بن راهويه (6) قد صحّا حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي فيه " إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن " (7).

¹ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت 728هـ)، بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقيق مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة الصحف - المدينة المنورة، ط 1426هـ، ج 6، ص 373.

² هو أبو يعقوب إسحاق بن أبي الحسن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله المروزي المعروف بابن راهويه، جمع بين الحديث والفقہ والورع، وكان أحد أئمة الإسلام، ذكره الدارقطني فيمن روى عن الشافعي - رضي الله عنه - وعدّه البيهقي في أصحاب الشافعي، قال أحمد بن حنبل - رضي الله عنه -: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وما عبر الجسر أفقه من إسحاق، وقال إسحاق: أحفظ سبعين ألف حديث، وأذاكر بمئة ألف حديث، وما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته، وله مسند مشهور، وكان قد رحل إلى الحجاز والعراق واليمن والشام، وسمع من سفيان بن عيينة ومن في طبقتة، وسمع منه البخاري ومسلم والترمذي. وكانت ولادته سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين، وقيل: سنة ست وستين ومائة، وسكن في آخر عمره نيسابور، وتوفي بها ليلة الخميس النصف من شعبان - وقيل: الأحد، وقيل: السبت - سنة ثمان، وقيل: سنة ثلاثين ومئتين، وقيل: سنة ثلاثين ومئتين - رحمه الله تعالى - . وراهويه - بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة - لقب أبيه أبي الحسن إبراهيم، وإنما لقب بذلك لأنه ولد في طريق مكّة، والطريق بالفارسية " راه " و " وه " معناه وجد، فكأنّه وجد في الطريق، وقيل فيه أيضاً " راهويه " بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء، وقال إسحاق المذكور: قال لي عبد الله بن طاهر أمير خراسان: لم قيل لك ابن راهويه وما معنى هذا وهل تكره أن يقال لك هذا قلت: اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في الطريق فقالت المرازرة راهويه لأنّه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا، وأما أنا فلست أكره ذلك. انظر: وفيات الأعيان 199/1-200.

³ بيان تلبيس الجهميّة 418/6.

⁴ المرجع السابق 419/6.

⁵ انظر: لسان الميزان لابن حجر، 3 / 284.

⁶ انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 2 / 420.

⁷ عقيدة أهل الإيمان ص 23.

وصَحَّحَ الحديث - أيضاً - عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290هـ) في السنَّة⁽¹⁾، وابن أبي عاصم (ت 287هـ) في السنَّة⁽²⁾، والأجْرِي (ت 360هـ) في الشريعة⁽³⁾، والذهبي (ت 748هـ) في الميزان⁽⁴⁾، ورجَّح هذا القول أيضاً أبابطين (ت 1282هـ) في رسائله⁽⁵⁾، والتوحيدي (ت 1413هـ) في عقيدة أهل الإيمان⁽⁶⁾، وابن باز (ت 1420هـ)⁽⁷⁾، وابن عثيمين (ت 1421هـ) في مجموع الفتاوى⁽⁸⁾، وفي تفسيره⁽⁹⁾.

القول الثالث: قالوا إنَّ الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "على صورته" يعود إلى آدم عليه السلام⁽¹⁰⁾.

واستند هذا الفريق على رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - بقوله: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً" ⁽¹¹⁾.

¹ انظر: ابن حنبل، أبو عبد الرحمن عبد الله أحمد (ت 290هـ)، السنَّة، تحقيق د. مُحَمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم - الدمام، ط 1406هـ، ج 1، ص 668 حديث رقم 498، و ج 2، ص 472، حديث رقم 1076. وانظر: الإبانة الكبرى لابن بطة، 264/7، حديث رقم 196.

² انظر: السنة لابن أبي عاصم 228/1، حديث رقم 517، و 230/1، حديث رقم 521.

³ انظر: الشريعة للأجْرِي 1152/11، حديث رقم 725، وعقيدة أهل الإيمان ص 25-26.

⁴ انظر: ميزان الاعتدال 603/1، و 420/2.

⁵ انظر: أبابطين، عبد الله بن عبد الرحمن (ت 1282هـ)، رسائل وفتاوى عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، بمصر 1349هـ، النشرة الثالثة 1412هـ، ص 221-223.

⁶ عقيدة أهل الإيمان ص 19-25.

⁷ المرجع السابق ص د.

⁸ العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن - دار الثريا، ط الأخيرة 1413هـ، ج 10، ص 946.

⁹ العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم (الكهف)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1423هـ، ص 60-61.

¹⁰ انظر: فتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص 15، ومفاتيح الغيب 118/1.

¹¹ مسند أحمد تحقيق شاكر 219/8 برقم 8156، وصحيح البخاري 50/8 برقم 6227، وصحيح مسلم 149/8 برقم 7265 [28-2841]، والتوحيد لابن خزيمة 100-99/1 برقم 46، 47.

وذهب إلى هذا القول فريق من أكابر العلماء قديماً وحديثاً سلفاً وخلفاً ومن أشهرهم:

أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت 240هـ)⁽¹⁾، قال ابن أبي يعلى (ت 526هـ) في طبقات الحنابلة: "وقال زكريا بن الفرج سألت عبد الوهاب غير مرة عن أبي ثور فأخبرني أنّ أبا ثور جهمي؛ وذلك أنّه قطع بقول أبي يعقوب الشعراني حكى أنّه سأل أبا ثور عن خلق آدم على صورته، فقال: إنما هو على صورة آدم ليس هو على صورة الرحمن"⁽²⁾. "وقال حمدان سألت أبا ثور عن قول النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" فقال: "على صورة آدم"⁽³⁾.

وابن خزيمة (ت 311هـ) في كتابه التوحيد بقوله: "صورة آدم هي ستون ذراعاً، التي خبر النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّ آدم - عليه السلام - خُلِقَ عَلَيْهَا، لا على ما توهم بعض من لم يتحرّر العلم؛ فظنّ أنّ قوله على صورته، صورة الرحمن صفة من صفات ذاته"⁽⁴⁾.

وأبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الخطّابي (ت 388هـ)، قال البغوي (ت 516هـ) في شرح السنّة: "قال أبو سليمان الخطّابي في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "خلق الله آدم على صورته" الهاء مرجعها إلى آدم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -"⁽⁵⁾.

وقال الخطّابي - أيضاً - في كتابه غريب الحديث: "قوله: "خلق الله آدم على صورته" يريد - والله أعلم - أنّه خلقه بشراً سويّاً على صورته تلك لم تشتمل عليه الأرحام، ولم تتناقله الأحوال من صغر إلى كبير، ومن نقص إلى تمام"⁽⁶⁾.

¹ هو أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي الفقيه البغدادي صاحب الإمام الشافعي - رضي الله عنه - وناقل الأقوال القديمة عنه، وكان أحد الفقهاء الأعلام والتقات المأمونين في الدين، له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه، وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي، حتى قدم الشافعي العراق فاختلف إليه واتبعه ورفض مذهبه الأول، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي لثلاث بقين من صفر سنة ست وأربعين ومئتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب الكناس - رحمه الله تعالى - . قال الذهبي: ذكره الخطيب، وأثنى عليه، وقال: توفي في صفر، سنة أربعين ومئتين. وقال أحمد بن حنبل: هو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة. انظر: وفيات الأعيان 26/1، وسير أعلام النبلاء 72/12-73، والأعلام للزركلي 37/1.

² طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 212/1، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص18.

³ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 309/1، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص17.

⁴ التوحيد لابن خزيمة 101/1.

⁵ البغوي، محيي السنة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود (ت 516هـ)، شرح السنة، تحقيق شعيب الأرنؤوط - مُحَمَّد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط 1403هـ، ج12، ص255، حديث رقم 3298. وانظر: الأسماء والصفات للبيهقي 61/2 حديث رقم 636.

⁶ الخطّابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 388هـ)، غريب الحديث، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، وخرج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النَّبِيِّ، دار الفكر، ط 1402هـ، ج2، ص158.

والنَّووي (ت 676هـ) في المنهاج بقوله: " وهذه الرواية ظاهرة في أنّ الضمير في صورته عائد إلى آدم، وأنَّ المراد أنّه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض، وتوفي عليها، وهي طوله ستون ذراعاً، ولم ينتقل أطواراً كذريته، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير"⁽¹⁾.

وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في الفتح بقوله: " وهذه الرواية⁽²⁾ تؤيد قول من قال: إنّ الضمير لآدم، والمعنى أن الله - تعالى - أوجده على الهيئة التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردّد في الأرحام أطواراً كذريته؛ بل خلقه الله رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح، ثم عقب ذلك بقوله: "وطوله ستون ذراعاً"، فعاد الضمير أيضاً على آدم"⁽³⁾.

والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره بقوله: "ثم إنّ خَلَقَ الإنسان الأوّل وهو آدم - عليه السلام - من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة، فخلقه الله رجلاً مستوياً، فلم يكن مثلاً طفلاً ثمّ كبر وجرت عليه سنة التطور لا، إنّما خلقه الله على صورته، أي: على صورة آدم "⁽⁴⁾.

والألباني (ت 1420هـ) في صحيح الأدب المفرد بقوله في الهامش على تعليقه على حديث "خلق آدم - صلى الله عليه وسلم - على صورته": "أي: على صورة آدم - عليه السلام -، وقد جاء ذلك صراحة في حديث آخر لأبي هريرة بلفظ: "خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً "⁽⁵⁾ متفق عليه "⁽⁶⁾.

ويرى الباحث بعد سبر أقوال العلماء، وبيان أدلتهم أنّ الخلاف الناشئ في عود الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "خلق الله آدم على صورته" يعود إلى أمرين:

أما الأمر الأوّل: أنّهم اعتمدوا الحادثة، والقصة التي ورد فيها الحديث.

¹ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 17 / 178.

² يعني رواية أبي هريرة "خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً"

³ فتح الباري لابن حجر 366/6.

⁴ تفسير الشعراوي - الخواطر 11804/19.

⁵ سبق تخريجه ص 176، هامش رقم 11.

⁶ صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري 86/1، وانظر: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّدُ ناصر الدين بن الحاج نوح (ت 1420هـ)، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشأده من محفوظه، دار باوزير، جدة - المملكة العربية السعودية، ط 1424هـ، ج 9، ص 18، حديث رقم 6129، وموسوعة الألباني في العقيدة 784/7.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ اعْتَمَدُوا أَلْفَاظَ الْحَدِيثِ.

لذالك فَإِنَّ الْفَيْصَلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَعُودُ إِلَى اللُّغَةِ فِي حَلِّ الْإِشْكَالِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ مَا لَمْ يَظْهَرِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ، وَصَرِيحٌ وَصَحِيحٌ يَخَالِفُهَا، عِنْدَهَا نَسَلَمَ لِلدَّلِيلِ وَنَأْخُذُ بِهِ، فَلَا تَأْوِيلَ وَلَا تَنَازُعَ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلَّذِينَ اعْتَمَدُوا الْحَادِثَةَ، وَالْقِصَّةَ فَقَالُوا: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِرَجُلٍ يَضْرِبُ وَجْهَ أَخِيهِ، أَوْ عَبْدَهُ نَهَاةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ ذَلِكَ وَقَالَ: "إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" (1) أَي عَلَى صُورَةِ الْمَضْرُوبِ (2). وَهَذَا الْقَوْلُ لَهُ وَجْهٌ فِي اللُّغَةِ مِنْ حَيْثُ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَسًّا كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [يوسف: 26] (3) فَلَمَّا اسْتَعْنِيَ عَنِ الْمَضْرُوبِ لَفْظًا جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَسًّا، وَهُوَ الضَّمِيرُ فِي (صُورَتِهِ)؛ لِأَنَّهُ مَنَاسِبَةٌ الْحَدِيثِ إِذْ مِنْ أَجْلِهِ قِيلَ الْحَدِيثُ وَوَرَدَ النَّهْيُ.

وَلَكِنْ يُرَدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنَّ هُنَاكَ رَوَايَاتٍ صَحِيحَةً مُتَّفَقَةً عَلَى صِحَّتِهَا وَثَبُوتِهَا وَرَدَّتْ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْقِصَّةِ، أَوْ الْحَادِثَةِ السَّابِقَةِ.

مِنْهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وَطَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا " (4)، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَفْسَّرَ لِلضَّمِيرِ لَيْسَ الْمَضْرُوبُ؛ لِأَنَّ الرَّوَايَتَيْنِ وَرَدْنَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ وَهُوَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ "، إِلَّا أَنَّ الرَّوَايَةَ الثَّانِيَةَ وَرَدَّتْ دُونَ ذِكْرِ الْمَضْرُوبِ أَوْ الْقِصَّةِ وَالْحَادِثَةِ، بَلْ إِنَّ الرَّوَايَةَ الثَّانِيَةَ وَرَدَّتْ فِي حَادِثَةٍ مَغَايِرَةٍ تَمَامًا عَنِ الْأُولَى مِنْ حَيْثُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَتْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عِنْدَ خَلْقِ آدَمَ، وَبَيَانَ آدَابِ الْإِسْتِذَانِ، وَالتَّحِيَّةِ، وَلِذَلِكَ أَوْرَدَهَا الْعُلَمَاءُ تَحْتَ بَابِ الْإِسْتِذَانِ وَرَدَّ السَّلَامَ وَالْآدَابَ (5).

¹ سبق تخريجه، انظر: ص171، هامش رقم (5).

² انظر: القرطبي، أبو الوليد مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رَشَدٍ (ت 520هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل مستخرجة، تحقيق د. مُحَمَّدُ حَجِّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2، 1408هـ، ج16، ص403، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص319.

³ انظر تفصيل المسألة ص169-171.

⁴ سبق تخريجه ص176، هامش 11.

⁵ انظر: تخريج الحديث ص166، هامش رقم 1.

ويرى الباحث أنّ هذين القولين وهما عود الضمير إلى آدم - عليه السّلام -، وعود الضمير إلى المضروب، لا تعارض بينهما؛ لأنّ كلّ فريق منهما اعتمد عود الضمير بناءً على الرواية التي عنده، لا سيّما وأنّ الروایتين صحیحتان كما بيّنا آنفاً ، فنجدهم يقولون بعود الضمير إلى المضروب في الرواية الأولى، وإلى آدم - عليه السّلام - في الرواية الثانية ، ومنهم ابن خزيمة (ت 311هـ) في التوحيد⁽¹⁾، والنووي (ت 676هـ) في المنهاج⁽²⁾، وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في الفتح⁽³⁾.

وأما بالنسبة للذين اعتمدوا ألفاظ الحديث في عود الضمير في قوله - صلى الله عليه وسلم: "على صورته". فقد اختلفوا على قولين: فمنهم من قال: إنّ الضمير يعود إلى آدم - عليه السّلام - ومنهم من قال: إنّ الضمير يعود إلى الله - سبحانه وتعالى - . على التفصيل الذي ذكرناه سابقاً.

ولعلّ سبب الاختلاف بين هذين الفريقين هو مدى صحة رواية ابن عمر - رضي الله عنهما - التي استند إليها القائلون: إنّ الضمير يعود إلى الله - عزّ وجلّ - .

فإنّ صحّت رواية ابن عمر - رضي الله عنه - عن النّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بذلك، فهو كما قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فلا تأويل، ولا تنازع فيه⁽⁴⁾. لأنّ أخبار المصطفى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا صحّت من جهة النقل، لا تتضاد، ولا تتهاثر، ولا تنسخ القرآن، بل لكلّ خبر معنى معلوم يُعلم، وفصل صحيح يُعقل، يَعقله العالمون⁽⁵⁾. وإنّ لم تصحّ فإنّ الفَيْصَل في المسألة لحلّ الإشكال، والتنازع فيها، وبيان المُبهم هو اللغة في معرفة عود الضمير بناءً على القواعد اللُغويّة والنّحويّة.

ولقد اختلف العلماء في صحّة حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - فمن قائل بالصحة ومن قائل بالتضعيف.

قال أبو الوليد القرطبي (ت 520هـ) في البيان والتحصيل: "والحديث في قوله: "إنّ الله خلق آدم على صورته" يُروى على وجهين؛ أحدهما: "إنّ الله خلق آدم على صورته". والثاني: "إنّ الله خلق

¹ انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة 101/1.

² انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنوّوي 178/17.

³ انظر: فتح الباري لابن حجر 366/6.

⁴ انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة 321/1، وعقيدة أهل الإيمان ص 16.

⁵ صحيح الأئمة المسند من أحاديث الانبياء 23/1 (الهامش).

آدم على صورة الرحمن"، فأما الرواية: "إنَّ الله خلق آدم على صورته"، فلا خلاف بين أهل النقل في صحتها؛ لاشتهار نقلها، وانتشاره من غير منكر لها، ولا طاعن فيها، وأما الرواية: "إنَّ الله خلق آدم على صورة الرحمن" فمن مصحح لها، ومن طاعن عليها، وأكثر أهل النقل على إنكار ذلك، وعلى أنه غلط وقع من طريق التأويل لبعض النقلة توهم أن الهاء ترجع إلى الله - عزَّ وجلَّ -، فنقل الحديث على ما توهم من معناه، فيحتمل أن يكون مالك⁽¹⁾ أشار في هذه الرواية بقوله وضعفه إلى هذه الرواية، ويحتمل أن يكون إنما ضَعَفَ بعض ما تُؤوَّلَ عليه الحديث من التأويلات⁽²⁾، وهي كثيرة⁽³⁾.

وقال ابن قتيبة (ت 276هـ) في تأويل مختلف الحديث: "ولما وقعت هذه التأويلات المستكرهة، وكثر التنازع فيها حملَ قوماً اللجاجُ على أن زادوا في الحديث فقالوا: روى ابن عمر عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقالوا: إِنَّ الله - عزَّ وجلَّ - خلق آدم على صورة الرحمن، يريدون أن تكون الهاء في صورته لله - جلَّ وعزَّ - وإنَّ ذلك يتبين بأن يجعلوا الرحمن مكان الهاء، كما تقول: إنَّ الرحمن خلق آدم على صورته، فركبوا قبيحاً من الخطأ"⁽⁴⁾.

وقال البيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات: "عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "لا تُقَبِّحُوا الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورة الرحمن"، ويُحتمل أن يكون لَفْظُ الخبر في الأصل كما رُوينا في حديث أبي هريرة⁽⁵⁾، فأداه بعض الرواة على ما وقع في قلبه من معناه"⁽⁶⁾.

وَضَعَفَ الحديثَ ابنُ خزيمةَ (ت 311هـ) وأعلَّه بعلل ثلاث بقوله: "وقد افتننَ بهذه اللفظة التي في خبر عطاء عالمٍ، ممن لم يتحرَّ العلم، وتوهموا أنَّ إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر من إضافة صفات الذات فغلطوا في هذا غلطاً بيئاً، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لقول المشبهة -

¹ يعني الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المشهور.

² لأن مالك ابن أنس كره رواية هذه الأحاديث التي يقتضي ظاهرها التشبيه. إلا أنَّ الألباني لم يجوز نسبة هذا الأمر للإمام مالك، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة 320/3.

³ البيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 403/16. وانظر: ابن الحاج، أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 737هـ)، المدخل، دار التراث، (د. ت)، ج2، ص150.

⁴ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص319.

⁵ يعني حديث "خلق الله آدم على صورته" انظر: الأسماء والصفات حديث رقم 637 و 638 و 639 و 62/2-63.

⁶ الأسماء والصفات 64/2، حديث رقم 640.

أعاذنا الله وكلّ المسلمين من قولهم - فالذى عندي في تأويل هذا الخبر - إن صحّ من جهة النقل
موصولاً - فإنّ في الخبر عللاً ثلاثاً:

إحداهنّ: أنّ الثوريّ قد خالف الأعمشَ في إسناده، فأرسل الثوريّ ولم يقلّ عن ابن عمر.

والثانية: أنّ الأعمشَ مُدلسٌ لم يذكر أنّه سمعه من حبيب بن أبي ثابت.

والثالثة: أنّ حبيب بن أبي ثابت أيضاً مُدلسٌ لم يُعلم أنّه سمعه من عطاء⁽¹⁾.

وَضَعَّفَهُ المازريُّ (ت 536هـ) في المُعَلِّمِ بقوله: " قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " إذا قاتل
أحدكم أخاه فليجتنب الوجه؛ فإنّ الله خلق آدم على صورته "، هذا الحديث ثابت عند أهل النقل، وقد
رواه بعضهم، "إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن" ولا يثبت هذا عند أهل النقل، ولعلّه نُقِلَ من رايه
بالمعنى الذي توهمه، وظنّ أنّ الضمير عائد على الله - سبحانه - فأظهره وقال: "على صورة
الرحمن"⁽²⁾.

وَضَعَّفَهُ الألبانيُّ (ت 1420هـ) وأعلّله بعلّة رابعة زائدة على علل ابن خزيمة بقوله: "والعلّة
الرابعة: هي جرير بن عبد الحميد؛ فإنّه وإن كان ثقة كما تقدّم، فقد ذكر الذهبي في ترجمته من
"الميزان" أنّ البيهقي ذكر في "سننه" في ثلاثين حديثاً لجرير بن عبد الحميد قال: " قد نُسِبَ في آخر
عمره إلى سوء الحفظ "⁽³⁾.

¹ كتاب التوحيد لابن خزيمة 97/1. وانظر: صحيح الأنباء المسند من أحاديث الانبياء 40/1-41.

² المازري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن عمر التميمي (ت 536هـ)، المُعَلِّمِ بفوائد مسلم، تحقيق فضيلة الشيخ مُحَمَّد الشاذلي النيفر، الدار
التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط2 1988م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م، ج3، ص299، حديث رقم 1196.

³ سلسلة الأحاديث الضعيفة 317/3، وانظر: موسوعة الألباني في العقيدة 7/787، والهالي، أبو أسامة سليم بن عيد، صحيح الأنباء
المسند من أحاديث الأنبياء، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1 1429هـ، ج1، ص41-45 (الهامش).

وأعلّه محقق⁽¹⁾ كتاب التوحيد علّة خامسة⁽²⁾، وقد أعلّ الإمام أحمد هذه الزيادة في رواية المروزي بقوله: "وأما الثوري فيوقفه يعني حديث ابن عمر"⁽³⁾، وقد صحّ الحديث جمع من العلماء سبق ذكرهم⁽⁴⁾.

وكما أنّ رواية "على صورة الرحمن" اختلفت فيها من ناحية النقل، فإنّها أيضاً اختلفت فيها من ناحية اللغة على قولين:

أما الأوّل: فقالوا لا يصحّ من حيث اللغة، إذ لا يستقيم اللسان بإعادة ذكر اسم ظاهر يعود إلى اسم ظاهر متقدّم عليه؛ لأنّ الاسم الظاهر إذا تقدّم فأعيد ذكره كُنِيَ عنه بالهاء من غير أن يُعاد الاسم الظاهر الأوّل، إذ إنّنا نقول لزيد إذا أكرم غلامه: أكرم زيد غلامه، ولا نقول أكرم زيد غلام زيد؛ لأنّه يُفهم من ذلك أنّ الإكرام إنّما حصل لغلام رجل آخر اسمه زيد، وإذا لم يكن سائغاً من جهة اللغة، لم يكن للاستعمال له وجه.

فتكون الرواية عند هؤلاء ضعيفة من حيث اللغة، فيجتمع فيها الضعف رواية ولغة.

وأما القول الثاني: فقالوا يصحّ ذلك في العربية، إذ ورد في القرآن الكريم، وأشعار العرب ما يجوز ذلك، قال - تعالى - : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85]، ولم يقل - سبحانه - إينا أو إليه، وقال - تعالى - : ﴿فَلَا تَصْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [النحل: 74]، ولم يقل إنّهُ يعلم، وقال - تعالى - : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [لقمان: 25]، ولم يقل الحمد له.

وقال عدي بن زيد⁽⁵⁾:

¹ وهو الدكتور سمير الزهيري - حفظه الله - .

² انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة 95/1 (الهامش).

³ انظر: الفراء، أبو يعلى مُحمّد بن الحسين (ت 458هـ)، إبطال التأويلات لأخبار الصفات، تحقيق أبي عبد الله مُحمّد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت - الجاهراء، (د.ت)، ج1، ص90-91 و 95. وصحيح الأئبياء المسند من أحاديث الانبياء ص28 (الهامش).

⁴ انظر: عقيدة أهل الإيمان ص16-42.

⁵ هو عدي بن زيد بن حمار بن زيد بن تميم، يكنى أبا عمر نصراني عبادي، سكن الحيرة فلان لسانه وسهل منطقة، وكان أنيل أهل الحيرة وأجودهم منزلة، وكان كاتباً لكسرى هو وأخ له يقال له: عمير بن زيد، وكان يحب الصيد واللهو، انظر: المرزباني، الإمام أبو عبيد الله مُحمّد

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً⁽¹⁾ نَعَصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا⁽²⁾.

فأعاد ذكر الموت بلفظه، ولم يُكَنَّ عنه بالهاء ولم يقل لا أرى الموت يسبقه شيء.

وعليه فإن الرواية عند هؤلاء صحيحة من حيث اللغة، ويبقى ضعفها من حيث الرواية⁽³⁾.

فيما يرى الباحث أن الظاهر من الشواهد القرآنية والشعرية أن القول الراجح هو: القول الثاني، بمعنى أنه يجوز في العربية إعادة ذكر اسم ظاهر يعود إلى اسم ظاهر متقدم عليه، والسياق بيّنه. وعليه فإن الحديث ضعيف من حيث الرواية، ولا يصح للعلل التي أوردها أهل الصنعة الحديثية قديماً، وحديثاً كما بيّناها آنفاً. ولكن يبقى الفيصل في هذه المسألة لبيان عود الضمير هو اللغة.

فالأصل في اللغة: أن الضمير إذا سبقه مفسران أو أكثر فإنه يعود إلى أحدهما بقرينة تدل عليه، فإن لم يكن هناك قرينة تدل على أحدهما فإنه يعود إلى أقرب مذكور في الكلام.

وحديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " خلق الله آدم على صورته " فيه مفسران هما: لفظ الجلالة (الله)، وآدم - عليه السلام - والضمير في (صورته) يعود إلى أحدهما، ولما لم يتعين المفسر الذي يعود إليه الضمير، ولا توجد قرينة تدل على أحدهما، كان لزاماً أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور إلى الضمير هو آدم - عليه السلام -.

وعليه فإن الضمير في حديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعود إلى آدم - عليه السلام -،

بمعنى أن الله - سبحانه - خلق آدم على صورة آدم - عليه السلام - التي خلقه عليها بيده⁽⁴⁾.

= بن عمران (ت 384هـ)، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2 1402هـ، ص 249-250.

¹ وردت في الديوان شيئاً والصواب ما أثبتناه.

² العبادي، عدي بن زيد (ت 587م - 35 ق.هـ)، ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق وجمع محمد جبار المعبيد، وزارة الثقافة والإرشاد (سلسلة كتب التراث)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع - بغداد، ط 1965م، ص 65.

³ انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات للفراء 92/1. والبيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 405/16. والآتي، الإمام أبو عبد الله محمد بن خلفه الوشتاني (ت 827 أو 828هـ)، إكمال إكمال المعلم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ج 7، ص 54.

⁴ قال الله - تعالى - لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ^ط ﴾ [ص: 75]، وانظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة، باب ذكر إثبات اليد لله الخالق البارئ - جلّ وعلا - 126/1، حديث رقم 62، والذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد =

ولذلك قال الخطّابي (ت 388هـ) فيما نقله عنه البيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات: "قوله: "خلق الله آدم على صورته" الهاء وقعت كناية بين اسمين ظاهرين، فلم تصلح أن تُصرّف إلى الله - عزّ وجلّ -" (1).

وقال أبو الوليد القرطبي (ت 520هـ) في البيان والتحصيل: "ومنها أنّ الكناية في قوله على صورته راجعة إلى الله - عزّ وجلّ -، وهو أضعف التأويلات؛ لأنّ الأولى أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور، إلّا أن يدل دليل على رجوعه إلى الأبعد، ولا دليل على ذلك" (2).

وقال أبو العباس القرطبي (ت 656هـ) في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: "وقوله: "خلق الله آدم على صورته" هذا الضمير عائد إلى أقرب مذكور، وهو آدم، وهو أعمّ، وهذا الأصل في عود الضمائر" (3).

وقال العيني (ت 855هـ) (4) في عمدة القاري: "قوله: (على صورته) أي صورة آدم؛ لأنّه أقرب" (5) يعني أقرب مذكور للضمير.

وتؤيّد قولَ القائلين بأنّ الضمير يعود إلى آدم - عليه السلام - روايةٌ "طوله ستون ذراعاً" (6)، فتكون اللغة قد وافقت النقل في بيان عود الضمير، ورفع الإشكال، وإزاحة التشابه، كما بيّن ذلك

= (ت 748هـ)، مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، حققه واختصره مُحمّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط 1412هـ، ص 248.

¹ الأسماء والصفات للبيهقي 61/2، حديث رقم 635.

² البيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 405/16.

³ القرطبي، أبو عباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت 656هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محيي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط 1417هـ، ج 7، ص 183.

⁴ هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبو مُحمّد، بدر الدين العيني الحنفي: مؤرخ، علامة، من كبار المحدثين. أصله من حلب ومولده في عينتاب (والتيها نسبته) أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس. وولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون، وتقرّب من الملك المؤيّد حتى عدّ من أخصّائه. ولما ولي الأشرف سامره ولزمه، وكان يكرمه ويقدمه. ثم صرف عن وظائفه، وعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي بالقاهرة. من كتبه (عمدة القاري في شرح البخاري - ط) أحد عشر مجلداً، و (مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار - خ) مجلداً، في مصطلح الحديث ورجاله، و (العلم الهيب في شرح الكلم الطيب - خ) لابن تيمية، و (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - خ) كبير، انتهى فيه إلى سنة 850 هـ. انظر: الأعلام للزركلي 163/7.

⁵ العيني، أبو مُحمّد محمود بن أحمد (ت 855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ت)، ج 22، ص 229.

⁶ انظر: التخرّيج ص 176، هامش رقم 11.

القاضي عياض (ت 544هـ) في إكمال المعلم بفوائد مسلم بقوله: " وقوله هنا: " طوله ستون ذراعاً " بيّن الإشكال، وبزيج التشابه، ويوضح أنّ الضمير راجع إلى آدم نفسه "(1).

وختلاصة القول:

فإنّ الباحث يرى أنّ الضمير في قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " خلق الله آدم على صورته " يعود إلى آدم - عليه السلام - للأدلة النقلية، واللغوية التي ذكرناها سابقاً، ويكون بذلك مؤيداً لما ذهب إليه ابن بدران - رحمه الله تعالى - صاحب العلم الزاخر، والاطلاع الباهر في معرفته، ودرايته بعلوم الحديث واللغة.

فالمعنى أنّ الله - سبحانه وتعالى - أوجد آدم - عليه السلام - على هيئته التي خلقه عليها طوله ستون ذراعاً، إذ إنّهُ لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردّد في الأرحام أطواراً، فلم يخلّفه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خلقه رجلاً كاملاً سوياً قوياً، بخلاف السنّة التي جعلها الله - عزّ وجلّ - في ذريّته، أن يكونوا نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم يصيروا صوراً أجنّة في الأرحام إلى أن تتم مدة الحمل، فيولدون وينشؤون صغاراً إلى أن يكبروا، فيتمّ طول أجسادهم، فآدم - عليه السلام - لم يكن خلقه على هذه الصفة، ثم إنّ الله - عزّ وجلّ - خلقه يوم خلقه على الصورة التي كان عليها بالأرض، إذ إنّهُ - عليه السلام - لم يكن في الجنّة على صورة أخرى مغايرة، فصورته في الجنّة هي صورته في الأرض، فلم تختلف صفاته، ولا صورته، كما تختلف صفات، وصور الملائكة، والجنّ(2).

فصل:

مماً ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام، إثبات الصورة لله - عزّ وجلّ - من غير تمثيل، ولا تكيف، ولا تعطيل، فكما أنّنا نُؤمن، ونثبت ما جاء في القرآن الكريم من صفات لله - سبحانه - من

¹ القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1 1419هـ، ج8، ص374.

² انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي، 183/7-184. وشرح السنة للبخاري 255/12. وإكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 374/8. وعمدة القاري للعيني 229/22. والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 178/17. وفتح الباري 366/6. وغريب الحديث للخطابي 158/2.

اليدين، والأصابع، والعين؛ فإننا نُنْبِتُ ما جاء في السنّة النبويّة الصحيحة من صفات لله - سبحانه وتعالى -.

قال ابن قتيبة (ت 276هـ) في تأويل مختلف الحديث: "والذي عندي - والله أعلم -: "أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع، والعين، وإنما وقع الإلْفُ لتلك؛ لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة لهذه؛ لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفيّة ولا حدّ" (1).

فقد ثبت في أحاديث صحيحة صفة الصورة لله - تعالى - غير الحديث الذي كُنّا بصدده وبيئنا ضعفه وهو رواية "على صورة الرحمن". فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في الشفاعة مرفوعاً، وفيه "فيأتيهم الله - تعالى - في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه،... " الحديث (2).

وحديث اختصاص الملائكة الأعلى، وفيه "رأيت ربي في أحسن صورة" (3).

فنحن وإن كُنّا اخترنا بعض أقوال السلف في تفسير قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "على صورته" على من يعود الضمير؛ إلا أننا نتفق معهم جميعاً في إثبات هذه الصفة لله (4).

¹ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص322.

² صحيح البخاري 128/9، حديث رقم 7437، باب وجوه قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿١٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: 22-23].

³ ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحّاك (ت 287هـ)، الأحاد والمثاني، تحقيق د.باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراجعية - الرياض، ط1 1411هـ، ج5، ص48، حديث رقم 2585. والبيّزاري، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت 292هـ)، البحر الزخار، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1 1988-2009م، ج11، ص42، حديث رقم 4727. والتوحيد لابن خزيمة 191/1. والمعجم الكبير للطبراني 317/1، حديث رقم 938، والدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد (ت 385هـ)، رؤية الله، تحقيق إبراهيم محمّد العلي وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، سنة النشر 1411هـ، ص323 و 326 و 347، حديث رقم 239 و 241 و 267. والدارمي، أبو محمّد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت 255هـ)، سنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1 1412هـ، ج2، ص1365، حديث رقم 2195، ومختصر العلو للعلي العظيم للذهبي 119/1. وموسوعة الألباني في العقيدة 113/6. والألباني، أبو عبد الرحمن محمّد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي (ت 1420هـ)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف - الرياض، ط1 1415هـ، ج1، ص12، و ط1 1422هـ، ج7، ص502 و 505، حديث رقم 3169.

⁴ صحيح الأنبياء المسند من أحاديث الأنبياء ص28 (الهامش).

قال الذهبي (ت 748هـ) في ميزان الاعتدال: " أمّا معنى حديث الصورة فنردّ علمه إلى الله ورسوله، ونسكت كما سكت السلف مع الجزم بأنّ ليس كمثلته شيء " (1).

ثمّ إنّ الذين صحّحوا رواية " على صورة الرحمن " وقالوا بعود الضمير إلى الرحمن لم يقولوا بتشبيه الرّب وتمثيله، ولم يخرجوا عن عقيدة أهل السنّة، والجماعة في إمرار آيات الصفات، وأحاديثها على ظاهرها من غير تحريف، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، بل يثبتون أسماءه، وصفاته إثباتاً بلا تمثيل، وينزّهونه - سبحانه - عن مشابهة خلقه تنزيهاً بلا تعطيل، خلافاً لأهل البدع من المعطّلة والمشبهة (2).

وأختم القول بكلام نفيس للإمام الذهبي (ت 748هـ) - رحمه الله -: " إنّنا نُؤمِنُ بما صحّ منها، وبما اتفق السلف على إمراره، وإقراره، فأماً ما في إسناده مقال، أو اختلف العلماء في قبوله وتأويله، فإنّا لا نتعرّض له بتقرير، بل نرويه في الجملة، ونبيّن حاله " (3).

¹ ميزان الاعتدال 420/2.

² انظر: صحيح الأتباء المسند عن أحاديث الأنبياء ص 27 (الهامش). وانظر: ابن القيم، مُحمّد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، مختصر الصواعق المرسلّة على الجهميّة والمعطّلة، اختصره ابن الموصلي مُحمّد بن مُحمّد بن عبد الكريم (ت 774هـ)، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة - مصر، ط 1 1422هـ، ص 5390.

³ مختصر العلو للعلّي العظيم للذهبي 92/1.

المسألة التاسعة:

أثر دلالة زمن الفعل في بيان استمرار جرائم اليهود في قوله - تعالى - : ﴿فَاِمْرًا

تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 91].

قال ابن بدران - رحمه الله - : " وفي الإتيان بصيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة، ورمزٌ إلى أنهم لو قَدَرُوا الآن لَفَعَلُوا مثل فعل أسلافهم؛ لأنَّ التَّقْدِيرَ: وتصرون على قتلهم من بعد، وفيه إيحاءٌ إلى حرصهم على قتل النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، تحذيراً منهم، ولقد صدَّق هذا الإيحاء الواقِعُ، فقد عزم بنو النضير على أن يُلقوا صخرةً على النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسمَّه أهل خيبر " (1).

اعتمد ابن بدران على قاعدة نحويّة في جواز الخطاب بالمستقبل لأمر قد مضى؛ لبيان مراد الله - عزّ وجلّ - في إخباره عن اليهود.

والإرادة بمثال المضارع الماضي مذهب سيبويه(2).

قال سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب: "وقد تقع (نفع) في موضع (فعلنا) في بعض المواضع، ومثل ذلك قوله(3) لرجل من بني سلولٍ مؤلِّدٍ:

ولقد أمرُّ على اللّئيم يسبُّني فمضيتُ ثمَّتَ قلتُ لا يعنيني

واعلم أنّ (أسير) بمنزلة (سرت) إذا أردت (بأسير) معنى (سرت) " (4).

¹ جواهر الأفكار ص 262-263.

² انظر: التفسير البسيط للواحدى 3 / 185 و 15 / 341.

³ هو شمر بن عمرو الحنفي، جاهلي، انظر: الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)، الأصمعيات اختيار الأصمعي، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر - عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف - مصر، ط 7 1993م، ص 126، وفيه: ولقد مررت على اللئيم....

⁴ الكتاب لسبويه 24/3.

وقد رجَّحَ مَذْهَبَ سيبويه جَمَهْرَةً من علماء اللغة والنَّحْوِ في جواز وضع المضارع موضع الماضي⁽¹⁾.

وقد اهتموا به أيما اهتمام، فأفردوا له أبواباً في بطون كتبهم؛ لأهميته، وكثرة وروده في القرآن الكريم واستعمال العرب له في لغتهم وأشعارهم.

قال ابن فارس (ت 395هـ)⁽²⁾ في كتابه الصحابي في فقه اللغة: " باب الفعل يأتي بلفظ الماضي، وهو راهنٌ، أو مستقبلٌ، و بلفظ المستقبل وهو ماضٍ: قال الله - جلّ ثناؤه -: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: 110] أي: أنتم. وقال - جلّ ثناؤه -: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: 1] أي: يأتي. ويجيء بلفظ المستقبل، وهو في المعنى ماضٍ. قال الشاعر:

ولقد أمرٌ على اللئيم يسبني فَمَضَيْتُ عنه⁽³⁾ وقلتُ لا يعنيني⁽⁴⁾

فقال " أمرٌ " ثم قال: " مضيتُ ". وقال⁽⁵⁾:

¹ انظر: الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت 666هـ)، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، تحقيق د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية - الرياض، ط 1، 1413هـ، ج 1، ص 236، والكشف والبيان للثعلبي 9/2، ومعالم التنزيل للبخاري 176/1، ومدارك التنزيل للنسفي 110/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1، وتفسير القرآن للسمعاني 109/1.

² هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن مُحَمَّد بن حبيب الرازي اللغوي؛ كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فأثَّه أتعنها، وألَّف كتابه " المجمل في اللغة "، وهو على اختصاره جمع شيناً كثيراً، وله كتاب " حلية الفقهاء "، وله " رسائل أنيقة "، و " مسائل في اللغة "، ويعاين بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطبية، وهي مئة مسألة. وكان مقيماً بهمدان، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات. توفي سنة تسعين وثلاثمائة - رحمه الله تعالى - بالري، ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. وقيل: إنَّه توفي في صفر سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالمحمّدية، والأول أشهر. من تصانيفه (مقاييس اللغة)، و (المجمل)، و (الصحابي) في علم العربية، ألَّفه لخزانة الصحاح ابن عباد، و (جامع التأويل) في تفسير القرآن، و (النيروز) في نوادر المخطوطات، و (الإتباع والمزاوجة) و (الحماسة المحدثه) و (الفصيح) و (تمام الفصيح) و (متخير الألفاظ) و (نم الخطأ في الشعر) و (اللامات) و (أوجز السير لخير البشر)، و (كتاب الثلاثة) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة، وله شعر حسن. انظر: وفيات الأعيان 118-119، والأعلام للزركلي 193/1.

³ هكذا في الأصل، وأظنها (نُمت)، انظر: ص 188.

⁴ انظر: ص 188، هامش رقم 3-4.

⁵ انظر: أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 1، 1412هـ، ص 107. وفيه: رأيتني منكم في كُوفان. بلا عزو. وغريب الحديث للخطابي 189/2، بدون عزو. ولسان العرب 311/9، مادة " كُوف " قال: وأنشد ابن بَرِّي، وفيه: وإني منكم في كُوفانٍ والكُوفان (بتشديد الواو): الاختلاط والشدة والعناء.

وما أُضْحِي وَلَا أَمْسَيْتُ إِلَّا رَأُونِي مِنْهُمْ فِي كَوْفَانٍ (1)

وفي كتاب الله - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]

وقال: ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ ﴾ [البقرة: 102] أي ما تَلَّتْ. وقال آخر (2):

وَنَدْمَانِ يَزِيدُ الْكَأْسَ طِيبًا سَقَيْتُ إِذَا تَعَوَّرَتِ النُّجُومُ " (3).

وأَيَّدَهُ أَبُو مَنْصُورِ الثَّعَالِبِيِّ (ت 429هـ) (4) فِي فَهْمِ اللُّغَةِ وَسِرِّ الْعَرَبِيَّةِ (5).

وقال ابن هشام (ت 761هـ) في المغني: " القاعدة السادسة: أنهم يُعَبَّرُونَ عن الماضي والآتي، كما يُعَبَّرُونَ عن الشيء الحاضر؛ قصداً لإحضاره في الذهن، حتى كأنه مُشَاهِدٌ حالة الإخبار " (6).

وجاء في المزهَرُ لِلْسَيُوطِيِّ (ت 911هـ): "ومن سنن العرب أن تأتي بالفعل بلفظ الماضي، وهو

حاضر، أو مستقبل، أو بلفظ المستقبل، وهو ماضٍ نحو قوله - تعالى -: ﴿ آتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: 1]

¹ في الأصل كرفان، والصواب (كَوْفَان)، انظر: هامش (4).

² هو البرج بن مسهر بن جلاس بن الأرت الطائي: شاعر، من معمرى الجاهلية. كانت إقامته في ديار طَيْئِ (بلاد شمر، اليوم) بنجد. اختار أبو تمام (في الحماسة) أبياتا من شعره. وله خبر مع سواد بن قارب الدوسي أيام كهانته قبل الإسلام (ت نحو 30 ق هـ). انظر: الأعلام للزركلي 47/2، و الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد (ت 356هـ)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت، ط2، ج14، ص14، وانظر مُغْنِي اللَّيْبِيبِ فِي شَرْحِ الشُّوَاهِدِ 130/1.

³ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر مُحَمَّدُ عَلِي بِيضُون، ط1 1418هـ، ص167.

⁴ هو أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيلِ الثَّعَالِبِيِّ النَّيْسَابُورِيِّ؛ قال ابن بسام صاحب " الذخيرة " في حقه: " كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنِّفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغرب طلوع النجم في الغياهب، وتواليه أشهر مواضع وأبهر مطالع وأكثر راو لها وجامع، من أن يستوفيهما حد أو وصف، أو يوفيهما حقوقها نظم أو رصف، وله من التواليف (بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر) وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها، وله أيضاً كتاب (فقه اللغة) و (سحر البلاغة وسر البراعة) و (من غاب عنهم المطرب) و (مؤنس الوحيد) وشيء كثير جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة اطلاعه. وله أشعار كثيرة. وكانت ولادته سنة خمسين وثلاثمئة وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة - رحمه الله تعالى - . والثعالبي: بفتح التاء المثلثة والعين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وبعدها باء موحدة هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل له ذلك لأنه كان فراء. انظر: وفيات الأعيان 178/3-180.

⁵ انظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيلِ (ت 429هـ)، فقه اللغة وسرُّ العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1 1422هـ، ص228.

⁶ مغنى الليبي 905/1.

أي يأتي. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: 110] أي أنتم. ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ ﴾ [البقرة: 102] أي ما تَلَّتْ " (1).

وجاء في معاني النَّحْوِ للسَّامِرَائِيِّ عند ذكر أزمنة الفعل المضارع، وبيان أنَّه يدلُّ على أزمنة متعدّدة منها: دلالاته على المُضِيِّ، ويكون ذلك في مواضع منها: " حكاية الحال الماضية: والمقصود بحكاية الحال الماضية أن يُعبَّرَ عن الحدث الماضي بما يدلُّ على الحاضر، استحضاراً لصورته في الذهن كأنَّه مشاهد مرئي في وقت الإخبار... ومثله قوله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]؛ فالقتل حصل فيما مضى، ألا ترى إلى قوله: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ ولكنَّه عبَّرَ عنه بالفعل المضارع؛ استحضاراً لهذه الصورة الشنيعة من قتل أنبياء الله، فخلع على المشهد صورة الحياة، والحركة بجعله ماثلاً أمام عين الرائي " (2).

ويرى الباحث بعد الاطلاع على أقوال علماء اللُّغة، والنَّحْوِ، والتفسير في قوله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أنهم يُجَوِّزون وضع المضارع موضع الماضي، والآية شاهد على ذلك. ولكنَّهم اختلفوا في تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] على قولين (3):

أما القول الأوَّل: قالوا: إنَّ معنى الآية ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]: فَلِمَ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ، وذهب إلى هذا القول بعض البصريين (4).

قال الأخفش (ت 215هـ) في معاني القرآن: " و (تَقْتُلُونَ) في معنى (قَتَلْتُمْ) كما قال الشاعر:

فَمَضِيَّتُ ثُمَّتْ قُلْتُ لَا يَعْنِينِي

ولقد أمرُّ على اللئيم يَسْبِينِي

¹ المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي 1 / 265.

² معاني النَّحْوِ للسَّامِرَائِيِّ 288/3-289.

³ انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 2/350-353.

⁴ انظر: المرجع السابق 2/350-351.

يريد " لقد مرتت " بقوله " أمر " (1).

وذهب جمع من المفسرين إلى هذا القول منهم:

مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ يقول: فلم قتلتم أنبياء الله من قبل؟ يعني آباءهم وقد جاءوا بالآيات، والقريان (2).

والثعلبي (ت 427هـ)(3) في تفسيره بقوله: " وقد تضع العرب لفظ الاستقبال موضع المضي

كقوله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أي قتلتم (4).

والجرجاني (ت 471هـ) في تفسيره بقوله: " (تقتلون) مستقبل بمعنى الماضي بدلالة قوله:

﴿ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: 183] (5).

والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: " وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي، كما قال

الله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أي فلم قتلتموهم (6).

وأبو القاسم النيسابوري (ت 550هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ

قَبْلُ ﴾، والمُرَاد: لِمَ قَتَلْتُمْ؛ لَأَنَّهُ كَالصِّفَةِ اللَّازِمَةِ لَهُمْ، كَقَوْلِكَ لِلكَاذِبِ: لِمَ تَكْذِبُ؟ بِمَعْنَى: لِمَ كَذَبْتَ (7).

¹ معاني القرآن للأخفش 144/1-145، وانظر: إعراب القرآن للباقولي 103/1، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري 93/1، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي 131/3، وشرف الدين، جعفر، الموسوعة القرآنية، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط 1420، ج 1، ص 216-217.

² تفسير مقاتل بن سليمان ص 123.

³ هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور؛ كان أوجد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير. وله كتاب "العرائس في قصص الأنبياء" - صلوات الله وسلامه عليهم - وغير ذلك. ذكره السمعاني وقال: يقال له: الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له وليس بنسب، قاله بعض العلماء. توفي سنة سبع وعشرين وأربعمئة، وقال غيره: توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمئة. وقال غيره: توفي يوم الأربعاء لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمئة - رحمه الله تعالى - . والثعلبي بفتح الناء المثناة وسكون العين المهملة وبعد اللام المفتوحة باء موحدة. انظر: وفيات الأعيان 79/1-80.

⁴ الكشف والبيان من تفسير القرآن 9/2، وانظر: تفسير القرآن للسمعاني 109/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1.

⁵ درج الدرر في تفسير الآي والصور للجرجاني 231/1.

⁶ معالم التنزيل في تفسير القرآن 176/1.

⁷ إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري 114/1، وانظر: النكت والعيون للماوردي 159/1.

والنسفي (ت 710هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾، أي: فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي "(1).

وأبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " وجاء يقتلون بصورة المضارع، والمُراد الماضي، إذ المعنى: قل فلم قتلتم، وأوضح ذلك أنّ هؤلاء الذين بحضرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يصدر منهم قتل الأنبياء، وأنه قيّد بقوله: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾، فدلّ على تقدم القتل "(2).

أما القول الثاني: قال بعض نحويي الكوفيّين: إنما قيل: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾، مخاطبهم بالمستقبل من الفعل، ومعناه الماضي "(3).

وقال الفراء (ت 207هـ) في معاني القرآن: " وقوله: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]، وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة، إنّما قتل الأنبياء أسلافهم الذين مَضَوْا فتولّوهم على ذلك، ورضوا به فنُسِبَ القتل إليهم "(4).

قال مساعد الطيّار في كتابه " التفسير اللغوي للقرآن الكريم " تحت عنوان الأسلوب العربي في الخطاب القرآني إنّ الفراء قد بيّن كثيراً من الأساليب العربية النحوية واستشهد منها بأمثلة توضّحها، ثم نقل كلام الفراء في معاني القرآن (5) بتمامه وكمالته تحت عنوان الخطاب بالمستقبل لأمرٍ قد مضى: " بيّن الفراء (ت 207هـ) في هذا النصّ أنّه جاز الحديث عن الماضي بفعل دالّ على الاستقبال؛ لأنّ في الكلام دليلاً على إرادة الماضي... كما بيّن الفراء (ت 207هـ) أنّه جاز خطاب الحاضرين

¹ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 1/110. وانظر: الإشبيلي عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688هـ)، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، تحقيق علي بن سلطان الحكمي، الجامعة الإسلامية بالدينة المنورة، الطبعة: الأعداد 85 - 100 السنوات 22 - 25 المحرم 1410 هـ - ذو الحجة 1413 هـ، ج1، ص362، والموسوعة القرآنية خصائص السور 4/252.

² البحر المحيط 1/493.

³ جامع البيان للطبري 2/352.

⁴ معاني القرآن للفراء 1/61.

⁵ انظر: المرجع السابق 1/60-61.

بما فعله الأسلاف منهم؛ لرضاهم بهذا العمل، حتى صاروا كأنهم فعلوه بأنفسهم، إذ الرّاضي كالفاعل، وما دُكر من نَسبِ القتلِ إلى حاضري التنزيل أسلوب عربي عريق⁽¹⁾.

وقال الرّجّاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه: " فإن قال قائل فلم قيل لهم: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾، وهؤلاء لم يقتلوا نبياً قط؟ قيل له: قال أهل اللغة في هذا قولين: أحدهما إنّ الخطاب لمن شوهد من أهل مكّة ومن غاب خطاب واحد، فإذا قتل أسلافهم الأنبياء وهم مقيمون على ذلك المذهب، فقد شركوهم في قتلهم، وقيل أيضاً: لم رَضِيتُم بذلك الفعل؟ وهذا القول الثاني يرجع إلى معنى الأول. وإنّما جاز أن يُذكر هنا لفظ الاستقبال والمعنى المُضَيِّ لقوله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾⁽²⁾.

وذهب إلى هذا القول الجصاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن بقوله: " ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾⁽³⁾ فأضاف القتل إليهم، وإن لم يباشروه، ولم يقتلوه إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين " ⁽³⁾.

والزركشي (ت 794هـ) في البرهان بقوله: " والمخاطبون على عهد النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يقتلوا الأنبياء إنّما باشره آباؤهم، لكنّ مذهبهم في ذلك واحد " ⁽⁴⁾.

وقال بهذا القول جمع من المفسرين منهم:

الواحدي (ت 468هـ) في تفسيره بقوله: " وأضاف القتل ها هنا إلى المخاطبين، وإن كان آباؤهم قتلوا؛ لأنهم كانوا يتولون الذين قتلوا منهم على مذهبهم، وإذا كانوا على ذلك المذهب فهم

¹ الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط 1432هـ، ج 1، ص 294، وانظر: المرجع نفسه 292/1-293.

² معاني القرآن وإعرابه للرجّاج 175/1.

³ أحكام القرآن للجصاص 319/2، وانظر المرجع نفسه 287/2 و 332 و 202/4.

⁴ البرهان في علوم القرآن للزركشي 418/1.

شركوهم⁽¹⁾. ثم نقل كلام الأنباري (ت 328هـ) بقوله: " وقال ابن الأنباري: تأويله: فلم توليتم آباءكم القائلين ورضيتم ما كانوا عليه، وصوبتم أفعالهم "⁽²⁾.

وابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره بقوله: "ألا ترى أنّ حاضري مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما كانوا راضين بفعل أسلافهم، بقي لهم من قتل الأنبياء جزء "⁽³⁾.

والقرطبي (ت 761هـ) في تفسيره بقوله: " فالخطاب لمن حضر مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمراد أسلافهم. وإنما توجه الخطاب لأبنائهم؛ لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 81] فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم. وقيل: لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم. وجاء " تقتلون " بلفظ الاستقبال، وهو بمعنى الماضي لما ارتفع الإشكال بقوله: " من قبل ". وإذا لم يُشكل فجاز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضي، قال الحطية⁽⁴⁾:

شَهَدَ الحُطِيَّةَ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ⁽⁵⁾

شهد بمعنى يشهد " ⁽⁶⁾.

¹ التفسير البسيط للواحدى 156/3، وانظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 82/1، ومحاسن التأويل للقاسمي 352/1.
² التفسير البسيط للواحدى 156/3، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي 604/3، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 94/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1.
³ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 179/1. وانظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 304/3. وتأويلات أهل السنة للماتريدي 510/1. وفتح القدير للشوكاني 132-133. ومجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر، 1423هـ، ص 472. والبحر المحيط 493/1.
⁴ هو جرول بن أوس، من بني قطيعة بن عبس، ولقب الحطية؛ لقصره وقربه من الأرض ويكنى أبا مليكة، وكان رواية زهير، وهو جاهلي إسلامي، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأسلم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة 310/1، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني 149/2، والحطية، أبو مليكة جرول بن أوس (ت 45هـ)، ديوان الحطية برواية وشرح ابن السكيت (ت 246هـ)، دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميمة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1413هـ، ص 110.
⁵ ديوان الحطية برواية وشرح ابن السكيت ص 110، والأغاني 138/5 و 140.
⁶ الجامع لأحكام القرآن 30/2، وانظر: عناية القاضي وكفاية الرازي (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي) 204/2، والتحرير والتنوير لابن عاشور 608/1.

وَالسَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (ت 756هـ) فِي الدَّرِّ الْمَصُونِ بِقَوْلِهِ: " وَ ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ وَإِنْ كَانَ بَصِيغَةَ الْمَضَارِعِ فَهُوَ فِي مَعْنَى الْمَاضِي لِفَهْمِ الْمَعْنَى، وَأَيْضاً فَمَعَهُ قَوْلُهُ ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾، وَجَازَ إِسْنَادَ الْقَتْلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَتَعَاطَوْهُ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا رَاضِينَ بِفِعْلِ أَسْلَافِهِمْ جُعِلُوا كَأَنَّهُمْ فَعَلُوا هُمْ أَنْفُسَهُمْ " (1).

وَيُرَى الْبَاحِثَ بَعْدَ سَرْدِ أَقْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ وَبَيَانِ أُدْلَتِهِمْ، أَنَّ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ؛ إِذْ لَيْسَ نَمَّةً فَرْقٌ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْإِتْيَانَ بِبَصِيغَةِ الْمَضَارِعِ مَوْضِعَ الْمَاضِي يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ، فَالْقَتْلُ الْحَقِيقِيُّ وَالْجَرِيمَةُ النَّكْرَاءُ، وَسَفْكَ الدَّمَاءِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْأَصْفِيَاءِ، إِنَّمَا حَصَلَ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَسْلَافِهِمْ، فَلَمَّا أَقْرَبُوا بِهِ، وَرَضُوهُ كَانُوا شُرَكَاءَ هُمْ فِي مَا فَعَلُوا وَصَنَعُوا. وَلِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا فُعِلَتْ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَرِهَهَا، وَأَنْكَرَهَا بَرَأَ مِنْهَا، وَمَنْ رَضِيَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا (2).

وهذا ما ذهب إليه ابن بدران - رحمه الله تعالى - بقوله: " ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهَذَا الْقَتْلِ إِنَّمَا هُوَ بِطَرِيقَةِ الرِّضَاءِ بِقَتْلِ أَسْلَافِهِمْ، ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ " (3).
أَيُّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا كَمَا كَفَرَ آبَاؤُهُمْ، وَأَسْلَافُهُمْ مِنْ قَبْلِ جَرِيمَةِ الْقَتْلِ لِلْأَنْبِيَاءِ، حَقِيقَةً لِمَنْ سَلَفَ، وَالرِّضَا لِمَنْ خَلَفَ.

ثُمَّ لَمَّا أَعَقَبَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - جَرِيمَةَ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ دَلَّ ذَلِكَ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّمَا كَانَ قَبْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى الْمَاضِي، وَفِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى زِيَادَةِ طَمَأْنَةِ قَلْبِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذْ إِنَّهُ لَمْ وَلَنْ يَحْدِثْ مَعَهُ مَا حَدِثَ مَعَ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَتْلِ، وَسَفْكَ لِلدَّمَاءِ. قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - مَخَاطَباً نَبِيِّهِ: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ

¹ الدَّرِّ الْمَصُونِ فِي عُلُومِ الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ 517/1، وَانظُرْ تَفْسِيرَ الْبَابِ لِابْنِ عَادِلٍ 299/1.

² انظُرْ: تَفْسِيرَ الرَّاعِبِ الْأَصْفَهَانِيِّ 260/1 وَعِزَّاهَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، بِلَفْظٍ: " إِذَا عَمِلَ الْمَعْصِيَةَ، فَمَنْ أَنْكَرَهَا فَقَدْ بَرَأَ مِنْهَا، وَمَنْ رَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ فَعَلَهَا"، قَالَ الْبَاحِثُ: وَلَمْ أُجِدْ لَهُ تَخْرِيجاً فِي كِتَابِ الْحَدِيثِ وَلَكِنْ ذَكَرَهُ الْخَازِنُ فِي تَفْسِيرِهِ لِابْنِ التَّوَيْلِ 82/1 بِدُونِ عِزْوٍ.

³ جَوَاهِرُ الْأَفْكَارِ ص 262.

مِنَ النَّاسِ ﴿ [المائدة: 67] ، فأكدَّ الله - جلَّ وعزَّ - أنَّ ما جرى للأنبياء من قبلك لن يجري معك؛
لِيُثَبِّتَ قَلْبَ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وينزع الخوف من قلوب المؤمنين الذين معه.
فكفر اليهود بأنبيائهم أدى إلى قتلهم، وسفك دمائهم الزكيَّة، فلما كفر اليهود بالنبيِّ - صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أراد الله - عزَّ وجلَّ - أن يطمئن نبيِّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه وإن كفر بك
هؤلاء اليهود فإنهم لن يصلوا إليك ولن يؤذوك بشيء ، فأعقب الله - عزَّ وجلَّ - الآية بقوله: ﴿ مِن
قَبْلِ ﴾ يعني أنَّ ما حصل للأنبياء - صلوات الله عليهم جميعاً - من قتلٍ قد انتهى.

وبذلك فإنَّ الله - تعالى - يكون قد قطع آمال كل من تُسَوَّل له نفسه - من اليهود وغيرهم - إيذاء
النبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أو قتله، وأنهم لن يستطيعوا فعل آبائهم في قتل أنبيائهم والتخلُّص
من دعوتهم، رغم محاولاتهم التترا في ذلك، فقد همَّوا بقتل النبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مراراً (1)،
فمرَّة حاولوا إلقاء الصخرة عليه لما خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلوا
عمرو ابن أمية الضمري (2). ومرَّة دسَّوا له السمَّ في الشاة لما فُتحت خيبر، فأمر النبيُّ - صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجمع من كان من اليهود، فقال لهم: "هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟" قالوا: نعم (3).

ثمَّ إِنَّ الْإِتْيَانَ بصيغة المضارع له فائدتان في تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 91].

أما الأولى: فهي تصوير فظاعة، وشناعة ما اقترفه أسلافهم بأنبيائهم من قبل، وهم رُسلُ الله، وصفوة
خلقه، فإذا كان من العيب المشين، والجرم العظيم قتل رُسل الملوك، فكيف يرُسل ملك الملوك -
سبحانه -!؟.

¹ انظر: دراز، مُحَمَّد عبد الله (ت 1377هـ)، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة - الدوحة، ط 1985م، ص 124-125.
وتفسير الشعراوي - خواطر 1/463 و 3/1376 و 9/5495 و 15/9416 و 18/11220.

² انظر: ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت 213هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى
السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1375هـ، ج 1، ص 563.

³ انظر: صحيح البخاري، باب ما يذكر في سُم النبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - 7/139، حديث رقم 5777. ومشكاة المصابيح 3/1669،
حديث رقم 5935.

وقد أشار إلى ذلك ابن بدران - رحمه الله تعالى - بقوله: "وفي الإتيان بصيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة" (1).

وقال ابن عاشور (ت1393هـ) في التحرير والتنوير: "والإتيان بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مع أنّ القتل قد مضى؛ لقصد استحضر الحالة الفظيعة" (2).

وأما الفائدة الثانية: فهي الاستمرار، والمداومة، والتجدد. قال السامرائي في معاني النحو عند ذكر أزمنة المضارع: "الاستمرار التجديدي: وذلك كقوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة:245]، وكقوله: ﴿رَبِّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] ... فهذه الأحداث تتكرر باستمرار" (3).

فذكر المضارع بقوله - تعالى -: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 91]، يفيد الديمومة، والاستمرار في قتل اليهود للأنبياء.

وأشار إلى ذلك ابن بدران بقوله: "ورمز (4) إلى أنّهم لو قدروا الآن لفعّلوا مثل فعل أسلافهم؛ لأنّ التقدير: وتُصِرُّونَ على قتلهم من بعد، وفيه إيحاء إلى حرصهم على قتل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تحذيراً منهم، ولقد صدق هذا الإيحاء الواقع، فقد عزم بنو النضير على أن يلقوا صخرة على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسمّه أهل خيبر" (5).

قال الراغب الأصفهاني (ت502هـ) في تفسيره: "إنّ عادة العرب إذا أرادوا أن يخبروا عن تعاطي فعل مداوم عليه قرنوا لفظ الماضي بالمستقبل؛ تنبيهاً على المداومة عليه" (6).

¹ جواهر الأفكار ص262.

² التحرير والتنوير لابن عاشور 608/1.

³ معاني النحو للسامرائي 291/3.

⁴ يعني الإتيان بصيغة المضارع.

⁵ جواهر الأفكار ص262-263.

⁶ تفسير الراغب الأصفهاني 260/1.

وقال ابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره: " وفائدة سَوَّقِ المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمرٌ " (1).

وقال السيوطي (ت 911هـ) في الإتقان: " وعكسه (2) لإفادة الدوام، والاستمرار فكأنه وقع واستمر " (3).

واستمرارية جرائم اليهود لا تتوقف عند قتل أنبيائهم كما فعل أسلافهم، ومحاولتهم لقتل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفشلهم في ذلك لعصمة الله لنبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿ وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: 67]، بل تتعداه إلى قتل أتباع الأنبياء، وَمَنْ يَدْعُونَ بِدَعْوَتِهِمُ الْقُرْآنُ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ فِي تَارِيخِهِمْ، وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير من الآيات، والسور ومنها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَمَنْ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 91]؛ فساقتها الله بصيغة المضارع؛ لبيان استمرار قتلهم وجرائمهم، وعدائهم للأنبياء، وأتباعهم إلى يوم الدين؛ لأنهم يحسدونهم على ما عندهم من الحق

قال - تعالى - : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109] فعداء اليهود للمسلمين عداء عقيدة، ووجود، لا عداء أرض وحدود.

لذلك فإن جرائمهم تنرا إلى يومنا هذا، (بل إلى يوم القيامة) والواقع أدل دليل: وأكبر برهان على ذلك.

¹ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 179/1، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 493/1، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 83/1.

² أي إطلاق المستقبل على الماضي لذكر قبل هذا السياق إطلاق الماضي على المستقبل ثم قال وعكسه.

³ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 131/3، وانظر: روح المعاني للألوسي 324/1.

فقد أخبر النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ الدَّجَالِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: يتبع الدَّجَالُ من يهود أَصْبَهَانَ⁽¹⁾، سبعون ألفاً عليهم الطيالسنة⁽²⁾ " (3).

وختلاصة القول:

إنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ كان لها بالغ الأثر في الخروج من الخلاف بين العلماء في تأويل قوله - تعالى -: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]، إذ إنَّهَا الفَيْصَلُ في الجمع بين أقوال العلماء، وبيان المعنى المراد في الآية في إظهار جرائم اليهود بحق أنبياء الله، ورسله، ومن تبعهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك من خلال سياق الآية الكريمة في الإتيان بصيغة المضارع في موضع الماضي؛ لبيان جرائم السلف، واستمراره، وديمومته لبيان جرائم الخلف.

¹ أصبهان أو أصفهان وهي إحدى مدن إيران وتبعد 340 كم جنوب طهران، ويكثر فيها اليهود حالياً.

² الطيالسنة: الواحد الطيلسان أو الطيلسان، يعني خرقة وسخة ضمَّنها النار حين اقتدح. والطيلس والطيلسان ضرب من الأكسية وهو فارسي مُعَرَّب، انظر: لسان العرب مادة (طلس)، 6 / 125.

³ صحيح مسلم 207/8، حديث رقم 7502. والسلسلة الصحيحة للألباني 214/7، حديث رقم 3080. وصحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني 1328/2، حديث رقم 8016. وموسوعة الألباني في العقيدة 317/9.

المسألة العاشرة:

أثر التعريف والتكثير في كلمة ﴿حَيَوَةٌ﴾ في بيان استغراق تعلق اليهود بالدنيا

في قوله - تعالى - : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: 96].

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " (أحرص الناس على حياة)، والحرص: طلب الاستغراق فيما يختص فيه الحظ، والتكثير في الـ ﴿حَيَوَةٍ﴾ للإشارة إلى أنهم يحرصون على مطلقها، على أي صفة كانت، وهم قاطعون بأنه لا يخلو يوم منها عن كدر؛ فإنهم يعلمون أنّ الحياة، وإن كانت في غاية الكدر خير لهم ممّا بعد الموت " (1).

ومفاد كلامه - رحمه الله تعالى - أنّ اليهود يحرصون على مطلق الحياة، سواء أكانت رفيعة أم وضيعة، عزيزة أم ذليلة، رغيدة أم فقيرة، فالأمر عندهم سواء، مع علمهم أنّ الحياة يشوبها الكدر والهَمّ والغَمّ، ومع ذلك فإنّها بالنسبة إليهم أفضل من الموت وما بعده.

معتمداً بذلك على اللغة العربية في سبب تكثير كلمة ﴿حَيَوَةٌ﴾ في الآية الكريمة، للوقوف على توجيه المعنى لها، ومعرفة مراد الله منها.

وقد اختلف العلماء في سبب تكثير كلمة ﴿حَيَوَةٌ﴾ على قولين:

الأول: قالوا التكثير في ﴿حَيَوَةٌ﴾ تنبيه على أنه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة، أو أراد طول حياة.

الثاني: قالوا التكثير في ﴿حَيَوَةٌ﴾ تنبيه على أنه أراد مطلق حياة.

وللوقوف على القول الراجح في المسألة، وبينها، ومعرفة مراد الله منها لا بُدّ من الرجوع إلى باب التكثير لتعريفه، ومعرفة أسبابه، وأغراضه.

¹ جواهر الأفكار ص 268-269.

و " لَمَّا كَانَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ الْآتِيَةِ تُبْنَى عَلَى التَّعْرِيفِ وَالتَّكْبِيرِ وَكَانَا كَثِيرِي الدَّوْرِ فِي أَبْوَابِ الْعَرَبِيَّةِ، صَدَّرَ النُّحَاةَ كَتَبَ النُّحُو بِذِكْرِهِمَا بَعْدَ الْإِعْرَابِ وَالبِنَاءِ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسَ حُدُودَهُمَا وَلَيْسَ مِنْهَا حَدٌّ سَالِمٌ " (1).

وقد اهتمَّ به العلماء؛ لعظم شأنه، وجمال قدره في بيان المقصود من السياقات العربية شعراً، وثنراً، كما أنَّ له الأثر الكبير في توجيه المعنى في كثير من الآيات القرآنية.

تعريف النكرة:

فالنكرة: ما لم تُخصَّ الواحدَ من جنسه، نحو رجل و غلام (2).

وقال الهرمي (ت 702هـ) (3) في المحرر: " كل اسم شائع في جنسه لا يختصَّ به واحد دون آخر، كرجل و فرس " (4).

وقال ابن هشام (ت 761هـ) في شرح قطر الندى: " الاسم ضربان: نكرة، وهو ما شاع في جنس موجود: كرجل، أو مقدر: كشمس " (5).

وعلامه النكرة:

1. أن تقبل دخول (رُبَّ) عليها، نحو رجل و غلام، تقول "رُبَّ رجل" و "رُبَّ غلام".
 2. أن تقبل دخول (ال) عليها، نحو كتاب و مهندس، تقول الكتاب، و المهندس (6).
- وإذا أطلقت النكرة دلَّت على أحد أمرين:

¹ مع الهوامع في جمع الجوامع للسيوطي 218/1. وانظر: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للشاطبي 241/1.

² ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392هـ)، اللُّمَعُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية - الكويت، ص 98.

³ هو عمر بن عيسى بن إسماعيل، الهرمي بلدا الأشعري نسباً، أبو الخطاب: نحوي، أديب. من الحنفية. من أهل اليمن. كان مقيماً في صنعاء. له كتب، منها " المحرر - ط" في النُّحُو. انظر: الأعلام للزركلي 58/5.

⁴ المحرر في النُّحُو للهرمي 213/1. وانظر: صالح، عبد علي حسن، النُّحُو الْعَرَبِي - منهج في التعليم الذاتي، دار الفكر، الأردن - عمان، ط 1 2001م، ص 46، وانظر: فتح رب البرية شرح نظم الأجرومية ص 438.

⁵ شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ص 93.

⁶ انظر: اللُّمَعُ فِي الْعَرَبِيَّةِ ص 98، و فتح رب البرية شرح نظم الأجرومية 442/1، و المحرر في النُّحُو للهرمي 216/1، و شرح شذور الذهب ص 164، و المقاصد الشافية 242/1، و النُّحُو الْعَرَبِي ص 46، و النُّحُو الْوَاثِي 209 / 1، و مغالسة، محمود حسني، النُّحُو الشافي الشامل، دار المسيرة، عمّان، ط 1 1427هـ، ص 171.

1. إرادة الوحدة، نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [يس: 20].
2. إرادة الجنس، نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَنْعَبْتُكُمْ ﴾ [البقرة: 221].

وقد تحتل الجنس والوحدة معاً كقولك: (جاءني اليوم رجل) فهذا يحتمل أنه جاءك رجل واحد، ويحتمل أنه جاءك رجل لا امرأة (1).

أغراض التَّكْثِيرِ:

ومما ينبغي التنبيه إليه عند الحديث عن أغراض النكرة ومعانيها: " أن النكرة لم تُفدّها بطبيعتها، وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة، ويحدّد معناها، فكلّمة حياة مثلاً تدلّ على معناه المجرد، والمقام يهبّها معنى التحقير حيناً، والتعظيم حيناً آخر، والنوعيّة من موضع ثالث " (2).

ومن معاني وأغراض التَّكْثِيرِ المستفادة من المقام:

1. الإفراد نحو قوله - تعالى -: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَلِّكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ [الزمر: 29].
2. النّوعيّة نحو قوله - تعالى -: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].
3. التّعظيم نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: 6].
4. التّهويل نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة: 48].
5. التّكثير نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم: 3].
6. التّقليل نحو قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: 44].

¹ معاني النّحو للسامرائي 38/1.

² البديوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي (ت 1384هـ)، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، ط 2005م، ص 102.

7. التخصيص نحو قوله - تعالى - : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْظِمَ وَجُوهًا فَرَدَّهَا عَلَيَّ أَدْبَارَهَا ﴾ [النساء: 47] ، والمراد بالوجوه ههنا وجوه الكفار ، فالنكرة عامّة والمراد بها التخصيص.

8. التّحقير نحو قوله - تعالى - : ﴿ وَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ [البقرة: 96].

9. التّجاهل والاستهزاء نحو قوله - تعالى - : ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ

مُمرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ: 7] ، كأنهم لا يعرفونه⁽¹⁾.

ومنهم مَنْ لم يفرّق بين التّعظيم، والتكثير، ولا بين التّحقير، والتقليل كما بيّن ذلك القزويني

(ت 739هـ) في الإيضاح بقوله: "والسكّاي لم يفرّق بين التّعظيم، والتكثير، ولا بين التّحقير،

والتقليل... وفي كليهما نظر"⁽²⁾.

وقال سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب: "ويقول: أتاني اليوم رجلٌ، أي في قوّته، ونفاذه،

فتقول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضّعفاء"⁽³⁾، فيظهر من مثال سيبويه أنّه ثمة فرق بين التّعظيم،

والتكثير إذ المقصود في المثال التّعظيم لا التكثير.

من هنا نلاحظ أن الخلاف بين العلماء في تأويل كلمة ﴿ حَيَاتِهِمْ ﴾ في قوله - تعالى - :

﴿ وَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ [البقرة: 96]، ناشئ من الغرض الحقيقي للتكثير في كلمة

حياة.

فالذين قالوا: حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة اعتمدوا في ذلك أنّ الغرض من التّكثير

هو النّوعيّة، أي نوع من الحياة مخصوص، وهو الحياة الزائدة، كأنّه قيل " ولتجدنهم أحرص الناس-

وإن عاشوا ما عاشوا - على أن يزدادوا إلى حياتهم في الماضي، والحاضر حياة في المستقبل؛ فإنّ

¹ انظر: الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت، ط3، ج2، ص36. والهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط، وتدقيق، وتوثيق د.يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص121-122. والصعدي، عبد المتعال (ت 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17 1426هـ، ج1، ص93-95. ومعاني النحو للسامرائي ص39-40. والبرهان في علوم القرآن للزركشي 90/4-93. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي 346/2-347، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 202/1-203. ومن بلاغة القرآن ص102-104.

² الإيضاح في علوم البلاغة 38/2، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للصعدي 95/1.

³ الكتاب 55/1.

الإنسان لا يوصف بالحرص على شيء إلا إذا لم يكن ذلك الشيء موجوداً له حال وصفه بالحرص عليه " (1).

أمّا الذين قالوا حياة مطلقة أي مطلق حياة، اعتمدوا في ذلك أنّ الغرض من التّكثير هو التّحقير بمعنى أيّ حياة كانت، ولو كانت حقيرة مهينة⁽²⁾.

وممن قال بالقول الأوّل: إنّ الحياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة:

الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " فإن قلت: لم قال: على حياةٍ بالتّكثير؟ قلت: لأنّه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي⁽³⁾ (على الحياة)"⁽⁴⁾.

وأيدّه الرّازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله: "أي حياة كاملة تامة" ⁽⁵⁾، والنسفي (ت 710هـ) في تفسيره ⁽⁶⁾، وقال البيضاوي (ت 685هـ) في تفسيره: "وتكثير حياة؛ لأنّه أريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة"⁽⁷⁾. وقال الزركشي (ت 794هـ) في البرهان: "ولتجدّتهم أحرص الناس على حياة؛ لأنهم لم يحرصوا على أصل الحياة حتى تُعرف، بل على الازدياد من نوع، وإن كان الزائد أقلّ شيء ينطلق عليه اسم الحياة"⁽⁸⁾.

¹ الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجيل 36/2، وانظر: دلائل الإعجاز للجرجاني 288/1-289.

² معاني النّحو للسامرائي 40/1.

³ انظر: معجم القراءات 1 / 156.

⁴ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 168/1. وانظر: محاسن التّأويل للقاسمي 355/1. وانظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط 1418هـ، ج1، ص229. ولباب التّأويل في معاني التنزيل للخان 61/1.

⁵ مفاتيح الغيب 609/3 و 340/14، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 269/9.

⁶ مدارك التنزيل وحقائق التّأويل للنسفي 112/1.

⁷ أنوار التنزيل وأسرار التّأويل 95/1. وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 334/1. والمظهري، محمّد ثناء الله (ت 1225هـ)، التفسير المظهري، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرّشدية - باكستان، ط 1412هـ، ج1، ص101، وطنطاوي، محمّد سيد (ت 1431هـ)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار النهضة، مصر، الفجالة - القاهرة، ط 1997م، ج1، ص211، وروح المعاني للألوسي 329/1.

⁸ البرهان في علوم القرآن للزركشي 91/4، وانظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 346/2، ومباحث في علوم القرآن لمتاع القطن 202/1.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِالْقَوْلِ الثَّانِي: أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى مَطْلَقِ حَيَاةٍ.

أبو حَيَّان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " وهو أن يكون أحرص الناس على مطلق حياة؛ لأن من كان أحرص الناس على مطلق حياة، وهو تحققها بأدنى زمان، فَلَأَنْ يَكُونَ أَحْرَصَ عَلَى حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ أَوْلَى، وَكَانُوا قَدْ ذُمُّوا بِأَنَّهم أَشَدُّ النَّاسِ حِرْصاً عَلَى حَيَاةٍ، وَلَوْ سَاعَةً وَاحِدَةً"⁽¹⁾.

وَأَيْدِهِ بِذَلِكَ السَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (ت 756هـ) فِي الدَّرِّ الْمَصُونِ بِقَوْلِهِ: " بَلْ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى مَطْلَقِ حَيَاةٍ، وَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ وَإِنْ كَبُرَتْ؟ فَيَكُونُ أْبْلَغَ فِي وَصْفِهِمْ بِذَلِكَ "⁽²⁾.

وَالشُّوكَانِي (ت 1250هـ) فِي تَفْسِيرِهِ بِقَوْلِهِ: " وَتَنْكِيرِ حَيَاةٍ: لِلتَّحْقِيرِ؛ أَيَّ أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى أَحْقَرِ حَيَاةٍ، وَأَقْلَّ نُبُتٍ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ بِحَيَاةٍ كَثِيرَةٍ وَأُنْبُتٍ مَتَطَاوِلٍ "⁽³⁾.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا (ت 1354هـ) فِي تَفْسِيرِهِ: " وَنَكَرَ الْحَيَاةَ لِلتَّحْقِيرِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهم شَدِيدُو الْحِرْصِ عَلَى الْحَيَاةِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ " ⁽⁴⁾.

وَقَالَ سَيِّدُ قَطْبٍ (ت 1385هـ)⁽⁵⁾ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ: " خِصْلَةٌ يَصَوِّرُهَا الْقُرْآنُ، صُورَةً تَفِيضُ بِالزَّرِّيَّةِ وَتَتَضَحُّ بِالتَّحْقِيرِ وَالمَهَانَةِ: (وَلتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ)... أَيَّةُ حَيَاةٍ، لَا يَهْمُ أَنْ تَكُونَ حَيَاةً كَرِيمَةً، وَلَا حَيَاةً مُمَيَّزَةً عَلَى الإِطْلَاقِ! حَيَاةً فَقَطْ! حَيَاةً بِهَذَا التَّنْكِيرِ، وَالتَّحْقِيرِ! حَيَاةً دِيدَانًا، أَوْ

¹ البحر المحيط 502/1.

² الدر المصون 11/2.

³ فتح القدير للشُّوكَانِي، 135/1، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن للفُتُوحي 228/1.

⁴ تفسير المنار 323/1، وانظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 617/1.

⁵ هو سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة 1353 هـ وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) وعيّن مدرساً للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف. ثم (مراقباً فنياً) للوزارة. وأوفد في بعثة لدراسة (برامج التعليم) في أميركا (1948 - 51) ولمّا عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تنمى والفكرة الإسلامية. وبنى على هذا استقالته (1953) في العام الثاني للثورة. وانضم إلى الإخوان المسلمين، فنزّاه قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (1953 - 54) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم. قال خالد محيي الدين (أحد أقطاب الثورة المصرية) فيما كتّب عنه: كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحاً، ومن العجيب أنه انقلب - بعد قيام الثورة - ناقماً متمرداً على كل ما يحدث حوله، لا يراه إلا جاهلية مظلمة. وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة، منها (النقد الأدبي، أصوله ومناهجه) و (العدالة الاجتماعية في الإسلام) و (التصوير الفني في القرآن) و (مشاهد القيامة في القرآن) و (كتب وشخصيات) و (أشواك) و (الإسلام ومشكلات الحضارة) و (السلام العالمي والإسلام) و (المستقبل لهذا الدين) و (في ظلال القرآن) و (معالم في الطريق). الأعلام للزركلي 147/3-148.

حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جنباً، وحرصاً على الحياة. أيّ حياة! (1).

وقال العثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره: "ونكّر ﴿حَيَوَةٌ﴾؛ ليفيد أنّهم حريصون على أيّ حياة كانت، وإن قلّت؛ حتى لو لم يأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها" (2).

وقال أبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير: "ونكّر - سبحانه وتعالى - ﴿حَيَوَةٌ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿عَلَى حَيَوَةٍ﴾؛ لتعميم معاني الحياة، فهم يحرصون على حياة أيّاً كانت صورتها، سواء كانت حياة نلّ أم كانت حياة عزّ، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرّيّة، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت تحكمها الرذيلة، إنّهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى وصفها سواء أكانت مقبّية في ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة، وإنّ هذا يدل على كمال الحرص" (3).

ويرى الباحث بعد سرد أقوال الفريقين، وبيان أدلّتهم، واستقراء المسألة، والنظر في سياق الآيات التي وردت فيها الآية الكريمة أنّ الغرض من التّكثير هو التّحقير. وعليه فإنّ المراد من كلمة ﴿حَيَوَةٌ﴾ مطلق حياة؛ بمعنى أنّهم حريصون كلّ الحرص على الحياة، مهما كانت حقيرة القدر ضئيلة القيمة. مؤيداً بذلك قول الفريق الثاني الذين قالوا بهذا القول، وهذا هو قول ابن بدران - رحمه الله - كما بيّنا ذلك في بداية المسألة (4).

¹ الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط7 1412هـ، ج1، ص92، وانظر: الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط17، ص222.

² تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 309/1، وانظر: الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5 1424هـ، ج1، ص85.

³ زهرة التفاسير 324/1، وانظر: الراغب، عبد السلام أحمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب، ط1 1422هـ، ص313، ومن بلاغة القرآن ص52، وتفسير الشعراوي - الخواطر 477/1.

⁴ انظر: ص202.

ولعلّ هذا الرأي هو الأقرب للصواب، والأبّين للحق والأوضح لمراد الله. وذلك للاعتبارات

الآتية:

1. إنّ مِنْ قواعد التفسيرِ تَقْلِيلَ المَقْدَرِ مَهْمَا أَمَكْنَ؛ لِيَقَلَّ مَخَالَفَةُ الأَصْلِ⁽¹⁾.
فإذا كان الأصل واضحاً بيّناً غير مُشكل في معناه ولا توجد قرينة تدلّ على مقدّر محذوف؛ فإنّه لا يُلجأ عندها إلى التقدير. فلما كانت كلمة ﴿حَيَوَةٍ﴾ واضحة الدلالة؛ فإنّها تبقى على ظاهرها، دون اللجوء إلى مقدّر محذوف يُبعدها عن معناها الظاهر. ولما كان اعتماد الفريق الأوّل القائل إنّها بمعنى طول حياة، أو حياة متطاولة على تقدير محذوف: إمّا مضاف نحو: طول حياة، أو صفة: نحو حياة متطاولة، قلنا لا داعي للتقدير؛ لأنّ المعنى واضحٌ جليّ.
قال أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط: "﴿عَلَى حَيَوَةٍ﴾: قَدَّرُوا فِيهِ أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ، أَي عَلَى طُولِ حَيَاةٍ، أَوْ عَلَى حَذْفِ صِفَةٍ، أَي عَلَى حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ، وَلَوْ لَمْ يُقَدَّرْ حَذْفُ لَصَحَّ المَعْنَى"⁽²⁾.
وأَيَّدَهُ بِذَلِكَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ (ت 756هـ) فِي الدُّرِّ المِصُونِ بِقَوْلِهِ: "وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ تَقْدِيرُهُ: عَلَى طُولِ حَيَاةٍ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرِ صِفَةٍ وَ لَا مِضَافٍ"⁽³⁾.
2. إنّ الغرض مِنَ التَّنْكِيرِ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاقِ كَمَا بَيَّنَّا سَابِقاً⁽⁴⁾، فَلَمَّا كَانَ سِيَاقُ الآيَاتِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ لِلْيَهُودِ، وَصَنِيعِهِمْ، نَاسِبٌ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ التَّنْكِيرُ بِمَعْنَى التَّحْقِيرِ.
3. إنّ العَامَّ⁽⁵⁾ لَا يُقَيَّدُ إِلَّا بِمُقَيِّدٍ، أَوْ قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَقِيَ العَامُّ عَلَى عَمُومِهِ. فَكَلِمَةُ حَيَاةٍ عَامَّةٌ مُطْلَقَةٌ تَبْقَى عَلَى إِطْلَاقِهَا، وَعَمُومِهَا لِعَدَمِ وَجُودِ مُقَيِّدٍ لَهَا. وَأَمَّا مَنْ قَيَّدَهَا بِنَوْعٍ مَخْصُوصٍ وَهُوَ طُولُ الحَيَاةِ فَقَطْ، فَهَذَا مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.
4. "يُورِدُ الكِتَابُ المَبِينُ الأَلْفَاظَ مَوَارِدِ حَسَّاسَةٍ، فَلَا تَرَاهَا قَاصِرَةً عَلَى المَعْنَى المَتَبَادِرِ مِنْهَا لِلبَالِ عَادَةً، بَلْ تَتَّسَعُ دَلَالَتُهَا حَتَّى تُوحِي لَكَ بِمَعْنَى أَجَلٍّ وَأَدَقِّ. خَذْ كَلِمَةَ "حَيَاةٍ" أَنْتَ تَشْعُرُ بِأَنَّ كَلِمَةَ "حَيَاةٍ" قَدْ عَبَّرَتْ بِدَقَّةٍ مَرَهْفَةٍ عَنِ حِرْصِ أَوْلِيئِكَ اليَهُودِ عَلَى أَدْنَى قَدْرٍ مِمَّا مِمَّكَنُ مِنَ الحَيَاةِ، وَمَهْمَا

¹ السبب، خالد بن عثمان، مختصر في قواعد التفسير، دار ابن القيم - دار ابن عفان، ط 1426هـ، ص 12.

² البحر المحيط 502/1.

³ الدر المصون 11/2.

⁴ انظر: ص 204-205.

⁵ المراد العموم البديلي لا العموم الشمولي، وهو من أوصاف المطلق.

كان يسيراً خاوياً من أية قيمة كريمة، فأثار ورودها بالتكثير معنى التّحقير، وأفادت بالتّالي أنّ اليهود أشدّ حرصاً على الحياة المتطاولة من باب أولى، فعبرت كلمة " حياة " في هذا المورد بأنّ واحدٍ عن ضآلة قيمة الحياة الدنيا، وشدة تكالب اليهود عليها " (1).

من هنا يتبيّن لنا أهميّة اللغة العربيّة والقواعد النّحويّة في توجيه المعنى للآيات القرآنيّة ومراد الله - عزّ وجلّ - منها؛ إذ لا يستطيع المفسّر الغوص في غمارها، ومعرفة كُنْهها إلاّ من خلال امتلاك قواعد اللغة العربيّة، ومعرفة أساسياتها، ولعلّ الآية التي نحن في صددنا أدلّ دليل، وأكبر برهان على ذلك، كيف لا؟! واللغة العربيّة هي التي أجلت المعنى الحقيقي، والمراد من الآية الكريمة في بيان معنى ﴿ حَيَوِق ﴾ ، وكيف أنّها كشفت عن حقيقة يهود في مدى تمسّكهم في هذه الحياة، وأنّها غالية عندهم كلّ الغلاء، بصرف النّظر عن تلك الحياة رفيعة، أم وضيعة، عزيزة، أم حقيرة، مع علمهم علم اليقين ما يعتريهم من طول أعمارهم من كدرٍ، وهمّ وغمّ إلاّ أنّه بالنّسبة إليهم خير لهم ممّا ينتظرهم بعد الموت، لا سيّما وأنّهم يؤمنون بالبعث والحساب.

¹ عتر، حسن ضياء الدين (ت 1432هـ)، بيّنات المعجزة الخالدة، دار النصر، حلب، ط 1 1975م، ص 253، وانظر: ياسوف، أحمد، جماليّات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، دمشق، ط 2 1419هـ، ص 246.

المبحث الثاني: أثر القواعد البلاغية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران في
سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189.

المسألة الأولى:

أثر الحقيقة والمجاز في مفهوم (المرض) في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10] :

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " وَلَشِبَّهِ هَذَا الْمَعْنَى بِرَمِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ : " فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " ، المرض: النفاق، وقول جمع من الصحابة: في قلوبهم شك، وقد لاح لك ممًا قدمناه،
أنا حملنا المرض في الآية على حقيقته، وهو الموافق لبلاغة القرآن الكريم"⁽¹⁾.

يظهر من كلام ابن بدران أنه حمل المرض على معناه الحقيقي وهو الوجع، والألم، والضعف،

والفتور.

وقد اختلف العلماء في حمل المرض في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقر: 10]

هل هو على الحقيقة أم على المجاز؟! وللوقوف على القول الراجح في هذه المسألة، وبيان مراد الله
من ذكر المرض في كتابه العزيز، لا بُدَّ من تعريف المرض، وذكر أنواعه، وحالات وروده في
القرآن:

قال ابن فارس (ت 395هـ): " (مَرِضٌ): الميم، والراء، والضاد، أصل صحيح؛ يَدُلُّ عَلَى مَا

يُخْرَجُ مِنَ الْإِنْسَانِ عَنْ حَدِّ الصَّحَّةِ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، مِنْهُ الْعِلَّةُ"⁽²⁾.

¹ جواهر الأفكار ص72.

² ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر،
1399هـ، ج5، ص311، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 1/197.

وقال أبو هلال العسكري (ت نحو 395هـ)⁽¹⁾: "المرض أصله من الضعف، ومنه قيل: (امرأة مريضة الألاحظ، والنظر أي: ضعيفتها)، وسمي المرض مرضاً؛ لأنه يُضعف الجسم، ومنه قيل: مرض في القول؛ إذا ضعف قوله، والتمريض: القيام على المريض"⁽²⁾.

وقال الأصفهاني (ت 502هـ): "المرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان"⁽³⁾.

وقال ابن منظور (ت 711هـ): وقال "ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، وهو بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين"⁽⁴⁾.

وقال مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ): "وقال ابن دريد: المرض: السقم، وهو نقيض الصحة، يكون للإنسان، و البعير، وهو اسم للجنس"⁽⁵⁾.

وقال أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ): "المرض: مصدر مَرَضَ، ويطلق في اللغة على الضعف والفتور، ومنه قيل فلان يُمرضُ الحديث أي يُفسده ويُضعفه، وقال ابن عرفة: المرض في

¹ الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته الى (عسكر مُكرّم) من كور الأهواز. من كتبه (التلخيص) في اللغة، و (معجم) في اللغة، و (جمهرة الأمثال) و (الحث على طلب العلم) رسالة، و (كتاب الصناعيتين: النظم والنثر) و (شرح الحماسة) و (الأوائل) رسالة و (الفرق بين المعاني) و (العمدة) و (ديوان شعره) و (الفروق) في اللغة، و (ديوان المعاني). وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أنني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلّت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمئة). انظر: الأعلام للزركلي 2/196.

² أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، الوجوه والنظائر، تحقيق مُحمّد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1 1428هـ، ص448. وانظر معاني القرآن للنحاس 1/91.

³ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحمّد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية - دمشق بيروت، ط1 1412هـ، 1/765، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني 1/98، والفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر مُحمّد بن يعقوب (ت 817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق مُحمّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، سنة النشر (ج4 1412هـ - ج2 1416هـ)، ج4، ص492، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 1/45، وتفسير القرآن الكريم لابن القيم 1/115.

⁴ لسان العرب، مادة مرض 7/232، وتاج العروس، باب مرض 19/55.

⁵ مرتضى الزبيدي، أبو الفيض مُحمّد بن مُحمّد بن عبد الرزاق الحسيني (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، حقق الجزء التاسع عشر عبد العليم الطحاوي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1400هـ، باب مرض، ج19، ص53. ولسان العرب مادة (مرض) 7/231.

القلب: الفتور عن الحق، وفي البدن: فتور الأعضاء، وفي العين: فتور النظر. وقيل: المرض: الفساد، وقال أهل اللغة: المرض، والألم، والوجع نظائر⁽¹⁾.

وقال مُحَمَّدٌ رشيد رضا (ت 1354هـ): "إنَّ المرض في أصل اللغة: خروج البدن عن اعتدال مزاجه، وصحة أعضائه فيختلُّ به بعض وظائفها، وأعمالها، وتعرض الآلام لها"⁽²⁾.

ولا يقتصر المرض على الأبدان فحسب؛ وإنما يكون في الدين كذلك؛ كما بيّن ذلك الزجاج (ت 311هـ) بقوله: "وقد يقال: السقم، والمرض في البدن، والدين جميعاً، كما يقال: الصحة في البدن، والدين جميعاً"⁽³⁾.

والمرض نوعان:

الأوّل: المرض الجسمي: وهو ما يصيب أعضاء الجسم؛ فيضعفها، ويخلّ في أداء وظائفها، وهو المذكور في قوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، وقوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: 91]، وقوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [النساء: 43]، وقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: 184].

الثاني: المرض النفسي: وهو ما يصيب القلب فيعمل على الإخلال بصفاته الخُلُقِيَّة: كالجهل والبخل، والجبن، والحسد، وسائر الرذائل الخُلُقِيَّة، وهو المذكور في قوله - تعالى -: ﴿فِيَطْمَعِ الْأَذَى فِي قَلْبِهِ﴾

¹ البحر المحيط 87/1، وانظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش 31/1، وابن قيم الجوزية، مُحَمَّدٌ بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق مُحَمَّدٌ حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ج1، ص16. والتحرير والتنوير لابن عاشور 279/1، وفتح القدير للشوكاني 49/1، ومحاسن التأويل للقاسمي 250/1.

² تفسير المنار 130/1، وانظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 38/1.

³ معاني القرآن وإعراجه للزجاج 86/1، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 278/1.

مَرَضٌ ﴿ [الأحزاب: 32]، وقوله - تعالى - : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا ﴾ [النور: 50]، وقوله -

تعالى - : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: 125].⁽¹⁾

فَذَكَرُ المرض في القرآن الكريم ورد على وجهين: مرض البدن، مرض القلب، وهما المذكوران

في القرآن⁽²⁾، فالآيات التي جاء فيها ذكر مرض البدن إنما هي آيات الأحكام⁽³⁾ للتخفيف على

المريض مما أصابه من الضعف، والوهن، كآية التيمم في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ

مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: 6]، وآية الصيام في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة: 185]، وآية الجهاد في قوله - تعالى - : ﴿ لَيْسَ

عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: 91].

وأما الآيات التي ورد فيها مرض القلب، أو القلوب؛ فجاءت لبيان خروج ذلك القلب عن صحته،

واعتداله.

ومرض القلوب في القرآن على ضربين:

الأول: مرض الشبهات الباطلة: كالكفر، والنفاق، والشكوك، والبدع. في مثل قوله - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: 125]، وقوله - تعالى - : ﴿ أَفِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا ﴾ [النور: 50].

¹ انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 98/1، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني 765/1، وابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد (ت 597هـ)، نزهة الأعين التواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق مُحَمَّد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة - لبنان، بيروت، ط1 1404هـ، ص544-546، ومحاسن التأويل للقاسمي 43/5.

² انظر: ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27 1415هـ، ج4، ص5.

³ انظر: بنت الشاطي، عائشة مُحَمَّد علي عبد الرحمن (ت 1419هـ)، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط3، ص578.

الثَّانِي: مرض الشهوات والغي: كالزَّنا، ومحبة الفواحش، والمعاصي، وفعلها في مثل قوله - تعالى:

﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32].⁽¹⁾

ثمَّ إِنَّ الآيات التي ورد فيها ذكر مرض القلب، أو القلوب قد انصرف عن أصل معناها الحقيقي في عجزها عن أداء واجبها نحو الجسم من تغذيته، بالدم وتفتيته من الشوائب⁽²⁾ إلى الدلالة المجازية في الأعراض النفسانية التي تُخلّ بكمال أفعالها مما يعرض عليها من شبهات، وشك، وشهوات، وغي، ممَّا لا تعلق له بصحة الأبدان⁽³⁾.

نستنتج من ذلك أَنَّ المرض في القرآن جاء على الحقيقة والمجاز.

أَمَّا الحقيقة:

فهي كما عرفها الجُرْجَانِي (ت 471هـ) في أسرار البلاغة بقوله: " كلُّ كلمة أُريدَ بها ما وقعت له في وضعٍ واضحٍ - وإن شئت قلت: في مواضعٍ، وقوعًا لا تستندُ فيه إلى غيره فهي حقيقة، وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول، وما تأخر عنه، كلغة تحدث في قبيلة من العرب، أو في جميع العرب، أو في جميع الناس مثلاً"⁽⁴⁾.

¹ انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم 5/4، وابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، الطب النبوي، دار الهلال - بيروت، ج 1، ص 15، والدَّلْجِي، شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله (ت 838هـ)، الفلاحة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، 1322هـ، ص 51. والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 599/6، ومحاسن التأويل للقاسمي 43/5، والسعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1 1420هـ، ص 42، وأضواء البيان 290/5، والمنياوي، أبو المنذر مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى، الأساليب والإطلاقات العربية، المكتبة الشاملة - مصر، ط 1 1432هـ، ص 96.

² انظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم مُحَمَّد (ت 1429هـ)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط 1 1413هـ، ج 2، ص 310.

³ انظر: الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطي 578/1، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للمطعني 310/2، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم 38/1، والكشاف للزمخشري 59/1، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 45/1، والسراج المنير للشربيني 23/1، وتفسير المنار 130/1، والتحرير والتنوير 279/1، والتفسير الوسيط للطنطاوي 56/1، وزهرة التفاسير 126/1، وفتح البيان 92/1، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 164/1.

⁴ الجُرْجَانِي، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد (ت 471هـ)، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط 1 1412هـ، ص 350.

وقال الخطيب القزويني (ت 739هـ)⁽¹⁾: " الحقيقة: الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب، فقولنا: (المستعملة) احتراز عما لم يستعمل؛ فإنَّ الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة، وقولنا: (فيما وضعت له) احتراز عن شيئين: أحدهما: ما استعمل في غير ما وضعت له غلطاً، كما إذا أردت أن تقول لصاحبك: خذ هذا الكتاب، مشيراً إلى كتاب بين يديك، فغلطت فقلت: خذ هذا الفرس، والثاني... " (2).

وأما المجاز:

فقد عرفه الجرجاني (ت 471هـ) بقوله: " واعلم أنَّ المجاز على ضربين: مجازٍ من طريق اللغة، ومجازٍ من طريق المعنى والمعقول، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجازٌ في الإنسان، وكلُّ ما ليس بالسَّبْعِ المعروف، كان حُكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة؛ لأننا أردنا أنَّ المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة، وأوقعها على غير ذلك: إمَّا تشبيهاً، وإمَّا لصلية، وملا بسةً بين ما نقلها إليه، وما نقلها عنه. ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام، كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة؛ وذلك لأنَّ الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصحُّ رَدُّها إلى اللغة، ولا وجهَ لنسبتها إلى واضعها؛ لأنَّ التأليف: هو إسنادُ فعلٍ إلى اسم، واسم إلى اسم، وذلك شيءٌ يحصلُ بقصد المتكلم"⁽³⁾.

وقال - أيضاً - : "كلَّ كلمة جُزَّت بها ما وَقَعَتْ به في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعاً؛ لملاحظة بين ما تُجُوزُ بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعت له في وَضْعِ واضِعِها فهي مجاز"⁽⁴⁾.

¹ هو مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجلي: قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل. ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة 724 هـ فقضاء القضاة بمصر (سنة 727) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة 738 ثم ولاة القضاء بها، فاستمر إلى أن توفي. من كتبه (تلخيص المفتاح) في المعاني والبيان، و (الإيضاح) في شرح التلخيص، و (السور المرجاني من شعر الأرجاني). وكان حلو العبارة، أديبا بالعربية والتركية والفارسية، سمحا، كثير الفضائل. انظر: الأعلام للزركلي 192/6.

² الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1424هـ، ص 202-203، وانظر: المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371هـ)، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1414هـ، ص 247.

³ أسرار البلاغة للجرجاني ص 408.

⁴ المرجع السابق ص 352.

وعرّفه السيّد أحمد الهاشمي (ت 1362هـ)⁽¹⁾ في جواهر البلاغة بقوله: "هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب؛ لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي،"⁽²⁾ والمجاز ضربان:

مرسل، واستعارة؛ لأنّ العلاقة المصحّحة إنّ كانت تشبيهه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلاّ فهو مرسل.⁽³⁾

فالاستعارة كما عرّفها الجرجانيّ (ت 471هـ) بقوله: "اعلم أنّ الاستعارة في الجملة، أنّ يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اختُصَّ به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعاريّة"⁽⁴⁾⁽⁵⁾. وعرّفها الخطيب القزويني (ت 739هـ) بقوله: "قالاستعارة: ما تضمّن تشبيهه معناه بما وضع له"⁽⁶⁾.

وعرّفها السيّد أحمد الهاشمي (ت 1362هـ) في جواهر البلاغة بقوله: "الاستعارة لغة: من قولهم، استعار المال: إذا طلبه عارية. واصطلاحاً: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له؛ لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع (قرينة) صارفة عن إرادة المعنى الأصلي" ⁽⁷⁾.

¹ هو أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: أديب معلم مصري، من أهل القاهرة، ووفاته بها. كان مديراً لثلاث مدارس أهلية، واحدة للذكور واثنان للإناث، تتلمذ للشيخ مُحَمَّد عبده، وصنف كتباً منها (أسلوب الحكيم) مجموع مقالات، و (جواهر الأدب) و (جواهر البلاغة) و (ميزان الذهب) و (مختار الأحاديث النبويّة). انظر: الأعلام للزركلي 90/1.

² جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ص 251.

³ الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص 205.

⁴ العاريّة بتشديد الياء، وجمعها "عوارِيّ" بتشديد الياء أيضاً فإنها منسوبة إلى "العار" ؛ لأن طلبها عارٌّ وعيب، ويقال لها: "العارّة" أيضاً، وهو اسم من "الإعارة"، يقال: "أعرتّه شيءٌ إعارةً وعارّةً"، كما قالوا: أطعته إطاعةً وطاعةً، والذي في المخطوط "كالعارّة"، وهما سواء، انظر أسرار البلاغة للجرجاني ص 30 هامش رقم (1).

⁵ أسرار البلاغة للجرجاني ص 30.

⁶ الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص 213.

⁷ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ص 258.

والمجاز أعم من الاستعارة⁽¹⁾. وتوضيحه أن كلَّ استعارة مجاز، وليس كلَّ مجاز استعارة⁽²⁾، "والاستعارة: ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدرکه العقول، وتُسْتَقْتَى فيه الأفهام، والأذهان، لا الأسماع، والآذان"⁽³⁾.

ثم إنَّ الاستعارة تُعدُّ مجازاً لغوياً لا عقلياً، وهذا ما ذهب إليه الجمهور، كما بيَّن ذلك المراغي (ت 1371هـ) بقوله: "يرى الجمهور أنَّ الاستعارة مجاز لغوي وأيده الإمام في "أسرار البلاغة"، وحبَّتْهم على ذلك أتًا إذا أُجْرِينَا اسم الأسد على الرجل الشجاع؛ فإِنَّا لا ندَّعي له صورة الأسد، وشكله، وعبالة⁽⁴⁾ عنقه، ومخالبه، ونحو ذلك من الأوصاف الظاهرة التي تبدو للعيون، وتُشَاهَد بالحواس، وإِنَّمَا ندَّعي له ذلك من أجل اختصاصه بالشجاعة التي هي من أخصِّ أوصاف الأسد وأمكنها"⁽⁵⁾.

بمعنى أنَّ الاستعارة مجاز لغوي؛ لكونها موضوعة للمُشَبَّه به، لا للمُشَبَّه، ولا لأمر أعمَّ منهما.⁽⁶⁾

"وليسَت الاستعارة مختصة بالشعر، وإِنَّمَا هي: ضرب من البديع يتسع في النثر كاتساعه في النظم، وقد كثر ذلك في القرآن، فمنه استعارة الجناح للذَّلِّ في قوله - تعالى - موصياً للولد بوالديه -: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أراد: لِنُ لهما من مبالغتك في الرحمة جانبك متذللًا"⁽⁷⁾.

"فالاستعارة تتضمن من زيادة الفائدة ما لا تتضمنه الحقيقة، ولولا ذلك كان استعمال الحقيقة أولى"⁽⁸⁾. وأنواعها ثلاثة: تصريحية، ومكنية، وتخييلية.⁽⁹⁾

¹ أسرار البلاغة للجرجاني ص 29، وانظر: أبو زهرة، مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، ص 286.

² أسرار البلاغة للجرجاني ص 398.

³ المرجع السابق ص 20.

⁴ عيل: العَيْلُ: الضَّخْمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ عَيْلَ، بِالضَّمِّ، عِبَالَةٌ، انظر: لسان العرب - فصل العين المهملة 420/11.

⁵ علوم البلاغة للمراغي ص 263، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقرظيني ص 216-218، وحبَّكَ، عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي (ت 1425هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1416هـ، ج 2، ص 233-235، والصعيدي عبد

المتعال (ت 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط 17 1426هـ، ج 3، ص 484.

⁶ انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقرظيني ص 216.

⁷ أمالي ابن الشجري، 1 / 342 .

⁸ المرجع السابق 344/1.

⁹ جواهر البلاغة للهاشمي ص 261.

فالمستقري لكلام العرب، وأشعارهم يجدهم قد أكثروا من استعمال المجاز، والاستعارات؛ لأنّها أبلغ من الحقيقة، كما بين ذلك الطالبي (ت 745هـ) بقوله: " اعلم أنّ أرباب البلاغة وجهابذة أهل الصناعة مطبقون على أن المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة، وأنّه يلطّف الكلام، ويكسبه حلاوة، ويكسوه رشاقة " (1). وقال - أيضاً - : " اعلم أنّ أرباب علوم البلاغة متفقون على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة في تأدية المعنى، وعلى أنّ الاستعارة أقوى من التصريح، وأنّ الكناية أدخل في إفادة المعاني من تلك الصرائح الموضوعه " (2).

فهذه مقدمة وجيزة جعلتها بين يدي المسألة التي نحن بصددّها؛ لبيان وجه الحقّ فيها، والوقوف على مراد الله في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]؛ ليتمكّن الباحث من الترجيح فيها على بصيرة وليحيا من حيّ على بينة. ولذلك؛ فإنّ من الأهميّة بمكان عرض أقوال العلماء في هذه المسألة، وبيان أدلتهم، وترجيحاتهم.

وللعلماء في هذه المسألة قولان:

الأوّل: قالوا إنّ مفهوم المرض في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، يبقى على معناه الحقيقي: وهو الألم، والوجع، والضعف، والفتور.

ويبيّن هذا القول الألوّسي (ت 1270هـ) - مع عدم تبيّنه لهذا القول - في تفسيره بقوله:

" ولا مانع عند بعضهم أن يُحمَلَ المرضُ على حقيقته الذي هو الظلمة ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40]، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: 257]، وكذا على الألم؛ فإنّ في قلوب أولئك ألماً عظيماً بواسطة شوكة الإسلام وانتظام أمورهم غاية الانتظام فالآية على هذا مُحتملة للمعنيين " (3).

وقد أطلت النظر، والبحث في أقوال علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير ممّن قال بهذا القول فلم أجد - على حسب اطلاع - من يقول بهذا القول غير صاحب مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي (ت

¹ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 6/2.

² المرجع السابق 156/1، وانظر: مفتاح العلوم للسكاكي 412/1، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة 555/3.

³ روح المعاني 151/1.

606هـ)، وتبعه صاحب جواهر الأفكار ابن بدران (ت 1346هـ)⁽¹⁾، وصاحب زهرة التفاسير مُحَمَّد ابن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت 1394هـ).

إذ يقول الرازي (ت 606هـ) في تفسيره - بعد أن ذكر وجوه تأويل المرض - : " الخامس: أن يُحْمَلَ المرض على ألم القلب؛ وذلك أن الإنسان إذا صار مُبْتَلَى بالحسد، والنفاق، ومُشَاهِدَة المَكْرُوه، فإذا دام به ذلك فَرِيماً صار ذلك سبباً لِعَبْرِ مزاج القلب وتَأَلُّمِهِ، وَحَمْلُ اللَّفْظِ على هذا الوجه حَمْلٌ له على حقيقته، فكان أولى من سائر الوجوه"⁽²⁾.

وقال أبو زهرة (ت 1394هـ) في تفسيره - عند تفسير قوله - تعالى - : "في قلوبهم مرض" - : " وإطلاق كلمة مرض هنا، يصحُّ أن يكون من قبل الحقيقة⁽³⁾؛ لأنَّ المرض هو ما يؤذي النفس، ويلقي بها الضعف، وليس ذلك مقصوراً على المرض الذي يصيب الجسم؛ بل هو يشمل ما يصيبه في أعصابه: كالجنون الذي يستر العقل، وكالعته الذي يمنع الإدراك، وكالسفه الذي لا يدري النفع من الضرر، فهذه كلها أمراض، وتعدُّ في اللغة أمراضاً. كذلك مرض النفاق الذي يصيب النفوس بالوهن، والحيرة، والحقد، والبغض لخير الناس، وأن يكون صاحب هذا المرض غير مستقر بل هو في بلبال مستمر، تزداد حاله كلما تمكَّن فيه هذا الداء، وهو ساكن في النفس لا تخرج مظاهره، وكما استتر، واستكن ازداد قوة وإيغالاً في النفس حتى يصعب علاجه؛ فإذا كان الكذب المجرد قد يعالج، فالنفاق مرض لا علاج له"⁽⁴⁾.

ومع أنَّهما - أي ابن بدران وأبو زهرة - تَبَيَّنَا هذا الرأي إلا أنَّهما جَوَزَا القول بالمجاز. قال ابن بدران (ت 1346هـ) في تفسيره: "ولا مانع من أن يُحْمَلَ المرض على معناه المجازي؛ فتجعله استعارة لبعض أمراض القلب: كسوء الاعتقاد، والغُلُّ، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الجبن، والضعف، وغير ذلك ممَّا هو فساد وآفة، شَبَّهه بالمرض، كما استعيرت الصِّحَّة، والسَّلَامَة في ضد هذه المذكورات"⁽⁵⁾.

¹ انظر: ص 211.

² مفاتيح الغيب 305/2.

³ في الأصل الحقيق.

⁴ زهرة التفاسير 125/1-126.

⁵ جواهر الأفكار ص 72.

وقال أبو زهرة (ت1393هـ) في المعجزة الكبرى القرآن: " ومن الاستعارة: التعبير عن النفاق بالمرض، وإنَّ ذلك كثير في القرآن، ومنه قوله - تعالى - في وصف المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:10]، وقوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [١٢٤] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة:124]- [125]، وفي الآيتين الكريمتين نجده - سبحانه وتعالى - عبَّر عن النفاق بالمرض؛ وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد، والنفاق، فهو يفسد القلوب، والعقول، والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات، وقد يشلُّها، ومعه الوهن دائماً" (1).

وأراد أبو زهرة (ت1493هـ) بالمجاز من باب تشبيه النفاق بالمرض الذي لا يرجى بُرؤه، بقوله: "وكان يراد المجاز بتشبيه النفاق بالمرض الذي لا يشفى، ومرض النفاق فساد القلب" (2).
وأما القول الثاني: فقالوا: إنَّ مفهوم المرض في قوله - تعالى -: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة:10]، يُحْمَلُ على معناه المجازي فيما يُعرض على القلب من الشبهات الباطلة كالشك، والنفاق.
وقد بيَّن السمعاني (ت489هـ) في تفسيره أنَّ هذا القول هو إجماع المفسرين، بقوله: " قوله - تعالى -: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة:10]، أراد بالمرض: الشك، والنفاق بإجماع المفسرين، ويوصف القلب، والدين بالمرض، والصحة كما يوصف البدن به" (3).

وسبقه في ذلك الواحدي (ت468هـ) في تفسيره بقوله: " قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، قال ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وقتادة وجميع المفسرين: أي: شك ونفاق" (4).
وكان من حكي الإجماع لم يعتدَّ بقول من قال: إنَّ المقصود الزنا؛ فقد أورد ابن أبي حاتم (ت327هـ) في تفسيره رواية عن عكرمة في تأويل ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة:10] قال: الزنا (5)

¹ المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة، ص279.

² زهرة التفاسير 126/1.

³ تفسير القرآن 48/1.

⁴ الوسيط في تفسير القرآن المجيد 87/1.

⁵ انظر: تفسير القرآن العظيم 43/1.

قال الباحث: والظاهر أنه حصل وهم في هذه الرواية؛ إما من ابن أبي حاتم، أو النساخ عنه في معنى المرض في قوله - تعالى - ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، للاعتبارات الآتية:

1. وذلك لأن ابن أبي حاتم ذكر أن عكرمة ممن قالوا في تأويل قوله - تعالى - ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10] يعني الشك.

قال - رحمه الله - في تفسيره: "حدثنا عصام بن رواد بن الجراح العسقلاني، ثنا (1) آدم بن أبي إياس، ثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، يقول الله: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ يعني الشك. قال أبو محمد (2): وكذا زوي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، والسدي، وقتادة (3). وقال - أيضاً - "حدثنا محمد بن يحيى أنبأنا أبو غسان محمد بن عمرو، ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: فيما حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: في قلوبهم مرض: أي شك" (4).

2. روى الطبري (ت 311هـ) في تفسيره: "حدثنا محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحق، عن محمد بن أبي محمود مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]: أي شك" (5).

3. روى الطبري (ت 311هـ) في تفسيره: "حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]، قال: قال عكرمة: شهوة الرنا" (6).

¹ هي اختصار لكلمة (حدثنا)، وهو مصطلح معروف لدى علماء الحديث.

² وهو عبد الرحمن محمد بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد: حافظ للحديث، من كبارهم، كان منزله في درب حنظلة بالري، وإليهما نسبه، ولد سنة 240هـ وتوفي سنة 327هـ، له تصانيف منها (الجرح والتعديل)، و(التفسير)، و(الرد على الجهمية)، و(علل الحديث والمسند)، وغيرها كثير. انظر: الأعلام للزركلي 324/3.

³ تفسير القرآن العظيم 43/1.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 43/1.

⁵ جامع البيان للطبري 280/1.

⁶ المرجع السابق 258/20.

وروى ابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره عند تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]: "عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ قال: شهوة الزنا"⁽¹⁾.

فيكون تأويل المرض عن عكرمة في قوله - تعالى - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]: الشك والنفاق، وفي قوله - تعالى - : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]، الزنا؛ لذلك فَإِنَّ حَمَلَ المرض على الزنا في آية البقرة لا وجه له، ولا يثبت عن عكرمة. ولا شك أَنَّ سياق الآية ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، يشهد لقول من حكى الإجماع، وكذلك الآية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [التوبة: 125]، فالمقصود بالمرض فيها مرض النفاق الاعتقادي، المخرج من الملة؛ ولذلك قال في آخرها: ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 125].⁽²⁾

وبيّن الطبري (ت 310هـ) في تفسيره أَنَّ هذا القول هو ظاهر قول المفسرين بقوله: "والمرض الذي ذكر الله - جلّ ثناؤه - أَنَّهُ في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه: هو شكهم في أمر مُحَمَّدٍ، وما جاء به من عند الله، وتحيرهم فيه؛ فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكار إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله - عزّ وجلّ - مُدْبَذِبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما يقال: فلان يُمَرِّضُ في هذا الأمر: أي يُضَعِّف العزم ولا يصحّ الروية فيه. ويمثل الذي قلنا في تأويل ذلك، تظاهر القول في تفسيره من المفسرين"⁽³⁾.

ثمَّ إِنَّ المتتبع لأقوال المفسرين الذين جاؤوا بعد من نقل الإجماع ممّن ذكرنا آنفاً يجد أَنَّهُم لم يخالفوا قول إجماع السلف في تأويل الآية إلّا من ذكرنا ممّن قال بالقول الأوّل - حسب اطلاع الباحث -.

¹ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 3130/9.

² انظر: ابن أبي العز، صدر الدين مُحَمَّد بن علاء الدين علي بن مُحَمَّد (ت 792هـ)، تفسير ابن أبي العز، جمع ودراسة شايح بن عبده بن شايح الأسمرى، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط 1423هـ، ج 1، ص 30، هامش رقم (8).

³ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري 279/1-280.

قال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ): " قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ

اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10] فمعناه: الشكَّ والنفاق" (1).

وقال بذلك النَّحاس (ت 338هـ) في معاني القرآن (2)، والأزهري (ت 370هـ) في تهذيب اللغة (3)،

وابن فارس (ت 395هـ) في معجم مقاييس اللغة بقوله: "والنَّفَاق: مرض في قوله - تعالى: ﴿ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾" (4)، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في المفردات في غريب القرآن (5)، وابن

منظور (ت 711هـ) في لسان العرب بقوله: "والمَرَضُ والمرَضُ: الشكَّ، ومنه قوله - تعالى: ﴿ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾: أي شك و نفاق" (6)، والسيوطي (ت 911هـ) في المزهري في علوم اللغة وأنواعها (7).

وذهب إلى هذا القول أكثر اللغويين والبلاغيين (8).

وقال الألويسي (ت 1270هـ): "والمنقول عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة،

وسائر السلف الصالح حملُ المرض في الآية على المعنى المجازي" (9).

¹ أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، الزاهر في معاني كلام الناس، تحقيق د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 1412هـ، ج 1، ص 475.

² انظر: معاني القرآن للنحاس 90/1-91.

³ انظر: تهذيب اللغة 26/12 أبواب الضاد والراء.

⁴ معجم مقاييس اللغة 311/5.

⁵ انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني 765/1.

⁶ لسان العرب 232/7 مادة مرض.

⁷ المزهري في علوم اللغة وأنواعها 352/1.

⁸ انظر: الشريف الرضي، مُحَمَّد بن الحسين بن موسى (ت 406هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق الدكتور

علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ص 29. والنكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام

للقصّاب 97/1، والجدول في إعراب القرآن لمحمود الصافي 51/1، والنورسي، بديع الزمان سعيد (ت 1379هـ)، إشارات

الإعجاز في مظانّ الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر - القاهرة، ط 2002م، 96-93/1.

والأساليب والإطلاقات العربية 96/1، والدامغاني، الحسين بن مُحَمَّد، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن،

تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1980، ص 433، والبلاغة العربية 301/1، والأصفهاني، أبو

علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن المرزوقي (ت 421هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت -

لبنان، ط 1424هـ، ص 168 و 243. والنويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب بن مُحَمَّد (ت 733هـ)، نهاية الأرب

في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط 1423هـ، ج 16، ص 361.

⁹ روح المعاني 151/1.

قال الشريبي (ت 977هـ)⁽¹⁾: "والآية تَحْتَمِلُ الحَقِيقَةَ، والمجاز، وعلى المجاز اقتصر أكثر المفسرين؛ لأنه أبلغ من الحقيقة"⁽²⁾.

وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ:

حَبْرُ الأُمَّةِ عبدالله بن عباس، وابن مسعود، وأكثر الصحابة، والحسن البصري، وقتادة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس.⁽³⁾

وتبعهم على هذا القول من المفسرين: مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: "

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: يعني الشكَّ بالله، وبمحمَّد"⁽⁴⁾.

والماتريدي (ت 333هـ) في تفسيره بقوله: "وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ، يقال: شك،

ونفاق سَمَى - عَزَّ وَجَلَّ - المنافقين مرضى؛ لاضطرابهم في الدين؛ لأنَّهم كانوا يظهرون الموافقة للمؤمنين بالقول، ويضمرون الخلاف لهم بالقلب؛ فكان حالهم كحال المريض الذي هو مضطرب بين الموت والحياة؛ إذ المريض يشرف - ربما - على الموت، ويرجو الإقبال عليه منه ثانيًا؛ فهو مضطرب بين ذلك، فذلك هم؛ لما كانوا مضطربين في دينهم سمَّاهم: مرضى"⁽⁵⁾.

والسمرقندي (ت 375هـ) في بحر العلوم بقوله: "قوله - تعالى - : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾

يعني: شكًا، ونفاقًا، وظلمةً، وضعفًا"⁽⁶⁾.

والثعلبي (ت 427هـ) في تفسيره بقوله: "في قلوبهم مرض؛ شك، ونفاق"⁽⁷⁾.

والقشيري (ت 465هـ) في تفسيره بقوله: "في قلوب المنافقين مرض الشك"⁽⁸⁾.

¹ هو مُحَمَّدُ بن أحمد الشريبي، شمس الدين: فقيه شافعي، مفسر. من أهل القاهرة. له تصانيف، منها (السراج المنير للشريبي)، في تفسير القرآن، و (الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع)، و (شرح شواهد القطر) و (معني المحتاج)، في شرح منهاج الطالبين للنووي، فقه، و (تقاريرات على المطول) في البلاغة، و (مناسك الحج). الأعلام للزركلي 6/6.

² السراج المنير للشريبي 23/1.

³ انظر: جامع البيان للطبري 278/1-282، والتفسير الوسيط للواحدي 87/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 178/1-179، والذّر المنثور للسيوطي 75/1-76، والنكت والعيون للماوردي 73/1-74، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 43/1، وزاد المسير في علم التفسير للجوزي 32/1.

⁴ تفسير مقاتل بن سليمان 89/1.

⁵ تأويلات أهل السنة 383/1.

⁶ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم 95/1.

⁷ الكشف والبيان عن تفسير القرآن 154/1.

⁸ لطائف الإشارات 61/1.

والبغوي (ت 510هـ) في تفسيره بقوله: " في قلوبهم مرض؛ شك، ونفاق".
وأصل المرض الضعف، سُمِّي الشكُّ في الدين مرضاً لأنه يضعف الدين كالمريض يضعف
البدن⁽¹⁾. وهذا الذي ذهب إليه أكثر المفسرين⁽²⁾:

وذهب بعض المفسرين إلى المعنى الأوسع لمرض القلوب، وعدم حصره في النفاق والشكُّ
فحسب، بل هو أعمّ وأشمل في كلِّ ما يمرض القلب من سوء اعتقادٍ، وغلٍّ، وحسدٍ، وغيرها؛ ممَّا
يجعله متذبذباً بين الكفر، والإيمان فيما يعرض عليه من شبهات قد تخرجه من دائرة الإيمان إلى
الكفر، والخلود في النار، مثل: الشكُّ والنفاق، أو متذبذباً بين ازدياد الإيمان، ونقصانه فيما يعرض
على القلب من شهوات، وميل إلى المعاصي.

قال الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف: "المجاز أن يُستعار لبعض أعراض القلب كسوء
الاعتقاد، والغلِّ، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجبن، والضعف،
وغير ذلك ممَّا هو فساد، وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة، و السلامة في نقائص ذلك.
والمراد به هنا: ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد، والكفر، أو من الغلِّ، والحسد، والبغضاء"⁽³⁾.

وقال ابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره: "المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد
هؤلاء المنافقين؛ وذلك إمَّا أن يكون شكًّا، وإما جحداً؛ بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون،
وبنحو هذا فسّر المتأولون، وقال قوم: المرض غمُّهم بظهور أمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ"⁽⁴⁾.

¹ معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي 88/1.

² انظر: تفسير القرآن للعز بن عبد السلام 103/1، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 49/1، وتفسير القرآن الكريم لابن القيم 116/1،
والسراج المير للشربيني 26/1، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد 78/1، وفتح القدير للشوكاني 49/1، ومحاسن التأويل للقاسمي
250/1، وتفسير المراغي 51/1، والحريملي، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل (ت 1376هـ)، توفيق الرحمن في دروس القرآن، حَقَّقَهُ وخرَجَ
أحاديثه وعلَّق عليه عبد العزيز بن عبد الله آل مُحَمَّد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية-الرياض، دار العليان، القسم - بريدة، ط1
1416هـ، ج1، ص102. و أضواء البيان للشنقيطي 290/5، وتفسير الشعراوي 152/1، وتفسير العثيمين 42/1 و 44، وتفسير الوسيط
للطنطاوي 56/1، و فتح البيان لصديق خان 92/1، و لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 33/1، و أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير
للجزائري، 1/ 24.

³ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 59/1.

⁴ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 92/1.

وتابعه بذلك القرطبي (ت 671هـ) في تفسيره⁽¹⁾، والنيسابوري (ت 850هـ) في تفسيره⁽²⁾، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في تفسيره⁽³⁾، والألوسي (ت 1270هـ) في تفسيره⁽⁴⁾.

ولم يرَ الباحث خلافاً لهذا القول - حسب اطلاعه - عند علماء اللغة والبلاغة.

قال أبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن: "في قلوبهم مرض" أي شك ونفاق⁽⁵⁾.

وقال الرَّجَّاج (ت 311هـ) في معاني القرآن: "وقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10] معناه نفاق، وقد يقال: السُّمُّ والمرض في البدن، وفي الدِّين جميعاً كما يُقال: الصحة في البدن، والدين جميعاً"⁽⁶⁾.

ومما سبق يظهر لنا أنَّ القول بالمجاز هو قول أكثر علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير، وهذا

الذي ذهب إليه الباحث ورجَّحه، مخالفاً بذلك قول ابن بدران ومن قال بقوله وذلك للأمر الآتية:

1. إنَّ القول بالمجاز هو قول أعلم الناس بالتفسير، والتأويل وهم الصحابة والتابعون - رضي الله عنهم -.

2. إنَّ الكلمة تكاد تجتمع بين علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير على حمل المرض على المجاز لا

الحقيقة في قوله - تعالى -: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10].

3. إنَّ الاستعارة أبلغ من الحقيقة وتضفي على السياق جمالاً، ورونقاً وفيها من الفوائد ما ليس في

الحقيقة؛ وهذا ما يناسب بلاغة القرآن، وفصاحته، الذي تحدَّى الله به العرب من جنس ما يشتهرون به ويُعرفون، وإلا ما الذي دفع أحد العرب الأقحاح وهو الوليد بن المغيرة مع شدة عداوته للنبيِّ - صلى الله عليه وسلم - والقرآن الكريم. إلى أن يقول عند سماع آيات من القرآن: " والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وإنَّ أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر"⁽⁷⁾. فهذا اعتراف

¹ انظر: الجامع لاحكام القرآن 197/1.

² انظر: غرائب القرآن وَرَغَائِبُ الْفُرْقَانِ لِلنَّيْسَابُورِيِّ 164/1.

³ انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 188/1.

⁴ روح المعاني 151/1.

⁵ أبو عبيدة، معمر بن منتهى النيمي البصري (ت 209هـ)، مجاز القرآن، تحقيق مُحَمَّدُ فُؤَادِ سَزَكِين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1381هـ، ج1، ص32. وانظر تهذيب اللغة 27/12 أبواب الضاد والراء، ولسان العرب مادة مرض 232/7، ومعاني القرآن للزجاج 86/1.

⁶ معاني القرآن وإعرابه للزجاج 86/1.

⁷ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458هـ)، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف أصحاب الحديث، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط 1401هـ، ص268. قال البيهقي: "وروينا عن عكرمة مرسلاً في قصة الوليد بن المغيرة أنه قال: وذكر كلامه"، وانظر: دلائل الإعجاز ص388، و البرهان في علوم القرآن للزركشي 104/2، و الإتيان

صريح يسجله الوليد بن المغيرة بأن بلاغة القرآن تفوق بلاغة العرب، وهم أرباب البيان، وأساطين القول⁽¹⁾.

4. إنَّ العرب كانت تستعمل لفظ المرض في معناه المجازي، وتستخدمه في أشعارها وحديثها؛ إذ لم يكن شيئاً جديداً عليها فكانوا يعرفون أنَّ المرض يأتي بمعنى النفاق وغيرها مما يطرأ على القلب من سوء الأخلاق، أو الرذائل الخُلُقِيَّة.

قال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ): " سمعت أبا العباس يقول: يكون المرض عند العرب: الظلمة. وأنشدنا:

وليلةٍ مرِضت من كلِّ ناحيةٍ فما يُضيءُ لها نجمٌ ولا قَمَرُ⁽²⁾

ويقال - أيضا - في غير هذا المعنى: قد مرض قلب هذا الرجل: إذا شك وناق. قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10] فمعناه: الشكَّ والنفاق. وقالت ليلى الأخيلية⁽³⁾:

إذا هبَّطَ الحجاجُ أرضاً مريضةً تتبَّعَ أقصى دائها فشاها⁽⁴⁾

تريد بالمريضة التي بها شك ونفاق⁽⁵⁾.

في علوم القرآن للسيوطي 16/4، و التفسير البسيط للواحي 426/22، و لطائف الاشارات للقسيري 649/3، والكشاف 649/4، ومفاتيح الغيب 259/20، والبحر المحيط 18/1.

¹ انظر: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ص62.

² النَّميري، أبو حَيَّة الهيثم بن الرِّبيع (ت 183هـ)، شعر أبي حَيَّة النَّميري، جمعه وحقَّه الدكتور يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975، ص148، وانظر: البحر المحيط 87/1.

³ هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، الأخيلية من بني عامر بن صعصعة: شاعرة فصيحة ذكيَّة جميلة. اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير. قال لها عبد الملك بن مروان: ما رأى منك توبة حتى عشقك؟ - وكانت امرأة مسنة - فقالت: ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة! ووفدت على " الحجاج " مرات، فكان يكرمها ويقربها. وطبقتها في الشعر تلي طبقة الخنساء. وكانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة. وأبلغ شعرها قصيدتها في رثاء توبة، منها: " وتوبة أحيى من فتاة حيية ... وأجرأ من ليث بخفان خادر ". وسألت الحجاج وهو في الكوفة أن يكتب لها إلى عامله بالرِّي، فكتب، ورحلت، فلما كانت في " ساوة " ماتت ودفنت هناك (نحو 80هـ)، وقام بجمع الباقي من شعرها خليل وجليل العطية، في " ديوان ليلى الأخيلية - ط ". انظر: الأعلام للزركلي 249/5.

⁴ الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد (ت نحو 85هـ)، ديوان ليلى الأخيلية، عني بجمعه وتحقيقه خليل إبراهيم العطية وجليل العطية، وزارة الثقافة والإرشاد - بغداد، ص 121

⁵ الزاهر في معاني كلمات الناس 475/1-476، وانظر: تفسير القرآن الكريم لابن القيم 116/1.

وسئل ابن عباس - رضي الله عنه - عن قوله - تعالى - : "في قلوبهم مرض" قال: النفاق، قال نافع بن الأزرق: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر⁽¹⁾:

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرى صدورهم تغلي عليّ مراضها⁽²⁾"⁽³⁾.
وجاء في شرح ديوان الحماسة لأحمد الأصفهاني (ت 421هـ):

وَدَوِي ضباب مظهرين عداوة قرحى القلوب معاودي الأفناد⁽⁴⁾

وذكر قرح القلب مثلاً في العداوة، كما يذكر مرضه مثلاً في النفاق، على ذلك قول الله تعالى - ﴿ في قلوبهم مَرَضٌ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10]⁽⁵⁾.
وجاء أيضاً: "

وما برح النائم يعترزون ورز قُ الخط تشفي السقيم من سقمه⁽⁶⁾

وقوله "السقيم" يجوز أن يكون كنايةً عن المنافق المداجي، كما في قوله - تعالى - لَمَّا وصفهم: ﴿ في قلوبهم مَرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]⁽⁷⁾.

وكانت العرب تكني بداء القلب عن الحقد، والهوى⁽⁸⁾. وقال أبو المنذر النياوي: "والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة: مرضاً؛ وذلك معروف في لغتهم"⁽⁹⁾.

¹ هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. وهو من طبقة لبيد والنابعة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً. وكان أرحم الناس على البيهية. جمع بعض شعره في (ديوان - ط) شهد القادسية، وتوفي في غزوة موخان. وأخباره كثيرة. قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. انظر: الأعلام للزركلي 175/3.
² الذبياني، الشماخ بن ضرار (ت 22هـ)، ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر - القاهرة، ص 215.

³ انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي 103/2.

⁴ أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ)، ديوان الحماسة، برواية أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (ت 540هـ)، شرحه وعلق عليه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1418هـ، ص 41. الضباب: جمع صب: وهو حيوان صحراوي، وقصد هنا الحقد الخفي، الإفناد: مصدر فند وهو الفحش، والخطأ في الرأي. وقوله: قوم ذوو ضباب أي: ذوو أحماد.

⁵ شرح ديوان الحماسة 168/1.

⁶ ديوان الحماسة لأبي تمام ص 63. والبيت: (ما برح النائم يعترزون وسد رُ الخط تشفي السقيم من سقمه). ويعترزون: ينتسبون. والخط: يعني الأسنه.

⁷ المرجع السابق 1 / 242-243.

⁸ انظر: الفراهي، عبد الحميد الهندي (ت 1349هـ)، مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية - تحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط 1 2002م، ص 376-378.

⁹ الأساليب والإطلاقات العربية 96/1.

وقال السيوطي (ت 911هـ) في الدر المنثور: "وأخرج الطّستيّ عن ابن عباس - رضي الله

عنهما -

أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله "فيطمع الذي في قلبه مرض" (1) قال: الفجور والزّنا
قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت الأعشى (2) وهو يقول:

حافظٌ للفرجِ راضٍ بالتّقى ليس ممّن قلبُهُ فيه مرضٌ (3).

5. إنّ الآيات التي ذُكر فيها المرض على معناه الحقيقي إنّما جاءت في سياق الرحمة، والتخفيف
عن المؤمنين من الأحكام الشرعية التي فرضها الله عليهم؛ لأنه - سبحانه - لا يكلف نفساً إلا
وسعها؛ فلما نزل بهم من قضاء الله، وقدره ما يحول بينهم، وبين الإتيان بشرائع الله المفروضة عليهم
(على الوجه الذي يريده الله)؛ فيحصل بذلك عليهم من المشقة الزائدة جاء التخفيف من الله - سبحانه -
رحمة، ورأفة لعباده المؤمنين في كثير من الأحكام منها: التيمم في قوله - تعالى - ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ
مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، وإفطار الصائم في قوله - تعالى - ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184]، والجهاد في قوله - تعالى - ﴿لَيْسَ
عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91]، وغيرها.

أمّا الآيات التي ذُكر فيها المرض على معناه المجازي فجاء المرض فيها مقروناً بالقلوب،
ثم إنها جاءت في سياق الشدة، والغلظة، والتهديد، والوعيد من مثل قوله - تعالى - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]، وقوله -
تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

¹ الأحزاب آية 32.

² بحثت عنه في ديوان الأعشى تحقيق د. محمد محمد حسين وديوان الأعشى تحقيق محمود الرضواني فلم أجده.

³ الدر المنثور 599/6، وانظر: الإتقان في علوم القرآن 75/2، والسراج المنير للشربيني 243/3، وأضواء البيان 290/5 و 245/6،
والشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر (ت 1393هـ)، العذب النمبر من مجالس الشنقيطي في التفسير، تحقيق خالد
بن عثمان السبت، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 1426هـ، ج 5، ص 105.

[التوبة: 125]، وقوله - تعالى - : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: 5]، وقوله - تعالى - : ﴿ أَنفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ آرتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: 50]، وقوله - تعالى - : ﴿ أَمَرَ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد: 29]، وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: 31]، وغيرها.

فلما حوسب أصحاب القلوب المريضة على ما في قلوبهم من مرض دل ذلك على أن هذا المرض هو من كسب أيديهم؛ وليس ممَّا رفعت فيه المؤاخذة عنهم، وممَّا يؤاخذ المرء عليه؛ الكفر والنفاق والشكَّ ورتائل الأخلاق والأعمال التي محلها القلب فتمرضه. وأمَّا الإيمان، واليقين، وفضائل الأخلاق، والأعمال التي محلها القلب فإنها تصلحها.

ولمَّا ذكر الله - سبحانه وتعالى - القلبَ المريضَ وما له من التهديد والوعيد ذَكَرَ القلبَ السليمَ وما له من الوعد، والنعيم، لأنَّ آياته - جَلَّ وعَزَّ - مثانٍ تذكر الشيء وضده، مثل: الجنة والنار، والنعيم والجحيم، والوعد والوعيد، والترغيب والتهديد، والقلب المريض والقلب السليم. قال - تعالى - : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 88-89]، وقول - تعالى - : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 84].

ويؤكد ذلك قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مِضْغَةً إِذَا صَلَّحَتْ صَلَّحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" (1).

6. إِنَّ الآيَةَ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10] جاءت في سياق الآيات التي تحدثت عن المنافقين، وأوصافهم، فدل ذلك على أن المنافقين قلوبهم مريضة، لما فيها من نفاق و شكِّ بما جاء به مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

¹ صحيح البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه 20/1 حديث رقم 52. وصحيح مسلم، كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين 50/5 حديث رقم 4101.

وبين ذلك الطبري (ت 311هـ) في تفسيره بقوله: "حدثنا الحسين بن يحيى (1)، قال: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، حتى بلغ: ﴿فَمَا رِيحَتْ تَجِدُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]، قال: هذه في المنافقين (2) وذكر ذلك عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وابن جريج، والربيع ابن أنس (3).

قال مُحَمَّدُ المَكِّي الناصري (ت 1414هـ) في تفسيره: "ثم تطرَّق كتاب الله لوصف الطائفة الثالثة طائفة المنافقين، فأطال الحديث عنها، وخصص للكشف عن نفاقها ثلاث عشرة آية كاملة، ابتداء من قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: ٨ - ١٠]، إلى قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] (4).

7. إن الذين خالفوا الإجماع، والجمهور قالوا بجواز حمل المرض على معناه المجازي في قوله -

تعالى -: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10] (5).

وختلاصة القول:

إن مفهوم المرض في قوله - تعالى -: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10] يُحمل على معناه المجازي فيما يُعرض على القلب من الشبهات الباطلة: كالثَّكُّ والنَّفَاق. فجاء مرض القلوب استعارة تصريحية، استعير عنه لما رانَ على قلوبهم من سوء عقيدة وحب للمعاصي.

1 الصواب، الحسن بن يحيى، شيخ الطبري، انظر: جامع البيان 269/1 هامش (2).

2 جامع البيان في تأويل القرآن 269/1.

3 انظر: المرجع السابق 269/1-270.

4 الناصري، مُحَمَّدُ المَكِّي (ت 1414هـ)، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1405هـ، ج 1،

ص 25.

5 انظر: ص 218-219.

فصل:

ممَّا ينبغي التنبيه إليه أَنَّ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ لَا تُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَى الْمَجَازِي إِلَّا إِذَا دَلَّ السِّيَاقُ أَوْ دَلَّتِ الْقِرَائِنُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي حَمْلِ مَفْهُومِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ، وَعَلَى الظَّاهِرِ لَا عَلَى الْبَاطِنِ.

المسألة الثانية:

أثر الإسناد المجازي في تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ ﴾

[البقرة:16].

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " فإن قلت: كيف أسند عدم الريح إلى التجارة، وإثما هو لأصحابها لا لها؟ قيل: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يُسند الفعل إلى شيء يُتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشتريين، وذلك أن الله - تعالى - خاطب عربياً فسلك في خطابه إيّاهم وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضاً، وبيانه المستعمل بينهم، وأنت إذا تأملت الكتاب العزيز، وجدته سالماً هذا الأسلوب البديع من التعبير بالحقيقة، حيث تكون البلاغة في جانبها، وبالمجاز حيث تكون البلاغة في جانبه، وبالأوصاف التي تعرفها العرب كما في أوصاف الجنة من أن فيها: فاكهةً ونخلًا ورماناً، والنار من أن فيها: سلاسل، وأغلالاً، وسعيراً، وإن كانت حقيقة ما فيهما وراء ذلك، وما هو إلا وصف للشيء بما يقاربه يقربه للعقول، وهذه القاعدة تنفع في كثير من تفسير الكتاب العزيز" (1).

يعتمد ابن بدران في تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]،

على قاعدة بلاغية، وكنز من كنوزها ألا وهو المجاز الحكمي، وقد تطرق إليه علماء البلاغة، وذكره في بطون كتبهم؛ فهذا عالم العلماء وبلغ البلغاء عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) يقول في كتابه دلائل الإعجاز: " اعلم أن طريق المجاز، والاتساع في الذي ذكرناه قبل (2) أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو ردف له، أو شبيهه فتجوزت بذلك في ذات الكلمة، وفي اللفظ نفسه وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية، ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: " نهارك صائم وليك قائم " و " نام ليلي وتجلّى همي "، وقوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]، وقول الفرزدق:

¹ جواهر الأفكار ص 81.

² يعني ما ذكرناه تحت باب الكناية والاستعارة والتمثيل بالاستعارة، فصل: في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، بيان في الكناية والمجاز والاستعارة. انظر: دلائل الإعجاز ص 66-79.

سَقَّتْهَا خُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ، لَمْ تَكُنْ عِلَاطًا، وَلَا مَخْبُوطَةً فِي الْمَلَاغِمِ (1)
أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في نوات الكلم وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكام أُجريت عليها⁽²⁾.
وقال أيضاً: " أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أُريد به معناه الذي وُضع له على وجهه، وحقيقته فلم يُرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولا بـ (ربحت) غير الريح ولا بـ(سقت) غير السقي"⁽³⁾.

ثم قال: " وهذا الضرب من المجاز على حدّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفلق، والكاتب البليغ في الإبداع، والإحسان، والاتّساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام " (4).

وقال السكّاكي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم: " واعلم أنّ المجاز الحكمي كثير الوقوع في كلام ربّ العزة. قال - عزّ من قائل -: ﴿ فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ ﴾... بإسناد الأفعال في هذه كلّها على غير ما هي لها عند العقل كما ترى زائلاً الحكم العقلي فيها عن مكانه الأصلي، إذ مكانه الأصلي إسناد الريح على أصحاب التجارة " (5).

وقد أشار إلى ذلك قديماً الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) في كتابه الجمل في النحو بقوله: " وكذلك يُلزمون الشيء الفعل، ولا فعل، وإتّما هذا على المجاز كقول الله - جلّ وعزّ - في البقرة ﴿ فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ والتجارة لا تريح؛ فلمّا كان الريح فيها تُسبب الفعل إليها " (6).

¹ ليس في ديوان الفرزدق، وهو له في الكامل للمبرد 64/1، والضمير في سقتها للإبل و " العلاط " وسمّ يكون في عنق البعير عرضاً، خطأ، أو خطين، أو خطوطاً في كل جانب. و " الخياط": سمة فوق الحدّ، والناقّة. "مخبوطة" عليها هذه السمة. و "الملاغم"، ما حول الفم مما يبلغه اللسان ويصل إليه، من اللغام، وهو زيد أفواه الإبل. ويقول: لم تكن هذه سمات إبله، بل سماتها خروق في آذانها، فلما رآها الذائنون على الحوض سقوها، وإنما يسقونها لعزة أصحابها. فكأن الخروق في المسامع هي التي أوردتها الماء وكفت الذائنين عنها. انظر: دلائل الإعجاز 293/1 هامش رقم (3).

² دلائل الإعجاز ص 293-294.

³ المرجع السابق ص 294.

⁴ المرجع السابق ص 295.

⁵ مفتاح العلوم للسكّاكي ص 397.

⁶ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، الجمل في النحو، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط 5 1416هـ، ص 72.

وسيبيويه (ت 180هـ) في الكتاب بقوله: " من ذلك قول الخنساء (ت 24هـ)⁽¹⁾:

تَزْنَعُ مَا رَتَعَتْ، حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ⁽²⁾

فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام، كقولك: نهارك صائم وليك قائم⁽³⁾.

وفي العربية تتناوب أحياناً الصيغ الصرفية فيأتي اسم المفعول مثلاً بمعنى اسم الفاعل، نحو قوله - تعالى -: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] بمعنى ساتراً، وفي النحو يأتي المفعول بمعنى الفاعل، كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ فالتجارة لا تريح وإنما يريح التجار فيها، وهذا كله مجاز محتمل في كلام العرب⁽⁴⁾.

وتعددت مسميات المجاز الحكي، فمنهم من يسميه: مجاز الملابس، ومنهم من يسميه: المجاز النسبي، ومنهم من يسميه: المجاز في الإثبات، ويسميه بعضهم: المجاز في الجملة، أو المجاز التركيبي، ومنهم من يسميه بالمجاز العقلي، ولعل الأخير هو أشهر أسمائه⁽⁵⁾، واختلاف المسميات لا يعني اختلاف المضمون؛ إذ المضمون واحد ولا مُشاحَّة في الاصطلاح.

وقد عرّف السكاكي (ت 626هـ) المجاز العقلي بقوله: "هو الكلام المُفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لا بوساطة وضع، كقولك: أُنبتَ الربيعُ البقلَ، وشفى الطبيبُ المريضَ"⁽⁶⁾.

¹ والخنساء: اسمها تماضر، بضم التاء المثناة من فوقها وفتح الميم وبعد الألف ضاد مكسورة معجمة وبعدها راء، وهي ابنة عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية، من بني سليم، من قيس عيلان، من مضر: أشهر شواعر العرب، وأشهرهن على الإطلاق. من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع قومها بني سليم، فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تتشد وهو يقول: هيه يا خنساء! أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلا في الجاهلية. لها (ديوان شعر - ط) فيه ما بقي محفوظاً من شعرها. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (سنة 16 هـ فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم! والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة، ولذلك قيل لها الخنساء؛ لأنها كانت على هذه الصفة. انظر: وفيات الأعيان 34/6، والأعلام للزركلي 86/2.

² الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي (ت نحو 50هـ)، ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 1425هـ، ص 46.

³ الكتاب 337/1.

⁴ انظر: ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 370هـ)، ليس في كلام العرب، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مئة المكرمة، ط 1399هـ، ص 318.

⁵ انظر: أبو موسى، مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط 7، ص 115-116.

⁶ مفتاح العلوم للسكاكي ص 393، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقرظيني ط دار الجيل 90/1، وخصائص التراكيب ص 114، وبيغية الإيضاح 57/1.

وعزّفه الهاشمي (ت 1362هـ) في جواهر البلاغة بقوله: " هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، من حال المتكلم؛ لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له " (1).

وقال الصعيدي (ت 1391هـ) في بُغية الإيضاح بقوله: " وأما المجاز فهو: إسناد الفعل، أو معناه، إلى مُلابس له، غير ما هو له بتأوّل " (2).

وتكاد تجتمع كلمة العلماء في قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]،

على أنّها من باب الإسناد المجازي، أو الحكمي، أو العقلي بل زاد بعضهم في ربطها بما قبلها من

قوله - تعالى - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ﴾ [البقرة: 16]، فجعلها استعارة

موشّحة، بمعنى أنّه لما استعار لفظ الشراء عقْبَهُ بذكر لازمه، وحكمه، وهو الريح توشيحاً للاستعارة(3)،

وسمّاها بعضهم استعارة مرشّحة، كما بيّن ذلك الحموي (ت 837هـ)(4) في خزّانة الأدب وغاية الأرب

بقوله: " والذي اتفق عليه علماء البديع، أنّ الاستعارة المرشّحة هي المقدّمة في هذا الباب (5)، وليس

فوق رتبته في البديع رتبة، وأعلاها، وأعلاها قوله - تعالى - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ

بِالْهُدَى فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 16] فإنّ الاستعارة الأولى،

وهي لفظ الشراء، رشّحت التّانية، وهي لفظ الرّيح، والتجارة " (6).

¹ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص255.

² بُغية الإيضاح 53/1، وانظر: فتح القدير للشوكاني 54/1.

³ انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للطالبي 123/1.

⁴ هو أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزرازي، تقي الدين ابن حجة: إمام أهل الأدب في عصره. وكان شاعراً جيد الإنشاء. من أهل حماة (بسورية) ولد ونشأ ومات فيها. زار القاهرة والتقى بعلمائها واتصل بملوكها. وكان طويل النفس في النظم والنثر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شئ من الزهو والإعجاب. اتخذ عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، في صباحه، فنسب إليها. مصنفاته كثيرة، منها (خزانة الأدب) في شرح بديعية له، و (ثمرات الأوراق) و (كشف النّام عن وجه التورية والاستخدام) و (حديقة زهير) و (قهوة الإنشاء)، جمع فيه ما أنشأه من النقايد السلطانية والمناشير عن الملوك الذين عمل في دواوينهم، و (بلوغ المرام من سيرة ابن هشام)، و (بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد)، و (الثمرات الشهيبة من الفواكه الحموية) نظم، و (تأهيل الغريب) وقبره في حماة معروف. انظر: الأعلام للزركلي 67/2.

⁵ يعني ذكر الاستعارة انظر 109/1.

⁶ ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت 837هـ)، خزّانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت، الطبعة الأخيرة 2004م، ج1، ص111، وانظر: الكشكول 113/2، وتحرير التحرير لابن أبي الإصبع ص99، وجواهر البلاغة للهاشمي، ص272، وبُغية الإيضاح 508/3-509، والكشاف 70/1، وأتوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 49/1، والتسهيل لعلوم التنزيل لجزيّ 72/1، والبحر المحيط لأبي حيان 119/1، والدرّ المصون للسمين الحلبي 154-152/1،

مِنْ هُنَا نَلْحِظُ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَزَّ - أَسَدَّ الرِّيحِ إِلَى التِّجَارَةِ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ، وَالْخَسْرَانَ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي التِّجَارَةِ كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ الْفَرَاءُ (ت 207هـ) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: "وَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]، رُبَّمَا قَالَ الْقَائِلُ: كَيْفَ تَرِيحُ التِّجَارَةُ؛ وَإِنَّمَا يَرِيحُ الرَّجُلُ التَّاجِرُ؟ وَذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ: رِيحٌ بِيَعُوكَ، وَخَسِرَ بِيَعُوكَ، فَحَسُنَ الْقَوْلُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ وَالْخَسْرَانَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي التِّجَارَةِ، فَعَلِمَ مَعْنَاهُ. وَمِثْلُهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ: هَذَا لَيْلٌ نَائِمٌ، وَمِثْلُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [مُحَمَّدٌ: 7] وَإِنَّمَا الْعَزِيمَةُ لِلرِّجَالِ، وَلَا يَجُوزُ الضَّمِيرُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا " (1).

وَالْأَخْفَشُ (ت 215هـ) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: " قَوْلُهُ ﴿فَمَا رِيحَتِ تَجَرَّتُهُمْ﴾ ﴿فَهَذَا عَلَى قَوْلِ الْعَرَبِ: " خَابَ سَعْيُكَ " وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي خَابَ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ " فَمَا رِيحُوا فِي تِجَارَتِهِمْ " وَمِثْلُهُ ﴿بَلْ مَكْرُ الْيَلِيلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33]، وَ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 177] إِنَّمَا هُوَ " وَلَكِنَّ الْبِرَّ بَرٌّ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ "، وَقَالَ الشَّاعِرُ (2):

كَيْفَ تُوَاصِلُ مِنْ أَصْبَحَتْ خَلَّالَتْهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ (3)

وقال الشاعر:

وَشَرُّ الْمَنَائِمِ مَيِّتٌ وَسَطٌ أَهْلُهُ كَهَلِكِ الْفَتَاةِ أَسْلَمَ الْحَيِّ حَاضِرُهُ (4)

إِنَّمَا يَرِيدُ وَشَرُّ الْمَنَائِمِ مَنِيَّةٌ وَسَطٌ أَهْلُهُ " (5).

= واللباب في علوم الكتاب لابن عادل 368/1-369، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 49/1، وروح البيان لأبي الفداء 64/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 300/1، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش 42/1.

¹ معاني القرآن للفراء 14-15، وانظر: معاني القرآن للتحاسن 100-101، وجامع البيان للطبري 317/1.

² هو قيس بن عبد الله بن عُدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلي: شاعر مفلق، صحابي: من المعمرين. اشتهر في الجاهلية. وسمى " النابغة " لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقوم الشعر ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، قبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي - صلى الله عليه وآله - فأسلم، وأدرك صفين، فشهدها مع علي. ثم سكن الكوفة، فسيّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها وقد كَفَّ بصره، وجاوز المئة. وأخباره كثيرة. انظر: الأعلام للزركلي 207/5، وسير أعلام النبلاء 177/3-178.

³ النابغة الجعدي، أبو ليلي عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة (ت نحو 50هـ)، ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط 1998م، ص 39. وانظر: الكتاب لسيبويه 215/1. والبيت: وكيف تواصل الخلاصة: الصداقة التي ليس فيها خلل. أبو مرحب: كنية تقال للرجل الحسن الوجه لا باطن له، وقيل: أبو مرحب: هو الذئب.

⁴ هو للحطينة، من أبيات ليست في ديوانه، بل في طبقات فحول الشعراء لابن سلام 112/1، والكتاب لسيبويه 215/1، وجامع البيان 317/1.

⁵ معاني القرآن للأخفش 52/1، وانظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 92/1-93.

وبناءً على ما سبق فإن تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]

أن المنافقين لما اشتروا الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا؛ لأنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فضلوا سبيلهم، وابتعدوا عن الطريق المستقيم؛ فاستحقوا وعيد ربهم، وعذابه، وعقابه.

قال الطبري (ت 311هـ) في تفسيره - في تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتْ

تَجَرَّتُهُمْ ﴾: " وتأويل ذلك أن المنافقين - بشرائهم الضلالة بالهدى - خسروا ولم يربحوا؛ لأنّ الرباح من التجار: المُستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفس من سلعته المملوكة، أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به. فأما المُستبدل من سلعته بدلاً دونها، ودون الثمن الذي ابتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك. فكذا الكافر والمنافق؛ لأنهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى، والخوف والرعب على الحفظ والأمن، واستبدلا في العاجل: بالرشاد الحيرة، وبالهدى الضلالة، وبالحفظ الخوف، وبالأمن الرعب، مع ما قد أُعدَّ لهما في الآجل من أليم العقاب، وشديد العذاب، فخابا وخسرا، ذلك هو الخسران المبين⁽¹⁾. وبنحو الذي قلنا في ذلك كان فتادة يقول⁽²⁾.

والى هذا المعنى ذهب جُلّ علماء التفسير ومن أشهرهم:

الماتريدي (ت 333هـ) في تفسيره⁽³⁾، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم⁽⁴⁾، والثعلبي

(ت 427هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، والواحدي (ت 468هـ) في تفسيره⁽⁶⁾، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)

في درج الدرر⁽⁷⁾، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير⁽⁸⁾، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره⁽⁹⁾،

¹ جامع البيان للطبري 1/315-316.

² انظر: المرجع السابق 1/316-317، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 1/50، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/186، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 1/80، وفتح القدير للشوكاني 1/54.

³ انظر: تأويلات أهل السنة 1/389.

⁴ انظر: بحر العلوم للسمرقندي 1/98.

⁵ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 1/159.

⁶ انظر: التفسير البسيط للواحدى 1/322.

⁷ انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور 1/111.

⁸ انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 1/122.

⁹ انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 1/90.

والزمخشري (ت 538هـ) في الكشف⁽¹⁾، وابن عطية (ت 542هـ) في المحرر الوجيز⁽²⁾، وأبو الفرج الجوزي (ت 597هـ) في تفسيره⁽³⁾، والرازي (ت 606هـ) في مفاتيح الغيب⁽⁴⁾، والقرطبي (ت 671هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، والبيضاوي (ت 685هـ) في أنوار التنزيل⁽⁶⁾، والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل⁽⁷⁾، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل⁽⁸⁾، وأبو حيّان (ت 745هـ) في البحر المحيط⁽⁹⁾، والشربيني (ت 977هـ) في السراج المنير⁽¹⁰⁾.

وأبو السعود (ت 982هـ) في تفسيره بقوله: " والتجارةُ صناعةُ التُّجَّارِ وهو التصدي للبيع والشراء؛ لتحصيل الرِّيح: وهو الفضلُ على رأس المال. يقال: رِيحَ فلانٍ في تجارته؛ أي استشفَّ فيها، وأصاب الرِّيح، وإسنادِ عدمه الذي هو عبارة عن الخسران إليها، وهو لأربابها بناءً على التوسع المبني على ما بينهما من المُلَابسة، وفائدته المبالغة في تحسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار، وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يُلابِسُهُم " ⁽¹¹⁾، وأبو الفداء الخلوتي (ت 1127هـ) في روح البيان⁽¹²⁾، وأبو العباس الأنجري (ت 1224هـ) في البحر المديد⁽¹³⁾، والشوكاني (ت 1250هـ) في فتح القدير⁽¹⁴⁾، ومُحَمَّدُ صديق خان (ت 1307هـ) في تفسيره⁽¹⁵⁾، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل⁽¹⁶⁾.

¹ انظر: الكشف 70/1-72.

² انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 98/1.

³ انظر: زاد المسير في علم التفسير 36/1.

⁴ انظر: مفاتيح الغيب 311/2.

⁵ انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 211/1.

⁶ انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 49/1.

⁷ انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 54/1.

⁸ انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 28/1.

⁹ انظر: البحر المحيط 118-120.

¹⁰ انظر: السراج المنير للشربيني 27/1.

¹¹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 49/1.

¹² انظر: روح البيان 64/1.

¹³ انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 82/1.

¹⁴ انظر: فتح القدير للشوكاني، 54/1.

¹⁵ انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن للفتوحي 97/1.

¹⁶ انظر: محاسن التأويل للقاسمي 255/1.

وَمُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا (ت 1354هـ) فِي تَفْسِيرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، إِذْ لَمْ تُثْمَرْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، بَلْ خَسَرُوا وَخَابُوا بِإِهْمَالِهِمُ الصَّحِيحَ الَّذِي لَا تَقُومُ الْمَصَالِحُ، وَ لَا تُحْفَظُ الْمَنَافِعُ إِلَّا بِهِ، وَإِسْنَادُ الرِّيحِ إِلَى التِّجَارَةِ عَرَبِيٌّ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ: هُوَ النَّمَاءُ فِي التَّجَرُّ، وَهَذِهِ الْمَقَاوِضَةُ هِيَ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُثْمَرَ الرِّيحَ، فإِسْنَادُهُ إِلَيْهَا نَفِيًّا، أَوْ إِثْبَاتًا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمْ يَكُنْ نَمَاءٌ فِي تِجَارَتِهِمْ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ التَّأْوِيلُ - الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الرِّيحِ إِلَى التِّجَارَةِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُهُ وَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْعِبَارَةَ مِنَ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ - تَأْوِيلٌ يَتَّفِقُ مَعَ الْبَلَاغَةِ، وَلَا يَنَافِيهَا، وَلَا زَالَ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُزَيَّنُ الْبَلَاغَاءُ بِهِ كَلَامِهِمْ، وَيَبْلُغُونَ بِهِ مَا يَشَاؤُونَ مِنْ تَفْخِيمِ مَعَانِيهِمْ⁽¹⁾، وَمُحَمَّدٌ الطَّاهِرُ عَاشُور (ت 1393هـ) فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ⁽²⁾، وَالشُّعْرَاوِيُّ (ت 1418هـ) فِي تَفْسِيرِهِ⁽³⁾، وَابْنُ الْعَثِيمِيِّ (ت 1421هـ) فِي تَفْسِيرِهِ⁽⁴⁾.

مِنْ هُنَا بَاتَ وَاضِحًا وَضُوحَ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، مَدَى اعْتِمَادِ الْمَفْسِرِينَ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْبَلَاغَةَ هِيَ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا لِسَانُ الْعَرَبِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَزَّ -؛ لِيَفْهَمُوا عَنْ اللَّهِ مَرَادَهُ وَخَطَابَهُ؛ بَيَانًا لَهُمْ وَحِجَّةً عَلَيْهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَى تَفْسِيرِ كِتَابِهِ - سَبْحَانَهُ - لِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَاسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِهِ، مِنْ خِلَالِ فَهْمِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَرْسِهَا، وَإِتْقَانِهَا كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ (ت 463هـ) فِي مَا أَسْنَدَهُ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقَوْلِهِ: " لَا تَفْقَهُ كُلُّ الْفَقْهِ، حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وَجُوهًا كَثِيرَةً "، ثُمَّ تَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: " فَيَحْتَاجُ النَّاطِرُ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ، إِلَى حِفْظِ الْآثَارِ، وَدَرْسِ النَّحْوِ، وَعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ، إِذْ كَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - إِذَا أَنْزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُفُ: 2] "⁽⁵⁾.

لِذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَعْرِفَتِهَا؛ فَهِيَ شَرْطٌ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَتَفْسِيرِهِ، إِذْ مِنْ الْمَحَالِّ فَهْمُهُ وَتَفْسِيرُهُ لِغَيْرِ عَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَقَعُ فِي الزَّلَلِ وَالخَطَأِ، بَلْ وَسَيُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

¹ تفسير المنار 140/1.

² انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 1/299-300.

³ انظر: تفسير الشعراوي - الخواطر 1/163-164.

⁴ انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 1/60-61.

⁵ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ)، الفقيه و المتفقه، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل

بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي - السعودية، ط 1421هـ، ج 1، ص 198

وإنّ من الأهميّة بمكان، عناية المفسّرين بالبلاغة - التي هي جزء مهمّ من العربيّة - والبراعة فيها، لاسيّما في علمي البيان والمعاني، وهذا ما أكّده الزمخشري (ت 538هـ) في الكشّاف بقوله: "واللّغوي وإنّ علّك اللّغات بقوةٍ لحيّيه لا يتصدّى منهم أحدٌ لسلك تلك الطرائق، ولا يغوصُ على شيءٍ من تلك الحقائق إلّا رجل قد برّع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التتقير عنهما أزمنة" (1).

ويرى الباحث أنّ ابن بدران - رحمه الله تعالى - لحقّ الركب في اعتماده للقواعد البلاغية في تأويل قوله - تعالى -: ﴿فَمَا رِيحَتِ تَجَدَّرْتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]، فنجده ينقل كلام الرازي (2) بتمامه وكماله في تأويل الآية (3) ثم يضيف بقوله: "استبدلوا الدين القيم الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها بالضلال، فكلّ من ضلّ فهو مُستبَدَلٌ خلاف الفطرة" (4).

ثم بعد ذلك يعلّل اعتماده هذا التّأويل بناءً على القاعدة البلاغية بقوله: "فإنّ قلت: كيف أسند عدم الريح إلى التجارة، وإنّما هو لأصحابها لا لها؟ قيل: هو من الإسناد المجازي" (5)، كما بيّنّا ذلك.

ويؤيّد الباحث ابن بدران، وعلماء اللّغة، والتفسير الذين سبقوه بقوله، وسلخوا هذا المسلك؛ لأنّ غاية التفسير هو معرفة مراد الله - جلّ وعزّ - في آياته، وإصابة وجه الحقّ فيها من خلال العربية التي لا تنفصل عن علوم الدين؛ لأنّها لغة التّنزيل، وكلام سيّد المرسلين.

تنبيه:

وهذا لا يعني أنّ تفسير القرآن قائم فقط على علوم العربية، كما بيّن ذلك ابن عباس بقوله: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله - تعالى ذكره -" (6).

¹ الكشاف 2/1.

² انظر: كلام الرازي 311/2.

³ انظر: جواهر الأفكار ص 80-81.

⁴ المرجع السابق ص 81.

⁵ المرجع السابق ص 81.

⁶ جامع البيان في تأويل القرآن 75/1.

لذلك فإنَّ العلماء وضعوا ضوابط، وقواعد للتفسير القائم على اللغة، وهو ما يُعرف بالتفسير اللغوي. وقد بيَّناها، وفصلناها سابقاً تحت عنوان: ضوابط التفسير باللغة⁽¹⁾.

وقد عرّفه مساعد الطيار بقوله: " هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب، أمّا الشقّ الأول من التعريف، وهو بيان معاني القرآن: فإنّه عامٌّ يشملُ كلّ مصادر البيان في التفسير: كالقرآن والسنة، وأسباب النزول، وغيرها. وأمّا الشقّ الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب: فإنّه قيدٌ واصفٌ لنوع البيان الذي وقع لتفسير القرآن، وهو ما كان طريق بيانه عن لغة العرب....، والمراد بما ورد في لغة العرب: ألفاظها، وأساليبها التي نزل بها القرآن " ⁽²⁾.

وختلاصة القول:

إنَّ تأويل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَا رِيحَتِ تِجَارَتُهُمْ ﴾ قائم على القاعدة البلاغية: وهي الإسناد المجازي، أو المجاز الحكمي، أو العقلي، في بيان خسارة المنافقين في تجارتهم؛ بشرائهم الضلالة بالهدى، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وذلك هو الخسران المبين.

¹ انظر: ص 43-47.

² التفسير اللغوي للقرآن الكريم لمساعد الطيار ص 38-39.

المسألة الثالثة:

أثرُ خُرُوجِ كَيْفَ عَنِ أَصْلِ دَلَالَتِهَا فِي تَوْجِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: 28].

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : "فإن قيل: ما الحكمة في تصديره - تعالى - هذه الآية: بـ (كيف) التي معناها الاستفهام في غالب أحوالها؟ والاستفهام لا يكون إلا ممن خفي عنه حال المستفهم عنه، وهو مُحال عليه -تعالى- لأنه علام الغيوب. قلنا: ليس الاستفهام هنا على حقيقته كما أشرنا إليه سابقاً، لكنه لما كان الحالُ حالَ العلم بالصانع، الموجبة للصرف عن الكفر، وكان صدور الكفر ممن لهم صورة اختيار في الترك مع الصارف القوي مظنة تعجب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ، صار كأنه قيل لهم: ما أعجب كفركم!"⁽¹⁾.

فيظهر من كلامه - رحمه الله تعالى - أنه عدل عن حقيقة الاستفهام إلى معنى من معانيه وهو: التعجب، والإنكار، والتوبيخ، بما يتناسب وسياق الآية؛ لبيان كنهها، ومراد الله فيها؛ لأنَّ الأخذ بظاهر الاستفهام، وحقيقته مُحال في حق الله - تعالى - علام الغيوب، الذي لا يخفى عنه حال المستفهم عنه.

وللوقف على حقيقة المسألة، وبيان الحق فيها، ودلائل إعجازها، ومراد الله منها، لا بُدَّ من معرفة حقيقة الاستفهام ودلالته وأغراضه.

عرّف العُكبري (ت 616هـ) الاستفهام بقوله: "الاستفهام: طلب الإفهام، والإفهام: تحصيل الفهم، والاستفهام، والاستعلام، والاستخبار بمعنى واحد"⁽²⁾.

وعرّفه الهاشمي (ت 1362هـ) بقوله: "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأتى، وكم، وأي"⁽³⁾.

¹ جواهر الأفكار ص 139-140.

² العُكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ)، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق د. عبد الإله النبهان، دار الفكر - دمشق، ط 1416هـ، ج 2، ص 129.

³ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع للهاشمي ص 78.

وعرّفه الغلابيني (ت 1364هـ)⁽¹⁾ بقوله: "اسم الاستفهام: هو اسمٌ مُبْهَمٌ يُسْتَعْلَمُ به عن شيءٍ، نحو "من جاء؟ كيف أنت؟"⁽²⁾.

ومن أسماء الاستفهام: كيف، قال ابن قتيبة: "كيف بمعنى: على أي حال، تقول: كيف أنت؟ تريد بأي حال أنت"⁽³⁾، وهي: "اسم يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، نحو "كيف أنت؟"، أي: على أيّة حالٍ أنت". والغرض من الاستفهام بهذه الأسماء عموم السؤال المُقتَضِي للجواب بالمسؤول عنه، وهذا لا يحصل من الاستفهام بالحرف؛ لأنّ المُستَفْهَمُ عنه يختصُّ ببعض الجنس، كقولك أزيد في الدار؟ فيمكن المجيب أن يقول: لا، ولا يلزمه شيءٌ آخر بمقتضى هذا السؤال؛ فيحتاج أن يحدّد سؤالاً آخر وربما تسلسل"⁽⁴⁾.

وقد يخرج الاستفهام عن أصل دلالاته إلى معانٍ أخرى كما بيّن ذلك ابن الشجري (ت 542هـ) في أماليه⁽⁵⁾، وعبد الرحمن حَبَنَكَة (ت 1425هـ) بقوله: "كثيراً ما يخرج الاستفهام عن إرادة طلب الإفهام والإعلام إلى معانٍ أخرى أشار إليها به، ويُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا مِنْ قَرَائِنِ الْحَالِ، أَوْ قَرَائِنِ الْمَقَالِ، إِذْ يَسْتَعْنِي الْبُلْغَاءُ بِعِبَارَاتِ الْاِسْتِفْهَامِ عَنْ ذِكْرِ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى مَا يُرِيدُونَ التَّعْبِيرَ عَنْهُ مِنَ الْمَعَانِي، وَبِلَاغَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي بِأَسْلُوبِ الْاِسْتِفْهَامِ آتِيَةً مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِصُورَةٍ غَيْرِ مَبَاشِرَةٍ، وَهِيَ دَلَالَاتٌ تُتَّصِدُّ بِالذِّكَاةِ. قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الصَّائِغِ فِي كِتَابِهِ (رُوضِ الْأَفْهَامِ فِي أَقْسَامِ الْاِسْتِفْهَامِ): "وقد توسعت العرب؛ فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته

¹ هو مصطفى بن مُحَمَّد سليم الغلابيني: شاعر، من الكتاب الخطباء. من أعضاء المجمع العلمي العربي. مولده ووفاته ببيروت. تعلم بها وبمصر، وتلمذ للشيخ مُحَمَّد عبيد (سنة 1320 هـ ولما كان الدستور العثماني أصدر مجلة (النبراس) سنتين، ببيروت، ووظف فيها أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية أربع سنوات، وعين خطيباً للجيش الرابع (العثماني) في الحرب العالمية الأولى، فصحبه من دمشق مخترقاً الصحراء إلى ترعة السويس من جهة الإسماعيلية وحضر المعركة والهزيمة. وعاد إلى بيروت، مدرساً. وبعد الحرب أقام مدةً في دمشق، وتطوّر للعمل في جيشها العربي. وعاد إلى بيروت فاعتقل بتهمة الاشتراك في مقتل (أسعد بك) المعروف بمدير الداخلية (سنة 1922) وأفرج عنه فرحل إلى شرقي الأردن، فعهد إليه أميرها (الشريف عبد الله) بتعليم ابنه، فمكث مدة وانصرف إلى بيروت، فنصب رئيساً للمجلس الإسلامي فيها، وقاضياً شرعياً إلى أن توفي. من كتبه (نظرات في اللغة والأدب - ط) و (عظة الناشئين - ط) و (لباب الخيار في سيرة النبي المختار - ط) رسالة اختصرها من كتابه (خيار المقول في سيرة الرسول - خ) و (الإسلام روح المدنية - ط) في الرد على كرومر، و (نظرات في كتاب السفر والحجاب - ط) و (الثريا المضية في الدروس العروضية - ط) و (أريج الزهر - ط) مجموع مقالات له، و (رجال المعلقات العشر - ط) و (الدروس العربية - ط) مدرستي، و (ديوان الغلابيني - ط). انظر: الأعلام للزركلي 244/7-245.

² جامع الدروس العربية للغلابيني 139/1.

³ انظر: الصاحب في فقه اللغة لابن فارس ص115، واللّمع في العربية ص228. والبلاغة العربية 266/1، واللّمعة في شرح الملحّة لابن الصائغ 907/2، والمحرف في النّحو للهمري 465/1، والنّحو الشافي ص160، والمفردات في غريب القرآن لأصفهاني ص730، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 330/4، وجامع الدروس العربية للغلابيني 143/1.

⁴ اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري 131/2.

⁵ انظر: أمالي ابن الشجري 410-402/1.

تلك المعاني ". وقد أحصى البلاغيون معاني كثيرة خرج إليها الاستفهام عن حقيقته، إذ تَنَبَّهُوا إليها لدى دراسة مُخْتَلَفِ النصوص، وهي ما يلي: 1. الإنكار 2- التوبيخ 3- التقرير 4- التعجب أو التعجيب 5- العتاب 6- التذكير 7- الافتخار، ...⁽¹⁾. وهذا ما أشار إليه القزويني (ت 739هـ) في كتابه الإيضاح بقوله: "الأغراض البلاغية التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام: ثم إنَّ هذه الألفاظ كثيراً ما تُستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام"⁽²⁾. ثم ذكرها مفصلة⁽³⁾.

لذلك فإنَّ لكلَّ اسم من أسماء الاستفهام معنى خرج عن أصل دلالته الحقيقية فاسم الاستفهام (كيف) له عدَّة وجوه بيَّنها ابن فارس (ت 395هـ) بقوله: "وقال بعض أهل اللغة: لها ثلاثة أوجه: أحدها: سؤال محض عن حال، تقول: كَيْفَ زيدٌ؟ والوجه الآخر: حالٌ لا سؤال معه، كقولك: "لأَكْرَمَتِكَ كيف كنت" أي: على أيِّ حال كنت. والوجه الثالث: (كيف) بمعنى التعجيب، وعلى هذين الوجهين يُفسَّر قوله: ﴿فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 19] قالوا: معناها "على أيِّ حال قَدَّر" وتعجيب أيضاً. ومن التعجيب قوله جلَّ ثناؤه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]. وقد يكون كيف بمعنى النفي. قال⁽⁴⁾:

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بعدما لآحَ فِي الرَّأْسِ مَشِيبٌ وَصَلَعٌ⁽⁵⁾

ومنه قوله جلَّ ثناؤه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 7] و ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: 86]. وتكون توبيخاً، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 101]. فأما قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

¹ البلاغة العربية لِحَبِئَةَ 269/1-270، وانظر: درج الدرر 37/2.

² الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجبل 68/3.

³ انظر: المرجع السابق 68/3-80.

⁴ يعني: سويد بن أبي كاهل (غظيف، أو شبيب) ابن حارثة بن حسل، الذباني الكتاني اليشكري، أبو سعد: شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. عدّه ابن سلام في طبقة عنتره. كان يسكن بادية العراق. وسجن بالكوفة، لمهاجته أحد بني بشكر، فعمل بنو عيس وذبيان على إخراجهم، لمديحه لهم، فأطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المهاجرة. أشهر شعره عينية كانت تسمى في الجاهلية (البيتمة) وهي من أطول القصائد، حفظ الرواة منها نيفا ومئة بيت، مطلعها: (أرق العين خيال لم يدع من سلمي ففؤادي منتزع) وجمع معاصرنا شاعر العاشور ما وجد من شعره في (ديوان - ط) بالبصرة. انظر: الأعلام 146/3.

⁵ اليشكري، أبو سعد سويد بن أبي كاهل غظيف بن حارثة (ت نحو 60هـ)، ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق شاعر العاشور، مراجعة مُحمَّد جَبَّار المعبيد، دار الطباعة الحديثة، بصره - عراق، ط 1972م، ص 32.

جِنًا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴿ [النساء: 41] فهو تأكيد لما تقدّم من خبر وتحقيق لما بعده، على تأويل: إن الله لا يظلم مثقال ذرة في الدنيا فكيف في الآخرة⁽¹⁾.

وقال الزجاجي (ت 337هـ)⁽²⁾ في كتابه حروف المعاني: "كيف لها ثلاثة مواضع تقع بمنزلة (كما) واستفهاماً عن حال، تقول: أعلمه كيف تشاء، كما تقول: أعلمه كما تشاء، وتقول في الاستفهام: كيف أبوك صانع إذا سألته عن صنيعه؟ فإذا سألته عن نفسه قلت: كيف زيد؟ فيقال صالح. فهي تسأل بها عن حال الشيء وهيئته. وتقع كيف بمعنى التعجب كقوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: 28]⁽³⁾.

وقد تخرج كيف من الاستفهام الحقيقي إلى أغراض عدة منها:

1. التعجب، نحو قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: 28]⁽⁴⁾. فتكون صيغة التعجب هنا لما يدل عليه بالقرينة؛ لأنّ صيغ التعجب لما يدل عليه الوضع صيغتان: ما أفعله نحو: ما أحسنَ الصدقَ! وأفعل به نحو أحسنَ به!⁽⁵⁾.

¹ الصحابي في فقه اللغة العربية لابن فارس ص 115-116، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي 4/401.

² أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي داراً ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً؛ كان إماماً في علم النحْو، وصنف فيه كتاب "الجمال الكبرى" وهو كتاب نافع لولا طوله بكثرة الأمثلة. أخذ النحْو عن مُحَمَّد بن العباس البيهقي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأتباري، وصحب أبا إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج فنسب إليه وعرف به، وسكن دمشق وانتفع الناس به وتخرجوا عليه. وتوفي في رجب سنة سبع وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين وثلاثمئة، وقيل في شهر رمضان سنة أربعين، والأول أصح، بدمشق وقيل بطبرية -رحمه الله - وكان قد خرج من دمشق مع ابن الحارث عامل الضياع الإخشيدية فمات بطبرية. وكتابه (الجمال) من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به، ويقال إنه صنفه بمكّة - حرسها الله تعالى - وكان إذا فرغ من باب طاف اسبوعاً ودعا الله - تعالى - أن يغفر له وأن ينفع به قارئه. والزجاجي: بفتح الزاي وتشديد الجيم وبعد الألف جيم ثانية. انظر: وفيات الأعيان 3/136.

³ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق النهاوندي (ت 337هـ)، حروف المعاني والصفات، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 1984م، ص 35. وانظر: ص 59.

⁴ انظر: تأويل مشكل القرآن 278/1، واللمحة في شرح الملحّة لابن الصائغ 907/2، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام 224/3، وشرح الأشموني لألفية ابن مالك 262/2، وشرح التصريح على التوضيح 57/2، والحملوي، أحمد بن مُحَمَّد (ت 1351هـ)، شذا العرف في فن الصرف، تحقيق نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد، الرياض، ص 70، وجامع الدروس العربية للغلابيني ص 65، والنحْو الوافي 340/3، ومعاني النحْو للسامرائي 224/4، والصحابي في فقه اللغة لابن فارس ص 115، وحروف المعاني والصفات للزجاجي ص 59، وبغية الإيضاح 266/2، والبلاغة العربية 169/1، ومفتاح العلوم للسكاكي ص 314، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 344/2، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج 107/1، والإنتقان في علوم القرآن للسيوطي 270/3.

⁵ انظر: الإنتقان في علوم القرآن للسيوطي 259/3، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام 225-227، وشرح الأشموني لألفية ابن مالك 263/2، شرح التصريح على التوضيح 57-59. شذا العرف في فن الصرف، ص 70. وجامع الدروس العربية للغلابيني 65/1.

وعدّها بعضهم ثلاثاً فأضاف (فَعَلَ) مثل فَضُلْ زيد⁽¹⁾.

وصيغ التعجب إما سماعية وإما قياسية:

أما القياسية: فهي التي تدلّ بلفظها ومعناها على التعجب، فهي بلفظها مُعدّة لذلك صرفياً، وهي بمعناها تدلّ على التعجب - وهكذا استعملتها العرب - وهما اثنتان: ما أَفْعَلْ، وأَفْعِلْ به، على التفصيل المذكور آنفاً.

وأما السماعية: فهي الأساليب المستعملة في اللغة لغير التعجب؛ ولكنها تُدَلُّ عليه بالاستعمال المجازي، فمعاني ألفاظها لا يُفهم منها التعجب، إلا بالقرائن عن طريق المجاز أو التنعيم. ومنه قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ [البقرة: 28]، فكلمة (كيف) أصلها بلفظها ومعناها للاستفهام، ولكنها دلّت على التعجب دلالة عارضة على سبيل المجاز، وقول القائل: سبحان الله! فسبحان الله: بلفظها ومعناها للدعاء والعبادة، ثم استخدمت في التعجب على غير الأصل⁽²⁾. وهكذا دواليك.

2. التوبيخ، نحو قوله - تعالى -: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 36]⁽³⁾.

3. التفي، نحو قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعَدَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ [آل عمران: 86]. والمعنى: لا يهدي الله قوماً كفروا.⁽⁴⁾

4. التحذير، نحو قوله - تعالى -: ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 137]⁽⁵⁾.

5. الإنكار، نحو قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: 28]⁽⁶⁾.

إلى غير ذلك من المعاني.⁽⁷⁾

¹ انظر: شرح شذور الذهب للجوجري 2 / 731، والإتيان في علوم القرآن للسيوطي 3/259، ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن 321/1.

² انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي 2/401-402، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع للهاشمي ص69.

³ انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجيل 3/79، ومعاني النُّحُو للسامرائي 4/224، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص116، وبغية الإيضاح 2/266، ومفتاح العلوم للسكاكي ص314، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص730، و البرهان في علوم القرآن 331/4، و الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 110/7.

⁴ معاني النُّحُو للسامرائي 4/224، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص115، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي 4/401، و الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 110/7.

⁵ معاني النُّحُو للسامرائي 4/225، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 4/331.

⁶ انظر: مفتاح العلوم للسكاكي 1/314، و الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 7/110، ودرج الدرر للجرجاني 2/37.

⁷ انظر: معاني النُّحُو للسامرائي 4/225، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 4/330-331.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة عن الاستفهام، ودلالته الحقيقية والمجازية يظهر لنا أنّ خروج الاستفهام عن أصل حقيقته معلوم بالعربية، إذ إن المستقري لكلام العرب وأشعارهم يجده مليئاً فيه؛ ولذلك فإن علماء اللُّغة، والنَّحو، والبلاغة قد اهتموا فيه أيّما اهتمام، حتى إنّنا نجدهم قد صنّفوا فيه المصنّفات، وأفردوا له أبواباً في بطون المؤلفات، دلالة على أهميته وضرورته في مقصود الكلام ومرماه، ولعلّ كلام الله وآياته أجلّ ما يُنظر إليه لبيان مراده وكنهه؛ لاستنباط أحكامه وشريعته. وقد أفاد علماء التفسير من كلام علماء النَّحو والبلاغة في هذا الباب؛ ليُظهروا تأويل الآيات ويفسّروها على الوجه الذي أراده الله - سبحانه وتعالى - لإصابة الحق ومعرفة الصحيح.

من هنا فإنّ جُلّ العلماء وجمهورهم قالوا في تأويل قول الله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: 28]: إنّ الاستفهام في هذه الآية خرج عن أصل حقيقته إلى دلالة المجازية، وهي التعجب، والتعجب، والإنكار، والتوبيخ معتمدين قاعدة بلاغية من القواعد البلاغية المستقراة من كلام الله - جلّ وعزّ - ثمّ من كلام العرب، وأشعارهم التي تدلّ على الفصاحة، والبلاغة، والبيان.

وقد تنوّعت ألفاظ العلماء في الدلالة على المعنى المجازي لاسم الاستفهام (كيف):

فمن قائل بالتعجب والتوبيخ، ومنهم:

الفراء (ت 207هـ) في معاني القرآن بقوله: "وقوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ [البقرة: 28]، على وجه التعجب والتوبيخ، لا على الاستفهام المحض، أي: وَيَحْكُمُ كَيْفَ تَكْفُرُونَ! وهو كقوله: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: 26]⁽¹⁾.

وقال بقوله الطبري (ت 311هـ) في تفسيره⁽²⁾، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم⁽³⁾، والماوردي (ت 450هـ) في تفسيره⁽⁴⁾، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير⁽⁵⁾، وابن عطية

¹ معاني القرآن للفراء 23/1، وانظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص730، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 330/4، وبصائر نوي التمييز للفيروز أبادي 401/4، ومعتزك الأقران للسيوطي 330/1، ومفتاح العلوم للسكّافي 314/1، والتفسير البسيط للواحدي 289/2.

² انظر: جامع البيان للطبري 427/1.

³ انظر: بحر العلوم للسمرقندي 106/1.

⁴ انظر: النكت والعيون 90/1.

⁵ انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 129/1.

(ت 542 هـ) في تفسيره⁽¹⁾، والجوزي (ت 597 هـ) في تفسيره⁽²⁾، والقرطبي (ت 671 هـ) في تفسيره⁽³⁾، والسَّمِينِ الحَلْبِيِّ (ت 756 هـ) في الدر المصون⁽⁴⁾، والنيسابوري (ت 850 هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، والألوسي (ت 1270 هـ) في تفسيره⁽⁶⁾، والسعدي (ت 1376 هـ) في تفسيره⁽⁷⁾، والزحيلي في تفسيره⁽⁸⁾، وأبو زهرة (ت 1394 هـ) في تفسيره⁽⁹⁾.

وَمِنْ قَائِلِ بِالتَّبَكُّيْتِ وَالتَّغْنِيفِ، وَمِنْهُمْ:

الرازي (ت 606 هـ) في مفاتيح الغيب بقوله: " واعلم أن قوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ

بِاللَّهِ ﴾ وإن كان بصورة الاستخبار فالمراد به التبكيت والتعنيف؛ لأنَّ عِظَمَ النِّعْمَةِ يَقْتَضِي عِظَمَ مَعْصِيَةِ الْمُتَعَمِّقِ " (10).

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ:

أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) في البحر المحيط بقوله: " كيف: قد تقدّم أنه اسم استفهام عن حال، وصحبه معنى التقرير والتوبيخ، فخرج عن حقيقة الاستفهام " (11)، وقال بهذا أبو زيد الثعالبي (ت 875 هـ) في تفسيره بقوله: " قوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ هو تقرير وتوبيخ، أي: كيف تكفرون، ونعمه عليكم وقدرته هذه " (12).

وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَّرَ عَنِ الاسْتِفْهَامِ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالتَّعْجَبِ:

عبد القاهر الجرجاني (ت 471) في درر الدرر بقوله: " (كيف) استفهام بمعنى الإنكار، وفيه تبيين أنه موضع لتعجب المتعجب حيث يكفرون بمن تولى إنشاءهم، وحفظهم، وإفناءهم وإعادتهم

¹ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 114/1.

² انظر: زاد المسير في علم التفسير 48/1.

³ انظر: الجامع لأحكام القرآن 249/1.

⁴ انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 237/1.

⁵ انظر: غرائب القرآن وَرَغَائِبُ الْفُرْقَانِ للنَّيْسَابُورِيِّ 208/1.

⁶ انظر: روح المعاني 214/1.

⁷ انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي 48/1.

⁸ انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج 116/1.

⁹ انظر: زهرة التفاسير 185/1.

¹⁰ مفاتيح الغيب 375/2.

¹¹ البحر المحيط في التفسير 208/1.

¹² الجواهر الحسان في تفسير القرآن 203/1.

من النشأة الآخرة، ويخالفون قضية اللبّ، ويكابرون العقل⁽¹⁾، وقال بهذا الكرمانى (ت 505هـ) في غرائب التفسير⁽²⁾، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف⁽³⁾، والبيضاوي (ت 685هـ) في تفسيره بقوله: "كيف تكفرون بالله استخبار فيه إنكار، وتعجيب لكفرهم بإنكار المحال التي يقع على الطريق البرهاني"⁽⁴⁾، والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل⁽⁵⁾، وذكره أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في تفسيره بقوله: "وقيل⁽⁶⁾: صحبه الإنكار والتعجب، أي إن من كان بهذه المثابة من القدرة الباهرة والتصرف التام، والمرجع إليه آخرًا فيثيب ويعاقب - لا يليق أن يكفر به"⁽⁷⁾، والنيسابوري (ت 850هـ) في غرائب القرآن بقوله: "فصدور الفعل عن له صورة اختيار في الترك مع الصارف القوي مظنة تعجب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ فكأنه قيل: ما أعجب كفرهم والحال أنكم عالمون بهذه القصة!"⁽⁸⁾، والشوكاني (ت 1250هـ) في فتح القدير⁽⁹⁾، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل بقوله: "والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع، واستبعاده، والتعجب منه؛ لأنّ معهم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان"⁽¹⁰⁾، ومحمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) في التحرير والتنوير⁽¹¹⁾، والعثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره⁽¹²⁾، والألوسي (ت 1270هـ) في روح المعاني بقوله: "وهي هنا للاستخبار مُنضمًّا إليه الإنكار والتعجب؛ لكفرهم إنكار الحال الذي له مزيد اختصاص بها، وهي العلم بالصانع والجهل به"⁽¹³⁾، ومحمود صافي (ت 1376هـ) في الجدول⁽¹⁴⁾.

ومما سبق نلاحظ أنّ كلمة العلماء تكاد تجتمع على خروج (كيف) عن أصل دلالتها في

قوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: 28]، وإن تنوعت ألفاظهم في المعنى

¹ درج الدرر في تفسير الآي والسور 127/1.

² انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرمانى 129/1.

³ انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 121/1.

⁴ أنوار التنزيل وأسرار التأويل 65/1.

⁵ انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 76/1.

⁶ يعني الاستفهام.

⁷ البحر المحيط في التفسير 208/1.

⁸ غرائب القرآن ووعائب الفرقان للنيسابوري 209/1.

⁹ انظر: فتح القدير للشوكاني، 70/1.

¹⁰ محاسن التأويل للقاسمي 281/1.

¹¹ انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 374/1.

¹² انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 105/1.

¹³ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 214/1.

¹⁴ انظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود صافي 240/3.

الذي أشارت إليه؛ فمن قائل: التعجب والتوبيخ، ومن قائل: التبكيت والتعنيف، ومنهم من قال: التقرير والتوبيخ، ومنهم من قال: الإنكار والتعجب، على التفصيل الذي ذكرنا آنفاً. والظاهر أنه لا مُشاحَّة في الاصطلاح، فكُلُّها تصلح إلى ما أشارت إليه (كيف)؛ لأنَّ اسم الاستفهام قد يدلُّ على غير معنى بحسب السياق الذي يرد فيه، وهذا ظاهر واضح في العربية والآيات القرآنية، ولعلَّ الآية التي نحن بصددها أدلُّ دليل على ذلك. وهذا ما دفع ابن بدران - رحمه الله تعالى - أن يجمع هذه المعاني كُلِّها في تأويل قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ للوصول إلى المعنى الحق المراد في الآية، وكنهها، والوقوف على وجه الصواب فيها.

ولقد نقل ابن بدران - رحمه الله - كلام الرازي وهو: " لكن المراد به التبكيت والتعنيف" (1)، ثم قال: "مُظَنَّة تعجب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ" (2)، وهذا يدلُّ على سعة اطلاعه، ومعرفته بالعربية وفنونها، وحدقه بالبلاغة وعلومها، وتفننه في توظيف القواعد البلاغية في تأويل الآيات القرآنية، ومعرفة مراد الله منها.

ويرى الباحث أنَّ ما ذهب إليه ابن بدران وجُلُّ علماء العربية والتفسير - رحمهم الله جميعاً - هو الحقُّ والصواب؛ لتضافر الأدلة الدامغة، والقرائن الواضحة على ذلك. إذ إنه مُحال غير ذلك؛ لمخالفة العربية من ناحية، والقواعد التفسيرية من ناحية أخرى؛ لأنه من غير المُمكن القول بحقيقة الاستفهام الذي لا يكون إلا ممَّن حَفِيَ عنه حال المُستفهم عنه، وهذا مُحال عليه - سبحانه و تعالى -؛ لأنَّه علامُ الغيوب.

وختلاصة القول:

إنَّ اسم الاستفهام (كيف) في قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: 28] خرج عن أصل دلالاته وحقيقته إلى معناه المجازي وهو: التعجب، والتعجيب، والإنكار، والتوبيخ؛ بحسب ما يقتضيه السُّياق.

¹ انظر: جواهر الأفكار ص139، ومفاتيح الغيب للرازي 375/2.

² انظر: جواهر الأفكار ص139-140.

المسألة الرابعة:

أثر الكناية في توجيه معنى كلمة ﴿الرَّفَثُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187].

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - : " ﴿الرَّفَثُ﴾ كناية عن الجماع في هذا الموضوع، يقال: هو ﴿الرَّفَثُ﴾ والرفوث، وقد روي أنها في قراءة عبد الله بن مسعود: "أحل لكم ليلة الصيام الرفوث إلى نساءكم"، وهو قول قتادة ومجاهد، وسالم بن عبد الله، والسدي، وابن عباس، وقال: "﴿الرَّفَثُ﴾ الجماع، ولكن الله كريم يكفي"، و ﴿الرَّفَثُ﴾ في غير هذا الموضع: الإفحاش في المنطق، كما قال العجاج⁽¹⁾:

عن اللّغَا ورفث التكلّم (2)

وَعُدِّي الرَّفَثُ بـ (إلى)، مع أنه يتعدى بالباء؛ لتضمُّنه معنى الإفشاء، قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21]، كأنه قيل: أحل لكم الإفشاء إلى نساءكم بالرفث⁽³⁾.
ثم قال - رحمه الله - : " وقد تضمّنت هذه الآية ثلاثة أنواع من البيان:
الطباق المعنوي بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ...

والكناية بقوله: ﴿الرَّفَثُ﴾ الذي هو كناية عن الجماع. والاستعارة البديعة في قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ ... " (4).

¹ أبو محمّد روية بن العجاج، والعجاج لقب واسمه: أبو الشعثاء عبد الله - ابن روية البصري التميمي السعدي؛ وهو وأبوه راجزان مشهوران، كل منهما له ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان بصيراً باللغة بحوشيا وغريبها. توفي سنة خمس وأربعين ومئة وكان قد أسن - رحمه الله تعالى - . ورؤية - بضم الراء وسكون الهمزة وفتح الباء الموحدة وبعدها هاء ساكنة وهي في الأصل اسم لقطعة من الخشب يشعب بها الإناء، وجمعها رناب، وباسمها سمي الراجز المذكور. انظر: وفيات الأعيان 2/303-305.

² العجاج، عبد الله بن روية بن لبيد بن صخر (ت نحو 90هـ)، ديوان العجاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه)، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السلطي، مكتبة الدكتور مروان العطية، المطبعة التعاونية بدمشق 1971، ج1، ص456.

والبيت تمامه: ورُبَّ أسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظْمٍ عن اللّغَا ورفث التكلّم.

³ جواهر الأفكار ص514.

⁴ المرجع السابق ص515.

يبين ابن بدران أنّ في الآية نوعاً من أنواع البيان وهو الكناية، وأنّ الله - عزّ وجلّ - كريم يُكْنِي، فذكر - سبحانه - ﴿الرَّفَثُ﴾ كناية عن الجماع، والرَّفَثُ في غير هذا الموضع يعني الإفحاش في المنطق.

ولبيان المسألة والوقوف على وجه الحقّ والصّواب فيها، ومعرفة مراد الله منها، لا بدّ من تعريف الكناية، وبيان أقسامها وأثرها في توجيه معنى ﴿الرَّفَثُ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187].

لقد اعتنى العلماء بالكناية واهتمّوا بها؛ لأنّ العرب تكثّر من استخدامها في كلامهم وأشعارهم، فأفردوا لها أبواباً خاصة في كتبهم بيّنوا من خلالها تعريفها، وأبوابها، وأقسامها، وشواهداها. قال الطالبي (ت 745هـ) في الطراز لأسرار البلاغة: "اعلم أنّ الكناية وادٍ من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز، وتختصّ بدقّة وغموض" (1).

وقال أيضاً: "والكناية في عرف اللغة مقولة على ما يتكلّم به الإنسان، ويريد به غيره، وأنشد الجوهري لأبي زياد:

وَإِنِّي لَأَكُونُ عَنْ قُدُورٍ (2) بَعِيرِهَا وَأَعْرَبُ أَحْيَانًا بِهَا، فَأُصَارِحُ (3)

والكناية بالضمّ والكسر في فائها واحدة الكنى، واشتقاقها من الستر، يقال: كنييت الشيء، إذا سترته، وإنّما أُجري هذا الاسم على هذا النوع من الكلام، لأنّه يستر معنى ويظهر غيره، فلا جرم سميت كناية، فالعرف متناول للعبارة كما ترى" (4).

¹ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 185/1.

² قذر: القذر: ضدّ النطافة؛ وشيءٌ قذرٌ بين القذارة. قذّر الشيء قذراً وقذّر وقذّر يقذّر قذارة، فهو قذّر وقذّر وقذّر. والقذور من النساء: التي تنزّه عن الأقدار. ورجلٌ مقذّر: تجتنبه الناس، وهو في شعر الهذليّ. ورجلٌ قذورٌ وقادورٌ وقادورة: لا يخالط الناس. انظر: لسان العرب 80/5-81، فصل القاف، مادة قذّر.

³ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4 1407هـ، ج6 / ص2477، ولسان العرب 589/1، وانظر: الحميري، نشوان بن سعيد (ت 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الأرياني ود. يوسف محمّد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط1 1420هـ، ج9، ص5912، وبطل، أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن سليمان (ت 633هـ)، النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب، تحقيق د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مكّة المكرمة، ط1988م-1991م، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس 5/139، ولسان العرب، فصل الصّاد 2/511، وتاج العروس لمرئضى الزبيدي 39/421.

⁴ الطراز لأسرار البلاغة 186/1، وانظر: الصّاحبي في فقه اللغة لابن فارس 1/200، واللّباب في قواعد اللغة ص177، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 6/2477، والتعريفات 1/187، وابن أبي الحديد، عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد هبة الله بن محمّد (ت 656هـ)، الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، ج4، ص292. وأبو حبيب، =

وقال المراغي (ت 1371هـ) في علوم البلاغة: " الكناية فنٌ مِنَ التَّعبير توخَّاه العرب؛ استكثراراً للألفاظ التي تؤدِّي ما يُفصدُ مِنَ المعاني، وبها يتتوَّفون في الأساليب، ويُرَيِّنون ضروب التَّعبير، ويكثرُون من وجوه الدَّلالة، انظر إلى امرئ القيس⁽¹⁾ تجده كَنَّى عن المرأة ببيضة الخدر في قوله:

وَبَيْضَةَ خَدْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ⁽²⁾ " (3).

وقال السراج في اللباب: " هي من أبلغ أنواع الكلام، وأرفعها شأنًا، وأدقها فكرة، لا يدرك مَرَامِهَا إِلَّا كُلَّ فَطِنٍ فَهَمَّ لما تحويه من دِقَّة الإشارة وبعد الاستعارة⁽⁴⁾.
أما الكناية في عرف البلاغيين وعلماء البيان:

فقد عرَّفها الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) بقوله: " والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللُّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وَرِدْفُهُ في الوجود، فيومئ إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد "، يريدون طويل القامة⁽⁵⁾.
وعرَّفها السَّكَّاكِي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم بقوله: " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذُكر ما يلزمه؛ لينتقل من المذكور على المتروك كما نقول: فلان طويل النجاد لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة⁽⁶⁾.

= سعدي، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، دار الفكر، دمشق - سورية، ط 2 1408هـ، ص 325. وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 421/39، والتعريفات 187/1، والرازي، زين الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر (ت 666هـ)، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط 5 1420هـ، ص 274.

¹ هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني أكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يمانى الأصل. مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن. اشتهر بلقبه، واختالف المؤرخون في اسمه، فقيل حندج وقيل مليكة وقيل عدي. وكان أبوه ملك أسد وغطفان. وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقال له وهو غلام، وجعل يشيب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى (دمون) بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته. ويعرف امرؤ القيس بالملك الضليل (لاضطراب أمره طول حياته) وذي القروح (لما أصابه في مرض موته) وكتب الأدب مشحونة بأخباره. انظر: الأعلام للزركلي 12-11/2

² امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر بن حجر (ت نحو 544م - 80هـ)، ديوان امرئ القيس، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط 5، القسم الأول رواية الأصمعي من نسخة الأعلم ص 13.

³ علوم البلاغة للمراغي ص 308.

⁴ السراج، مُحَمَّد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النَّحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة خير الدين شمسي باشا، دار الفكر - دمشق، ط 1 1403هـ، ص 176.

⁵ دلائل الإعجاز ص 66، وانظر: الطراز لأسرار البلاغة 186/1، وخزانة الأدب وغاية الأرب 263/2.

⁶ مفتاح العلوم للسكَّاكي ص 402، وانظر: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح للصَّعِيدِي 538/3.

وعرّفها الشريف الجُرْجَانِيّ (ت 816هـ) في التعريفات بقوله: " كلام استنتر المراد منه بالاستعمال، وإن كان معناه ظاهراً في اللغة، سواء كان المراد به الحقيقة أو المجاز "(1).
وقال السيوطي (ت 911) في الإتيان: " الكناية أبلغ من التصريح وعرّفها أهل البيان بأنّها لفظ أريد به لازم معناه "(2).

وعرّفها حَبَنَكَة (ت 1425هـ) في البلاغة العربية بقوله: " هي اللَّفْظُ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب؛ للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشار به عادةً إليه؛ لما بينهما من الملايسة بوجه من الوجوه "(3).

أما أقسامها: فقد قسمها علماء البلاغة والبيان إلى ثلاثة أقسام:

1. كناية عن صفة: أي طلب نفس الصفة، نحو قوله: " طويل النجاد " كناية عن طول القامة.
2. كناية عن موصوف: أي طلب نفس الموصوف، نحو قوله: " جاء قابض يده " كناية عن بخله.

3. كناية عن نسبة حكمية بين المسند والمسند إليه: أي تخصيص الصفة بالموصوف، نحو قول الشاعر(4):

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قِيَةِ ضُرَيْبَتِ عَلِيِّ ابْنِ الْحَشْرِجِ(5)

فخصّ هذه الأشياء الثلاثة في ابن الحشرج من غير تصريح، بل كناية بجعلها في قبة ضربت له(6).

¹ التعريفات 187/1، وانظر: القاموس الفقهي ص325، والكلّيات ص761، والفلك الدائر على المثل السائر 292/4.

² الإتيان 159/3.

³ البلاغة العربية 127/2.

⁴ هو زياد بن سليمان - أو سليم - الأعجم، أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس: من شعراء الدولة الأموية. جزل الشعر، فصيح الألفاظ، كانت في لسانه عجمة فلُقّب بالأعجم. وهو من فحول الشعراء. ولد ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنها وطال عمره، ومات فيها. عاصر المهلب بن أبي صفرة، وله فيه مدائح ومراث. وكان هجاءً، يداريه المهلب ويخشى نغمته. وأكثر شعره في مدح أمراء عصره وهجاء بخلانهم. وكان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفاً منه، ويقول: ليس إلى هجاء هؤلاء من سبيل ما عاش هذا العبد. ويقال: إنه شهد فتح إصطخر مع أبي موسى الأشعري. وله وفادة على هشام بن عبد الملك. وامتدح عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. خرّج له: أبو داود، والترمذي، وابن ماجه - والله أعلم - . انظر: سير أعلام النبلاء 597/4، والأعلام للزركلي 54/3.

⁵ الأعجم، أبو أمامة زياد بن جابر بن عمرو بن عامر(ت نحو125هـ)، شعر زياد الأعجم، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف حسين بكّار، دار المسيرة، ط1 1403هـ، ص49.

⁶ انظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص403-407، واللباب في قواعد اللغة ص177، والكلّيات للكفوي ص761، وعلوم البلاغة للمراغي ص302-303، والمنهاج الواضح للبلاغة 150/1، وجواهر البلاغة للهاشمي ص288، وبغية الإيضاح 539/3، والبلاغة العربية 136/2.

وَأَمَّا ضُرُوبُهَا:

فقد بيَّنها المبرِّد (ت285هـ) في الكامل بقوله: "والكناية تقع على ثلاثة أضرب:

"أحدها: التَّعْمِيَةُ والتَّعْطِيَةُ، كقول النابغة الجعدي:

أُكْنِي بِغَيْرِ اسْمِهَا وَقَدْ عِلْمَ الْـ_____ لَهُ خَفِيَّاتٍ كُلِّ مُكْتَنَّمٍ (1) "

ثمَّ قال:

والضرب الثاني: "ويكنِّي من الكناية - وذلك أحسنها - الرَّغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما

يدل على معناه من غيره، قال تعالى - وله المثل الأعلى -: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ أَصْبَأُوا الرَّقْتُ

إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]، وقال: ﴿أَوْلَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: 43].

ثمَّ قال:

"والضرب الثالث من الكناية: التَّفخِيمُ والتَّعْظِيمُ، ومنه اشْتُقَّتْ الكنية وهو: أَنْ يُعْظَمَ الرَّجُلُ أَنْ يَدْعَى

باسمه " (2).

وَأَمَّا أسبابُهَا:

فقد بيَّنها السيوطي (ت911هـ) في الإتيان بقوله: "وللكناية أسباب:

أحدها: التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ الْقُدْرَةِ نَحْوُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]،

كناية عن آدم.

ثانيها: تَرْكُ اللَّفْظِ إِلَى مَا هُوَ أَجْمَلُ، نَحْوُ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [

ص: 23]، فكنى بالنَّجَّةِ عن المرأة كعادة العرب في ذلك؛ لأنَّ ترك التصريح بذكر النساء أجمل

منه... (3).

¹ ديوان النابغة الجعدي ص157.

² انظر: المبرد، أبو العباس مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ (ت285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق مُحَمَّدُ أَبِي الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3 1417هـ، ج2، ص215-216، وابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (ت463هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تحقيق مُحَمَّدُ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، دار الجبل، ط5 1401هـ، ج1، ص313، وابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الدين مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيِّ (ت637هـ)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375هـ، ص164-166.

³ هذا على قول من قال: إنَّ المقصود بالتَّعْجَاجِ فِي الْآيَةِ النِّسَاءِ، وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ عَلَى أَصَحِّ أَقْوَالِ الْمَفْسِّرِينَ، انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 3 / 149-151.

ثالثها: أن يكون التصريح مما يُستقبح ذكره: ككناية الله عن الجماع بالمامسة، والمباشرة، والإفضاء، والرّفث، والدّخول، والسّرّ في قوله ﴿لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: 235]، والغشيان في قوله ﴿فَلَمَّا تَعَشَّيَا﴾ [الأعراف: 189] (1).

والكناية عمّا يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه هي من سنن العرب (2)، ومثله في القرآن، وفي كلام الفصحاء كثير (3)، وعدّها المبرد أحسن ضروب الكناية (4)؛ لما فيها من حُسن التّلطّف في أطراح الألفاظ المستهجنة (5)؛ للتعبير عنها ببعض مصاحبات الشيء للدلالة بها عليه، مثل: الكناية عن الجماع بالمامسة، أو المباشرة، أو الإفضاء، أو الدخول، أو الغشيان، أو نحو ذلك (6)، فتكون الكناية أوقع من الإفصاح (7).

بل إنّ الجُرْجَانِيَّ (ت 471هـ) أكّد الإجماع على ذلك في كتابه دلائل الإعجاز بقوله: " قد أجمع الجميع على أنّ " الكناية " أبلغ من الإفصاح " (8).
وقد نظم السيوطي (ت 911هـ) في كتابه " عُقُودُ الْجُمَانِ " تعريف الكناية، وأنواعها، وأقسامها، وهو نظم لكتاب " تلخيص المفتاح " للخطيب القزويني (ت 739هـ).
فقال:

لَفْظٌ أُرِيدَ لِازِمٍ مَعْنَاهُ مَعٌ جَوَازٍ أَنْ يُقْصَدَ مَعْنَاهُ تَبِعٌ
وَمِنْ هُنَا تُخَالِفُ الْمَجَازَا أَقْسَامُهَا ثَلَاثَةٌ مَا أَنْحَازَا

إلى آخر الأبيات ... (9).

فهذه مقدّمة وجيزة جعلها الباحث بين يدي المسألة للوقوف على الحقّ والصّواب فيها في توجيه معنى (الرّفث) في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187].

¹ الإتيان 159/3-160.

² انظر: فقه اللغة وسرّ العربية ص 276.

³ انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه 313/1.

⁴ انظر: الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد 215/2.

⁵ انظر: علوم البلاغة للمراغي ص 309، والجامع الكبير ص 166.

⁶ انظر: البلاغة العربية 139/2.

⁷ انظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص 413.

⁸ دلائل الإعجاز ص 70، وانظر: المنهاج الواضح للبلاغة 158/1، والإتيان 159/3.

⁹ انظر: السيوطي، جلال الدين عيد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، عُقُودُ الْجُمَانِ في علم المعاني والبيان، تحقيق وضبط عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم، القاهرة، ط 1433هـ، ص 92-94.

وقد ذهب عامة علماء اللغة والبلاغة إلى أن الرّفث يُكْنَى به عن الجماع.

قال الجصاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن: " والرّفث للذكور: هو الجماع لا خلاف بين

أهل العلم فيه، واسم الرّفث يقع على الجماع، وعلى الكلام الفاحش، ويكنى به عن الجماع "(1).

ومن أشهر العلماء الذين قالوا بهذا القول:

الفراهيدي (ت 170هـ) في العين بقوله: " رفث: الرّفث: الجماع، رَفَثَ إليها وترَفَثَ، وهذه

كناية. وفلانٌ يرفُثُ، أي يقول: الفُحْشُ، وقال ابن عباس: الرّفث ما قيل عند النساء، وقوله - عزّ

وجلّ -: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ [البقرة: 197]، إنّما نهى عن قول الفُحْشِ "(2).

وابن فارس (ت 395هـ) في مقاييس اللغة بقوله: " (رفث) الرء، والفاء، والثاء، أصلٌ واحدٌ،

وهو كلُّ كلامٍ يُستَحْيَا من إظهاره. وأصله الرّفثُ، وهو النّكاح. قال الله - جلّ ثناؤه -: ﴿ أُحِلَّ

لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: 187]. والرّفث: (الفُحْش) في الكلام.

يقال: أَرَفَثَ وَرَفَثَ "(3).

والزمخشري (ت 538هـ) في أساس البلاغة بقوله: " رفث في كلامه، وأرفث، وترفثت :

أفحش، وأفصح بما يجب أن يُكْنَى عنه من ذكر النكاح . وقد ترافث الرجلان، ورافث صاحبه مرافثة.

وتقول: ما هذه منافثة، إنّما هي مرافثة . وإياك والرفث، ومالك ترفث... ورفث إلى امرأته: أفضى

إليها ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: 187] وقيل الرفث بالفرج :

الجماع، وباللسان: المواعدة للجماع، وبالعين الغمز للجماع "(4).

وابن منظور (ت 711هـ) في لسان العرب بقوله: " رفث: الرّفث: الجماع، وغيره ممّا يكون

بين الرجل وامرأته، يعني التقبيل والمغازلة ونحوهما، ممّا يكون في حالة الجماع، وأصله: قول الفُحْشِ.

والرّفث أيضاً: الفُحْش من القول، وكلام النساء في الجماع، تقول منه: رَفَثَ الرَّجُلُ وَأَرَفَثَ، قال

العجاج:

¹ أحكام القرآن للجصاص، ص 281.

² العين 220/8، باب الثاء، والراء، والفاء، معهما ر ف ث، ف ر ث، ث ف ر مستعملات، وانظر: تهذيب اللغة 58/15، أبواب الثاء والراء، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 284/1، والمخصص لابن سيده 1 / 499.

³ معجم مقاييس اللغة لابن فارس 421/2، وانظر: وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم 4 / 2568 و 2578/4-2579، القاموس المحيط 170/1.

⁴ أساس البلاغة 367/1.

رُبِّ أَسْرَابٍ حَجِيحٍ كُظْمٍ عَنِ اللَّغَا وَرَفَّتِ التَّكْلُمُ⁽¹⁾ (2).

والفراء (ت 207هـ) في معاني القرآن⁽³⁾، وأبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن⁽⁴⁾، والأخفش (ت 215هـ) في معاني القرآن⁽⁵⁾، والزجاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه بقوله: " الرّفث " كلمة جامعة لكلّ ما يريد الرّجل من المرأة، والمعنى ههنا: كناية عن الجماع: أي أحلّ لكم ليلة الصّيام الجماع " ⁽⁶⁾، والنحاس (ت 338هـ) في علوم القرآن⁽⁷⁾، وأبو جعفر الطحاوي (ت 321هـ) في أحكام القرآن الكريم⁽⁸⁾، وابن العربي (ت 543هـ) في أحكام القرآن بقوله: " يُقال: رَفَثَ يَرِفُثُ بكسر الفاء وضمّها، وقد يُطلق على الفعل من الجماع والمباشرة، قال الله تعالى -: ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة: 187] "⁽⁹⁾، والزرکشي (ت 794هـ) في البرهان⁽¹⁰⁾، والفيروز أبادي (ت 817هـ) في بصائر ذوي التمييز⁽¹¹⁾، والسيوطي (ت 911هـ) في الإكليل⁽¹²⁾، ومحمود صافي (ت 1376هـ) في الجدول⁽¹³⁾، والصابوني في روائع البيان⁽¹⁴⁾، ومساعد الطيار في مفهوم التفسير⁽¹⁵⁾، ومُحمّد نديم فاضل في التضمين النّحوي بقوله: " أقول: الرّفث:

¹ انظر: ص 253، هامش رقم 2.

² لسان العرب 153/2-154، وتاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي 263/5-264.

³ انظر: معاني القرآن للفراء ص 114.

⁴ مجاز القرآن لأبي عبيدة 67/1، وانظر: التفسير البسيط للواحد 598/3.

⁵ انظر: معاني القرآن للأخفش 139/1.

⁶ معاني القرآن وإعرابه للزجاج 255/1، وانظر: معالم التنزيل للبغوي 228/1، والتفسير البسيط للواحد 597/3، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 315/2، وانظر: تهذيب اللغة 58/15، أبواب الناء والراء.

⁷ انظر: معاني القرآن للّخّاس ص 132.

⁸ الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن مُحمّد بن سلامة (ت 321هـ)، أحكام القرآن الكريم، تحقيق الدكتور سعد الدين أنال، مركز البحوث الإسلامي، ط 1، (م 1416هـ، م 2 1418هـ)، ج 2، ص 31.

⁹ ابن العربي، القاضي مُحمّد بن عبد الله أبو بكر (ت 543هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه مُحمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3 1424هـ، ج 1، ص 188.

¹⁰ البرهان في علوم القرآن للزرکشي 61/4.

¹¹ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي 177/1.

¹² الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص 41. وانظر: درج الدرر في التفسير بالمأثور للسيوطي 476/1.

¹³ الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود صافي 383/2.

¹⁴ الصابوني، مُحمّد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان - بيروت، ط 3 1400هـ، ج 1، ص 190. وانظر: الصابوني، مُحمّد علي، صفوة التفسير، دار الصابوني - القاهرة، ط 1 1417هـ، ص 109.

¹⁵ الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 2 1427هـ، ص 162.

الإفحاش. وهو بالفرج: الجماع وباللسان: المواعدة للجماع، فتضمّن الرّفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفضاء⁽¹⁾.

وذهب - أيضاً - أهل التأويل إلى أنّ ﴿الرّفث﴾ في هذا الموضع كناية عن الجماع.

قال الطبري (ت 311هـ) في تفسيره: " فأما "الرّفث" فإنّه: كناية عن الجماع في هذا الموضع،

يُقال " هو الرّفث والرّفوث ". وبمثل الذي قلنا في تأويل "الرّفث" قال أهل التأويل⁽²⁾.

وأشهر من قال بهذا القول:

حَبِزُ الأُمَّةِ وترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنه - بقوله: " الرّفث، الجماع، ولكنّ

الله يَكْنِي"⁽³⁾. وقال أيضاً: " الرّفث النكاح "⁽⁴⁾.

وعلي بن أبي طالب، ومعاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنهم - وقتادة، ومجاهد، وسالم

بن عبد الله، والسّدي⁽⁵⁾.

وقال ابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره: " عن ابن عباس قال: الرّفث: الجماع. ورُوِيَ

عن عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، والحسن، والضّحّاك، وإبراهيم النخعي، وسالم بن

عبد الله، والسّدي، وعمر بن دينار، وقتادة، والزّهري، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، نحو

ذلك"⁽⁶⁾.

وقال ابن المنذر (ت 319هـ)⁽⁷⁾ في تفسيره: " قال ابن عباس: " الدخول، والتغشّي، والإفضاء،

والمباشرة، والرّفث، واللّمس هو: الجماع غير أنّ الله حييّ كريمٌ يَكْنِي بما يشاء عن مَنْ يشاء"⁽⁸⁾.

¹ فاضل، مُحَمّد نديم، التّضمين النّحوي في القرآن الكريم (أصل الكتاب: أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم)، دار الزمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط1 1426هـ، ج1، ص367.

² جامع البيان للطبري 487/3.

³ جامع البيان للطبري 487/3، وانظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس 26/1.

⁴ جامع البيان للطبري 488/3.

⁵ المرجع السابق 488/3.

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 315/1.

⁷ الإمام، الحافظ، العلامة، شيخ الإسلام، أبو بكر مُحَمّد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مكّة، وصاحب التصانيف ك (الإشراف في اختلاف العلماء)، وكتاب (الإجماع)، وكتاب (المبسوط)، وغير ذلك. ولد: في حدود موت أحمد بن حنبل. ولابن المنذر (تفسير) كبير في بضعة عشر مجلدا، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضا. انظر سير أعلام النبلاء 490/14-492.

⁸ ابن المنذر، أبو بكر مُحَمّد بن إبراهيم (ت 319هـ)، كتاب تفسير القرآن، قدم له الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حققه وعلق عليه الدكتور سعد بن مُحَمّد السعد، دار المآثر - المدينة النبويّة، ط1 1423هـ، ج2، ص630. وانظر: معالم التنزيل للبعوي 228/1، ومفاتيح الغيب 89/10، وابن عطية 256/1-257، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 315/2.

ومقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره⁽¹⁾، والماتريدي (ت 333هـ) في تأويلات أهل السنة⁽²⁾، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم⁽³⁾، والماوردي (ت 450هـ) في النكت والعيون⁽⁴⁾، والواحدي (ت 468هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، وقال الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في درج الدرر: " والرّفث هو الجماع "⁽⁶⁾، والسمعاني (ت 489هـ) في تفسيره بقوله: " والرّفث: كلّ ما يريدُه الرَّجُل من امرأته، وهو بمعنى الوطء هَاهُنَا. قال ابن عباس: " إِنَّ الله حييّ كريم، يَكْنِي بالحسن عن القبيح " "⁽⁷⁾، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في تفسيره⁽⁸⁾، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف⁽⁹⁾، والرازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله - بعد ذكره لرواية ابن عباس لما أشد وهو مُحْرِمٌ فقيل له: أترفت؟ فقال: إنّما الرّفث ما كان عند النساء -: " فثبت أنّ الأصل في الرّفث: هو قول الفُحش، ثمّ جُعِلَ ذلك اسماً لما يُتَكَلَّمُ به عند النساء من معاني الإفشاء، ثمّ جعل كنايةً عن الجماع وعن كلّ ما يَتَّبَعُهُ "⁽¹⁰⁾، والقرطبي (ت 671هـ) في الجامع لأحكام القرآن⁽¹¹⁾، والبيضاوي (ت 685هـ) في أنوار التنزيل⁽¹²⁾، والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل⁽¹³⁾، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل⁽¹⁴⁾، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط⁽¹⁵⁾، والسّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدر المصون⁽¹⁶⁾، وابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره⁽¹⁷⁾، وأبو السعود (ت 982هـ) في تفسيره⁽¹⁸⁾، والشوكاني (ت 1250هـ)

¹ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان 164/1.

² تأويلات أهل السنة 49/2.

³ انظر: بحر العلوم للسمرقندي 185/1.

⁴ النكت والعيون 244/1.

⁵ انظر: التفسير البسيط للواحدى 598/3.

⁶ درج الدرر في تفسير الآي والسور 366/1.

⁷ تفسير القرآن للسمعاني 186/1.

⁸ تفسير الراغب الأصفهاني 397/1.

⁹ الكشاف 230-229/1.

¹⁰ مفاتيح الغيب 269/5.

¹¹ الجامع لأحكام القرآن 316-315/2.

¹² أنوار التنزيل وأسرار التأويل 126/1.

¹³ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 161/1.

¹⁴ لباب التأويل في معاني التنزيل 116/1.

¹⁵ البحر المحيط 211/2.

¹⁶ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 294/2.

¹⁷ تفسير القرآن العظيم لابن كثير 511/1.

¹⁸ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 201/1.

في فتح القدير⁽¹⁾، والألوسي (ت 1270هـ) في روح المعاني⁽²⁾، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل⁽³⁾، ومحمد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره⁽⁴⁾، والشنقيطي (ت 1393هـ) في أضواء البيان⁽⁵⁾، وأبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير⁽⁶⁾، والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره⁽⁷⁾، والعثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره⁽⁸⁾، وأبو بكر الجزائري في تفسيره⁽⁹⁾.

ويرى الباحث بعد عرض أقوال علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير، أنّ كلمتهم مُطبقة على تأويل ﴿الرَّفَثُ﴾ بالجماع في قوله - تعالى - : ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187] كما بيّن ذلك الطبري (ت 311هـ) في تفسيره⁽¹⁰⁾، والجصاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن⁽¹¹⁾.

وبعد تتبّع أقوال العلماء، وسبر تأويلاتهم، وترجيحاتهم، فإنّ الباحث يرى أنّ الإجماع ما زال قائماً حتى عصرنا الحاضر على أنّ كلمة الرّفث كناية عن الجماع في قوله - تعالى - : ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وهذا ما ذهب إليه ابن بدران في تفسيره بقوله: " ﴿الرَّفَثُ﴾ كناية عن الجماع في هذا الموضع"⁽¹²⁾، فيكون بذلك قد وافق أقوال العلماء من ناحية، والقاعدة البلاغية من ناحية أخرى، في أنّ يُكنى عمّا يُستقبح ذكره، و" كَوْنُ الْمُكْنَى عنه ممّا يَحْسُنُ سِتْرُهُ، وَيَقْبَحُ فِي الْأَدَبِ الرَّفِيعِ التَّصْرِيحُ بِهِ، إِذْ هُوَ مِنَ الْعَوْرَاتِ، أَوْ مِنَ الْمُسْتَقْدِرَاتِ، أَوْ مِنَ الْمُسْتَقْبَحَاتِ"⁽¹³⁾.

¹ فتح القدير للشوكانى، 214/1.

² روح المعاني 461/1.

³ محاسن التأويل للقاسمي 41/2.

⁴ تفسير المنار 141/2.

⁵ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 13/5.

⁶ زهرة التفاسير 565/2.

⁷ تفسير الشعراوي - الخواطر 791/2.

⁸ تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 346/2.

⁹ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري 166/1.

¹⁰ جامع البيان في تأويل القرآن.

¹¹ أحكام القرآن للجصاص ص 281.

¹² جواهر الأفكار ص 514.

¹³ البلاغة العربية 144/2.

ويؤيد الباحث ابن بدران وإجماع العلماء فيما ذهبوا إليه من أن ﴿الرَّفَثُ﴾ كناية عن الجماع في قوله - تعالى - : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وذلك للاعتبارات الآتية:

1. إنَّ هذا القول هو قول الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وهو ممَّا أجمعت الأمة عليه، ومعلوم أنَّ هذه الأمة لا تجتمع على ضلال، لقول النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لا تجتمع أمّتي على ضلال "(1).

2. إنَّ الكناية عمَّا يُستقبح ذكره معلوم في العربيَّة، ومعروف لدى أصحابها في كلامهم وأشعارهم.
3. إنَّ سياق الآيات يدلُّ على أنَّ الرَّفَثَ كناية عن الجماع لاسيما أنَّ الآية نزلت في حقِّ بعض الصحابة ممَّن أصاب امرأته بعد العشاء، أو بعد نومها؛ لأنَّه كان يحرم عليه ذلك كما بيّن ذلك ابن عباس - رضي الله عنه - بقوله: " ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] فكان الناس على عهد النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- إذا صلُّوا العتمة، حرّم عليهم الطعام، والشراب، والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاخْتَنَان رجل نفسه، فجامع امرأته، وقد صلى العشاء ولم يُفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يُسرّاً لمن بقي، ورُخْصَةً ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187]، وكان هذا ممَّا نفع الله به الناس، ورَخَّصَ لهم ويسر (2).

4. إنَّ الأصل في الرَّفَثِ التعدية بالباء (رفث بها) ولكن لما عُدِّي بحرف الجر (إلى) تضمّن معنى الإفضاء الذي هو: الجماع كما في قوله - تعالى - : ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21]. قال ابن الشجري (ت 542هـ) في أماليه: " فمنها تعدية الرفث بإلى في قوله - تعالى جده - : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وأنت لا تقول: رفثت إلى النساء، ولكنّه جيء به محمولاً على الإفضاء الذي يراد به الملابسة في مثل قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21] "(3).

¹ انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني م 13/4، وآداب الزفاف للألباني ص 240.

² صحيح أبي داود - الأم للألباني 81/7، باب مبدأ فرض الصيام، وسنن البيهقي الكبرى 201/4.

³ أمالي ابن الشجري 223/1، وانظر: المخصص لابن سيده 1 / 484.

وخلص القول:

إن تأويل ﴿الرَّفَثُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]، كناية عن الجماع، فتكون الكناية قد عملت على توجيه معنى ﴿الرَّفَثُ﴾ في الآية الكريمة لبيان مُراد الله - عزَّ وجلَّ - .

قال السيوطي (ت 911) في الإتقان: " الفرائد: هو مُختصُّ بالفصاحة دون البلاغة ؛ لأنه الإتيان بلفظة تتنزَّلُ منزلة الفريدة من العقد - وهي الجوهرة التي لا نظير لها - تدلُّ على عِظَمِ فصاحة هذا الكلام، وقُوَّةِ عَارِضَتِهِ، وجزالة منطقته، وأصالة عربيته، بحيث لو أُسْقِطت من الكلام عزَّت على الفصحاء " غرابتها ". ومنه لُفْظُ (حَصَّصَ) في قوله: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ أَحَقُّ﴾ [يوسف: 51]، و(الرَّفَث) في قوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187] " (1).

¹ الإتقان 3/319.

المسألة الخامسة:

أَثَرُ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ

مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187].

قال ابن بدران - رحمه الله تعالى - في تأويل هذه الآية: " ﴿ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾، هو: أوّل

ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، فالخيط الممدود ﴿ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ ما يمتد معه من غبش الليل، شَبَّهَهُمَا بخيطين أبيض وأسود، وتشبيههما بالخيط معروف في كلام العرب. قال أبو دُوَادٍ⁽¹⁾:

فَلَمَّا أَضَاعَتْ لَنَا سُدُقَةً وِلَاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا⁽²⁾

وعليه فيكون المعنى: وكلوا بالليل في شهر صومكم واشربوا، وياشروا نساءكم مبتغين ما كتب الله لكم من الولد، من أوّل الليل إلى أن يقع لكم ضوء النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده"⁽³⁾.

والظاهر من كلام ابن بدران أنه اعتمد المعنى المجازي في تأويل الآية، إذ بيّن - رحمه الله - أنّ بياض أوّل النهار مع ما يُخَالِطُهُ من سواد الليل، شَبَّهَا بخيطين أبيض وأسود، مستنبطاً من ذلك حكماً شرعياً في ابتداء صيام الصائمين ودخول نهاره الشرعيّ. وقد بيّننا سابقاً تعريف الحقيقة والمجاز⁽⁴⁾.

ولا شك أنّ ذكر الخيط في الآية له دلالة عظيمة في توضيح المعنى وبيان المقصود، وإظهار

التشبيه، إذ يظهر ذلك جلياً من خلال تعريف الخيط وبيانه.

¹ هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد ابن سلام بن مالك بن عبد هند بن لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن بركان بن دوس ابن الدليل بن أمية بن حذافة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان الإيادي القاضي؛ كان معروفاً بالمروءة والعصية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة، ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب المرشد في أخبار المتكلمين فقال: قيل: إن أصلهم من قرية بقنسرين، واتجر أبوه إلى الشام، وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمي، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال. ومات الواثق راضياً عنه. وتولى المتوكل، ففلج ابن أبي دُوَادٍ في أوّل خلافته سنة 233 هـ وتوفي مفلوجاً ببغداد انظر: وفيات الأعيان 81/1، والأعلام للزركلي 124/1.

² انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 1125/3، وتهذيب اللغة 209/7، ولسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 281/19، ويعقوب، إميل بديع، المعجم المُفَصَّل في شواهد العربيّة، دار الكتب العلميّة، ط 1417 هـ، ج 3، ص 86.

³ جواهر الأفكار ص 516-517.

⁴ انظر: المسألة الأولى في أثر القواعد البلاغية في الاختيارات التفسيرية ص 215-218.

فقد عرّفه ابن المرزبان (ت 347هـ)⁽¹⁾ في تصحيح الفصيح وشرحه بقوله: " والخَيْط من الخيوط، بفتح الخاء، وخَيْط من النّعام للقطعة منها، يعني بكسر الخاء؛ فَإِنَّ الخَيْط بالفتح معروف، وهو السُّلْكُ الذي يُخاط به، وكلّ ما دقّ وطال، جاز أن يُسمّى خَيْطاً، على التشبيه به "⁽²⁾.
وقال الجوهري (ت 393هـ)⁽³⁾ في الصحاح: " الخَيْطُ السُّلْكُ، وجمعه خيوط وخبوطة "⁽⁴⁾.
ولمّا كان ضوء الفجر في أوّل تولّده يَمْتَدُّ ويطول في الأفق شَبّه بالخيط الدقيق الطويل في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187].
قال ابن المرزبان (ت 347هـ) في تصحيح الفصيح: " يعني ما امتدّ وطال من بياض الفجر في سواد الليل، وليس يعني أن ينظر إلى الخيط الأبيض والخيط الأسود في وقت الفجر، حتى يُعرفا "⁽⁵⁾.

وقال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ) في إيضاح الوقف والابتداء: " قال نافع بن الأزرق: يا ابن عباس إنّي أريد أن أسألك عن أشياء فأخبرني بها، قال: سلّ عمّا شئت، قال: أخبرني عن قول الله - تعالى - : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]

¹ هو أبو الحسن علي بن أحمد بن المرزبان البغدادي الفقيه الشافعي؛ كان فقيهاً ورعاً من جلة العلماء، أخذ الفقه عن أبي الحسين ابن القطان، وعنه أخذ الشيخ أبو حامد الإسفرايني أول قدومه بغداد. وحكي عنه أنه قال: ما أعلم أن لأحد عليّ مظلمة، وقد كان فقيهاً يعلم أن الغيبة من المظالم، وكان مدرّساً ببغداد وله وجه في مذهب الشافعي. وتوفي في رجب سنة ست وستين وثلاثمئة - رحمه الله تعالى - .
والمرزبان: بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاي وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون، وهو لفظ فارسي معناه صاحب الحد، ومرز هو الحد، ويان صاحب، وهو في الأصل اسم لمن كان دون الملك. انظر: وفيات الأعيان 281/3.

² ابن المرزبان، أبو مُحَمَّد عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد بن دُرُسْتُوَيْه (ت 347هـ)، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق د. مُحَمَّد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، 1419هـ، ص 316. وانظر: البحر المحيط 216/2.

³ هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي، الأتراري - وأترار: هي مدينة فاراب - مصنف كتاب (الصحاح) ، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، وفي الخط المنسوب، يعد مع ابن مقلة وابن البواب ومهلل والبريدي. وكان يحب الأسفار والتغريب، دخل بلاد ربيعة ومصر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة، وينسخ المصاحف. وانفرد أهل مصر برواية (الصحاح) عن ابن القطاع، فيقال: ركب له إسناداً. وفي (الصحاح) أوهام قد عمل عليها حواش. استولت السوداء على أبي نصر حتى شد له دفين كجناحين، وقال: أريد أن أطير، فضحكوا، ثم طفر وطار، فتطحن. وقد أخذ العربية عن: أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي، وخاله صاحب (ديوان الأدب) أبي إبراهيم الفارابي. وللجوهري نظم حسن، ومقدمة في النَّحْو. قال جمال الدين علي بن يوسف القفطي: مات الجوهري متردياً من سطح داره بنيسابور، في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة. ثم قال: وقيل: مات في حدود سنة أربع مئة - رحمه الله - . انظر: سير أعلام النبلاء 80/17-82، والأعلام للزركلي 313/1.

⁴ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 3 / 1125، باب خيط، وانظر: مختار الصحاح ص 99، ولسان العرب مادة (خيط) 298/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي، باب خ ي ط 277/19.

⁵ تصحيح الفصيح وشرحه لابن المرزبان ص 316.

قال: الخيط الأبيض: ضوء النهار، والخيط الأسود: سواد الليل، قال: فهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل القرآن قال: نعم، قال أمية بن أبي الصلت⁽¹⁾:

الْخَيْطُ الْاَبْيَضُ ضَوْءُ الصُّبْحِ مُنْفَلِقٌ وَالْخَيْطُ الْاَسْوَدُ لَوْنُ (2) اللَّيْلِ مَكْمُومٌ. (3)

قال أبو بكر النَّصَب في منفلق أجود على الحال " (4).

وقال الأزهري (ت 370هـ) في تهذيب اللغة: " والعرب تُشَبِّه النَّوْرَ بِالْحَبْلِ وَالْخَيْطَ قَالَ اللهُ:

﴿ حَقَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْاَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْاَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] فالخيط

الأبيض: هو نورُ الصُّبْحِ إِذَا تَبَيَّنَ لِلْأَبْصَارِ وَانْفَلَقَ، وَالْخَيْطُ الْاَسْوَدُ دُونَهُ فِي الْإِنَارَةِ لِغَلْبَةِ سَوَادِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ؛ وَلِذَلِكَ نُعِتَ بِالْاَسْوَدِ، وَنُعِتَ الْآخِرُ بِالْاَبْيَضِ " (5).

ثمَّ قال أبو إسحاق: هما فجران، أحدهما يبدو أسود معترضاً وهو الخيط الأسود، والآخر يبدو

طالماً مستطيلاً يملأ الأفق فهو الخيط الأبيض، وحقيقته حتى يتبين لكم الليل من النهار، وقول أبي دُوَادٍ: أَضَاعَتْ لَنَا سُدُقَةً، هِيَ هَا هُنَا: الظلمة. وَوَلَاخَ مِنَ الصُّبْحِ أَي بَدَا وَظَهَرَ. (6)

وقال الجوهرى (ت 393هـ) في الصحاح: " والخيط الأسود: الفجر المستطيل، ويُقال: سواد

الليل، والخيط الأبيض: الفجر المعترض، قال أبو دُوَادٍ الإيادي:

¹ هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف. قدم دمشق قبل الإسلام. وكان مطلعاً على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبداً. وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية. ورحل إلى البحرين فأقام ثمانين سنين ظهر في أثنائها الإسلام، وعاد إلى الطائف، فسأل عن خبر مُحَمَّد بن عبد الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقيل له: يزعم أنه نبي. فخرج حتى قدم عليه بمكة وسمع منه آيات من القرآن، وانصرف عنه، فتنبعته قريش تسأله عن رأيه فيه، فقال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ فقال: حتى انظر في أمره. وخرج إلى الشام. وهاجر رسول الله إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام، يريد الإسلام، فلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع. وأقام في الطائف إلى أن مات. أخباره كثيرة، وشعره من الطبقة الأولى، وعلماء اللغة لا يحتاجون به لورود ألفاظ فيه لا تعرفها العرب. وهو أول من جعل في أول الكتب: باسمك اللهم. فكتبتها قريش. قال الأصمعي: ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة، وذهب عنتره بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر ابن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب. انظر: الأعلام 23/2. ² في الديوان ضوءً.

³ ابن أبي الصلت، أمية بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة (ت نحو 8هـ)، ديوان أمية بن أبي الصلت، جمعه وحققه وشرحه الدكتور سجيح جميل الجبيلي، دار صادر بيروت - لبنان، ط 1998، ص 119، وانظر: لسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرئضى الزبيدي 281/19، والمعجم المفصل في شواهد العربية 219/7، والإتقان للسيوطي 92/2-93.

⁴ أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، إيضاح الوقف والابتداء، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1390هـ، ج 1، ص 78. وانظر: ابن الأزرقي، أبو راشد نافع بن الأزرقي الحنظلي التميمي (ت 65هـ)، مسائل نافع بن الأزرقي عن عبد الله ابن عباس، (من طريقين، رواية أبي بكر الخنظلي (ت 365هـ)، ورواية أبي طاهر (ت 442هـ))، تحقيق الدكتور مُحَمَّد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط 1413هـ، ص 132-133.

⁵ تهذيب اللغة 52/5.

⁶ تهذيب اللغة 209/7، وانظر: لسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرئضى الزبيدي، باب خ ي ط 281/19.

فَلَمَّا أَضَاعَتْ لَنَا سُدُقَةً وِلَا حَ مِنْ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا. (1) " (2).

وقال ابن منظور (ت 711هـ) في اللسان: " وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ؛ يعني بياض الصبح، وسواد الليل، وهو على التشبيه بالخيوط لدقته " (3).

وقال التيفاشي (ت 651هـ) (4) في سرور النفس: " وفي التنزيل العزيز: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ والعرب تشبّه رِقَّةَ البياض البادي من الفجر أولاً ورقَّةَ السواد الحافّ به بخيطين أبيض وأسود على جهة الاستعارة والتمثيل " (5).

ومما سبق يظهر لنا أنّ الخيط الأبيض، والخيط الأسود معلوم لدى العرب، ومعروف في كلامهم وأشعارهم، وإن خفي عن بعض أصحاب النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ولكن بعضهم زال الإشكال والخفاء عنده لما نزل قول الله - تعالى - : ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، وبعضهم الآخر بيّن له النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المراد من ذلك.

عن سهل بن سعد، قال: " أنزلت: ﴿ وَكُلُوا وَشَرِبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187]، ولم ينزل ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، فكان رجال إذا

¹ سبق عزوه، انظر: ص 266، هامش 2.

² الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 1125/3.

³ لسان العرب مادة (خيوط) 299/7.

⁴ هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر ابن حمدون، شرف الدين القيسي التيفاشي: عالم بالحجارة الكريمة غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش (من قرى قفصة، بإفريقية) ولد بها، وتعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. من كتبه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار)، و (الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء) و (خواص الأحجار ومنافعها) و (فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) موسوعة كبيرة، اختصرها ابن منظور - صاحب لسان العرب - وسمى الجزء الأول منها (نثار الأزهار، في الليل والنهار) و (نزهة الألباب، فيما لا يوجد في كتاب)، أدب ومجون. و (متعة الأسماع في علم السماع). انظر: الأعلام للزركلي 274-273/1.

⁵ التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، هذبّه ابن منظور مُحَمَّد بن جلال الدين المكرم (ت 711هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط 1980م، ص 82.

أرادوا الصَّومَ ربطَ أحدهم في رجله الخيط الأبيض، والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رُؤْيُهُمَا فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدُ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187] فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار⁽¹⁾.
فزال الإشكال وارتفع الاشتباه⁽²⁾ عندهم وعرفوا مراد الله - جلَّ وعزَّ - ببيان الله - سبحانه -
لمراده بقوله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكانت بياناً، وشرحاً للمراد من كلمة الخيط الأبيض التي قبلها وتعني
بزوغ الفجر الصادق.⁽³⁾

وقال الجُرْجَانِيُّ (ت 471هـ) في درج الدرر: " وقوله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ للتفسير⁽⁴⁾.
ولكنَّ بعضهم من مثل عدي بن حاتم - رضي الله عنه - ظلَّ عنده الإشكال، وفهم الخيط
الأبيض والخيط الأسود على معناه الحقيقي. حتى بيَّن له النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المعنى
المُرَاد.

عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه -، قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: 187] عَمَدْتُ إِلَى عَقَالِ أَسْوَدٍ، وَإِلَى عَقَالِ أَبِيضٍ فَجَعَلْتُهُمَا
تَحْتَ وَسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ فِي اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ -، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: " إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ "⁽⁵⁾ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - لِعَدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ - رِضْوَانَ اللهِ عَلَيْهِمْ - الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ فَزَالَ الْإِشْكَالُ وَالْإِبْهَامُ.

¹ صحيح البخاري، باب قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187]،

28/3 حديث رقم 1917، وصحيح مسلم، باب ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ 128/3

حديث رقم 2501، وانظر: سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ص82.

² انظر: بحر العلوم للسمرقندي 186/1.

³ انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 2 / 12، ومدارك التنزيل للنسفي 162/1، وتفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 348/2.

⁴ درج الدرر في تفسير الآي والسور 352/1.

⁵ ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد،
وآخرين، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1 1421 هـ، ج32، ص113، حديث رقم 19370، وصحيح

البخاري باب قول الله - تعالى -: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187]

28/3 حديث رقم 1916، وصحيح مسلم، باب وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود 128/3 حديث رقم 2500.

فكان قول الله - عزَّ وجلَّ - ﴿ مِنْ أَلْفَجْرِ ۖ ﴾ وقول النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّمَا ذلك سواد الليل وبياض النهار " الفَيْصَل في أَنَّ المُراد من الآية إِنَّمَا هو المعنى المجازي لا المعنى الحقيقي.

ثمَّ إنَّ في قوله - تعالى - : ﴿ مِنْ أَلْفَجْرِ ۖ ﴾ [البقرة: 187] لَفَتَةٌ بلاغيةٌ أشار إليها الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " فإن قلت: أهدأ من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: (من الفجر) أخرج من باب الاستعارة كما أنَّ قولك: رأيت أسداً، مجاز. فإذا زِدَتْ " من فلان " رجع تشبيهاً. فإن قلت: فَلِمَ زِيدَ (من الفجر) حتى كان تشبيهاً وهلاً اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأنَّ من شرط المُستعار أن يَدُلَّ عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر (من الفجر) لم يُعَلِّمْ أَنَّ الخيطين مُستعاران، فزِيدَ (من الفجر) فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة "(1). وتابعه في ذلك الزركشي (ت 794هـ) في البرهان (2).

قال الباحث: إنَّ ما جاء به الزمخشري في اللَّفْتَةُ البلاغية في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَلْفَجْرِ ۖ ﴾ [البقرة: 187] يدلُّ على علوِّ كَعْبِهِ وَتَفَنُّنِهِ في هذا الباب، وقد أشار إلى ذلك الجُرْجَانِي (ت 471هـ) في أسرار البلاغة(3)، ولكن ثَمَّة أمر لا بدَّ من التنبيه إليه وهو قول الزمخشري: " ولو لم يذكر (من الفجر) لم يُعَلِّمْ أَنَّ الخيطين مُستعاران ". ففي قوله - رحمه الله - نظر؛ لأنَّ الخيطين معلومان لدى العرب ومعروفان في كلامهم وأشعارهم. على التفصيل الذي بيَّناه سابقاً. وكما قال التيفاشي (ت 651هـ) في سرور النَّفس: " والكتاب العزيز نزل على ما تفهمه العرب في لغتها وتألَّفه في عُرْفها "(4).

ثمَّ إنَّ الصَّحَابَةَ - رضوان الله عليهم - علموا مراد الله من الآية إلَّا فئة قليلة منهم استشكَل عليهم الأمر، فبيَّنه الله - تعالى - لهم، بقوله: ﴿ مِنْ أَلْفَجْرِ ۖ ﴾ [البقرة: 187] وهذا ظاهرٌ حديث

¹ الكشاف 1/231، وانظر: البحر المحيط 2/215-216، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل 3/314، وَغَرَائِبُ الْقُرْآنِ وَغَرَائِبُ الْفُرْقَانِ لِلنَّيْسَابُورِيِّ 1/514.

² البرهان في علوم القرآن للزركشي 3/419-420، وانظر: فتح القدير للشوكاني 1/214، والتفسير المنير للزحيلي 2/147، والمنهاج الواضح للبلاغة 3/95-96، والبلاغة العربية 2/232.

³ انظر: أسرار البلاغة ص 320-323.

⁴ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ص 82، وانظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، نثار الأزهار في الليل والنهار، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط 1298هـ، ص 66.

سهل بن سعد - رضي الله عنه - " فكان رجال إذا أرادوا الصَّوم ⁽¹⁾ لا كما علَّقَ الزمخشري - رحمه الله - الذكر - أي قوله من الفجر - بعدم العلم بالكلية؛ لأنَّ الخيط الأبيض والخيط الأسود قد يكونان معلومين وسائغين في لغة قريش دون غيرها من لغات العرب؛ لا سيَّما أنَّ الآية مدنيَّة وقد أسلم من العرب من غير قريش الكثير، فأشكِل الأمر وأبهم على بعض هؤلاء، ومنهم: عدي بن حاتم الطائي الذي قال له النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِمَّا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ " ⁽²⁾. فأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ مِنْ أَفْجَرٍ ﴾ [البقرة: 187] بياناً وتفسيراً لما قبلها. ⁽³⁾

وقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي (ت 504هـ) ⁽⁴⁾ في أحكام القرآن بقوله: " ويجوز أن يكون النَّجْوُ بالخيط الأبيض عن الفجر سائغاً في لغة قريش دون غيرها من اللغات، فأشكِل على قوم آخرين، حتى تبيَّن لهم بقوله من الفجر، ولا يجب أن يكون البيان بلغة يشترك في معرفتها جميع الناس قبل أن يتبيَّن لهم بلغة من كان بياناً في لغتهم " ⁽⁵⁾.

وقال مُحَمَّدُ الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) في التحرير والتنوير: " وأياً ما كان فليس في هذا شيء من تأخير البيان؛ لأنَّ معنى الخيط في الآية ظاهر للعرب، فالتعبير به من قبيل الظاهر لا من قبيل المُجْمَل، وعدم فهم بعضهم المراد منه لا يقدر في ظهور الظاهر، فالذين اشْتَبَهَ عليهم معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود، فهِمُوا أشهر معاني الخيط وظنُّوا أنَّ قوله: من الفجر مُتَعَلِّقٌ بفعل يتبيَّن على أن تكون (من) تعليلية؛ أي: يكون تبيُّنه بسبب ضوء الفجر، فصنعوا ما صنعوا " ⁽⁶⁾.

¹ انظر: تخريج الحديث ص270، هامش 1.

² سبق تخريج الحديث انظر: ص270، هامش 5.

³ انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 352/1، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 12/2.

⁴ هو أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الفقيه الشافعي؛ كان من أهل طبرستان، وخرج إلى نيسابور وتفقّه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني مدة إلى أن برح، وكان حسن الوجه جهوري الصوت فصيح العبارة حلو الكلام، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق وتولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي. وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في " سياق تاريخ نيسابور " فقال: كان من رؤوس معيدي إمام الحرمين في الدرس. كانت ولادة الكيا في ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة. وتوفي يوم الخميس وقت العصر مستهل المحرم سنة أربع وخمسمئة ببغداد، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي - رحمه الله تعالى -، واتهم بمذهب الباطنية فُرجم، وأراد السلطان قتله فحماه المستظهر، وشهد له. وفي اللغة العجمية الكيا هو الكبير القدر المقدم بين الناس، وهو بكسر الكاف وفتح الباء المثناة من تحتها وبعدها ألف. من كتبه " أحكام القرآن ". انظر: وفيات الأعيان 286/3-290، والأعلام للزركلي 329/4.

⁵ أبو الحسن الطبري، علي بن مُحَمَّد بن علي، الملقب بعماد الدين (ت 504هـ)، أحكام القرآن، تحقيق موسى مُحَمَّد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1405هـ، ص73.

⁶ التحرير والتنوير لابن عاشور 185/2.

وأشار إلى هذه اللفظة البلاغية - أيضاً - السَّكَاكِي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم بقوله: " فالخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله - عز وجل -: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ يُعَدَّانِ من باب التشبيه حيث بيَّنا بقوله : ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ ولولا ذلك لكانا من باب الاستعارة"⁽¹⁾.

والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل بقوله: " وقوله: ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ أخرج من باب الاستعارة وصيره تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: رأيتُ أسداً مجاز، فإذا أزدت من فلان رجع تشبيهاً "⁽²⁾. وقال الشَّريف الرضوي (ت 406هـ)⁽³⁾ في تلخيص البيان في مجازات القرآن: " وقوله - سبحانه -: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، وهذه استعارة عجيبة، والمراد بها على أحد التأويلات: حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل، والخيطان ها هنا مجاز، وإنما شبهها بذلك؛ لأنَّ خيط الصبح يكون في أول طلوعه مُستدقاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضياً مُولياً، فهما جميعاً ضعيفان، إلا أنَّ هذا يزداد انتشاراً، وهذا يزداد استسراراً"⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

بل إنَّ السَّمين الحَلبيَّ (ت 756هـ) جعله من أحسن التشبيهات بقوله: " وهذا من أحسن التشبيهات حيث شبَّه بياض النهار بخيط أبيض، وسواد الليل بخيط أسود "⁽⁶⁾.

¹ مفتاح العلوم للسكاكي 355/1.

² مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 162/1، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 202/1.

³ هو أبو الحسن مُحَمَّد بن طاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن مُحَمَّد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر؛ ذكره الثعالبي في كتاب اليتيمة فقال في ترجمته: ابتداء يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبداع أنشأ الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى مع محتدة الشريف ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غير، على كثرة شعرائهم الملقين. خلع عليه بالسواد، وجدد له التقليد سنة 403 هـ له (ديوان شعر)، وكتب منها (الحسن من شعر الحسين)، وهو مختارات من شعر ابن الحجاج، و (المجازات النبوية) و (مجاز القرآن) باسم (تلخيص البيان عن مجاز القرآن) و (مختار شعر الصابئ) و (مجموعة ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابئ من الرسائل) طبعت باسم (رسائل الصابي والشريف الرضي) و (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) و (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) و (رسائل) نشر بعضها. وشعره من الطبقة الأولى رصفاً وبيانا وإبداعاً. انظر: وفيات الأعيان 4/414-420، والأعلام للزركلي 99/6.

⁴ والإسمُ السَّرُّ، والسَّرُّ مُصَدَّرٌ سَارَرْتُ الرَّجُلَ سِرَاراً. واستسَرََّ الهلالُ في آخر الشهرِ: خَفِيَ؛ قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: لَا يَلْفُظُ بِهِ إِلَّا مَزِيداً، وَتَنْظِيرُهُ قَوْلُهُمْ: اسْتَحْجَرَ الطَّيْنُ. والسَّرُّ والسَّرُّ والسَّرُّ والسَّرُّ، كُلُّهُ: اللَّيْلَةُ الَّتِي يَسْتَبِيرُ فِيهَا الْقَمَرُ. انظر: لسان العرب 4/357، فصل السَّين المهملة، مادة سَرَر.

⁵ تلخيص البيان في مجازات القرآن للشَّريف الرضي، ص 37-38.

⁶ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 2/297، وانظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل 3/313.

وبناءً على ذلك فإنَّ تأويل قوله - تعالى - ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ

الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]، إنّما هو بياض النهار من سواد الليل.

وبهذا قال عامة أهل اللغة ومن أشهرهم:

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) في العين بقوله: " الخيط الأبيض من الخيط الأسود

يعني الصّبح "(1).

وأبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن بقوله: " الخيط الأبيض هو: الصّبح المصدّق،

والخيط الأسود هو: الليل، والخيط هو: اللّون "(2).

والفراء (ت 207 هـ) في معاني القرآن(3)، وابن قتيبة (ت 276 هـ) في غريب القرآن(4).

والزجاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه بقوله: " وقوله - عزّ وجلّ - ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]، هما فجران: أحدهما يبدو

أسود معترضاً وهو الخيط الأسود، والأبيض يطلع ساطعاً يملأ الأفق، وحقيقته: حتى يتبين لكم الليل

من النهار "(5)، والسجستاني (ت 330هـ)(6) في غريب القرآن(7)، والزّاغب الأصفهاني (ت 502هـ)

في المفردات في غريب القرآن(8)، والفيروز أبادي (ت 817هـ) في بصائر ذوي التمييز(9)، والسيوطي

(ت 911هـ) في الإتيقان(10).

¹ كتاب العين 293/4، باب الخاء والطاء.

² مجاز القرآن لأبي عبيدة 1 / 68.

³ معاني القرآن للفراء ص115.

⁴ غريب القرآن ص74.

⁵ معاني القرآن وإعرابه للزجاج 257/1، وانظر: المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن (ت 421هـ)، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1417هـ، ص510، وتفسير القرآن للمعاني 188/1-189، والبحر المحيط لأبي حيان 216/2.

⁶ هو الإمام مُحَمَّد بن عُزَيْر السجستاني، أبو بكر العُزَيْري: مفسّر، كان رجلاً فاضلاً خيراً اشتهر بكتابه (غريب القرآن - ط) على حروف المعجم، صنّفه في 15 سنة وحرره، وراجع فيه أبا بكر بن الأنباري، وغيره. رواه عنه: أبو عبد الله بن بطّة، وعثمان بن أحمد بن سمعان، وعبد الله بن الحسين السامري المقرئ، وكان مقيماً ببغداد، لم يذكر له ابن النجار وفاة. وقيل: اسم أبيه (عزير) بالراء. وهو الصحيح، قال أبو زكريا التبريزي: رأيت بخط ابن عزير، وعليه علامة الراء غير المعجمة. وبقي ابن عزير إلى حدود الثلاثين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء 216/15-217، والأعلام للزركلي 268/6.

⁷ انظر: السجستاني، أبو بكر مُحَمَّد بن عُزَيْر (ت 330هـ)، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، تحقيق مُحَمَّد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة - سوريا، ط1 1416هـ، ص205.

⁸ انظر: المفردات في غريب القرآن ص302.

⁹ انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي 575/2.

¹⁰ انظر: الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي 92/2.

وقال بهذا التأويل - أيضاً - عامة أهل التفسير، قاله الواحدي (ت 468هـ) في تفسيره⁽¹⁾، وقال ابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره: " والمراد فيما قال جميع العلماء: بياض النهار وسواد الليل "⁽²⁾.
وأشهر من قال بهذا القول من علماء التفسير:

مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187] حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ وَجْهَ الصَّبْحِ؛ يعني بياض النهار من سواد الليل من الفجر "⁽³⁾، والطبري (ت 311هـ) في تفسيره⁽⁴⁾، وابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره⁽⁵⁾، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم⁽⁶⁾، وابن أبي زمنين (ت 399هـ) في تفسيره⁽⁷⁾، والتعلبي (ت 427هـ) في الكشف والبيان⁽⁸⁾، والماوردي (ت 450هـ) في النكت والعيون⁽⁹⁾، والسمعاني (ت 489هـ) في تفسيره⁽¹⁰⁾، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في تفسيره⁽¹¹⁾، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير وعجائب التأويل⁽¹²⁾، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: " يعني: بياض النهار من سواد الليل، سُمِّيَا خَيْطَيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَبْدُو فِي الْإِبْتِدَاءِ مُمْتَدًّا كَالْخَيْطِ "⁽¹³⁾، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف⁽¹⁴⁾، وابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره⁽¹⁵⁾، والرازي (ت 606هـ) في مفاتيح الغيب⁽¹⁶⁾، والقرطبي (ت 671هـ) في الجامع لأحكام القرآن⁽¹⁷⁾، والبيضاوي (ت 685هـ)

¹ انظر: التفسير البسيط للواحدي 605/3.

² المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 258/1، وانظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 393/1.

³ تفسير مقاتل بن سليمان 164/1.

⁴ انظر: جامع البيان 538/3.

⁵ انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 318/1.

⁶ انظر: بحر العلوم للسمرقندي 186/1.

⁷ تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين 203-202/1.

⁸ انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 80/2.

⁹ انظر: النكت والعيون 246-244/1.

¹⁰ انظر: تفسير القرآن للسمعاني 189-188/1.

¹¹ انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 399/1.

¹² انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 501/1.

¹³ معالم التنزيل في تفسير القرآن 229/1.

¹⁴ انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 231/1.

¹⁵ انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 258/1.

¹⁶ انظر: مفاتيح الغيب 273/5.

¹⁷ الجامع لأحكام القرآن 320-318/2.

في أنوار التنزيل⁽¹⁾، والنسفي (ت 710هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، ﴿ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ وهو ما يمتد من سواد الليل شُبَّها بخيطين أبيض وأسود؛ لامتدادهما ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ بيان أن الخيط الأبيض من الفجر لا من غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأن بيان أحدهما بيان للآخر، أو من للتبعيض؛ لأنه بعض الفجر وأوله⁽²⁾، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل⁽³⁾، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: "... ألا ترى أنَّ الصَّحَابَةَ عملت به، أعني بإجراء اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ إِلَى أَنْ نَزَلَتْ: مِنَ الْفَجْرِ، فَنَسَخَ حَمَلَ الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ، وَالْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَلَى ظَاهِرِهِمَا، وَصَارَا بِذَلِكَ مَجَازَيْنِ⁽⁴⁾، شَبَّهَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مَا يَبْدُو مِنَ الْفَجْرِ الْمَعْتَرِضِ فِي الْأَفْقِ، وَبِالْأَسْوَدِ مَا يَمْتَدُّ مَعَهُ مِنْ غَبْشِ اللَّيْلِ، شَبَّهَا بِخَيْطَيْنِ أَبْيَضِ وَأَسْوَدِ⁽⁵⁾، وَالسَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (ت 756هـ) في الدر المصون⁽⁶⁾، وابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره⁽⁷⁾، وابن عادل (ت 775هـ) في اللباب⁽⁸⁾، والنيسابوري (ت 850هـ) في غرائب القرآن⁽⁹⁾، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في الجواهر الحسان⁽¹⁰⁾، والسيوطي (ت 911هـ) في الدر المنثور⁽¹¹⁾، وأبو السعود (ت 982هـ) في إرشاد العقل السليم⁽¹²⁾، والشوكاني (ت 1250هـ) في تفسيره⁽¹³⁾، ومحمد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسير المنار⁽¹⁴⁾، وابن العثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره⁽¹⁵⁾.

¹ انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 126/1.

² مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي 162/1.

³ انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 117/1.

⁴ وهذا الكلام فيه نظر، انظر: تعليق الباحث على الزمخشري ص 269-270.

⁵ البحر المحيط 216/2.

⁶ انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 297-296/2.

⁷ انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 513-512/1.

⁸ انظر: اللباب في علوم الكتاب 314-313/3.

⁹ انظر: غرائب القرآن ووعائب القرآن للنيسابوري 514/1.

¹⁰ انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 394-393/1.

¹¹ انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور 482-481/1.

¹² انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 202/1.

¹³ انظر: فتح القدير للشوكاني، 216-214/1.

¹⁴ انظر: تفسير المنار 146-145/2.

¹⁵ انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 348/2.

ويرى الباحث ممّا سبق عرضه وبيانه أنّ الكلمة تكاد تكون مجتمعة على أنّ معنى الخيط الأبيض، والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] " خرج عن المعنى المعهود والظاهر إلى معناه المجازي الذي بيّنه النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقوله: " إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار"⁽¹⁾، وأنّ قوله - تعالى: " من الفجر " بيانٌ وتفسيرٌ لما قبلها، من باب التشبيه البليغ، إذ إنّ شبهة الفجر بالخيط الأبيض، والليل بالخيط الأسود بطريق المقابلة، فجاء بالمشبه صريحاً في الأوّل وضمنياً في الثاني، فيكون معنى قوله - تعالى - في الآية كلاً واشربوا حتى يتبين لكم بياض النهار من سواد الليل.

وهذا ما يوافق سماحة الشريعة، ويسرها في رفع المشقة، والحرص عن المكلفين؛ إذ التّكليف مرهون بسعة المكلف واستطاعته، قال - تعالى - ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286]، وقال - تعالى - ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا ﴾ [الطلاق: 7]، وقال النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " ⁽²⁾. ولا يخفى على عاقل ما في إثبات وقت الصيام بإحضار خيطين أبيض وأسود في كل ليلة وتتبعها من مشقة وحرص والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر قال - سبحانه وتعالى - ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: 185].

وهذا ما ذهب إليه ابن بدران - رحمه الله تعالى - معتمداً بذلك أولاً: على حديث النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وثانياً: على اللغة العربية من خلال القاعدة البلاغية التي أخرجت المعنى عن حقيقته وظاهره إلى معناه المجازي؛ لتبين مراد الله - جلّ شأنه - من الآية، واستنباط الحكم الشرعي في بداية صيام النهار، ونهايته.

وبما أنّ في المسألة إجماعاً من أهل التأويل، واللغة، فلا مناص للباحث من التسليم لما قرّره، والاتباع لما سلكوه، والله الموقِّع، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

¹ سبق تخريجه انظر: ص 270، هامش 5.

² مسند أحمد، باب: مسند أبي هريرة - رضي الله عنه - 325/12، حديث رقم 7367، وصحيح البخاري، باب: الاقتداء بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - 94/9، حديث رقم 7288، وصحيح مسلم، باب: فرض الحجّ مرّة في العمر 975/2، حديث رقم 1337، وانظر: إرواء الغليل للألباني 183/1، حديث رقم 155.

وخلصه القول:

إِنَّ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ - تَعَالَى - ﴿ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ

الْفَجْرِ ۗ ﴾ [البقرة: 187] اعتمد على القاعدة البلاغية في خروج المعنى عن ظاهره الحقيقي إلى

معناه المجازي، في أنَّ الخيط الأبيض والخيط الأسود، إنما أُريد بهما بياض النهار وسواد الليل.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات، أجمالها في الآتي:

أولاً: النتائج:

قام الباحث بتقري القواعد النحوية والبلاغية في تفسير جواهر الأفكار فوجده زاخراً بها، وقد اعتمدها ابن بدران في توجيه المعنى للآيات القرآنية، وقد قام الباحث بدراستها دراسة تطبيقية خلص من خلالها إلى مجموعة من النتائج ضمّنها في النقاط الآتية:

1. إن تفسير القرآن الكريم لا ينفك عن علوم العربية، إذ إن من رام الولوج في التفسير لا بدّ أن يمتلك علوم العربية، لاسيما النحو والبلاغة.
2. إن ثمة علاقة قوية بين علوم اللغة وأخصها النحو والبلاغة وعلم التفسير؛ إذ هما الفيصل في كثير من الأحايين في توجيه معنى الآية، ومعرفة مراد الله منها؛ للخروج من الخلاف بين العلماء.
3. عمّد ابن بدران إلى تفسير كتاب الله - عزّ وجلّ - ولكن المنية وافته قبل إتمامه حيث انتهى إلى تفسير الآية 189 من سورة البقرة.
4. إن منهج ابن بدران في التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن، ثمّ التفسير بصحيح السنّة المبيّنة للقرآن، ثمّ بأقوال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - ثمّ بأقوال التابعين، وجمهور العلماء مع تحريّ الدقّة في صحّة الخبر والأثر.
5. اعتمد ابن بدران في تفسيره على اللغة العربية في توجيه معنى الآيات القرآنية؛ إذ بها يتمّ الكشف، والإيضاح، والإفهام، والتبیین؛ لمعرفة مراد الله - سبحانه وتعالى - في الآية القرآنية.
6. إن القواعد النحوية والبلاغية كان لها كبير الأثر في اختيارات ابن بدران التفسيرية، فيجعلها حجة للردّ على من خالفه من العلماء، فهي الفيصل في الخروج من الخلاف.
7. عمّد ابن بدران إلى الأخذ بصحيح السنّة وإن خالفت الأشهر في لغة العرب؛ لأنّ تأويل الوحيين مقدّم عنده على ما سواهما.
8. استقلالية ابن بدران في رأيه، وعدم تقيّده بمذهب معيّن ولزومه قول مفسّر من المفسرين، فقد يؤيّد في رأيه، ويخالفه في رأي آخر، غير أنه بكثرة مخالفه، وإن كان الجمهور.

9. إِنَّ ابن بدران كثيراً ما يستشهد بأقوال العرب، وأشعارهم؛ لبيان صحّة رأيه، أو إقامة الحجّة على غيره.

10. إِنَّه - رحمه الله - كثيراً ما يستشهد بالقاعدة النحوية أو البلاغية؛ لإثبات صحة تأويله، وإظهار مراد الله من الآية القرآنية، مستأنساً بأقوال أهل الصنعة، التفسير.

11. إِنَّه كثيراً ما ينقل أقوال العلماء والمفسرين بتمامه، وكماله؛ لبيان رأيه من خلاله، مظهراً سبب تبنيه هذا الرأي.

ثانياً: التَّوَصِيَّات:

يُعدُّ تفسير ابن بدران من التَّفاسير النَّفيسة العريضة غير المتداولة والمعروفة بين طلاب العلم. بالرَّغم من دقة تأويله، وقوة حجَّته في الرَّدِّ على من يخالفه في الرأي، وعرضه لكثير من أقوال العلماء، وتوظيفه لعلوم الحياة المستجدة في تأويله للآيات القرآنية من غير أن يخرج عن الجادة بما يخالف قواعد التفسير والتأويل.

وبناءً على ذلك فإنَّ الباحث يوصي بالأُمور الآتية:

1. إنَّ تفسيره غير مخدوم، وبحاجة إلى تحقيق، وتخريج، وتعليق، ومزيد دراسة، وبحث.
2. إنَّ تفسيره قائم على منهج السلف في التفسير بالمأثور، والاعتماد على اللغة، وهو بحاجة إلى إتمام على منهج مؤلفه؛ إذ وافته المنية بعد إتمامه لتفسير الآية التاسعة والثمانين بعد المئة من سورة البقرة.

قائمة المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.

- أبابطين، عبد الله بن عبد الرَّحْمَن (ت 1282هـ)، رسائل وفتاوى عبد الله بن عبد الرَّحْمَن أبابطين (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، بمصر 1349هـ، النشرة الثالثة 1412هـ.

- الأبِّي، الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن خلفه الوشثاني (ت 827 أو 828هـ)، إكمال إكمال المُعلِّم، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، (د. ت).

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدِّين نصر الدِّين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم السيباني الجزري (ت 637هـ)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375هـ.

- الآجُرِّي، أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين (ت 360هـ)، الشريعة، تحقيق د. عبد الله بن عمر الدميحي، دار الوطن - الرياض - السعودية، ط2 1420هـ.

- الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرِّحال بن شداد (ت نحو 85هـ)، ديوان ليلى الأخيلية، عني بجمعه وتحقيقه خليل إبراهيم العطية، وجيل العطية، وزارة الثقافة والإرشاد - بغداد، (د. ت).

- الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير (ت 150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط1 1423هـ.

- ابن الأزرقي، أبو راشد نافع بن الأزرقي الحنظلي التميمي (ت 65هـ)، مسائل نافع بن الأزرقي عن عبد الله ابن عباس، (من طريقين، رواية أبي بكر الخنلي (ت 365هـ)، ورواية أبي طاهر (ت 442هـ))، تحقيق الدكتور مُحَمَّد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط1 1413هـ.

- الأزهري، أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق مُحَمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 2001م.

- ابن أبي أسامة، أبو مُحَمَّد الحارث بن مُحَمَّد بن داهر التميمي (ت 282هـ)، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المنتقى: أبو الحسن نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق د. حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السُّنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط1 1413هـ.

- الإشبيلي عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688هـ)،
تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، تحقيق علي بن سلطان الحكمي، الجامعة الإسلامية بالدينة المنورة،
الطبعة: الأعداد 85 - 100 السنوات 22 - 25 المحرم 1410 هـ - ذو الحجة 1413 هـ.
- الأشموني، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن عيسى (ت 900هـ)، شرح الأشموني على ألفية ابن
مالك، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط 1419 هـ.
- الأصبهاني، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن جعفر (ت 369هـ)، العظمة، تحقيق رضاء الله بن
مُحَمَّد إدريس المباركافوري، دار العاصمة - الرياض، ط 1408 هـ.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت 430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة -
مصر، 1394 هـ، دار الكتب العلميّة، ط 1409 هـ.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد (ت 356هـ)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار
الفكر - بيروت، ط 2، (د. ت).
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت 502هـ)، تفسير الزاغب الأصفهاني، تحقيق د. مُحَمَّد
عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، ط 1420 هـ.
- الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن المرزوقي (ت 421هـ)، شرح ديوان الحماسة،
تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط 1424 هـ.
- الأصمعيّ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)، الأصمعيّات اختيار الأصمعيّ، تحقيق
أحمد مُحَمَّد شاكر - عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف، مصر، ط 7 1993 م.
- الأعجم، أبو أمانة زياد بن جابر بن عمرو بن عامر (ت نحو 125هـ)، شعر زياد الأعجم، جمع
وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف حسين بكار، دار المسيرة، ط 1403 هـ.
- الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد (ت 1417هـ)، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح، (د. ت).
- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، موسوعة العلامة
الإمام مجدد العصر، صنّعه شادي بن مُحَمَّد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث، صنعاء -
اليمن، ط 1431 هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشأذه من محفوظه**، دار باوزير، جدة - المملكة العرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط 1 1424هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، مكتبة المعارف - الرِّياض، ط 1 1415هـ، ط 1 1422هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة**، دار المعارف، الرِّياض - المملكة العرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط 1 1412هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ) **صحيح أبي داود - الأم**، مؤسَّسة غراس للنشر والتَّوزيع - الكويت، ط 1، 1423هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **آداب الزفاف في السنَّة المطهرة**، دار السلام، الطبعة الشرعية الوحيدة 1423هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي، ط 3 1408هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط 2 1405هـ.

- الألويسي، شهاب الدِّين محمود بن عبدالله الحسيني (ت 1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط 1 1415هـ.

- البارودي، فخري بن محمود (ت 1386هـ)، **مذكرات البارودي**، مطابع دار الحياة، لبنان، بيروت، 1951م.

- الباقولي، أبو الحسن نور الدِّين علي بن الحسين بن علي (ت نحو 543 هـ)، **إعراب القرآن المنسوب للزجاج**، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، ودار الكتب اللُّبنانيَّة - بيروت - القاهرة / بيروت، ط 4 1420هـ.

- البخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه، تحقيق مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1 1422هـ.

- البخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، حقق أحاديثه، وعلق عليه مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط4 1418هـ.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، الكواكب الدرّية في تاريخ عبد الرَّحْمَن اليوسف، صدر سوريا، مطبعة الفيحاء، دمشق، 1339هـ.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - لبنان - بيروت، ط1 1999م.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، ديوان الإمام عبد القادر بن بدران المسمّى ب(تسليّة اللّبيب عن ذكرى الحبيب)، اعتنى به نور الدّين طالب، دار التّوادر، ط1 1428هـ.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير شاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2، 1985م.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، نزهة خاطر العاطر شرح كتاب روضة النَّاظِر وَجَنَّة المُنَاطِر، دار الحديث بيروت مكتبة الهدى - الإمارات، ط1، 1412هـ.

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم (ت1346هـ)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2 1401هـ.

- البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي (ت1384هـ)، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، ط2005م.

- أبو البركات الأنباري، كمال الدّين عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبيد الله (ت577هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق د. طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1400هـ.

- أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله (ت 577هـ)، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين**، المكتبة العصرية، ط 1 1424هـ.
- أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله (ت 577هـ)، **أسرار العريية**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط 1 1420هـ.
- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت 292هـ)، **البحر الزخار**، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط 1 1988 - 2009م.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ)، **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط 2 1423هـ.
- بطال، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان (ت 633هـ)، **النظم المستغذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب**، تحقيق د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مكة المكرمة 1988م - 1991م.
- ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد (ت 387هـ)، **الإبانة الكبرى لابن بطة**، تحقيق الوليد بن محمد نبيه بن سيف النصر وآخرين، دار الرياسة - الرياض، ط 1 1418هـ.
- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد (ت 516هـ)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1 1420هـ.
- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود (ت 516هـ)، **شرح السنة**، تحقيق شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط 2 1403هـ.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن (ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د. ت).
- أبو بكر الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن البشار (ت 328هـ)، **الزاهر في معاني كلمات الناس**، تحقيق د. حاتم صال الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 1 1412هـ.
- أبو بكر الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (ت 328هـ)، **إيضاح الوقف والابتداء**، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1390هـ.

- البكري: أبو منذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة (ت نحو 50 ق.هـ)، ديوان الحارث بن عباد، جمعه وحققه أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث " المجمع الثقافي "، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ط 1 1429هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ)، **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، جمعية المستشرقين الألمانية، 1400هـ.
- ابن بلبان، محمد بن بدر الدين الدمشقي الحنبلي (ت 1006هـ)، **أخصر المختصرات في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، ومعه حاشية نفيسة للإمام عبد القادر بن أحمد بن بدران (ت 1346هـ)، حققه وعلّق عليه محمد بن باصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط 1 1416هـ.
- بلعيد، صالح، **التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني**، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1994م.
- بنت الشاطي، عائشة محمد علي عبد الرحمن (ت 1419هـ)، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط 3، (د. ت).
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت 685هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1 1418هـ.
- البيطار، عبدالرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (ت 1335هـ)، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، حققه، ونسّقه، وعلّق عليه حفيده محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط 2 1413هـ.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، **الأسماء والصفات للبيهقي**، حققه وخرّج أحاديثه عبد الله بن محمد الحاشدي، قدّم له مقبل الوادعي، مكتبة السوادبي، جدة - المملكة العربية السعودية، ط 1 1413هـ.
- البيهقي، أبو بكر محمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458هـ)، **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف أصحاب الحديث**، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط 1 1401هـ.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد - الرياض، ط 1 1423هـ.
- التبريزي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الخطيب العمري (ت 741هـ)، **مشكاة المصابيح**، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط 3 1985م.
- الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن سَورَة (ت 279هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط 2، 1395هـ.
- أبو تَمّام، حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ)، **ديوان الحماسة**، برواية أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (ت 540هـ)، شرحه وعلّق عليه أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط 1 1418هـ.
- التوبجري، حمود بن عبد الله بن حمود (ت 1413هـ)، **عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن**، دار اللواء، المملكة العربيّة السُّعُودِيَّة - الرياض، ط 2 1409هـ.
- التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**، هذّبه ابن منظور مُحَمَّد بن جلال الدين المكرم (ت 711هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط 1 1980.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم (ت 728هـ)، **بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلامية**، تحقيق مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة الصحف - المدينة المنورة، ط 1 1426هـ.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم (ت 728هـ)، **مقدمة في أصول التفسير**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط 1980م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم (ت 728هـ)، **مجموع الفتاوى**، تحقيق عبدالرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، 1995م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم (ت 728هـ) **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط 7، 1419هـ.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل (ت 429هـ)، *فقه اللغة وسرُّ العرَبِيَّة*، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط 1 1422هـ.
- الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف (ت 875هـ)، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، تحقيق الشيخ مُحَمَّد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1 1418هـ.
- الثعالبي، أبو اسحق احمد بن مُحَمَّد (ت 427هـ)، *الكشف والبيان عن تفسير القرآن*، تحقيق الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 1 1422هـ.
- الثوري، أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق (ت 161هـ)، *تفسير الثوري*، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط 1 1403هـ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ)، *البيان والتبيين*، دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1423هـ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب (ت 255هـ)، *رسائل الجاحظ*، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت 255هـ)، *الرسائل الأدبية*، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 2 1423هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد (ت 471هـ)، *أسرار البلاغة*، قرأه وعلّق عليه محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط 1 1412هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرَّحْمَن (ت 471هـ)، *درج الدرر في تفسير الآي والسُّور*، تحقيق القسم الأول: طلعت صلاح فرحان، والقسم الثاني: مُحَمَّد أديب شكور أمير، دار الفكر - عمان - الأردن، ط 1 1430هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرَّحْمَن (ت 471هـ)، *دلائل الإعجاز في علم المعاني*، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط 3 1413هـ.
- الجُرْجَانِيّ، علي بن مُحَمَّد بن علي (ت 816هـ)، *التعريفات*، دار الكتب العلميَّة - لبنان، ط 1 1403هـ.

- الجرجاوي، زين الدّين خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد المعروف بالوقّاد (ت905هـ)، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النّحو، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان ط1 1421هـ.
- الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط5 1424هـ.
- ابن الجزري، شمس الدّين ابو الخير مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن يوسف (ت833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلميّة، ط1 1420هـ.
- ابن جُزّي، أبو القاسم مُحَمَّد بن أحمد الكلبي (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط1 1416هـ.
- الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي (ت370هـ)، أحكام القرآن، تحقيق مُحَمَّد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1405هـ.
- الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلّة صوت سوريا، ط1، 1954م.
- الجندي، مُحَمَّد سليم (ت1375هـ)، تاريخ معرة النعمان، حقّقه وعلّق عليه عمر رضا كحّالة، إصدارات وزارة الثقافة بسوريا، ط1 1962م.
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت392هـ)، اللّمع في العربيّة، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافيّة - الكويت، (د. ت).
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت392هـ)، الخصائص، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط4، (د. ت).
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت392هـ)، سرُّ صناعة الإعراب، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1 1421هـ.
- الجهني، علي بن مناور بن ردة (2007م)، أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير
- "دراسة نظريّة تطبيقية على سورتي آل عمران والنساء". رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكّة المكرمة.

- الجَوَّجَرِي، شمس الدِّين مُحَمَّد بن عبد المنعم بن مُحَمَّد (ت 889هـ)، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق نواف بن جزاء الحارثي، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - المملكة العربيَّة السُّعُودِيَّة (أصل الكتاب رسالة ماجستير للمحقق)، ط 1 1423هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحْمَن بن علي (ت 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1 1422هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحْمَن بن علي بن مُحَمَّد (ت 597هـ)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق مُحَمَّد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة - لبنان، بيروت، ط 1 1404هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحْمَن بن علي (ت 597هـ)، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم - دمشق، ط 1 1425هـ.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط 4 1407هـ.
- ابن أبي حاتم، أبو مُحَمَّد عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن إدريس (ت 327هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق أسعد مُحَمَّد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربيَّة السُّعُودِيَّة، ط 3 1419هـ..
- ابن الحاج، أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 737هـ)، المدخل، دار التراث، (د. ت).
- ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدِّين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، الكافية في علم النُّحو، تحقيق د. صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب - القاهرة، ط 1 2010 م.
- ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدِّين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، أمالي ابن الحاجب، تحقيق د. فخر صالح سليمان قرارة، دار عمار - الأردن، دار الجيل - بيروت، ط 1 1409هـ.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثني - بغداد، 1941م.
- الحافظ، مُحَمَّد مطيع، ونزار أباطة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، تقديم الدكتور شكري فيصل، دمشق، دار الفكر، ط 1 1986.

- حَبَنَكَّة، عبد الرحمن بن حسن الميداني دمشقي (ت 1425هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق،
الدار الشامية، بيروت، ط1 1416هـ.

- أبو حبيب، سعدي، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، دار الفكر، دمشق - سورية، ط2 1408هـ.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت 837هـ)، خزانة الأدب وغاية
الأرب، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت، الطبعة الأخيرة
2004م.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت 852هـ)، فتح الباري شرح صحيح
البخاري، رَقْم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على
طبعه محب الدين الخطيب، وعليه تعليقات العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة -
بيروت، ط 1379هـ.

- وابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق
عادل أحمد عبد الموجود وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان
المئة الثامنة، مراقبة مُحَمَّد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر آباد / الهند،
ط2 1392هـ.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت 852هـ)، لسان الميزان، تحقيق عبد
الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1 2002م.

- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد هبة الله بن مُحَمَّد (ت 656هـ)، الفلك الدائر على
المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، (د. ت).
- الحربي، مُحَمَّد رمضان، ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، مكتبة الآداب - القاهرة،
ط1، 2010م.

- الحرملبي، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل (ت 1376هـ)، توفيق الرحمن في دروس القرآن،
حقّقه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبد العزيز بن عبد الله آل مُحَمَّد، دار العاصمة، المملكة العربيّة
السعوديّة - الرياض، دار العليان، القسيم - بريدة، ط1 1416هـ.

- ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ)، **المحلى بالآثار**، دار الفكر - بيروت، (د. ت).
- أبو الحسن الطَّبْرِي، علي بن مُحَمَّد بن علي، الملقَّب بعماد الدِّين (ت 504هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق موسى مُحَمَّد وعزة عبد عطية، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط2 1405هـ.
- الحصني، مُحَمَّد أديب آل تقيِّ الدِّين، **منتخبات التَّوَارِيخ لدمشق** - دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م.
- الحطَّيئة، أبو مليكة جرول بن أوس (ت 45هـ)، **ديوان الحطَّيئة برواية وشرح ابن السكيت** (ت 246هـ)، دراسة وتبويب د. مفيد مُحَمَّد قميمة، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط1 1413هـ.
- الحملاوي، أحمد بن مُحَمَّد (ت 1351هـ)، **شذا العرف في فن الصرف**، تحقيق نصر الله عبد الرَّحْمَن نصر الله، مكتبة الرشد، الرِّياض، (د. ت).
- حمودة، عبد العزيز، **المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية**، سلسلة عالم المعرفة رقم 272، مطابع الوطن - الكويت، 1422هـ.
- الحمويّ، شهاب الدِّين أبو عبدالله ياقوت ابن عبد الله الرُّوميّ (ت626هـ)، **معجم الأدياء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)** تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1414هـ.
- الحميري، نشوان بن سعيد (ت 573هـ)، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الأرياني - د. يوسف مُحَمَّد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط1 1420هـ.
- ابن حنبل، أبو عبد الرَّحْمَن عبد الله أحمد (ت 290هـ)، **السُّنَّة**، تحقيق د. مُحَمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم - الدمام، ط1 1406هـ.
- ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، دار الحديث - القاهرة، ط1 1416هـ.
- ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرين، إشراف د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1 1421هـ .

- أبو حيان الأندلسي، مُحَمَّد بن يوسف بن علي (ت 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر، بيروت ط 1420هـ.
- الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم (ت 741هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1415 هـ.
- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، **القرآن ونقض مطاعن الرهبان**، دار القلم، دمشق، ط 1428هـ.
- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 370هـ)، **ليس في كلام العرب**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مَكَّة الْمُكْرَمَة، ط 2 1399هـ.
- الخثران، عبدالله بن حمد، **مراحل تطور الدرس النحوي**، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ط 1413هـ.
- ابن خزيمة، أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق (ت 311هـ)، **كتاب التوحيد**، حققه وخرَّج أحاديثه د. سمير بن أمين الزهيري، دار المغني، السُّعُودِيَّة - الرِّيَّاض، (د. ت).
- الخطَّابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 388هـ)، **معالم السنن**، المطبعة العلميَّة - حلب، ط 1 1351هـ، ط 2 1401هـ.
- الخطَّابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 388هـ)، **غريب الحديث**، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغريايوي، وخرَّج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النَّبِيِّ، دار الفكر، ط 1402هـ.
- الخطيب، عبد اللطيف مُحَمَّد، **معجم القراءات**، دار سعد الدَّين، مصر - القاهرة، ط 2 1430هـ.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ)، **تاريخ بغداد**، تحقيق الدُّكتور بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط 1 2002م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ)، **الفقيه و المتفقه**، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي - السعودية، ط 2 1421هـ.
- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدَّين مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر (ت 739هـ)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق مُحَمَّد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط 3، (د. ت).

- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة - لبنان، ط 1 1424هـ.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر (ت 1069هـ)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي، دار صادر - بيروت، (د. ت).
- ابن خلدون، عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد، (ت 808هـ)، مقدّمة ابن خلدون، حقّق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبدالله بن الدرويش، دار يعرّب - دمشق، ط 1 1425هـ.
- ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت ط 1 1994.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي (ت نحو 50هـ)، ديوان الخنساء، اعتنى به، وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 2 1425هـ.
- الخولي، كامل، صور من تطور البيان العربي، دار الأنوار للطباعة والنشر، 1962م.
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد (ت 385هـ)، رؤية الله، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد العلي وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، سنة النشر 1411هـ.
- الدارمي، أبو مُحَمَّد عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن الفضل (ت 255هـ)، سنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1 1412هـ.
- داماد أفندي، عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن سليمان (ت 1078هـ)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- الداوودي، مُحَمَّد بن علي بن أحمد (ت 945هـ)، طبقات المفسّرين للداوودي، دار الكتب العلميّة - بيروت، (د. ت).
- الدجني، فتحي عبد الفتاح، أبو الأسود الدّوّلي ونشأة النّحو، وكالة المطبوعات - الكويت، ط 1، 1974م.
- درّاز، مُحَمَّد عبدالله (ت 1377هـ)، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة - الدوحة، ط 1985م.

- درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (ت 1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سوريا، ط 4 1415 هـ.
- الدلجي، شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله (ت 838هـ)، الفلاحة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، 1322هـ.
- الذبياني، الشماخ بن ضرار (ت 22هـ)، ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه، وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر - القاهرة، (د.ت).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 748هـ)، مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، حققه واختصره محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط 2 1412هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط 1 1382هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1 2003م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3 1405هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 748هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417هـ.
- الذهبي، محمد السيد حسين (ت 1398هـ)، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، (د.ت).
- الرّازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 606هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3 1420هـ.
- الرّازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 666هـ)، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط 5 1420هـ.
- الرّازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت 322هـ)، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، عارضه بأصوله، وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط 1 1415هـ.

- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت 666هـ)، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، تحقيق د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية - الرياض، ط 1 1413هـ.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية - دمشق بيروت، ط 1 1412هـ.
- الراغب، عبد السلام أحمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب، ط 1 1422هـ.
- الرَّافعي، مصطفى صادق بن عبد الرَّزَّاق (ت 1356هـ)، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، ط 1 1423هـ.
- الرَّافعي، مصطفى صادق (ت 1356هـ)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، (د. ت).
- ابن رشيقي القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيقي الأزدي (ت 463هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط 5 1401هـ.
- رضا، مُحَمَّد رشيد بن علي (ت 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- الرومي، فهد بن عبدالرَّحْمَن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط 2 1424هـ.
- الرومي، فهد بن عبدالرَّحْمَن بن سليمان، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، (د. ت).
- زين، عماد أحمد سليمان (2006 م)، أبو السعود ومنهجه في النَّحو من خلال تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم نموذجًا ". رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية.
- الزبيري، أبو عبد مصعب بن عبد الله (ت 236هـ)، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط 3، (د. ت).
- الرَّجَّاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت 311هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط 1 1408هـ.

- الرَّجَاجِي، أبو القاسم عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَق النُّهَاجِي (ت 337هـ)، **حروف المعاني والصفات**، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 1 1984م.
- الزَّحِيلِي، وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط 2 1418هـ.
- الزَّرْكَلِي، خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس (ت 1396هـ)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط 15، 2002م.
- الزُّرْقَانِي، مُحَمَّد عبد العظيم (ت 1367هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 3، (د. ت).
- الزَّرْكَشِي، أبو عبدالله بدر الدِّين مُحَمَّد بن عبدالله بن بهادر (ت 794هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، ط 1 1376هـ.
- الزَّمْخَشَرِي، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 3، 1407هـ.
- الزَّمْخَشَرِي، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، **المفصل في صنعة الإعراب**، تحقيق د. علي بو ملح، مكتبة الهلال - بيروت، ط 1 1993م.
- ابن أبي زمنين، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن عيسى (ت 399هـ)، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق أبي عبدالله حسين بن عكاشة ومُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة - مصر - القاهرة، ط 1 1423هـ.
- أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي، (د. ت).
- أبو زهرة، مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، (د. ت).
- الزِّيَات، أحمد حسن وآخرون، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استنبول - تركيا، ط 2 1392.
- السامرائي، فاضل صالح، **معاني النَّحْو**، دار الفكر، الأردن - عمان، ط 5 1432هـ.
- السبتي، خالد بن عثمان، **مختصر في قواعد التفسير**، دار ابن القيم - دار ابن عفان، ط 1 1426هـ.

- السُّبكي، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقيِّ الدِّين (ت 771هـ)، معيد النِّعم ومبيد النِّقم، تحقيق مُحَمَّد النجار، وأبي زيد شلبي، ومُحَمَّد أبو العيون، طبع بدار الكتاب العربي بمصر - القاهرة، ط1 1948م.
- السُّبكي، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقيِّ الدِّين (ت 771هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلميَّة، ط1 1411هـ.
- السجستاني، أبو بكر مُحَمَّد بن عُزير (ت 330هـ)، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، تحقيق مُحَمَّد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة - سوريا، ط1 1416هـ.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق (ت 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة، صيدا - بيروت، (د. ت).
- السَّراج، مُحَمَّد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النَّحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة خير الدِّين شمسى باشا، دار الفكر - دمشق، ط1 1403هـ.
- السعدي، عبد الرَّحْمَن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ)، تيسير الكريم الرَّحْمَن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرَّحْمَن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1 1420هـ.
- أبو السعود، العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (ت 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د. ت).
- السَّكَّاكي، يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد (ت 626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه، وكتب هوامشه، وعلَّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط2 1407هـ.
- ابن سَلَّام، أبو عبد الله مُحَمَّد بن سَلَّام بن عبيد الله الجمحي، (ت 232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني - جدة، (د. ت).
- السِّلْمي، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى الأزدي (ت 412هـ)، تفسير السِّلْمي وهو حقائق التفسير، تحقيق سيِّد عمران، دار الكتب العلميَّة، لبنان - بيروت، 1421هـ.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن أحمد بن إبراهيم (ت 375هـ)، تفسير السمرقندي المسمَّى (بحر العلوم)، تحقيق، وتعليق علي مُحَمَّد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النُّوتي، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط1 1413هـ.

- السَّمْعَانِي، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار (ت 489هـ)، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض - السُّعُودِيَّة، ط 1 1418هـ.
- السَّمِينِ الحَلْبِيِّ، أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بن يوسف بن عبد الدَّائم (ت 756هـ)، الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد مُحَمَّد الخَرَّاط، دار القلم - دمشق، (د. ت).
- السُّنَيْكِي، زين الدِّين أبو يحيى زكريَّا بن مُحَمَّد بن أحمد بن زكريَّا (ت 926هـ)، فتح الرَّحْمَن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط 1 1403هـ.
- سَبِيوِيَه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت 180هـ)، الكتاب، تحقيق عبدالسلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3 1408هـ.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 458هـ)، المُخَصَّص، تحقيق خليل إبراهيم جفَّال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1 1417هـ.
- السِّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت 368هـ)، أخبار النَّحْوِيِّين البصريِّين، تحقيق طه الزُّينِي، ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، النَّاشِر مصطفى الحلبي، ط 1 1373هـ.
- السُّيُوطِي، جلال الدين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، المزهَر في علوم اللُّغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط 1 1418هـ..
- السُّيُوطِي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، الإكليل في استنباط التنزيل، تحقيق سيف الدِّين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط 1 1401هـ.
- السُّيُوطِي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، عُفُودُ الجُمَانِ في علم المعاني والبيان، تحقيق وضبط عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم، القاهرة، ط 1 1433هـ.
- السُّيُوطِي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن ابن أبي بكر (ت 911هـ)، سبب وضع علم العَرَبِيَّة، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، بيروت - دمشق، ط 1 1409هـ.
- السُّيُوطِي، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ) تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1 1425هـ.
- السُّيُوطِي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيَّة - مصر، (د. ت).

- السُّيُوطِي، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت911هـ)، طبقات المفسِّرين العشرين، تحقيق علي مُحمَّد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة، ط1 1396هـ.
- السُّيُوطِي، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت911هـ)، نواهد الأبحار وشوارد الأفكار (حاشية السُّيُوطِي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدِّين - المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، 1424هـ.
- السُّيُوطِي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مُحمَّد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1394هـ.
- الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط17، (د. ت).
- الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط17 1412هـ.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن مُحمَّد اللخمي الغرناطي (ت 790هـ)، الموافقات، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفَّان، ط1 1417هـ.
- الشَّاطِبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المقاصد الشَّافِية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق مجموعة من المحقِّقين، معهد البحوث العلميَّة إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى - مَكَّة المُكرَّمة، ط1 1428هـ.
- الشَّافِعي، أبو عبد الله مُحمَّد بن إدريس (ت204هـ)، الرِّسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي - مصر، ط1 1358هـ.
- الشَّبلي، أبو عبد الله، بدر الدِّين ابن تقي الدِّين مُحمَّد بن عبد الله (ت 769هـ)، آكام المرجان في أحكام الجان، تحقيق إبراهيم مُحمَّد الجمل، مكتبة القرآن، مصر - القاهرة، (د. ت).
- ابن الشَّجْري، ضياء الدِّين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت 542هـ)، أمالي ابن الشَّجْري، تحقيق د. محمود مُحمَّد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1 1413هـ.
- الشَّدِّي، عادل بن علي بن أحمد، مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، دار الوطن للنشر والتوزيع - السُّعُوديَّة - الرِّياض، ط1، (د. ت).

- الشربيني، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ط 1285هـ.
- وشرف الدين، جعفر، الموسوعة القرآنية، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط 1420هـ.
- الشريف الرضي، مُحَمَّد بن الحسين بن موسى (ت 406هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق الدكتور علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، (د. ت).
- الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ)، تفسير الشعراوي - خواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (ت 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، 1415هـ.
- الشنقيطي، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر (ت 1393هـ)، الغدبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنَقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، تحقيق خالد بن عثمان السبت، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مَكَّة الْمُكْرَمَة، ط 2 1426هـ.
- شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام (ت 1426هـ)، المدارس النَّحْوِيَّة، دار المعارف، (د. ت).
- الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله (ت 1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط 1 1414هـ.
- ابن أبي شيبه، أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 235هـ)، المصنّف في الحديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرّياض، ط 1 1409هـ.
- الصابوني، مُحَمَّد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان - بيروت، ط 3 1400هـ.
- الصّاعدي، عبد الرزاق بن فراج، أصول علم العربيّة في المدينة، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط 28، العددان 105-106، 1417هـ - 1418هـ.
- صافي، محمود بن عبدالرحيم (ت 1376هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، ط 4 1418هـ.

- صالح، عبد علي حسن، **النحو العربي - منهج في التعليم الذاتي**، دار الفكر، الأردن - عمان، ط1 2001م.
- ابن الصائغ، مُحَمَّد بن حسن بن سباع (ت 720هـ)، **اللمحة في شرح الملحة**، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة - المملكة العربية السعودية، ط1 1424هـ.
- الصبّان، أبو العرفان مُحَمَّد بن علي (ت 1206هـ)، **حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1417هـ.
- الصعدي، عبد المتعال (ت 1391هـ)، **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، مكتبة الآداب، ط17 1426هـ.
- الصعدي، عبد المتعال، **البلاغة العالية (علم المعاني)**، قدّم له، وراجعه عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ومطبعتها، ط2 1991م.
- الصّفي، صلاح الدّين خليل بن أيك (ت 764هـ)، **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق د. علي أبي زيد، وآخرون، قدّم له مازن عبد القادر المبارك دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط1 1418هـ.
- ابن أبي الصلّت، أمية بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة (ت نحو 8هـ)، **ديوان أمية بن أبي الصلّت**، جمعه وحققه وشرحه الدكتور سجيح جميل الجبيلي، دار صادر بيروت - لبنان، ط1 1998.
- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني (ت 211هـ)، **تفسير عبد الرزاق**، دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 1419هـ.
- الطالب، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الملقب بالمؤيد بالله (ت 745هـ)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، المكتبة العنصرية - بيروت، ط1 1423 هـ.
- طبانة، بدوي، **دراسات في نقد الأدب العربي**، المطبعة الفنية الحديثة، ط5، 1969م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360هـ)، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2، (د. ت).

- الطبري، أو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يزيد (ت310هـ)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1 1420هـ.
- الطبطائي، عبد المحسن أحمد (2001م)، تعدد التوجيه النحوي عند الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن. رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، القاهرة.
- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة (ت321هـ)، أحكام القرآن الكريم، تحقيق الدكتور سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامي، ط1 (م1 1416هـ، م2 1418هـ).
- طنطاوي، مُحَمَّد سيد (ت1431هـ)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار النهضة، مصر - الفجالة- القاهرة، ط1 1997م.
- الطنطاوي، مُحَمَّد كُبَيْشَة (ت1379هـ)، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تحقيق أبي مُحَمَّد عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط1 1426هـ.
- الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير، تقديم د. مُحَمَّد بن صالح الفوزان دار ابن الجوزي، ط3 1420هـ.
- الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1 1432هـ.
- الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط2 1427هـ.
- أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت351هـ)، مراتب النحويين، حققه، وعلّق عليه مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة - القاهرة، (د. ت).
- ابن عابدين، مُحَمَّد أمين بن عمر (ت1252هـ)، ردّ المحتار على الدر المختار، دار الفكر - بيروت، ط2 1412هـ.
- ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت775هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان، ط1 1419هـ.
- ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد (ت1393هـ)، التّحرير والتّوير (تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدّار التّونسيّة للنّشر - تونس، 1984م.

- ابن عاشور، مُحَمَّد الفاضل بن مُحَمَّد الطاهر (ت1390هـ)، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، السَّنة الثانية - الكتاب الثالث عشر، سنة 1390هـ.
- ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضَّحَّاك (ت287هـ)، الأحاد والمثاني، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الولاية - الرياض، ط1 1411هـ.
- ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحَّاك بن مخلد الشيباني (ت 287هـ)، السَّنة، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدَّين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط1 1400هـ.
- العايد، سليمان بن إبراهيم بن مُحَمَّد، عناية المسلمين باللُّغة العربيَّة خدمة للقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د. ت).
- العبادي، عدي بن زيد (ت 587م - 35 ق.هـ)، ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق وجمع مُحَمَّد جبار المعبيد، وزارة الثقافة والإرشاد (سلسلة كتب التراث)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع - بغداد، ط 1965م.
- ابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت 68هـ)، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدَّين أبو الطاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ)، دار الكتب العلميَّة - لبنان، (د. ت).
- عبد الحميد، مُحَمَّد محيي الدَّين (ت1392هـ)، التَّحفة السَّنيَّة بشرح المقدِّمة الآجرومية، المكتبة العصريَّة، صيدا - بيروت، 1416هـ.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى النُّيمي البصري (ت 209هـ)، مجاز القرآن، تحقيق مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط 1381هـ.
- العنَّابي، هاني كنهز عبد زيد (2013م)، ابن مالك النَّحوي في تفاسير القرآن الكريم. رسالة ماجستير، جامعة واسط.
- عتر، حسن ضياء الدَّين (ت1432هـ)، بيَّات المعجزة الخالدة، دار النصر، حلب، ط1 1975م.
- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم (الفاحة - البقرة)، دار ابن الجوزي - المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، ط1 1423هـ.
- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم الكهف، دار ابن الجوزي، المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، ط1 1423هـ.

- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ مُحَمَّد ابن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، دار الوطن - دار الثريا، ط الأخيرة 1413هـ.
- العجاج، عبد الله بن روبة بن لبيد بن صخر (ت نحو 90هـ)، ديوان العجاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه)، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السلطي، مكتبة الدكتور مروان العطية، المطبعة التعاونية بدمشق 1971.
- العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، علامة الشام عبدالقادر بن بدران الدمشقي حياته وآثاره، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط 1 1417هـ.
- العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، علامة الكويت الشيخ عبد الله الخلف الدحيان حياته ومراسلاته العلمية وآثاره، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، 1415هـ.
- ابن العربي، القاضي مُحَمَّد بن عبد الله أبو بكر (ت 543هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله، وخرَج أحاديثه، وعلَّق عليه مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3 1424هـ.
- ابن أبي العز، صدر الدين مُحَمَّد بن علاء الدين علي بن مُحَمَّد (ت 792هـ)، تفسير ابن أبي العز، جمع ودراسة شايع بن عبده بن شايع الأسمری، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط 1 1423هـ.
- ابن عطية، أبو مُحَمَّد عبدالحق بن غالب بن عبدالرَّحْمَن (ت 542هـ)، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1 1422هـ.
- ابن عقيل، عبدالله بن عبد الرَّحْمَن (ت 769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد محيي الدین عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، ط 20 1400 هـ.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ)، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق د. عبد الإله النبهان، دار الفكر - دمشق، ط 1 1416هـ.
- العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله (ت 616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي بن مُحَمَّد البجّاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د. ت).
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت 1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1 1429هـ.

- أبو عمر القرطبي، يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد (ت 463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي مُحَمَّد البجّاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1 1412هـ.
- العيني، أبو مُحَمَّد محمود بن أحمد (ت 855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د. ت).
- الغزنوي، أبو القاسم مُحَمَّد بن أبي الحسين علي بن الحسين النيسابوري (ت 553هـ)، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، تحقيق سعاد بنت صالح، جامعة أم القرى - مَكَّة الْمُكْرَمَة، 1419هـ.
- الغلابيني، مصطفى بن مُحَمَّد سليم (ت 1364هـ)، جامع الدروس العَرَبِيَّة، المكتبة العصريَّة، صيدا - بيروت، ط 28 1414هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر مُحَمَّد علي بيضون، ط 1 1418هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 2 1406هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، 1399هـ.
- فاضل، مُحَمَّد نديم، التّصْمِين النَّحْوِي فِي الْقُرْآن الْكَرِيم، (أصل الكتاب: أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم)، دار الزمان، المدينة المنورة - المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط 1 1426هـ.
- الفراء، أبو يعلى مُحَمَّد بن الحسين (ت 458هـ)، إبطال التأويلات لأخبار الصفات، تحقيق أبي عبد الله مُحَمَّد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت - الجھراء، (د. ت).
- الفراهي، عبد الحميد الهندي (ت 1349هـ)، مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، تحقيق د. مُحَمَّد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط 1 2002م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، الجمل في النُّحو، تحقيق د. فخر الدِّين قباوة، ط 5 1416هـ.
- الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د. ت).

- الفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب (ت 817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (ج 4 1412هـ، ج 2 1416).
- القاسمي، مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد (ت 1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط 1 1418هـ.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الأسدي (ت 851هـ)، طبقات الشافعية، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت، ط 1 1407هـ.
- القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 1 1419هـ.
- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، تأويل مختلف الحديث، المكتب الإسلامي - مؤسسة الإشراف، ط 2 1419هـ.
- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، غريب القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، 1398هـ.
- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، عُيُونُ الْأَخْبَارِ، شرحه وضبطه د. يوسف الطويل، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان ط 3 1424هـ.
- القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت 684هـ)، الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، الناشر عالم الكتب، (د. ت).
- القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة - القاهرة، ط 1 1415هـ.
- القرطبي، أبو الوليد مُحَمَّد بن أحمد بن رشد (ت 520هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل مستخرجة، تحقيق د. مُحَمَّد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2 1408هـ.
- القرطبي، أبو عباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت 656هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محيي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط 1 1417هـ.

- القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2 1384هـ.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت465هـ)، **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط3، (د.ت).
- القصاب، أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكَرْجِي (ت نحو 360هـ)، **النُّكْت الدَّالَّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**، تحقيق إبراهيم بن منصور الجنيدل، دار القيم - دار ابن عفَّان، ط1 1424هـ.
- القطَّان، مناع بن خليل (ت1420هـ)، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3 1421هـ.
- الفَنَّوْجِي، أبو الطيب مُحَمَّد صَدِّيق خان بن حسن بن علي (ت1307هـ)، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، عناية عبدالله بن إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت 1412هـ.
- ابن القيم، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر ابن أيوب(ت751هـ)، **بدائع الفوائد**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ابن القيم، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **مختصر الصواعق المرسلَة على الجهميَّة والمعطلَّة**، اختصره ابن الموصلِي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن الموصلِي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم (ت 774هـ)، تحقيق سيّد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة - مصر، ط1 1422هـ.
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **إغاثة اللفهان من مصادب الشيطان**، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربيَّة السُّعُودِيَّة، (د.ت).
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **الطب النبوي**، دار الهلال - بيروت، (د.ت).
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27 1415هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، **طبقات الشافعيين**، تحقيق د. أحمد عمر هاشم، د. مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عزب، مكتبة الثقافة الدِّينية، 1413هـ.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي ابن مُحَمَّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2 1420هـ.
- الكرمانى، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر (ت نحو 505هـ)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، (د. ت).
- الكفوي، أيوب بن موسى (ت 1094هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفرق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، (د. ت).
- اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى، والثانية، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع - الرياض، (د. ت).
- الماتريدي، أبو منصور مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن محمود (ت 333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط 1 1426هـ.
- المازري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن عمر التميمي (ت 536هـ)، المُعَلِّمُ بفوائد مسلم، تحقيق فضيلة الشيخ مُحَمَّد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط 2 1988م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م.
- ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، ألفية ابن مالك، دار التعاون، (د. ت).
- ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق د. عبد الرَّحْمَن السيد، د. مُحَمَّد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط 1 1410هـ.
- ابن مالك، مُحَمَّد بن عبدالله (ت 672هـ)، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق مُحَمَّد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ.
- المبرّد، أبو العبّاس مُحَمَّد بن يزيد (ت 285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3 1417هـ.
- المبرّد، أبو العبّاس مُحَمَّد بن يزيد (ت 285هـ)، الفاضل، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 3 1421هـ.
- محمود، منيع بن عبد الحليم (ت 1430هـ). مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 2000م.

- مراد، وليد مُحَمَّد، نظرية النظم وقيمتها العالية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجُرْجَانِي، دار الفكر، ط1، 1983م.
- المرادي، أبو مُحَمَّد بدر الدِّين حسن بن قاسم (ت749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدِّين قباوة والأستاذ مُحَمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط1، 1413هـ.
- المراغي، أحمد بن مصطفى (ت1371هـ)، علوم البلاغة (البيان، المعاني البديع)، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط3 1414هـ.
- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر بن حجر (ت نحو 544م - 80ق. هـ)، ديوان امرئ القيس، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط5، القسم الأول رواية الأصمعي من نسخة الأعلم، (د. ت).
- مرتضى الزبيدي، أبو الفيض مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق الحسيني (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت 1400هـ.
- ابن المرزبان، أبو مُحَمَّد عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد بن دُرُسْتَوَيْه (ت347هـ)، تصحيح الفصح وشرحه، تحقيق د. مُحَمَّد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، 1419هـ.
- المرزباني، الإمام أبو عبيد الله مُحَمَّد بن عمران (ت384هـ)، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان، ط2 1402هـ.
- المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن (ت421هـ)، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1 1417هـ.
- مطرجي، عرفان، الجامع لفنون اللغة العربيَّة والعروض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1 1407هـ.
- المطعني، عبد العظيم إبراهيم مُحَمَّد (ت1429هـ)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط1 1413هـ.
- المظهري، مُحَمَّد ثناء الله (ت1225هـ)، التفسير المظهري، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدِيَّة، باكستان، ط 1412هـ.
- مغالسة، محمود حسني، النَّحْو الشافي الشامل، دار المسيرة، عمَّان، ط1 1427هـ.

- مكي، أبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب حَمَوْش بن مُحَمَّد (ت 437 هـ)، مُشكِل إعراب القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط 2 1405 هـ.
- ابن المنذر، أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 319 هـ)، كتاب تفسير القرآن، قدم له الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حَقَّقَه، وعلَّق عليه الدكتور سعد بن مُحَمَّد السعد، دار المآثر - المدينة النبويَّة، ط 1 1423 هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط 3 1414 هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ)، نثار الأزهار في الليل والنهار، مطبعة الجوانب، قسطنطينية، ط 1 1298 هـ.
- ابن المنير، ناصر الدين أحمد بن مُحَمَّد الإسكندري (ت 683 هـ)، الانتصاف فيما تضمَّنه الكشاف، وهو مذيَّل في الحاشية من كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 3، 1407 هـ.
- المنيراوي، هديل مُحَمَّد عطية (2009م). أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن " دراسة تطبيقية في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء ". رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة.
- أبو موسى، مُحَمَّد مُحَمَّد، خصائص التراكمات دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط 7، (د. ت).
- النابغة الجعدي، أبو ليلي عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة (ت نحو 50 هـ)، ديوان النابغة الجعدي، جمعه، وحَقَّقَه، وشرحه د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط 1 1998م.
- النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب (ت نحو 18 ق هـ)، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3 1416.
- الناصري، مُحَمَّد المكي (ت 1414 هـ)، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1 1405 هـ.
- ابن النَّاطم، أبو عبد الله بدر الدِّين مُحَمَّد ابن الإمام جمال الدِّين مُحَمَّد بن مالك (ت 686 هـ)، شرح ابن النَّاطم على ألفية ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت - لبنان ط 1 1420 هـ.

- النَّجَّار، مُحَمَّدٌ عبد العزيز، ضياء السَّالِكِ إِلَى أَوْضَحِ الْمَسَالِكِ، مؤسسة الرسالة، ط 1 1422 هـ.
- النَّحَّاس، أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ (ت 338 هـ)، معاني القرآن، تحقيق مُحَمَّدٌ علي الصَّابُونِي، جامعة أم القرى - مَكَّة الْمُكْرَمَة، ط 1 1409 هـ.
- النَّحَّاس، أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ إِسْمَاعِيلَ (ت 338 هـ)، إعراب القرآن، علَّق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميَّة - بيروت، ط 1 1421 هـ.
- ابن النديم، أبو الفرج مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقَ، (ت 438 هـ)، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط 2 1417 هـ.
- النَّسَائِي، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحْمَدُ بْنُ شَعِيبِ بْنِ عَلِيٍّ (ت 303 هـ) المجتبي من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط 2 1406 هـ.
- والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (ت 710 هـ)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بدوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1 1419 هـ.
- النَّمَلَة، عبد الكريم بن علي بن مُحَمَّدٍ، المَهْدَبُ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ الْمُقَارِنِ، مكتبة الرُّشد - الرِّياض، ط 1 1420 هـ.
- النَّمِيرِي، أَبُو حَيَّةِ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ (ت 183 هـ)، شعر أبي حَيَّةِ النَّمِيرِي، جمعه وحقَّقه الدكتور يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975 م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد (ت 1379 هـ)، إشارات الإعجاز في مِظَانِ الْإِيجَازِ، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر - القاهرة، ط 3 2002 م.
- النَّوَوِي، أَبُو زَكَرِيَّا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ شَرَفٍ (ت 676 هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 2 1392 هـ.
- النَّوِيرِي، شهاب الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ مُحَمَّدٍ (ت 733 هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميَّة، القاهرة، ط 1 1423 هـ.
- والنيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحقيق مجموعة من المحققين، دار الجيل - بيروت، الطبعة : مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة 1334 هـ.

- النيسابوري، نجم الدين أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (ت نحو 550هـ)، إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1 1415هـ.

- النيسابوري، نظام الدين الحسين بن محمد الحسين القمي (ت 850 هـ)، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 1416 هـ.

- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط، وتدقيق، وتوثيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، (د. ت).

- الهرمزي، عمر بن عيسى بن إسماعيل (ت 702هـ)، المحرر في النحو، تحقيق أ. د. منصور علي محمد عبد السميع، دار السلام، مصر - القاهرة - الإسكندرية، ط2 1429هـ.

- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، (د. ت).

- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع - القاهرة، ط11 1383هـ.

- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط 1424هـ.

- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت 213هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2 1375هـ.

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، الوجوه والنظائر، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1 1428هـ.

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، الصناعتين، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت 1419هـ.

- والهاللي، أبو أسامة سليم بن عيد، صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1 1429هـ.

- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد (ت 468هـ)، التفسير البسيط، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط 1 1430هـ.
- ياسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط 2 1419هـ.
- الإشكري، أبو سعد سويد بن أبي كاهل غطيف بن حارثة (ت نحو 60هـ)، ديوان سويد بن أبي كاهل الإشكري، جمع وتحقيق شاكر العاشور، مراجعة مُحَمَّد جبار المعبيد، دار الطباعة الحديثة، بصره - عراق، ط 1 1972م.
- يعقوب، إميل بديع، المعجم المفصل في شواهد العربية، دار الكتب العلمية، ط 1 1417هـ.
- اليعقوب، عبد الله بن يوسف بن عيسى، المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف، مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، ط 3 1428هـ.
- ابن أبي يعلى، أبو الحسين مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 526هـ)، طبقات الحنابلة، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت، (د. ت).
- ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا (ت 643هـ)، شرح المفصل للزمخشري، قدّم له د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1422.
- اليماني، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ت 1386هـ)، مجموع رسائل التفسير، تحقيق مُحَمَّد أجمل الإصلاحي، دار علم الفوائد، ط 1 1434هـ.
- ابن يونس، أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصّدي (ت 347 هـ)، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 1421 هـ.